

الفصل السابع

آداب الداعى

قد عرفت أن الدعوة إلى الله في الأصل عمل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأن السادة العلماء نواب عن الأنبياء في هذا الأمر الخطير فهم أمناء الله تعالى على شرعه والحافظون لدينه القويم ، والقائمون على حدود الله ، والعارفون بما يجب له تعالى من كمال وتنزيه .

لذلك كانوا أئمة الناس وقادة الخلق يسيرون بهم نحو السعادة بما يعلمونهم من أمور دينهم وبما يرشدونهم إليه من التحلى بالفضيلة والتخلى عن الرذيلة ، اعتقد الناس فيهم ذلك وأملوهم له . فأحلّوهم من أنفسهم محلاً لم يبلغه سواهم من البشر حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانة يغبطون عليها وربحوا منزلة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل ، وناهيك بقوم إذا فعلوا لحظتهم العيون ، وإذا قالوا صغت إليهم الآذان ووعت القلوب وحكت الأنسنة . فهم مطمح الأنظار وموضع الثقة ، والحجة البالغة ، والبرهان القاطع ، والنور الساطع للناس أجمعين « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » دعا إلى توحيده وطاعته وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه واتخذ الإسلام ديناً ونحلة^(١) .

حقاً ليس أحد أعظم شأنًا وأسعد حالاً ممن جمع بين هذه الفضائل الثلاث فكان موحداً لله تعالى ، عارفاً به عاملاً بالخير داعياً إليه وما هم إلا طبقة العاملين العاملين الدعاة إلى الله عز وجل ، من ذوى القلوب الحية ، والإيمان الصادق والإخلاص الصحيح .

ولا ريب أن الله تعالى ربط سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة بالوقوف عند

(١) والآية تشير إلى أنه ينبغي للداعى أن يكون صحيحاً في دينه مهذباً مستقيماً عاملاً بعلمه ليكون الناس إليه أسكن وإلى قبول دعوته أقرب .

حدوده — وامتنال أوامره — واجتناب نواهيه — وأنه بمقدار وقوف العبد عند حد الأدب مع مولاه يكون حظه من تلك السعادة — وغنى عن البيان أن السادة العلماء قد انغردوا بفهم الأوامر والنواهي ، ومنهم وحدهم يتعاملها سائر الناس . وأنه بقدر قيام العلماء على حدود الله واتباعهم الأوامر واجتنابهم النواهي يكون اتباع الأمة واجتنابها فاذن سعادة الأمة في قبضة السادة العلماء إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس — ومن هنا كانت وظيفتهم خطيرة ومسئوليتهم عظيمة ، وتزداد وظيفتهم خطراً ومسئوليتهم عظماً إذا هم تصدوا للدعوة والإرشاد ، لهذا وجب أن تتوافر في الداعي إلى الله تعالى الصفات الآتية .

الصفة الأولى

إن أول واجب على الداعي العلم بالقرآن والمراد به النظر فيه قبل كل شيء إلى كونه هدى وموعظة وعبرة . وكذلك السنة ، وما صح من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح ، وبالقدر الكافي من الأحكام ، وأسرار التشريع مع الصدق في نشرها ؛ فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تكن إلا لمن اتصف بالعلم مع الصدق ، والمرشد وارث لهذه المرتبة . وليتمكن من تعليم ذلك على الوجه الصحيح فلا يزيع في عقيدة ، ولا يخطئ في حكم ، ولا يعجز عن إقناع النفوس المتطلعة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية ؛ فيكون الأذعان له أتم ، والقبول منه أكمل — فأما الجاهل فضال مضل وضره أقرب من نفعه ، وما يفسده أكثر مما يصلحه . بل لا يصلح أصلاً إذ لا تمييز لجاهل بين الحق والباطل ولا معرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس . قال الحسن البصري رحمه الله : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ، والعامل على غير ما يفسد أكثر مما يصلح . وفي الحكم : « من سلك طريقاً بغير دليل ضل ومن تمسك بغير أصل زل » ، وأما الكاذب فلا خير فيه ولعنة الله على الكاذبين . لهذا حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم وجعله من أخفش الكبائر فقال تعالى :

« قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله وفى دينه وشرعه . وقال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ؛ متاع قليل ولهم عذاب أليم » . فقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه فى أحكامه ، وقولهم فى شأن ما لم يحله هذا حلال ، وفى شأن ما لم يحرمه هذا حرام . وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام . إلا بما علم أن الله تعالى أحله أو حرمه .

وأصل الآية صد للعرب عن بدع الجاهلية ومذاهبهم الباطلة التى كانوا عليها بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إناعامه بذلك . ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان رسله . والكذب منصوب بلا تقولوا وهذا حلال وهذا حرام بدل منه واللام بمعنى فى وما موصولة — والمعنى ولا تقولوا الكذب فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم : « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » . من غير استناد ذلك الوصف إلى شرع — وهو تشريع عام لجميع المكلفين فى كل ما يتعلق به الحكم بالحل والحرمة إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فحق المرشد أن يدع التكلف لما لا يحسن فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى إليها ولا حد يقف عنده ، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل — وقد روى عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » ، وقال بعض الحكماء : من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم .

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . روى أن رجلاً قال : يا رسول الله أي البقاع خير وأي البقاع شر؟ فقال : « لا أدري حتى أسأل جبريل » . روى من عدة طرق . وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه « من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم » ، وقال سيدنا علي رضي الله عنه : وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وأن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله . أي هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء ليس لي من فضيلة العلم إلا علمي بآني لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدري عُلم فذري . ومن انتحل ما لا يدري أهمل فهو : اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن إنك الجواد الكريم .

الصفة الثانية

العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به ، ولا ينهى عن الشيء ما لم يكن هو أول تارك له ليفيد وعظه ويشمر إرشاده . فأما إن كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه فهو بحاله هذه عقبة في سبيل الإصلاح ، وهيئات هيئات أن ينتفع به فإنه فاقد الرشد في نفسه فكيف يرشد غيره . قال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ؛ فإن من حث على التحلي بفضيلة وهو عاطل منها ، أو أمر بالتخلي عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال بل يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية في نظر العقلاء : فإن من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه واستهزؤا به واتهموه في دينه وعلمه وورعه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه

فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به . كذلك الداعي إذا خالف فعله قوله . أما الاثثار بما سيأمرهم به أولاً والتخلق بما يدعو إليه فهو أوقع في نفوس السامعين وأقرب إلى إذعان الراغبين . ولذا كان بعض الدعاة لا يذكر لهم في فضائل العتق حتى أمكنه الله تعالى من شراء رقيق فأعتقه فذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير في قلوبهم . ومن لم يكابد الليل وسهره وقيامه فكيف يُسمع منه فضل من أقامه وأحياء — لما عرفت أن الدعوة إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق تربية ، والتربية النافعة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة والأسوة الحسنة لا بمجرد القول يرشدك إلى هذا حديث الحلق في الحديدية فإن الصحابة رضی الله عنهم لم يمتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم به حتى خلق هو أولاً فاقتدوا بفعله أجمعين . وهذا سر عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فالداعي من المدعو يجري مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع نحو الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به كذلك محال أن يحصل في نفس المدعو ما ليس بموجود من الداعي فإذا لم يكن الداعي إلا ذا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول — وأيضاً — فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل فكما أنه محال أن يعوج العود ويستقيم الظل كذلك محال أن يعوج المرشد ويستقيم المسترشدون — قال حجة الإسلام الغزالي رحمة الله تعالى عليه فيما كتبه إلى أبي حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفساً أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره . ومتى يستقيم الظل والعود أعوج . ولذا قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ابداً بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهنالك يُسمع ما تقول ويُسْتَفَى بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب

أفلا تعقلون » فهذا توبيخ لأحبار اليهود على سيرتهم المعوجة في الإرشاد فإنه لا شك أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول إذ المقصود من أمر الناس بها إما النصيحة أو الشفقة وليس من العقل أن ينصح الإنسان للغير أو يشفق عليه ويهمل نفسه ، فحذرهم الله تعالى من ذلك بأن قرعهم بهذا القول وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » تعجيب للعقلاء من هذا المسلك المعيب وللتعجيب وجوه .

منها أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى الخير وتحذيره من الشر وإرشاد النفس إليه وتحذيرها منه مقدم بشواهد العقل والنقل أما العقل فبديهى . وأما النقل فكثيرة ، منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح : « رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً » وعن سيدنا إبراهيم : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا و تقبل دعاء . ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب فمن وعظ غيره ولم يتعظ فكأنه أتى بما لا يقبله العقل السليم ولهذا قال أفلا تعقلون .

ومنها أن هذا الوعظ يصير سبباً للمعصية لأن الناس يقولون : لولا أن هذا الواعظ مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات لما أقدم على المناهى فيكون داعياً لهم إلى التهاون بالدين والجراة على المعاصى وهذا مناف للغرض من الوعظ فلا يليق بالعقلاء .

ومنها أن غرض الداعى ترويح كلامه وتنفيذ مرامه فلو خالف إلى ما نهى عنه صار كلامه بمعزل عن القبول وهذا تناقض لا يليق بالعقلاء ، وفي مثل هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لاتسمعوا منهم ، فلو كان مادعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق .

فالآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره

وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الذي لا عقل له فإن أمر الغير بالخير مع حرمان النفس منه مما لا يتفق وقضية العقل — والمراد بها حثه على تركية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتكمل غيرها . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » فهذا وعيد شديد من الله لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو في نفسه مقصر كمن يكذب في قوله أو يخلف ما وعد . وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية » . متفق عليه — تندلق بالدال المهملة تخرج . والأفتاب الأمعاء واحدها قتب بكسر فسكون وفيه تغليظ العقاب للمرشد الذى يخالف فعله قوله . وعن أنس رضى الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ليلة أسرى بنى رجلاً تقرض شقاهم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » رواه ابن حبان في صحيحه . وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم وأنه قدوة فيزل بزلاته كثيرون ولذا قيل : زلة العالم زلة العالم في الخبر « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . وذلك أن أتباعهم اقتدوا بهم في السوء فلزم أن ينالهم مثل عقاب أتباعهم . قال تعالى : « ولا يحملن أثقالهم مع أثقالهم » وجملة الأمر أن من فتح لغيره باب الشر وسهل له الدخول فيه فقد عظم عذابه ، وكذلك من دعا غيره إلى خير وأمره بالمعروف وسهل له طريقه فقد عظم قدره وحسن جزاؤه عند الله تعالى » أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل الثميلة نضىء للناس وتحرق

نفسها » رواه الطبراني في الكبير عن أبي برزة بسند حسن وقال أبو الدرداء :
« ويل للجاهل مرة وويل للعالم سبع مرات » ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه :
قسم ظهري رجالان عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم
يغرهم بتهتكه . وقال حكيم : أفسد الناس جاهل ناسك ، وعالم فاجر ، هذا يدعو
الناس إلى جهله بنسكه ، وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه .

وعلى الجملة فحق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ . ويبصر ثم يبصر . ويهتدى ثم
يهتدى ولا يكون دفترأ يفيد ولا يستفيد . ومسنأ يستعد ولا يقطع وسراجاً يضيء
للناس ويحرق نفسه . فمن الحكم الماثورة « مثل العالم الذي يعلم الناس وهو
غير عامل كشمعة موقودة تضيء للناس وتحرق نفسها . بل يكون كالشمس تفيد
القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده . كالنار تحمي الحديد ولها من الحنو أكثر مما تفيد .
وكالمسك بطيب غيره وهو طيب في نفسه . ويجب ألا ينقض مقالته بفعاله . ولا يكذب
لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله
في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » وبالله تعالى التوفيق .

الصفة الثالثة

الحلم وسعة الصدر : فكمال العلم في الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب فيستطيع
أن يعالج أمراض النفوس وهو هادئ النفس مطمئن القلب لا يستفز الغضب
ولا يستثيره الحق فتنفّر منه القلوب وتشمئز منه النفوس وحسبك في هذا قول الله تعالى
لإمام الداعين صلوات الله وسلامه عليه « ولو كنت فظاً غليظ القلب
لانفضوا من حولك » فلو كان الداعي سيئ الخلق جافياً قاسى القلب فأغلظ لهم
في القول تفرقوا عنه وانصرفوا من حوله فخرموا الهداية بأنوار دينهم فعاثوا وماتوا
جهلاء وذلك هو الشقاء وهو سببه وعقلته .

الصفة الرابعة

الشجاعة حتى لا يهاب احداً في الجهر بالحق ولا تأخذه في نصرة الله لومة لائم
ففي حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » متفق عليه . وعن
عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت
أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » رواه الحاكم وقال صحيح الأسناد
وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر الغفارى رضى الله عنه قال : أوصانى خليلي
بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف في الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن
كان مرأ . وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال
يرى أن الله عليه مقالا ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن
تقول في كذا وكذا ؟ فيقول خشيته الناس فيقول فيأبى كنت أحق أن تخشى » .
رواه ابن ماجه ورجاله ثقات . والمراد بالخشية فيه مجرد رهبتهم مع القدرة .

— فإن كان جباناً ضعيف القلب عجز عن الأخذ بناصر الحق وتغيير المنكر
وتقرب إلى الناس بأنواع المداينة وتودد إليهم بضروب الملق — وما هكذا تكون
الأطباء ولا اللائق بقيادة الأمم — الطيب الرحيم هو الذى إذا عرف نوع المرض
في أى شخص كان بادر إلى علاجه بما يستأنسه حرصاً على سلامة المريض وهو
لا يبالي بكرهه المريض للدواء وتألمه من العلاج . فأما إذا عمل لذلك حساباً وتساهل
مع المريض حتى استفحل أمر المرض واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض فإنه
غاش لا ناصح وسفيه لا حكيم .

والمداينة السكوت على المنكر لداعى الهوى لا الدين فإذا سكوت العلماء على .
المنكرات لداعى الدين كأن يكون في الإنكار محذور يزيد على محذور السكوت
سمى سكوتهم مداراة وهى مطلوبة شرعاً في الحديث المشهور . داروا سفهاءكم
— والملقى الود والالطف . وملقى من باب طرب ورجل مَلِيقٌ يعطى بلسانه ما ليس

في قلبه ، وَتَمَلَّقَهُ وَتَمَلَّقَ لَهُ تَمَلَّقَا وَتَمَلَّقَا بالكسر تودد إليه وتلطف له .
وعلى الداعى فى مقام الحجة على الخصم أن يذكر حجته خالية من السب والشتم
وأنواع الغلظة إذ لو اشتملت على شيء من هذا لجاز أن يقابل بمثله كما قال تعالى
« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » ويشدد الغضب
وتقع النفرة .

ويمتنع حصول المقصود من الدعوة — أما ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالى
عن السب والشتم والإيذاء فإنه يجذب القلوب ويستميل الطباع إلى قبول الدين الحق
والاستماع إلى النصيح . وبذلك يصل الداعى إلى المقصود ألا ترى قوله جل وعلا :
« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان
للإنسان عدوا مبينا ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك
عليهم وكىلا . » فإنه تعالى أمر المؤمنين على لسان سيد الداعين أن يقولوا عند
محاورتهم مع المشركين الكلمة التى هى أحسن ولا يخاشنهم كقوله تعالى « ولا تجادلوا
أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » ثم علل ذلك الأمر بأن الشيطان يفسد بينهم
ويُهَيِّج الشر والمراء ويُغْرِى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشادة وقد يفضى
ذلك إلى تأكيد العناد وتمادى الفساد . فإن الشيطان عدو قديم للإنسان ظاهر العداوة
يتنهاز القرص لإثارة الفتن — ومثال الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا لهم ربكم أعلم
بحالكم إن يرد الإحسان بكم أحسن إليكم بالتوفيق للإيمان وصالح العمل . أو إن يشأ
يعذبكم بالإماتة على أسوأ الأحوال . يقولون لهم مثل ذلك ولا يصرحوا بأنهم من أهل
النار وبئس القرار فإنه مما يشير الشر مع أن العاقبة لا يعلمها إلا الله وحده فيجوز أن
يحتّم لهم بخير — وما أرسلناك عليهم موكولا إليك أمورهم تكررهم على الإيمان
وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فلاطفهم ومر أصحابك والمؤمنين بالملاطفة والملاينة
ولا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم فى القول . والمقصود من كل هذا إظهار اللين
والرفق بهم فى مقام الدعوة إلى الله تعالى والإرشاد إلى الخير فإن ذلك أقرب إلى
النجاح وحصول المقصود .

الصفة الخامسة

العفة واليأس مما في أيدي الناس فمن يئس مما عند الناس استغنى عنهم فيبقى سيداً محبوباً جليلاً مهيباً ينتفع به — أما إن كان غير عفيف وتطلع إلى ما في أيدي الناس فقد باع دينه بدنياه وصار لديهم محترماً ممقوتاً ثقيلاً مردولاً ، وهان عليه كل ما يلاقيه من أنواع الذلة والإهانة في سبيل الحصول على ذلك الحطام القاني . وهذا بلا ريب هو السقوط الذي لا خلاص منه والفقير الذي لا غنى معه فمن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله أوصني وأوجز فقال : « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه » . رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصحح إسناده وقال أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله : لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه . وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيدكم ؟ قالوا الحسن . قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو دينارهم . فقال ما أحسن هذا .

وبالجملة فواجب الداعي نزاهة النفس عن شبه المكاسب . والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب . فإن شبه المكتسب إنم . وكذا الطلب ذل . والأجر أجدر به من الإنم . والعز أليق به من الذل . وما أحسن قول علي بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

يقولون فيك انقباض وإنما رأو رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرماً
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لى سلباً
وما كل برق لاح لى يستغزنى^(١) ولا كل من لاقيت أرضاه منعماً
إذا قيل هذا منهل^(٢) قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

(١) استغزى واستغنى وأخرجه من داره وأزججه .

(٢) مورد وهو عين ماء ترده الإبل في المراعى .

أنهيهما^(١) عن بعض مالا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم ابتذل^(٢) في خدمة العلم مهجتي لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا^(٣) محياه بالأطماع حتى تجهما^(٤)

على أن العلم عوض من كل ذلة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بداً منه . نسأل الله الكريم أن يغنيننا بفضله عن سواه .

الصفة السادسة

القناعة في الدنيا والرضا منها باليسير فإن كان حريصاً على الدنيا منهمكا في طلبها كانت حاله هذه داعية الترغيب في حبها « وحب الدنيا رأس كل خطيئة » وبذلك يكون مفسداً لامصلحاً وضاراً لنافعاً . وما هكذا تكون الدعاة إلى الله تعالى . كان محمد بن واسع البصري رحمه الله يبذل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . ولذا قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غمّاً الحسود وأهانهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفهم عيشاً أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وقال سفيان الثوري العالم طيب هذه الأمة والمال داؤها فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره ؟ والعيان أصدق شاهد على ذلك فإنك ترى أنه على قدر قناعة العلماء في الدنيا تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم والاستماع لنصائحهم والانقياد لإرشادهم

(١) نهيه عن الأمر فتنه كفه وزجره فكف . (٢) الابتذال ضد الصيانة والبذلة بالسكسر مالا يمان من الثياب والمهجة الروح . (٣) الدنس محركة الوسخ دنس الثوب والعرض والخلق كفرح دنس دناسة . و دنس اتسخ و دنس ثوبه وعرضه تدينساً فعل مايشينه به . (٤) رجل جهم الوجه كالج الوجه وجهه كمنه لقيه بوجه كالج كتهجمه أو جهم كسهل صار بأسر الوجه أى كالج والجهام بالفتح السحاب الذى لاماء فيه .

وعلى قدر تعلق العلماء بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعدم الثقة بهم واتهامهم والنفرة منهم فلا يسمعون لهم قولاً ولا يقبلون منهم نصيحة .

الصفة السابعة

قوة البيان وفصاحة اللسان وإلا كان النفع بعيداً بل كان مثال الخزى والعار على الإرشاد وأهله فإن مدار الأمر على البيان والتبيين والإفهام والتفهيم . وكلما كان اللسان أبين كان أقوى وأجل . كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد وأكمل . وقد سألتها موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والافصاح عن أدلته . فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه ، والحبسة التي كانت في بيانه (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) الحبسة بالضم تعذر الكلام عند إرادته . وقال : (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني) وقال (ويضيق صدري ولا ينطلق لساني) رغبة منه عليه السلام في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة . لتكون الأعناق إليه أميل . والعقول عنه أفهم . والنفوس إليه أسرع . فان خصمه فرعون كان مشاغباً سباباً مذهب كل جاحد معاند . وشأن كل مختال مكابر كما أخبر الله تعالى عنه بقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) أي ضعيف حقير لا يكاد يبين الكلام . قاله افتراء عليه وتنقيصاً له في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام ؛ من نوع رثة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) وذكر الله عز وجل عظيم منته في تعليم البيان . وجميل نعمته في تقويم اللسان . فقال (الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان) أي مكنه من التعبير عما في ضميره لإفهام الغير ، كما مكنه من فهم بيان غيره ، وضرب لنا مثلاً على اللسان ورداءة البيان حيث شبه أهله بالنساء والولدان فقال (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) أي أو جعلوا له تعالى من شأنه أن يربي في الزينة وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه

وهو مع هذا القصور في الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسان في العادة غير قادر على تقرير دعواه وإقامة حجته لتقصان عقله وضعف رأيه لتبجح ما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوت درك الحاجة — وأصل البيان جمع الفصاحة في اللفظ والبلاغة في المعنى . وقال الزمخشري : هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، والمعنى ضد البيان والحصر كالفرح ضيق الصدر عند النطق ؛ وبالجمله ففوة البيان وفصاحة اللسان من جلائل نعم الله تعالى على الداعى ، بهما يملك القلوب ، وبهما يؤثر فى الأرواح .

الصفة الثامنة للإمام بما يأتى

١ — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة فى شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم أو ما يعبر عنه فى العرف بحالهم الاجتماعية . وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة خلافة أبى بكر كونه أنسب العرب ومعناه أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها وتاريخ كل قبيلة وسابق أيامها وأخلاقها كالشجاعة والجهن والأمانة والخيانة ومكانها من الضعف والقوة والفنى والفقر . وما كان إقدامه — مع ما عرف به من اللين وسهولة الخلق — على قتال أهل الردة إلا لهذا العلم الذى كان به على بصيرة فلم يهيب ولم يخف وقد خاف عمر مع شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين أى خاف أن تضعف شوكة الإسلام بمحاربتهم . حتى قال أبو بكر : والله لو منعونى عقلا مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . فهذه قوة العلم لا قوة الجهل — ولك أن تقول إن العلم الخاص بحال من توجه إليهم الدعوة من هذه الوجوه لابد أن يكون فرعاً للعلم بهذه العلوم فى نفسها كما سيتبين ذلك .

٢ — علم التاريخ العام ليعرف الفساد فى العقائد والأخلاق والعادات فيبنى دعوته على أساس صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غاية من التأثير ، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال . ولهذا كان القرآن

الحكيم مملوءا بعبر التاريخ ، والجاهل به لا يصلح أن يكون داعياً إلى الإسلام ولا مرشداً في الأمور العامة على الوجه الذي يرجى قبوله ونفعه .

٣ — علم النفس الباحث عن قوى النفس وخواطرها وميولها وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية . مثال ذلك أن الأصل أن يكون العمل تابعاً للعلم ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أن عمل كذا ضار ويأتونه ، وعمل كذا نافع ويتركونه (والحرم شرعاً ككله ضار والحلال كله نافع) فما سبب ذلك ؟ وهل يحسن دعوة هؤلاء إلى الخير وإقناعهم بترك الشر من لا يعرف لماذا تركوا الخير وارتكبوا الشر ؟ فهذه المعرفة هي من علم النفس الذي يؤخذ منه أن من العلم ما يكون ملكة راسخة للنفس حاكمة على إرادتها مصرفة لها في أعمالها ، ومنه ما يكون صورة تعرض للذهن لأثر لها في الإرادة فلا تبعث على العمل وإنما يكون مظهره القول أحياناً — وعلم النفس يساوي علم التاريخ في المسكنة والفائدة — وقد كان الصحابة على حظ عظيم من هذا العلم فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وبما هدام القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من علم النفس وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية ، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له أو أرسخ — يدل على هذا ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة وظهروا به في موطن الحجة (ذلك بفضل الله يؤتيه من يشاء) .

٤ — علم تقويم البلدان ليُمد الداعي لكل بلاد عدتها إذا أراد السفر إليها . وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان والجغرافية . ولذا أقدموا على الفتوحات ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل ، فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعاً للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم . ومن درس ما حفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك جلياً .

٥ — علم الأخلاق الذى يبحث فيه عن الفضائل النفسية وكيفية تربية المرء عليها وعن النقائص وطرق توقيه منها وهو لازم لرجال الدين وللدعاة ألزم ، كى يستطيعوا معالجة النفوس وتهذيبها — وما ورد فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار الصحابة والتابعين يعنى شهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه .

٦ — معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للداعى بيان ما فيها من الباطل فإن من لم يتبين له بطلان ما هو عليه لا يلتفت إلى الحق الذى عليه غيره ، وإن دعاه إليه ، ومن لم يقف على ما عند الناس من المذاهب والتقاليد الدينية لا يستطيع أن يخاطبهم على قدر عقولهم ، كما كان شأن سادة الدعاة ، عليهم الصلاة والسلام .

٧ — العلم بلغات الأمم التى تراد دعوتها ، وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له . فعن زيد بن ثابت « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم ، كتبه وأقرانه كتبهم إذا كتبوا إليه » وقال أبو جرة : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس على أنهم قد استعربوا فما كان معرفة لغتهم الأصلية إلا مزيد كمال فى الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم ، ولا يقال يمكن أن يستغنى الداعى عن تعلم لغات الأمم بالترجمين من غير المسلمين ، فإنه إن ظفر بالترجمان الأجنبى الأمين لا يتيسر لها أن تفهم من حقيقة الدين عند الترجمة ما يتيسر لها عند مشافهة الداعى لها بلغاتها ، فالواجب أن يكون فى كل جماعة تبعث للدعوة من المسلمين العارفين باللغات من يكفيها شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبى كما تفعل جمعيات الدعوة إلى النصرانية فإن أفراداً منهم يتعلمون لغات جميع الأمم ، فتراهم ينقلون إليها كتبهم ونشراتهم الدينية ويتخاطبون بها مع الناس ليتمكنوا بذلك من بلوغ غايتهم المقصودة .

٨ — علم الاجتماع الذى يبحث فيه عن أحوال الأمم فى بداوتها وحضارتها ،

وأَسباب ضعفها وقوتها وتأخرها وتقدمها على نحو ما في مقدمة ابن خلدون — وهذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق ، فمن كان له حظ عظيم منهما ، وكان صحيح العقل واسع الإدراك فإنه قد يستغنى عن هذا العلم في بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد ، وإن كانت دراسته مزيد كمال فيه وفي فوائده العظيمة — وعلى الجملة يلزم أن يكون الداعي عالماً بأحوال الناس خبيراً بأمراض الاجتماع ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعلاهم أخطأ كثيراً في إصلاح القلوب وعلاج النفوس وكان كمتطرب جرب دواء في مرض خاص فنجم فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسم فكذا على القلوب .

الصفة التاسعة

قوة الثقة بالله تعالى في وعده وكال الرجاء في حصول الفائدة ، مهما طال به العلاج وعظمت المصاعب ؛ فإنه متى تمكن ذلك من نفسه انبعثت همته وقوى نشاطه وتنبه إلى انتهاز كل فرصة بما يناسبها موقناً بأنه لم يظهر تأثيره اليوم ، ففدا يظهر مؤمناً بأن الباطل زهوق ، ولا بد من يوم يتغلب فيه الحق على الباطل ، فإن دولة الباطل مؤقتة لا ثبات لها في ذاتها وإنما بقاؤها في نوم الحق عنها ، ودولة الحق هي الثابتة بذاتها فلا يُقلب أنصاره ماداموا معتصمين به مجتمعين عليه . قال الإمام على رضي الله عنه : لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق .

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه سيد الداعين إلى الله تعالى ؛ لم يثن عزمه عن الدعوة إلى الله تعالى عنادُ أهل الغنى والضلal والعناد ، ومقابلتهم له بالإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المخلصين ، بل تابروا عليها ، وفي نهاية الأمر كان الظفر لهم . والنصر حليفهم ، وحقق الله تعالى لهم ما وعد ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وجملة الأمر أنه لا يليق بالداعي أن ييأس من الإصلاح إن لم يؤثر عمله لأول مرة ، بل عليه

أن يكرر النصيحة والعظة المرة بعد الأخرى ألا ترى دعاة الباطل يثابرون على نشره بين المسلمين بنشاط لا يعرف الملل . ورجاء لا يعتريه اليأس . وإن لم يحصلوا من سعيهم الآن على طائل مع ما يقاسون من الشدائد وما يتحملون من المشاق في سبيل الدعوة إلى النصرانية كما يفعل الطبيب الناصح مع المريض . يصف له الدواء على قدر الداء فإن لم يقد وصف له غيره وهكذا حتى يتم البرء ويصل بالمريض إلى ساحل السلامة . فالقلوب القاسية بتكرير النصيحة والتذكير بالعواقب تلين إن شاء الله تعالى بعد صلاحيتها قال تعالى : « وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » .

الصفة العاشرة

التواضع ومجانبة العُجب : فذلك بالدعاة والمرشدين أليق ، ولهم الأزم ، لأن التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالمرشدين أقبح ، لأن الناس بهم يقتدون ، وكثيراً ما يداخلهم الإعجاب لتوحدتهم بفضيلة العلم ، ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ، ومجانبة العُجب بهم أخرى ، لأن العجب نقص يناقى الفضل ، لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العجب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب ، وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه » وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفاه الله » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة حين ذكر آخر هذه الأمة وما تؤول إليه من الحوادث : « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك » رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبراني في الأوسط . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه

وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والخلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وسئل الفضيل عن التواضع فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك عليه بدنيك فضل ، وأن ترفع نفسك عن هو فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدنيك عليك فضل .

وعلة إعجابهم التفات نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء ، فإنه ليس متناه في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه ، إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر ، قال الله تعالى « ترفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » أى في العلم ، قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذي علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . فينبغى لمن علم أن ينظر إلى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وفي مشور الحكم : إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء . قال ابن العميد :

من شاء عيشاً هنيئاً يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدبا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجباً وبما أدركه منه مفتخراً إلا من كان مقلاً فيه ومقصراً ، لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال منه أكثره ، فأما من كان فيه متوجهاً ومنه مستكثراً ، فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدده عن العجب به . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

الصفة الحادية عشرة

أن لا يبخل بتعليم ما يحسن ، ولا يمتنع من إفادة ما يعلم ، فإن البخل به ظلم واؤم والمنع منه حسد وإثم ، وكيف يسوغ للمرشدين البخل بما مُنحوه جوداً من غير بخل وأوتوه عفواً من غير بذل ؟ أم كيف يجوز لهم الشح بما لو بذلوه ل زاد ونما ، وإن كتموه تناقص ووهى ؟ ولو استن بذلك من تقدمهم ما وصل العلم إليهم ولا تقرض عنهم بانقراضهم ، ولصاروا على مرور الأيام جهالا ، وقد قال الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم والتباس بصائرهم . ثم قرأ : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

نزلت في أحبار اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار فقد روى البخاري وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : « لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثت أحداً بشيء أبداً » ثم تلا هذه الآية . والكتم والسكران ترك إظهار الشيء قصداً مع مساس الحاجة إليه وتحقيق الداعي إلى إظهاره . والبيانات الواضحة الآيات الدالة على الحق ، ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى في أمر محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، والهدى كل ما يهدى إلى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم والإيمان به ، وهى الآيات الشاهدة على صدقه عليه الصلاة والسلام ، والعطف باعتبار التغاير في المفهوم ، ويلعنهم الله يُبعدهم عن رحمته ، ويذيقهم أليم نقمته ، ويلعنهم اللاعنون يدعو عليهم بالابعاد عن رحمة الله كل من يتأتى منه اللعن من الملائكة والثقلين — والآية كما ترى تدل على وجوب إظهار علم الشريعة وحرمة كتمانها .

وفي الصحيح من عدة طرق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليبلغ الشاهد

منكم الغائب » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار » . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وقال حسن . وأخرج أبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيد البذل . وفي منشور الحكم : من كتم علماً فكأنه جاهله . ثم له بالتعليم نفعان : « أحدهما » ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده » . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تعلموا العلم وعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء . قيل وما أجرهما ؟ قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة » « والنفع الثاني » زيادة العلم وإتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لملك واجعل مناظرة المتعلم تنبيهاً لما ليس عندك . وقال ابن المعتز في منشور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يُحمدها أن لا تجد حطباً . كذلك العلم لا يقنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فإيّاك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء : علمٌ علمك ، وتعلم علم غيرك ، فإذا أنت قد علمت ما جهلت . وحفظت ما علمت . وبالجملة فنشر العلم أعظم للأجر وأرفع للذكر وأرسخ للمعلوم . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه : « يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً مما طلعت عليه الشمس » . رواه غير واحد . والله تعالى ولي التوفيق .

الصفة الثانية عشرة

الوقار والرزانة بالإمساك عن فضول الكلام ، وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه ، والإصغاء عند الاستفهام ، والتوقف عند الجواب وعدم

التسرع والمبادرة في جميع الأمور ، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهله وحضور مجالسه ، وضبط اللسان من الفحش وذكر الخفا والقبيح والمزاح السخيف وخاصة في المحافل ومجالس المحتشمين ، فلا كرامة لمبتذل ، ولا عظمة لمن يسرف في المزاح ويفحش فيه ، والإقلال من البروز من غير حاجة والترفع عن الجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك نخل بكرامته وأعظم الناس قدراً عند الخلق من ظهر اسمه وخفى شخصه . وإجمالاً يجب على المرشد أن يتحلى بالسكينة والوقار في جميع أحواله حتى في مشيته وكلامه فذلك مكسب للهبة والإجلال لدى الناس وأدعى إلى الانتفاع به .

الصفة الثالثة عشرة

أن يكون كبير الهمة على النفس يستصغر ما دون النهاية من معالي الأمور . ويترفع عن الدنايا ويغضب عند الإحساس بالنقص . ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق فيه مقام الوراثة ، فإنه مصلح داع إلى الله تعالى ، ومن كان كذلك انتقلت صفاته هذه إلى نفوس السامعين . ومعلوم أن كل إنسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله إلى ما يميل إليه وينطوى عليه . ومقام الدعوة إلى الله تعالى أحوج شيء إلى ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلما كان الداعي أقوى نفساً وأعلى همة كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من تأثيره في نفوس السامعين .

الصفة الرابعة عشرة

الصبر في مقام الدعوة إلى الله تعالى فهو وصف الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومدار نجاحهم فيها ، ولن تسعد بها كما سعدوا وتظفر فيها كما ظفروا إلا بالصبر والثبات ، ومتى فقدت الصبر والثبات كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب .

قال تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .
لا يستخفك لا يحملك على الخفة والقلق الذين لا يوقنون بما تنلو عليهم من
الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباطيلهم فإنهم ضالون جاحدون
ولا غرابة في صدور أمثال ذلك منهم — فانظر كيف أمره تعالى بالصبر على ما يلقاه
من الأقوال المؤلمة والأفعال السيئة ، وقد وعده النصر وإظهار الدين وإعلاء
الحق ، ولابد من إيجازه والوفاء به ، ونهاه صلوات الله وسلامه عليه عن التأثر من
استخفافهم والافتتان بفتنهم — وإجمالاً أوجب عليه المثابرة على الدعوة إليه سبحانه
وحرّم عليه القلق والضجر بما يناله منهم .

وقال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »
رفع منزلتهم وجعلهم قادة يرشدون الشعب الإسرائيلي إلى ما في التوراة من
دين الله وشرائعه ، لما صبروا في مقام الدعوة إلى الخير على مقاساة الشدائد ، وكانوا
على يقين تام وإيمان صحيح بآيات الله تعالى ، فكانوا كاملين في أنفسهم قائمين
بتكميل الناقصين ، جامعين بين العلم والعمل .

وقال تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .
أمره تعالى بالثبات في مقام الدعوة إليه ، والصبر على ما كان يصيبه في الله
من أذى المكذبين الجاحدين من قومه ، والاقبتاء في هذا الثبات بأرباب الجد
والصبر على القيام بأمر الله من رسله الذين لم يضعف من عزائمهم في مقام الإرشاد
ما كان ينزل بهم من ضروب الأذى ، وأنواع الشدائد والحن — ونهاه عن الدعاء
على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر .

ولا يختص الصبر بعدم استعجال الفائدة قبل وقتها ، بل الصبر على الإيذاء
الذي يبتلى به الدعاة دائماً آكد وألزم ، وفضله أعلى وأعظم « يا بني أقم الصلاة وأمر
بالمعروف وانه عن المتكبر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .
أي إذا كملت نفسك بعبادة الله فكل غيرك واصبر على ما ينزل بك من

الشدائد والحن ، لاسيما فيما أمرت به إذ كل ما ذكر مما عزمه الله وقطعه وأوجبه على عباده من الأمور — ومع هذا فهي من مكارم أهل الأخلاق الفاضلة وعزائم أهل الحزم السالكين طريق الفلاح .

« ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » مواعيده « ولقد جاءك من نبي المرسلين » ما يسكن به قلبك . وبالجملة فقد احتمل صلوات الله وسلامه عليه في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد والأذى وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته أو يسهطه من دعوته . فكذلك الداعي إلى الحق يجب عليه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره ويواصل السير في سبيله مهما لاقى من صعاب وناله من أذى .

الصفة الخامسة عشرة

التقوى والأمانة والتحرر بطاعة الله تعالى عن مساخطه ، فإنها صفة المورث الذي هو خلف عنه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » فالعمل بمقتضى الدين يورث ملكة العلم والحكمة وبهما ينال الخير والسعادة .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » . رواه مسلم ، فلا يصح أن يكون فاسقاً في دينه قبيحاً في سيرته ، فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة ، فمتى لم تكن له تقوى تحجزه عن ارتكاب المآثم وأمانة تزعج^(١) عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، بل كان شراً على نفسه وعلى الناس ، وأيضاً فإنه لا يقبل قول الفاسق

(١) تزعجه تكفه من باب وضع

في الديانات فتتلاشى على يديه وظيفة الإرشاد ، وناهيك بأنها ولاية شرعية ووظيفة دينية ، والفاسق لا يجوز أن يلى شيئاً من أمور المسلمين ، فلا يكون إماماً ولا قاضياً ولا شاهداً ولا يقدم للصلاة ، ومثله لا يتحامي عن الفتيا بغير علم والعياذ بالله تعالى — رزقنا الله التقوى والاستقامة بمنه وكرمه .

آدابه الكهالية

ويحسن بالداعي أن يتحلى بأمور (منها) الورع باتقاء الشبهات ، والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة ، فإن ذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه وأهون على الإقبال عليه ، وأدعى إلى الانقياد له لأن حال الداعي يؤثر في القلوب أكثر من مقاله ، وهكذا كانت صفة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين رضى الله عنهم أجمعين .

في صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم بتمر مسقوطة فقال « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وقدم على عمر رضى الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال : والله لوددت أنى وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لى هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين . فقالت امرأته عاتكة أنا جيدة الوزن فأنا أزن لك ، قال لا فقالت لم ؟ قال لأنى أخشى أن تأخذه فتجعله هكذا « وأدخل أصابعه فى صدغيه » وتمسحى به فى عنقه فأصيب فضلا من المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مسك المسلمين فأخذ بأنفه (سدها بيده) حتى لانصبيه الرائحة ، وقال : وهل ينتفع منه إلا بريجه قال ذلك لما استبعد ذلك منه وهذا من ورع المتقين . وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه كانت له شاة فأكلت شيئاً يسيراً من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك . وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ألا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو لشربت ، إشارة إلى أن الدلو من مال السلطان فهو من المنسوبه ،

وقال ابن المبارك رحمه الله لأن أرد درهما من شبهة خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف .

ومن وقف موقف تهمة فلا يأمن من إساءة الظن به — ولذا منع الشرع من التعرض للتهمة : أخرج الزبير بن بكار عن عمر بن الخطاب قال من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، وأخرج البيهقي في الشعب عن سعيد بن المسيب قال كتب لي بعض إخواني من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن إلا نفسه حتى احتراز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك ؛ روى عن علي بن حسين (زين العابدين) « أن صفية بنت حبيبي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً في المسجد قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمر به رجلان من الأنصار فسألها ثم انصرفا فناداهما وقال : إنها صفية بنت حبيبي فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً . فقال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإني خشيت أن يَدْخِلَ عليكما « متفق عليه . وفي رواية « إني خشيت أن يُقَذِفَ في قلوبكما شراً » .

فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرمهما من مرور ذلك الوهم في قلوبهما وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول : مثلي لا يظن به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه ومنه يستفاد أنه ينبغي للرجل إذا حدث زوجته أو محرمه على الطريق أن يقول هي زوجي أو محرمي حتى لا يتهم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتحرز عن كل ما يوهم نسبته إلى ما لا يليق ، وهذا متأكد في حق العلماء والمرشدين فلا يجوز أن يفعلوا ما يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم مخلص ، لأن ذلك سبب لعدم الانتفاع بعلمهم وإرشادهم . قال الإمام علي رضي الله عنه : إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره . وإن كان عندك اعتذاره .

ومنها محبة الإصلاح والتفاني في خدمة الدين الحنيف بنشر فضائله بين الناس

ومحاربة البدع والمنكرات بالحكمة والموعظة الحسنة حتى ينهض بهم إلى أوج الفلاح ودرج السعادة ، فإن ذلك من أخلاق الدعاة إلى الله تعالى من الأنبياء والمرسلين ، وصفة قادة الأمم المجاهدين الخالصين — وما أحسن الداعي يحرص على نفع من يريد إرشاده ويبنغي الخير له : قال تعالى في صفة المصطفى صلى الله عليه وسلم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » أى جاءكم رسول من جنسكم عربى مثلكم شديد شاق عليه عنتم ولقاؤكم المكروه حريص على إيمانكم وصلاح شأنكم بالمؤمنين كافة شديد الرحمة — وبقدر امتلاء قلبه بهذا المعنى يكون له من الحجة والقبول فى قلوب الناس ، فالقلوب كالمرايا المتقابلة ينطبع فى أحدها ما ثبت فى الآخر ، أما الخول المتواكل فانه تكلمة عدد وعديم المنفعة .

ومنها التخلق بالخلال الحميدة والشيم المرضية التى أرشد إليها الشرع الشريف ، وحث على التحلى بها . كالسخاء ، والجود ، والمروءة ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاء ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية ، كالتنظيف بإزالة الأوساخ ، والسواك ، وتنف الأبط ، وإزالة الروائح الكريهة ، واجتناب الروائح المكروهة ، وتسريح اللحية ، مع المحافظة على أبهة العلم ، ومظاهر العلماء — كل ذلك مما يسهل عليه بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى ، بخلاف التهاون فى هذا ، فانه يقلل من الثقة به وإقبال الناس عليه ، وإمام الدعاة نبينا صلوات الله وسلامه عليه الذى هو وارث له كان على غاية من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

ومنها الإخلاص لله فى العمل ، فلا يطلب على الإرشاد أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا من أحد ، ولا تحصيل جاه أو شهرة أو سمعة ، فان المرشد إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خالياً من الأغراض الدنيوية ، أما إذا كان عمله لشيء من هذه الأغراض فلا أثر لقوله فى قلوب الناس ألبته ، بل يعمل لوجه الله تعالى وطلباً لمَرْضَاتِهِ وحسن مثوبته ، وللتقرب إليه سبحانه بهذه الوسيلة العظيمة اقتداء بإمام المرشدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يرى لنفسه منة على من يرشدهم ،

وإن كانت المنة لازمة عليهم لزوم الأطواق للأعناق ، فانه السبب الأكبر لهدايتهم إلى الحق ، بل يرى الفضل لهم إذ سلموا قلوبهم إليه ليمتدحوا إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة ، فمنفعتك تزيد بها على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك فى إرشاده أكثر من ثوابه عند الله تعالى ، ولولا المسترشد ما نلت هذا الثواب ، وأى عالم لم يكن له من يفيد العلم صار كعقيم لا نسل له ، فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان فى الدنيا موجوداً ، وإن فقد شخصه ، كما قال الإمام على رضى الله عنه : العلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم فى القلوب موجودة — يريد العلماء العاملين .

وجملة القول أن من قام بالدعوة إلى الله تعالى لشهوة من الشهوات النفسانية فذلك حظه من عمله ، وكان عند الله مذموماً قال تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب » . أى من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة ، شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نزد له فى ثوابه فنعطيه بالواحدة عشرة إلى سبعة ، ومن كان يقصد ثواب الدنيا نؤته شيئاً منها على ما قسمنا له مع حرمانه من نعيم الآخرة فالأعمال بالنيات .

وقال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » مدحوراً مطروداً ، وسعيها حظها ، من السعى وهو الإتيان بما أمر به والانتهاز عما نهى عنه ، لا التقرب بما يخترعون بأرائهم ، واللام رمز إلى اعتبار صدق النية ، والأخلاص فى السعى ، ومشكوراً مقبولاً عنده تعالى مثاباً عليه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » . يعنى زيجها . رواه الترمذى وغيره بإسناد صحيح : فلا يطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال

عز وجل « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلأعلى الله » . فإن المال وما فى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم العلم ، إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الرأس .

يجب علينا أن نؤدى الواجب حبا فى الواجب ، وإطاعة لخالقنا ، وتلبية لضايرنا وإرضاء لوجداننا ، لا إذعانا لسلطان المادة ، ولا جريا وراء شهوة نحصل عليها أو مغنم نصيبه ، فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقى إلى حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلى الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلى نفسه — وهذا الشعور الطيب هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الحياة ، وقد حث النبى صلوات الله وسلامه عليه على التخلق به على أبلغ وجه وآكده حيث جعله شرطا للإيمان فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخارى — ولنا بالرسول أسوة حسنة فى أن الإنسان يعمل الواجب حبا فى الواجب . فقد أسدى موسى عليه السلام معروفا إلى بنتى الشيخ الكبير : سقى لهما غنمهما وكفاهما مؤنة نزع الماء من البئر ، ولما دعاه الشيخ ليجزيه على معروفه خيرا وقدم إليه طعاما بادره موسى قائلا : نحن أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا . فاعتذر إليه والد البنيتين بأن تقديم الطعام لكل قادم إنما هو عادتنا مع أضيافنا ، فقبل موسى عذره ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . (نعم) له كفايته من بيت مال المسلمين عند الحاجة شأن كل من حبس نفسه على مصلحة عامة من مصالحهم .

فينبغى للداعى أن يتحلى بالآداب الشرعية ، والإخلاص فى الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون وارثا نبويا ، وعالما ربانيا ، وأن يعلم أنه لا يجتمع الإخلاص

فى القلب ، ومحبـة المدح والثناء والطمع فىما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار ، والضـب والحوت — فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فىهما زهد عشاق الدنيا فى الآخرة ، فإذا تم لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص ، والذى يسهل عليك ذبح الطمع علمك يقيناً أنه ليس من شىء يطمع فيه إلا ويبد الله تعالى وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه ، والذى يسهل عليك الزهد فى الثناء والمدح ، علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين . ويضر ذمه ويشين . إلا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرابى للنبي صلوات الله وسلامه عليه « إن مدحى زين . وذمى شين . فقال ذلك الله عز وجل » قطعة من حديث طويل أخرجه ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس . فازهد فى مدح من لا يزينك مدحه ، وفى ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب فى مدح من كل الزين فى مدحه ، وكل الشين فى ذمه .

ومنها دوام مراقبته لله عز وجل فى سره وعلا نيته ، محافظاً على الطهارة ، ومواظباً على قراءة القرآن ، ونوافل الصلوات ، والصوم ، وغيرها ، معولاً فى كل أموره على الله تعالى ، معتمداً عليه ، مفوضاً أمره إليه . قال تعالى « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » وقال تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وقال تعالى « إن ربك لبالمرصاد » أى لبالمكان الذى يتربص فيه من رصده وهو تمثيل لأرصاده العصاة بالعقاب . وقال تعالى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » وعن أبى يعلى شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » رواه الترمذى وقال حديث حسن . الكيس العاقل المتبصر فى الأمور الناظر فى العواقب ، والعاجز المقصر فى الواجب الذى يأتم بهواه ، فنفسه عبد شهوته ، يقع فى مساخط الله ، ويعمل نفسه بعفوه وسعة رحمته ، وقد كتبها تعالى لغيره ، ودان نفسه حاسبها .

وبالجملة يحب على من يتصدى لإصلاح الناس أن يكون حسن الطريقة ، مرضى السيرة ، عنوان الفضيلة ، ومثال الكمال فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، وإلا فهو فتنة فى الأرض وفساد كبير ، حقا لو توفرت فى الداعى صفات الكمال كان من غير شك وارثا نبويا وكوكبا يستضاء به ، حقا لو تحقق الداعى بهذه الصفات سهل عليه أن يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم ، وينقذهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، واستطاع أن يداوى القلوب ، ويهذب النفوس بما أوتي من مهارة وحكمة ، وأمكنه أن يحول بين الأمة وبين الرذائل بسور منيع من زواجره ونصائحها وترغيبه وترهيبه . يقينا لو كان المرشد على ما وصفنا لكان ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به ويهتدون بهديه ، وبحق يستولى على القلوب ويتغلب على الأرواح ويتصرف فيها كما يشاء ، وفى ذلك كفاية والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل .

آداب الداعى مع السامعين

وهى كثيرة من أهمها ، وهو من دقائق هذه الصناعة ، أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بتلويح فى المقال ، وتعريض فى الخطاب ما أمكن ، فالتعريض فى ذلك أبلغ من التصريح ، فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بالمقصود منه كان أوقع فى نفسه ، وأعظم تأثيرا فى قلبه ، وأدعى إلى التنبيه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمة المخاطب بترك الجاهرة بالتوبيخ — وأيضا التعريض لا تنتهك به سُبُجُفُ الهيبة . ولا يرتفع معه ستر الحشمة ، أما صريح التوبيخ والتقريع الشديد العنيف ، فقد يورث الجرأة على انهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار والبقاء على مايم عليه لاسيما النفوس المنطوية على الكبر .

ألا ترى قوله تعالى فى شأن ذلك الرجل الغيور على دين الله والدعاة إليه « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » لما سمع بخبر رسل عيسى عليه السلام ، وإنكار القوم لهم حضر مسرعا ودعاهم إلى اتباع هؤلاء الرسل برفق ولين ، تأليفا لقلوبهم ، واستمالة

لها نحو قبول نصيحته ، ووصف المرسلين بما يرغبهم في اتباعهم من التزه عن الغرض الدنيوى ، والاهتداء إلى خير الدين والدنيا — ثم أبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه ، وهو يريد مناصحة قومه فقال « وما لى لأعبد الذى فطرنى » أى أى مانع من جانبى يمنعنى من عبادة الذى خلقنى ، والمراد تقريرهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبىء عنه قوله : « وإليه ترجعون » مبالغة في التهديد على وجه لطيف — ثم عاد إلى المساق الأول لقصد التأكيد ، وزيادة الإيضاح فقال : « أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تنفى عني شفاعتهم شيئاً ولا يتخذون إنى إذا لى ضلال مبين » فوجه الإنكار إلى نفسه وهو يريد منهم به ، أى لا يتخذ من دون الله آلهة وأعبدها ، وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذى فطرنى ، مبيناً حال هذه الأصنام التى يعبدونها ، من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم ، وبياناً لضلال عقولهم ، وقصور إدراكهم ، لأننى إذا فعلت ذلك أكون ساقطاً في هذه الضلال الذى لاشك فيه ، فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع ، ولا دفع الضر ، بالخالق المقتدر الذى لا قادر غيره ، ولا خير إلا خيره ضلال واضح ، وخسران مبين ، وهذا تعريض بهم . هذا سبيل الحكمة فاسلكه والله تعالى موفق للصواب .

ومنها التلطف في القول والرفق في المعاملة مع تحرى الإقناع ، فلهذا شأنه في نجاح المرشد في مقام الدعوة إلى الخير ، والقرآن الحكيم يرشد إلى ذلك في مواضع كثيرة ، تأمل قوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » أى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ، ليسكن شغبهم وتلين عريكتهم ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل كما سيأتى — وقوله : « وإنا أوياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، أى وإن أحد الفريقين من الموحدين والمشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال الواضح — فإن هذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه

على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد ، ونظيره قول حسان رضى الله عنه :

أتهجوه ولست له بكفء فشر كما نخير كما الفداء

وقوله : « قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون » .

وهذا أبلغ في الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف ، حيث أسند فيه الإجماع إلى أنفسهم ، ومطلق العمل إلى المخاطبين ، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر — فما بعد هذا التلطف طريق يسار فيه ولا وراء هذا الرفق غاية ينتهى إليها .

والسر في ذلك أن النفوس جبلت على الميل إلى العظمة وحب الكرامة ، وشبت في الغالب على الأنفة والرعونة ، ونشأت على التقيد بالإلف والعادة ، فمن أراد صرفها عن غيرها إلى رشادها ، وحاول الخروج بها عن مألوفاتها وعاداتها ولم يَمزُج مِزَاجَ الحق بمِزَاجِ التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بطلاوة الرفق واللين ، كان إلى الانقطاع أقرب منه إلى الوصول ، ودعوته أجدر بالرفض من القبول وكان كمن رام أن يطهر ثوبا من الدنس فأوقد فيه نارا فأحرقته — ألا ترى قوله تعالى : « فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » فإنه يفيد أن لين القول محل رجاء التذكر والاتعاظ ، والمعد للنفوس للخوف والانزجار .

وروى أبو أمامة أن غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قربوه ، أدن . فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتحبه لأملك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ؛ أتحبه لا ابتلك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك ، قال كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ، وزاد ابن عوف أنه ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحدة لا ، جعلني الله فداءك ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه ، يعني الزنا » رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

فهذه هي الحكمة في الدعوة ، وبها تجب القدوة . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ، وإنا لا نكون متبعين له صلوات الله وسلامه عليه حتى نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر على سنته وطريقته في اللطف وتحري الإقناع بالرفق واللين ، ومن أوتى حظه من الرفق فقد أوتى حظه من خير الدنيا والآخرة -- ومن هنا تعلم السر في جعل الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أكمل الناس عقولا ، وأصفاهم أرواحا ، وأحسنهم أخلاقا ومنها أن يذكره بخير ، ويصفه بحميد ، كأن يبين ماله من حسب ، وما فيه من فضل ، وما عليه من نعمة ، ليجذب قلبه إليه ، ويعدده بذلك لقبول الموعظة ، إذ لا ريب أن ما يكون للإنسان من شرف ورفعة مناط التحلى بالفضائل والتخلي عن النقائص ، لأن الذي يرى نفسه مفضلا مكرما ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنايا والحساسات التي تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذي يرى نفسه رذلا ساقطا خسيسا ، فإنه لا يبالي ما يفعل — ألا ترى قوله تعالى « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » حيث ناداهم باسم أبيهم يعقوب الذي هو أصل عزهم ومجدهم ، ومنشأ تفضيلهم وطلب منهم أن لا ينسوا نعمته عليهم بشرائه ورساله ، وتفضيله إياهم على العالمين بالنبوة والملك ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل في نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأحوال مالا منجاة منه إلا بتقوى الله سبحانه في كل الأحوال ، ومراقبته تعالى في جميع الأعمال .

وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا » فإنه تعالى بعد أن امتن على بني إسرائيل بإيتاء موسى التوراة لهدايتهم به ، ونهاهم عن أن يتخذوا ربا غيره تعالى يكلون إليه أمورهم ، ناداهم بهذا العنوان ليحملهم على التوحيد والطاعة بتذكير إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح عليه

السلام الذى أثنى عليه بأنه كان عبداً كثير الشكر له تعالى فى جميع حالاته وفى ذلك إعلام لهم بأن إنجاء من معه كان ببركة طاعته عليه السلام لربه ، وحث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أقبح أنواع الكفران .

وهذا أسلوب حكيم فى الدعوة فينبغى للداعى أن يبدأ بأحياء إحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة فى نفوس المخاطبين ، لتستعد بذلك لقبول النصيحة وتتغلب بهذا الإحساس ، وذلك الشعور على عوامل الهوى والغواية ، فإن النفس إذا عرفت علوها ، واستشعرت كرامتها ، وسمعت ما فى الرذائل من الخسة حملها ذلك الشعور (شعور الرفعة والكرامة) على النفرة من التسفل بارتكاب تلك النقائص ، وكان ذلك من أحكم الوسائل إلى مساعدة المرشد على بلوغ غرضه من نفوس السامعين .

وجملة القول أن فى الوعظ مساهمة بحرح إحساس الموعوظ ، وحرجا قد يحمله على النفور من سماعه والاستنكاف من قبوله — فإذا كان الداعى حكيماً فذكر ما فى الخطاب من فضل ، وماله من منزلة ، ثم أرشده إلى الخير ، وحذره عن الشر ، حمله ذلك على التخلي عما هو فيه من ضلال وشقاء ، وأقبلت نفسه على التحلى بما يدعو إليه من هدى وسعادة كما يقبل الجريح على من يضمده جراحه ، ويسكن آلامه ، وينقذه من تعب المرض إلى راحة السلامة — فهذا شئ من هداية الكتاب الحكيم لنا ، وكله هدى ورحمة .

ومنها : أن يكون له فراسة يتوسم بها حال السامعين ليعرف مبلغ طاقتهم وقدر استحقاقهم وإقبالهم على الانتفاع ، ليعطيهم ما يتحملون ، ويمسك عما لا يطيقون ويوجز إذا خشى الانصراف أو رأى عليهم مللاً وسآمة . من الحكم الماثورة : من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مثونة الاستماع منك : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . قيل لعمر و

ابن العاص : ما العقل ؟ قال الأصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان وإنما ركب الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل . وإذا كان المرشد بهذه الصفة لم يضع له عناء ولم يخب على يديه أحد ، وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم كانوا وإياه في عناء مكّد . وتعب غير مجد . فإنه لا يعدم أن يكون منهم ذكي محتاج إلى الزيادة وقاصر يكتفى بالقليل ، فيضجر الذكي ويمجز القاصر ، ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه ومالهم ، وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم إن القائل أول ملالة من المستمع ، فلا تمل جساءك إذا حدثتهم ، يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشوف في وعائك : — وجلس ابن السماك يوماً للوعظ وجاريته تسمع كلامه فقال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت هو حسن لولا أنك تردده . فقال أردده كي يفهمه من لم يفهمه . فقالت إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه — وعلى الجملة فخير المرشدين الفطن الذي لا يقل ولا يمل والله الموفق للصواب .

الفصل الثامن

ما يلزم المرشد اجتنابه

بما لا يجوز له الخوض في دقائق علم الكلام كخلق الأفعال ، ورؤية الباري يوم القيامة ، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائد العامة يصعب عليهم الخلاص منه ، بل الصواب لهم الاقتصار في أمر العقائد وواجب الإسلام على أن يملأ قلوبهم بالتصديق الجازم بكل ما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقبوله ، والإذعان له ، تصديقاً سليماً من كل شك بالمقدار الذي نطق به الكتاب وصحت به السنة ، ولا يتعمين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين — هذا ما أجمع عليه السلف والمحققون من العلماء — فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحداً بسوى

ما ذكرنا ، وكذا الخلفاء الراشدون ، ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول « نعم » لو شكك إنسان في شيء من أصول العقائد مما لا بد من اعتقاده ، ولم يزل شكه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل —

ونقول في التشابه من آيات الصفات وأخبارها خلاصة ما قال الأستاذ الإمام رحمه الله عليه : أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات ، وقد قام البرهان العقلي والنقلي على هذه العقيدة ، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان « إحداهما » طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى « ليس كمثله شيء » وقوله عز وجل « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » وتفويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله تعالى يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لتخيلاتنا . أي فيقال مثلا نؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به ، مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزّه عن الحلول وسمات الحدوث . فهذه طريقة السلف وهي أسلم إذ لا يطالب العبد بالخوض في ذلك ، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه « نعم » إن مست الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا « والثانية » : — طريقة الخلف وهي التأويل يقولون إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شيء منه عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشيء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغي طلبه بالتأويل ، ولا مانع من السير

على كلا الطريقتين في فهم وبيان التشابه ، لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها ، لأنه لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى .

فظهر مما تقدم اتفاق السلف والخلف على التنزيه ، وصرف النص الموهوم عن ظاهره المحال عليه تعالى ، لكنهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين المراد من ذلك النص وعدم التعمين ، بناء على الوقف على قوله تعالى : والراسخون في العلم : فيكون معطوفاً على لفظ الجلالة وجملة يقولون آمنا به حينئذ مستأنفة لبيان سبب التماس التأويل . أو على قوله إلا الله ، وقوله والراسخون في العلم استئناف ، وذكر مقابله في قوله تعالى : فأما الذين في قلوبهم زيغ ! أى كالجسمة ، فمنهم من يقول إنه على صورة شيخ كبير ، ومنهم من قال إنه على صورة شاب حسن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والحاصل أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح اتفق أهل الحق وغيرهم ماعدا الجسمة والمشبهة على أن ظاهره غير مراد لوجوب تنزيهه تعالى عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره - فما يوم الجهة قوله تعالى « يخافون ربهم من فوقهم » فالسلف يقولون فوقية لا نعلمها والخلف يقولون المراد بالفوقية تعالى في العظمة ، فالمعنى يخافون أى الملائكة ربهم من أجل تعاليه في العظمة ، أى ارتفاعه فيها ، ومنه قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » فالسلف يقولون استواء لانعلمه ، والخلف يقولون المراد به الاستيلاء والملك . كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

أى فهو تمثيل وتصوير لعظمة الله تعالى ، وسلطانه في خلقه .

— وما يوم الجسمية قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » « وجاء ربك » وحديث الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه

من يستغفرني فأغفر له » فالسلف يقولون مجيء وإتيان ونزول لانعلمها ، والخلف يقولون المراد إتيان رسول عذابه أو رحمته وثوابه ، ومجيء عذاب ربك أو أمره الشامل للعذاب ، وينزل ملك ربنا فيقول عنه - ومما يؤهم الصورة ما رواه احمد والشيخان أن رجلاً ضرب عبده فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم : « وقال إن الله تعالى خلق آدم على صورته » فالسلف يقولون صورة لانعلمها ، والخلف يقولون المراد بالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته في الجملة ، وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة - وهذا بناء على أن الضمير في صورته عائد على الله تعالى كما يقتضيه ما ورد في بعض الطرق « فان الله خلق آدم على صورة الرحمن » . ومما يؤهم الجوارح قوله تعالى « ويبقى وجه ربك . يد الله فوق أيديهم » وحديث : إن قلوب بنى آدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فالسلف يقولون وجه ويد وأصابع لانعلمها ، والخلف يقولون المراد من الوجه الذات ، ومن اليد القدرة ، وفوقيتها فوقية عظيمة بمعنى أنهم لا يخرجون عن تعلقها ، والمراد من قوله بين أصبعين من أصابع الرحمن . بين صفتين من صفاته وهما القدرة والإرادة .

وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، والبعد عن المخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه - وطريق الخلف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم ، وهي أولى في تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم - والسلف من كانوا قبل الخمسمائة وقيل : القرون الثلاثة : الصحابة والتابعون وأتباع التابعين . والخلف من كانوا بعد الخمسمائة وقيل من بعد القرون الثلاثة - والمشبهة قوم شبهوا الله تعالى بال مخلوقات ومثلوه بالحوادث . والمجسمة غلاتهم المصرون على التجسيم الصرف ، وأما غير الغلاة منهم فهم مشبهة الحشوية فقالوا هو جسم لا كالأجسام من لحم ودم لا كاللحوم، وله الأعضاء والجوارح ، والقدرية فرقة تقول إن أعمال العباد مخلوقة لهم من دون الله - وقد استوفينا الكلام على هذه الفرق وغيرها في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » .

ومما يلزم اجتنابه التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه . فذلك من وضع الحكمة في غير موضعها وهو ظلم - فسامعها بما أن يفهمها على غير وجهها وهو الغالب ، وهو فتنة تؤدي إلى العمل بالباطل والتكذيب بالحق ، وإما أن لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون بل صار في التحدث بها معهم كالعابث بنعمة الله تعالى — ثم إن ألقاها لمن لا يعقلها في معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من قبيل التكليف بما ليس في الوسع — وقد جاء النهي عن ذلك : أخرج أبو داود أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « نهى عن الغلوطات » ^(١) قالوا وهي صعاب المسائل أو شرارها — وروى الترمذي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنيتك لتعلمني من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام : « ما صنعت في رأس العلم ؟ قال وما رأس العلم ؟ قال هل عرفت الرب ؟ قال نعم قال فما صنعت في حقه ؟ قال ما شاء الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فأحكّم ما هُنَا لَكَ ثُمَّ تَعَالَ أَعْلَمَكَ من غرائب العلم » : فالذي تقتضيه الحكمة ألا تعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول وإلا وقع السامع في الفتنة — وقالوا في العالم الحكيم إنه هو الذي يربي بصغار العلم قبل كبارها — وقد ترجم على ذلك الإمام البخاري فقال « باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا » وأخرج موقوفاً على علي رضي الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أن يحبون أن يكذب الله ورسوله . ويعرفون : ضد ينكرون لا ضد يجهلون أي حدثوهم بما تصل عقولهم إلى فهمه دون ما يعز عليها فتعده منكراً ومحالاً وأخرجه بلفظ آخر « قال على حدثوا الناس بما يعرفون » أي يُدركون بعقولهم « ودعوا ما يشتبه عليهم فهمه أن يحبون أن يكذب الله ورسوله » . وفي مسلم مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه : « ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان

(١) جمع غلوطة بالفتح قيل أصلها أغلوطة حذفت همزتها المضمومة تخفيفاً والأغلوطة ما يغلط فيه وما يغالط به من صعاب المسائل .

فتنة على بعضهم » وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه ، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق وإلى العمل بالباطل — وخرج شعبة عن كثير بن مرة الحضرمي أنه قال : إن عليك في علمك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل . ولا تمنع العلم أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك .

ومن حديث ابن عمر مرفوعاً « أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم » . وقال علي رضي الله عنه : وأشار إلى صدره ، إن ههنا معلوما جنة لو وجدت لها حملة : وصدق كرم الله وجهه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، وقال عيسى عليه السلام : لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء ، وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فاعط كل ذي حق حقه ، وفي معنى ذلك ما روى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه سئل عن العالم من هو ! فقال : من يضع العلم موضعه ، ويؤتي كل شيء حقه ، وقال بعض العارفين : من كلم الناس بمبلغ علمه وبمقدار عقله ، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد بخسهم حقهم ، ولم يقم بحق الله تعالى فيهم ، ولذا قيل كل لسل عبد بمعيار عقله . وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه ، وينتفع بك ، وإلا وقع الانكار لتفاوت المعيار فليحذر المرشد الشطح بكلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة معجبة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ولا منها فائدة — كالكلام في مقام الفناء الذي قصرت عباراتهم عن إيضاحه ، ومراتب الشهود التي عسرت التفرقة بين حقائقها ، وكقول القوم في أقسام الإيمان ، وأنه خمسة أقسام :

الأول : إيمان عن تقليد ، وهو الناشئ عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل ، وهو إيمان العوام (الثاني) إيمان عن علم ، وهو الناشئ عن معرفة العقائد بأدلتها ، وهو لأصحاب الأدلة (الثالث) إيمان عن عيان ، وهو الناشئ عن مراقبة

القلب لله تعالى بحيث لا يغيب عنه طرفة عين ، وهو لأهل المراقبة ، ويسمى مقام المراقبة (الرابع) إيمان عن حق ، وهو الإيمان الناشئ عن مشاهدة القلب وهو للعارفين ، ويسمى مقام المشاهدة (الخامس) إيمان عن حقيقة وهو الناشئ عن كونه لا يشهد إلا الله عز وجل وهو للواقفين ، ويسمى مقام الفناء ، لأنهم يفنون عن غير الله تعالى ، ولا يشهدون إلا إياه - وهناك قسم آخر أسى من هذه الأقسام ، يسمونه حقيقة الحقيقة ، وهو المرسلين ، وقد منعنا الله تعالى كشفه فلا سبيل إلى بيانه - وقولهم في سر السر ، ونور النور - وما إلى ذلك من اصطلاحات الصوفية - فكل هذا خلاف الشرع ، وما كان عليه سلف هذه الأمة فهو بدعة وضلالة كما أوضحناه في كتاب « الإبداع في مضار الابتداع » .

وبهذا يعلم أن من تقيد من العامة بقيد الشرع الشريف بحسب حاله ، ورسخ في نفسه اعتقاد العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ولا تأويل ، وحسنت مع ذلك سيرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بذكر اصطلاحات المتكلمين ، بل ينبغي أن ينجلي وحرفته التي هو فيها ، وطريقته التي هو سالكها ويقتصر معهم على تعليم العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج مع بيان سر مشروعيتهما ، كل هذا من غير تدقيق في مسائلها ولا ذكر اختلاف الآراء فيها ، والحث على الأمانة في الصناعات ، والإحسان في المعاملات التي هم بصدددها ، ويملا قلوبهم من أنواع الرغبة والرغبة بالجنة والنار وبلايا الدنيا وأهوال يوم القيامة ، كما نطق القرآن الحكيم ، وصرحت به السنة الشريفة ، والآثار الصحيحة : ولا يحرك عليهم شبهة من الشبه الكلامية والإشكالات الفقهية ، فإنه ربما تعلق بقلوبهم ، ويعسر عليهم حلها فيقعون في الشقاء والهلاك بسوء تصرفه - وبالجملة ينبغي أن لا يفتح للعوام باب البحث والجدال ، فإنه ضياع لهم ، وليس من الحكمة في شيء : والله الهادي إلى سواء السبيل .

ومما لا يجوز التعرض له صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور

باطنة لا تحملها الألفاظ ولا فائدة فيها كدأب الباطنية في التأويلات البعيدة ،
وهم جماعة من الملاحدة نسبوا أنفسهم إلى علم الباطن ، وراضوا الأخذ بظاهر
القرآن والأحاديث وقالوا : للقرآن والحديث ظاهر وباطن ، والمراد منهما باطنهما
دون ظاهرهما ، وحرفوا الألفاظ إلى معان أخر غير مفهومة إلا لهم بادعائهم في ذلك ،
حتى أنهم تركوا أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ، زاعمين أن لها
معاني غير ما عمل به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه وأجمع عليه
المسلمون ، وكفلاء الصوفية الذين ذهبوا في التأويل إلى ما وراء طور العقل والنقل
وأساليب اللغة ، ومثلها دعوى القاديانية الهندية التي يلقب أهلها بالأحمدية أن رئيس
نحلتهم ميرزا غلام أحمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض
الأحاديث ، وأنه كان يوحى إليه ، ونسخت فرضية الجهاد على لسانه فصار
من الواجب على المسلمين عندهم أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم المعتدين
على استقلالهم ، ولا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع عن دينه ووطنه — وإنما
جعل القادياني هذا من أصول دينه دعاية لدولة أجنبية — ولا يزال الباب مفتوحاً
عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحى النبوة متصل في خلفائه وأتباعه — فالقول
بهذا خروج من ملة الإسلام لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام ،
وما أفضى إلى هذا الضلال المبين إلا التوسع في باب التأويل .

فهذا أيضاً حرام في الشرع وضرر على الناس عظيم : فإن الألفاظ إذا صرفت
عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه
عليه وعن أصحابه الذين شاهدوه رضى الله عنهم . ومن غير ضرورة تدعو إليه
من دلائل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام
الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . فإن ما يسبق منه إلى الفهم إن خرج
عن جادة الشريعة لا يوثق به ، والباطن لا ضبط له ولا معول عليه فيما يخالف
ظاهر الشرع ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى — وهذا
(٩)

أيضاً من البدع المنكرة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .

وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها عن معانيها وتنزيلها على معان أخر على رأيهم الفاسد . من ذلك قول بعض المتصوفة في تأويل قوله تعالى : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كل إنسان . وكذا في قوله تعالى : « فاخلع نعليك » أي نفسك ، وفي قوله تعالى : « وأن ألق عصاك » أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ، فينبغى أن يلقى عنه . وفي قوله تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » المراد منه تخليص إبراهيم من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة — وفي قوله تعالى : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أنه الحب والعشق إلى غير ذلك مما نقله الفاشاني الباطني الذي ملأ تفسيره بأمثال هذه المصائب .

ومن ذلك ما قالوه في قوله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه إنه أراد به الاستغفار بالإسحار ، وقولهم في حديث الإيمان والإحسان : « فإن لم تكن تراه » أي إن أفنيت نفسك تشرفت بالرؤية . مع مخالفتها للغة العربية كما لا يخفى إلى غير ذلك حتى يحرفوا القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء ، فإن القاعذة عند العلماء (أن الظاهر يجب إقراره على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذا أنه يجب حمل كل لفظ ورد في الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عنها . وبعض هذه التأويلات قطعي البطلان كتنازل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محس تواتر إلينا النقل بوجوده ، ودعوة موسى له كأبي لهب وأبي جهل من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والمارسكة مما لا يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه — وكذا حمل السحور على الاستغفار فإنه صلوات

الله وسلامه عليه كان يتناول الطعام مع أصحابه في ذلك الوقت . روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا زاد ابن عاصم في كتاب الصوم « فأكلوا تمرأً وشربوا ماء » فهذه أمور يدرك بطلانها بالتواتر والحس نقلاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الأحساس . وكان لواضعى تلك التأويلات من الفرس غرض سياسى من إفساد الإسلام على أهله وإحداث الشقاق بينهم فيه وهو إضعاف العرب والقضاء على دولتهم أو إزالة ملكهم للتمكن من إعادة ملك فارس وسلطان الملة المجوسية — ثم رسخ بالتقليد في طوائف جهلوا أصله .

فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل ذلك عن صاحب الشرع ولا عن أصحابه ولا عن التابعين مع سعة روايتهم وكثرة تلقيهم ، ولا عن الحسن البصرى رحمه الله مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم — ولا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده ^(١) من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه تقرير أمر فيأتى بالقرآن شاهداً له يحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية . وقوله : فليتبوأ مقعده . أمر بمعنى الخبر ، كأنه قال : من فسر القرآن برأيه وجب له أن ينزل منزلته من النار وحق له ذلك . والمقصود الزجر عن القول فى القرآن بالهوى والراى .

ولا تفهم من هذا أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فى الآيات فلسنا نريد هذا ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والتابعين والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة فأكثر ، وانعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » رواه الإمام أحمد والحاكم بإسناد صحيح . فهذا جائز لأنها معان

تحتها الألفاظ بخلاف ذلك كما عرفت لا تحتلها الألفاظ ولا يدل عليها نقل ولا يقرها عقل .

وصفة القول أن النصوص الشرعية تحمل على ظواهرها وما تدل عليه في عرف اللسان ، وأن المدول عن ذلك إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد . وما سميت الملاحدة باطنية إلا لدعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ، بل لها معان باطنية لا غير ، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينهما وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان . هذا خلاصة ما في العقائد النسفية وشرحها للسعد .

الفصل التاسع

السجع والأشعار في الوعظ

السجع في الكلام العربي المنشور هو اتفاق فواصل الجمل على حرف واحد نحو فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة ، ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ، ويكثر في كلام بلغاء العرب ومواعظ المتقدمين كالإمام علي رضي الله عنه والحسن البصري وأبي الفرج بن الجوزي ، وهو نوعان : حسن وقبيح ، فالحسن ما توفرت فيه شروط ثلاثة « الأول » أن يكون بعيداً عن التكلف والتعسف « الثاني » أن تكون كل سجمة دالة على معنى مغاير لمعنى غيرها « الثالث » أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق ، وبهذا يكسب الكلام حسناً وجمالاً — والقبيح ما خلا من هذه الشروط .

كقول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والقرض ، والغمر والبرض — والبرض القليل وماء برض قليل وهو خلاف الغمر ، والغمر بوزن الجر الكثير

غثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ولهذا كرهه النبي صلوات الله وسلامه عليه . قال الأزهري : ولما قضى النبي صلى الله عليه وسلم في جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتا بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل ، ومثل دمه يطل . قال صلى الله عليه وسلم « إياكم وسجع الكهان » .

وهو مكروه شرعا ثقيل على النفس ولو في الدعاء ، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لكتاب : إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجعون ، رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما بإسناد صحيح . وسجع من باب قطع . وروى البخاري من رواية عكرمة عن ابن عباس قال « حدثت الناس كلَّ جمعة مرة » فذكر الحديث وفيه : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

وكل هذا محمول على التكلف في السجع ، فإن خلا عن التكلف وإعمال الفكر ، وكان الكمال فصاحة الداعي أو لكونه محفوظاً مثلاً فلا بأس به ، بل هو حسن كما عرفت . يدل عليه ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما من قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم مُنْزِلُ الْكِتَابِ . وَمُجْرَى السَّحَابِ وَهَازِمُ الْأَحْزَابِ إِهْزِمْهُمْ وَانصِرْنَا عَلَيْهِمْ » وروى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين : أَعِزَّنَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ . مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ . وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » والهامة كل ذات سم يقتل ، وقد يقال على ما يدب من الحيوان وإن لم يقتل كالقمل والبق ، والعين اللامة التي تصيب بسوء فقيه جواز استعمال السجع في الدعاء الخالي عن التكلف وسر النهي عن تكلف السجع في الدعاء أنه يذهب الخشوع والخضوع ويلهى عن الضراعة والافتقار وحضور القلب .

ومن أمثلة السجع الحسن قول الإمام أبي القاسم محمود الزمخشري : يا أبا القاسم

حتام تلهو وتلعب . وغراب البين فوقك ينبعب . وإلام تروح فى التماس الفنى
وتغدو . وسائق الردى وراءك يحدو . ألا وإن بذل الاستطاعة . واستقصاء الجد
فى الطاعة . أولى بمن يركب الآلة الحدباء بعد ساعة ، كأنى بمنارتك يسرع بها
إلى بعض الأجداث . وبأهل ميراثك هجروك بعد الثلاث . وغادروك وأنت معفر
مطروح . فضمك لحد وضريح . ولم يبق إلا عملك الذى لزمك فى حياتك لزوم
صحبك . وهو يستبقى صحبتك بعد قضاء نحبك : فيصلحك على التخت مغسولا
ويرافقك على النعش محمولا . ويكون معك على الا كفاء فى المصلى . ويحالفك
وأنت فى الحفرة مدلى . فإذا راعتك نفخة النشر . وفاجأتك أهوال الحشر . وفر
منك أبوك . وأمك وأخوك . وجدته يفد معك أينما تفد . ويرد حيثما ترد . ولعلك
ستصحب من هذا القرن صاحب صدق يؤنسك فى وحشتك . ويلقى عليك
السكينة فى حين حيرتك ودهشتك . ويمهد لك فى دار السلام المهاد الأثر .
ويوردك السلسيل والكوتر .

وقوله رحمه الله : أرضى الناس بالخسار . بائع الدين بالدينار . قى فاك مما يقرع
قفاك . قد جمع الأصل والفرع . من تبع العقل والشرع . إن صح السرُّ صحَّ
العمانُ . وإن لم يصح فلن ولن . شينان شينان فى الإسلام . الرشوة والشفاعة
فى الأحكام . رب زيادة هى نقصان فائدة . والكف تنقصها الأصبع الزائدة .
قد يلد مثل الحسن مثل الحجاج . واللؤلؤ يخرج من الماء الأجاج . شعاع الشمس
لا يخفى . وسراج الحق لا يطفأ . تقول أنا صائم . وأنت فى لحم أخيك سائم . أعمالك
نية إن لم ينضجها نية . اطلب وجه الله فيما أنت صانع . وإلا فعملك كله ضائع .

ومنها قول الحريرى مخاطب الغافل المفتون بالدنيا إنكاراً وتوبيخاً .

إلام تستمر على غيك . وتستمرىء مرعى بغيك ؟ وحيام تتناهى فى زهوك
ولا تنتهى عن لهوك ؟ أنظن أن ستنفك حالك . . إذا آن ارتحالك أو ينقذك مالك
حين توبُّك أعمالك . أو يغنى عنك ندمك . إذا زلت قدمك . أو يعطف عليك

معشرك . يوم يضمك محشرك ؟ هلا انتهجت محجة اهتدائك . وعجلت معالجة
دائك . أما الحام ميعادك . فما إعدادك . وبالمشيب إنذارك . فما أعذارك وفي الحدد
مقيلك فما قيلك . وإلى الله مصيرك . فمن نصيرك .

ومنها في التحذير من الغرور — يأيها المغرور بالسلامة . ما أعددت ليوم القيامة
يوم الحسرة والندامة . يوم يجعل الولدان شيبا . يوم يدع المسرور كئيبا . الدنيا دار
تجارة فالويل لمن تزود منها الخسارة .

ومنها قول الاصبهاني في أطباق الذهب — يا أرباب القوة والطاقة . أنظروا
بعين الإفاقة . إلى أهل الفاقة . وياركبان الناقة . رفقا بضغفاء الساقة . وياحالة الأوزار
وخزنة المال المستعار . لا تجروا ذيل الافتخار . على أرباب الافتقار فقلوبهم خير من
قلوبكم . ومطلوبهم أعز من مطلوبكم . شغلهم التجول بالأسواق عن تنسم قبول
الأشواق . وألهاكم حب الرزق عن الرزاق . وياعمار الخراب . وشرب الشراب
لاتعمروا هذه القرية الجلحاء . ولا تسكنوا هذه المهلكة الفيحاء . لاتنخذوا الدنيا
الفانية سوقا . إن الباطل كان زهوقا .

وقوله أيضاً — يامن يسعى لقاعد . ويسهر لراقد . ويامن يحرس لراصد :
ويزرع لحاصد . ويبخل لباذل . ويجمع لآكل . تبني الايوان وعن قليل ينهدم
ركناك وتبسط الرواق وفي الجذث سكنك . قلب كقلوب الكفار وحرص كحرص
الفار ، ينقب بالأظفار . ولا يبقى على المأدوم والقفار . قل لي إذا وقعت الواقعة .
وقرعت القارعة . وأزف لك الرحيل . واجتمع الطبيب والعليل . واختلف الفسال
والغسيل . والعائد يغمز عينيهِ . والطبيب يقاب كفيه . حتى إذا انقطع نفسك .
وخفي جرسك . أينفعك حينئذ حلال أصبته أم حرام غصبته : أم نشب حرشته ^(١)
أو ولد حضنته . أو ربع أسسته . أو نبغ غرسته ^(٢) أو حطام حرسته أو قعر حرشته

(١) الذئب فتحين المال والعفار وحرشته أحرزته من حرش الضب صاده

(٢) النبع شجر تتخذ من أغصانه السهام

أو وفر أورثته ؟ كلا لا ينفعلك فيء قد غنمته . ولا يضرك شيء عدمته ولا ينجيك إلا
خير أمضيته . أو خصم أرضيته . فانتبه يا نائم واستقم يا هائم . لقد تهت في بادية
لا يبلغك ندائي . وترديت في هازية لا يبلغها ردائي . يغيم هواؤك ويصحى ^(١) حين
لا ينفعلك نصحي . ولا تعص الله في أولاد سوء إذا حضرك الموت غابوا . وما حزنوا
لما أصيبوا . بل فرحوا بما أصابوا . وأن تدعهم لا يسمعوا دعاك ولو سمعوا ما استجابوا .
وأما الأشعار ^(٢) — فالأكثر منها في المواضع مذموم قال الله تعالى في وصف
عامة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاؤون » جمع غاو ، وهو الضال المنهك في ضلاله
لا يردده شيء « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » والهاائم
الذاهب على وجهه لا مقصده . وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم
حتى يفضلوا أجبن الناس على عنقرة وأبخلهم على حاتم .

وقال تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولأن الشعر مقر الكذب قالوا
« أحسن الشعر أ كذبه » وقال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مفلحاً
في شعره . — أفاق الرجل وافلق وشاعر مفلق أتى بالعجيب — ولذا لما أسلم منهم
جماعة وكانوا مفلقين ضعف شعرهم كحسان ولبيد ، وقد فطن حسان من نفسه ذلك
وقد اختلفوا في مدح الشعر وذمه ، وأحسن ما قيل فيه قول الإمام الشافعي رحمه الله
حين سئل عن ذلك : الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح . وروى مثل ذلك عن
عائشة رضي الله تعالى عنها .

وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال
المعشوق ، وروح الوصال والتشوق إليه ، والنشكى من ألم الفراق كأنشاد قول
ابن الفارض : —

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرق من النسيم إذا سرى
عنى خذوا لى اسمعوا وبى اقتدوا وتحدثوا بصبا بى بين الورى

(١) أصبحت السماء انقشع عنها الغيم فهي مصحبة وصحو

(٢) الشعر هو الكلام الملقى الموزون قصداً فاقع موزوناً اتفاقاً لا يسمى شعراً

وقول أبي بكر البصري من أكابر الحنبلين :

ولو قيل طأ في النار أعلم أنه رضاك أو مدن لنا من وصالك
لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها سروراً لأنى قد خطرت بمالك
وقوله :

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه فليست أراه عن فنائك يبرح
رميت بين منك إن كنت كاذبا وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني بعيشك يملح
فإن شئت وأصلنى وإن شئت لا اتصل فليست أرى قلبي بغيرك يصلح

والجلس لا يجمع إلا أجناس العوام وبواطنهم مشحونة بالشهوات . وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة . فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها، قدشتعل فيها نيران الشهوات ، فيصيحون ، ويتواجدون ، ويتراقصون ، وأكث ذلك أو كله يرجع إلى نوع ضعف في الدين . وفساد في الأخلاق فلو اقتصر المجلس على الخواص العارفين السكاملين الذين عرفوا باستغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم فلا بأس به إذ أولئك لا يضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق بذكر الأوصاف المناسبة لهم من جمال ووصال وفراق . فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه بحسب المقامات فالألفاظ هى هى والمعانى مختلفة وكل إناء بالذى فيه يرشح — ولذا كان أبو القاسم الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلاً فإذا كثروا لم يتكلم .

فينبغى للواعظ في وعظ العامة أن لا يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة ظاهرة يرتدع بها عن خبث الباطن . أو حكمة نادرة يتعظ بها في كشف السر السكامن كقول الإمام الشافعى رحمه الله :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا نزل الفضاء

ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحواث الدنيا بقاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

وقول صالح بن عبد القدوس :

واحرص على حفظ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوب إذا تنافر ودها شبه الزجاجة كسرُها لا يشعب
واحذر مأخاة الدنى لأنه يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
وقول بعضهم :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا
وقول بعضهم :

وفى قبض كف الطفل عند ملاده دليل على الحرص المركب فى الحى
وفى بسطها عند الممات إشارة ألا فاشهدوا أنى خرجت بلائى
وقوله :

عجبت لمن يشرى الضلالة بالهدى ويحسب أن الخير فى جانب الشر
وما كان يوما طالب الشر راجحا ولا كان يوما راغب الخير فى خسر
ولكن هى النفس الأثيمة دائماً تَرَيْنُ ما تلقاه أبلغ فى الضر
ولبعضهم فى التحذير من إطلاق النظر إلى النساء .

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور جاء بالضرر
ولبعض الأدباء فى حفظ اللسان والعين .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ
وعينك إن أبدت إليك معايها
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
ولبعضهم في الخلق الفاضل .

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأصفح عن سباب الناس حلماً
ومن هاب الرجال تهيبه
وقال بعض الصوفية في الحث على الرضاء والتسليم .

يا هذه النفسُ أعلـى
والخادئات جـلـها
والعالمون صـغـيرهم
لا تجـزـعـى يا نفس
أن الأمور لها انقضاء
وحقيرها محض ابتلاء
وكبيرهم فيها سواء
إن الله يفعل يشاء

ولبعضهم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ندمت على ألا تكون كمثلـه
وأنشـد الحسن البصرى في وعظه .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وأنشـد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى الخطيب البليغ القاص .
الشجاع في قصصه .

أرض تخيرها لطيب مقيها
جرت الرياح على محل ديارهم
فأرى النعيم وكل ما يُلْهِى به
وخطب عبد الله بن الحسن رضى الله عنهما على منبر البصرة في يوم العيد فأنشد :

كعب بن مامة وابن أم دؤاد
فكأنهم كانوا على ميعاد
يوماً يصير إلى بلى ونفاد

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقها
تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاء وذاق الموت بانها
وقال موسى بن عبد الله الخراعى : بلغنى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
كان لا يحف فوه من هذا البيت :

ولا خير في عيش أمرىء لم يكن له مع الله في دار القرار نصيب
كل ذلك على سبيل استشهاد لكلامه ، واستئناس لما يورده من أحكامه
فقد روى البخارى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال : « : إن من الشعر لحكمة » والله تعالى التوفيق .

الفصل العاشر

مراجع الوعظ

مراجعته على قسمين أولية وثانوية « فالأولوية » هى العلوم الدينية التى أساسها
التوحيد وينبوعها الصافى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فعلم العقائد
مبناه آيات التوحيد ، ولا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة صالحة لتخاطب جميع
العالم على اختلاف العقول والمشارب والممال والنحل ، وهى بحقيقتها وقوتها داحضة
لكل شبهة رغم إلحاد الملحدين وزيف المارقين ، وما على المرشد إذا تعرض للعقائد
إلا أن يرجع إلى كتاب الله تعالى ويستخرج للمسترشدين درر العقائد من بحر الفيض
ويكسوها بالثوب اللائق بها فى مقام التخاطب ، ثم يورد الآية والآيات دليلاً على
قوله ، فلهذا تأثير فى النفوس يشهد له العيان : أو يسلك من أول الأمر طريق
القرآن الحكيم فى عرض الكائنات على الأنظار وتنبيهها إلى وجه الدلالة فيها على
وحدانية مبدعها وقدرته وعلمه وحكمته . وهذا أمثل الطرق وأفضلها .

وعلم التكاليف العملية التى سرها حفظ نظام العالم وإصلاح حالى المعاش
والمعاد ، وأيضاً الابتلاء والاختبار . فإن كان من العبد الامتثال فالمثوبة . وإن كان

الآباء فالعقوبة . مرجعهُ أيضاً آيات الأحكام والسنة الغراء « وعلم الأخلاق » الذى غايته إصلاح النفوس وإعداد الإنسان لأن يكون إنساناً حقيقياً يصلح للخلافة عن الله عز وجل فى أرضه هو معظم آيات الكتاب الحكيم والسنة الشريفة « وقسم السمعيات » كذلك مرجعهُ الكتاب والسنة .

وبهذا علمت أن بحرك الزاخر ومنهك الصافى الذى لا ينضب مأوه ، وأستاذك الذى لا ريب فيه هو الكتاب والسنة . ثم بعدهما كل كتاب فى العقائد أو الأحكام أو الأخلاق لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة — وإن هذا المعنى لتجده كثيراً فى كتب الفحول من العالمين العاملين . والدعاة المرشدين الذين قنعوا فى الدنيا . ورضوا منها بالقليل ، وعلقوا قلوبهم بالله تعالى ، وكل هذا نتيجة التحقق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبراً بشبر وذراعاً بذراع .

فهذه مراجع الوعظ الأولية التى منها يستمد . لهذا أرشدك إلى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة ، وحفظ القرآن الكريم مجوداً ، وحفظ كثير من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى ، لتكون أسرع إلى التأثير عند سماعها فلآيات والأحاديث طلاوة تهش لها النفوس وحلاوة تبهج عندها القلوب — وناهيك بكتاب رياض الصالحين للإمام النووى رحمه الله تعالى ، وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى بتخريج الحافظ العراقى ، فإنها نعم العدة والبضاعة الثمينة للمرشد . كذلك أرشدك إلى الرجوع كثيراً إلى كتب المتحققين لتستقى منها ما ينعش روحك ويغذى نفسك ويملأ قلبك ثقة بالله تعالى ، ولا يتجافى مع أغراض الدين الحنيف الواضحة مثل كتاب منازل السائرين للإمام الهروى بشرحه مدارج السالكين للإمام ابن القيم ودعهم فى شطحاتهم ومعمياتهم فلاحاجة للناس بها ، بل هى رموز وضموها لأنفسهم وأمثالهم والله تعالى يقول : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين » .

القسم الثاني - المراجع الثانوية

هي العلوم الوضعية سواء أكانت آلة للعلوم الدينية . ومنها التاريخ والسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء التابعين والأئمة المجتهدين نعرف منها أعمالهم الجليلة وأخلاقهم الفاضلة التي كونت عظمتهم والتي هي سر نجاحهم ، أم لا كالعلوم الدنيوية التي يتوقف على كثير منها نظام الحياة الاجتماعية من الرياضة والطبيعة بل الفنون والصنائع لقربها من فهم السامعين تفيد المرشد تشبيهات ومقابلات وأمثالا يستعين بها في التعاليم الدينية ويتوصل بها إلى المغايز الأدبية . يرشدك إلى هذا إمعان النظر في قول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . فإن الجهاد يتوقف على علوم دقيقة وصنائع كثيرة إذا جهلتها الأمة أو قصرت فيها ضعفت شوكتها ودالت دولتها . وكانت عرضة لأذلال الفاتحين . واستعباد المستعمرين ولوراجعنا تاريخ الأمم الغابرة ، وتأملنا أحوال الأمم الحاضرة . لعلمنا كيف عزت الأمم التي شمرت في هذه الفريضة وسعدت ، وكيف ذات الأمم التي قصرت فيها وشقيت .

ومما تقدم تعلم أن مهمة الواعظ من أكبر المهمات ، ووظيفته من أعظم الوظائف . وموقف المرشد في الحياة موقف القواد المجاهدين ، والعظماء العاملين وكما أنه لا بد للقائد من إحكام العدة وبعد النظر ، وأصالة الرأي ، كذلك لا بد للواعظ الديني أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية والأخلاق الدينية ، ملما بعلوم الاجتماع والعلوم الكونية مما تعرضت له النصوص الشرعية كشئون السموات والأرض والظواهر الجوية ، لئلا يعرض له من ذلك ما قد يعجز عن الجمع بينه وبين النصوص الشرعية ، أو يكون ظاهر الجهالة به ، وقد علمه صغار المتعلمين ، فيتخذ مجزه أو جهله ذريعة إلى ضعف الثقة به وعدم الاذعان له .

كما أنه لا بد أن يكون محيطاً تمام الاحاطة بما يريد أن يبينه للناس ملماً بجميع أطرافه مستحضراً لما جاء فيه من الآيات القرآنية ، وصحيح الأحاديث النبوية وآثار

السلف الصالح والحكم النافعة ، ليستطيع أن يوفى الموضوع حقه فتعظم فائدته ويأمن من الخلط والزلل ، كما يأتي بسطه — وبعد تمام الاستحضار يلقيه على السامعين مع التأنى والسكينة ، وإجابة السائل عن كل ما يحتاج إليه ، وتفهمه على قدر استعدادة باللفظ والبساطة والحلم ، وكل هذا لا يغنى عنه من الوعظ والارشاد شيئاً ما لم يكن ماهراً في طرق الارشاد ، عالماً بوسائل التأثير في النفوس واستمالة القلوب ، وهى المهمة التى نحن بصددنا ، وسيأتيك من وسائل التأثير ما فيه الكفاية والله تعالى ولى التوفيق .

الفصل الحادى عشر

أنواعه

هو باعتبار العرف نوعان : تعليم وتأديب « فالعليم » يكون ببيان عقائد التوحيد مراعى فيه ما يناسب كل طبقة — وبيان الأحكام الشرعية الخمسة من الواجب والحرام والمسنون والمكروه والمباح ، مقرونة بحكمة التشريع ، ومشفوعة بالحث على التمسك بها ، والتحذير من التهاون فيها — فان من تدبر أسلوب القرآن الحكيم علم أن أحكام الدين حتى المعاملات منها ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ الذى يلين القلوب ويبعثها على العمل ، لا أن تسرد سرداً خالية من وسائل التأثير .

ألا ترى قوله تعالى « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا طهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله » فإن الأمر بالتقوى بعد النهى عن إتيان النساء في الحيض ، والأمر بإتيانهن في موضع الحرث ، والأمر بالتقديم لأنفسنا تحذير من مخالفة هذا الهدى الإلهى . وقوله تعالى « واعلموا أنكم ملاقوه » إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا بفقد

منافع الطاعة والامتثال . وتجرع مرارة مغبة الخائفة والمصيان وقوله تعالى « وبشر المؤمنين » تبشير للطائعين الذين يقفون عند الحدود ، ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والأولاد ، والمبشر به عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة وقوله تعالى « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه وعيد شديد وتهديد عظيم بعد الأمر بالعدة ونهى المطلقات عن كتمان الولد أو الحيض في قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » كأنه تعالى يقول : إن تحقق إيمانهن بالله الذي شرع الحلال والحرام لمصلحة الناس ، ويوم الجزاء ، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وإلا كن غير مؤمنات لا بما شرع الله ولا بيوم الحساب — وقوله تعالى : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » فإنه يفيد أن الذي تقدم من الأحكام والحدود المقررة بالحكم والمشفوعة بالوعد والوعيد^(١) يوعظ به أهل التصديق بالله ويوم الجزاء على الأعمال ، فهؤلاء هم الذين يتقبلونه فتخشم له قلوبهم ، ويسارعون إلى العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، ورجاء الانتفاع به في العاجل والآجل — أما سواهم فلا * وقوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » فإنه ختم به أحكام الرضاع والقطام ، ونفقة الموضع ترغيباً وترهيباً ، لبيعث النفوس على التزام هذه الأحكام والحفاظة عليها ، أى أنه تعالى يحصى لكم أعمالكم ويجازيكم عليها ، فإذا راعيتكم حقوق الأولاد بالتراضى والنشاور واجتناب المضارة ، جعلهم قررة أعين لكم في الدنيا وسبباً لمثوبة الآخرة ، وإن أهملتم واجبههم وعمد كل منكم إلى الإضرار بصاحبه بسبب الولد ، كان الولد بلاء وفنة لكم في الدنيا وكانا بالإساءة إلى أنفسهما وولدهما عرضة لعذاب الآخرة * وقوله تعالى : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه » فإنه تحذير راجع إلى الأحكام السابقة عليه من التعريض بخطيئة النساء وغيره ، أى في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم

(١) وهو من أول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » إلى هذه الآية الكريمة .

فما عرضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكروهن
ولكن لا تواعدوهن سرّاً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح
حتى يبلغ الكتاب أجله » تحذير — جاء على سنة القرآن الحكيم في قرن الأحكام
بالعظة ترغيباً وترهيباً ، المحافظة عليها والانتفاع بإيها . وأما قوله تعالى : « واعلموا
أن الله غفور حلیم » بعد ما ورد من الوعيد والنشيد في الآيات السابقة ، فإنه يفيد
أن للعبد مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود ، وأراد الرجوع إلى مولاه
فإنه غفور له حلیم لا يعاجله بالعقوبة ، بل يمهله ليصلح بحسن العمل ما أفسد
بما سبق من الزلل ، ولا ريب أن المرشد إذا سلك في هذا النوع طريقة القرآن
الكريم التي ذكرنا شيئاً منها استرعى الأسماع وأخذ بمجامع القلوب .

(والتأديب) يكون بتحديد الأخلاق الحسنة كالحلم والشجاعة والوفاء وبيان
آثارها في المجتمع الإنساني والحث على التخلق بها ، وتعريف الأخلاق السيئة
كالعصب والجن والغدر وشرح مضارها ، والتحذير من الانصاف بها من طريق
الترغيب والترهيب . وينبغي للمرشد أن يستشهد في كل من النوعين بما جاء فيه
من الكتاب والسنة الصحيحة ، وآثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين
والأئمة المجتهدين وأحوالهم في ذلك رضى الله عنهم أجمعين ، فإن لهذا شأنًا عظيمًا
لا يستهان به في الوصول إلى الغاية المقصودة متى صدر من قلب سليم نقي طاهر من
الأدناس ، متخلق بما يدعو إليه ، فإن للوعظة إذا خرجت من القلب وقعت في
القلب ، وإن خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان — وإنك لترى في لهجة
القائل وهو يدعو إلى معنى متمكن في نفسه مالا تجده وهو يتصنع في الدعوة مهما
كان فصيح اللسان بليغ الأسلوب ، فكل كلام يبرز عليه كسوة من القلب الذي
عنه صدر ، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله : ما بالنا نعظ الناس فنبكيهم
وأنت نعظ الناس فتبكي ؟ فقال : ليست النائحة كالشكلى ! والله الهادى إلى
سواء السبيل .

الفصل الثاني عشر

إعداد الموعظة

من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة ، فليعتمد إلى المذكرات الفاشية ولا سيما ما كان منها قريب العهد ، وحديثه على السنة الناس أو ذائعا في الصحف . ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضررا وأسوأها أثرا ، فيجعله محور خطابه وموضع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية ، ويحصى هذه المضار في نفسه أو بقلمه ثم يستحضر ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار السلف ، ثم يأخذ في كتابة الموضوع إن شاء كتابته ، مُضمَّنة ما فيه من تلك المضار ، وما ورد فيه عن الشارع محذراً من الوقوع فيه حائلا على التوبة منه — هذا إذا أراد الاقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة — فإذا أراد الحُصْر على عمل صالح أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل ، فليفكر في مزاياه وآثاره الحسنة تفكيراً عميقاً ، وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك في الكتابة المسلك الذي بينا متجنباً السجع المتكلف والحسنات الثقيلة التي كثيرا ما تخفى الأغراض وتحجب المعاني — وينبغي أن يكون تفكيره في جو هادئ بحيث لا يحول بينه وبين حديث النفس ومراجعة العقل أى حائل ، كما ينبغي له أن يكون عند التفكير والإلقاء فارغا من الشواغل النفسية مقللا من الطعام والشراب حتى لا تذهب بطقته بقطته ، ويكون نشطا خفيف الروح حاضر الذهن سريع الخاطر حاضر البديهة .

ثم إذا كتب الموضوع فإن شاء حفظه وألقاه ، وإن شاء ذكر مضمونه ، وليحذر جهده من قراءته على الناس في ورقة فذلك يضعف قوته ويذهب بتأثيره في النفوس كما هو مشاهد — والثاني أحسن الأمرين حتى لا يكون مقيدا بعبارة خاصة فإذا عرض له أمر جديد أثناء الخطابة أمكنه القول فيه . وكثير من الحفاظ

إذا نسوا جملة تلعثموا أو أرتج عليهم فيفقدون هيبتهم من نفوس السامعين :
وما أحوج الخطيب إلى الهيبة والجلال ! فكان من الأحسن والمصلحة ألا يتقيد
بعبارة يحفظها بل يتخير من العبارات ما يؤدي المعاني التي حصل عليها بمحسه
وتفكيره - هذا إذا كتب الموضوع - وإن شاء عدم الكتابة واكتفى برسم
الموضوع في مخيلته وتسطيره في ذاكرته التي قواها بالمران والممارسة ، كان ذلك أحسن
وأكمل - ومن النافع في مثل هذا الحال تقسيم الموضوع بحسب نقطه إلى أقسام
كي يسهل عليه استحضاره عند إلقائه ، ويسير فيه بانتظام مستوفيا كل ما يحتاج إليه ،
وبإعداد الموضوع على هذا الطريق الذي رسمنا يكون الخطيب في مأمن من الزلل
والاضطراب ، وتبقى الموضوع صورة ثابتة في نفوس سامعيه وتعظم الفائدة . أما بدون
إعداد الموضوع ، واستحضاره تماما ، وتقسيمه قبل الدخول فيه فلا يأمن أن يتخبط
فيه ويسير في التأدية مشوشا مضطربا ، ولا يبقى له مثال في نفوس السامعين ،
ولا يحصلون منه على الغاية المقصودة ويسرع إليهم نسيانه .

ثم بعد ذلك ينبغي له أن يراعى حال التأدية استعداد السامعين ، فيتنزل
في العبارة مع العامة على قدر عقولهم متجنباً الألفاظ اللغوية البعيدة عن مداركهم
ويتوسط مع الأوساط ، ويتأنق مع الخاصة ، فيكون مع جميع الطبقات حكما يضع
الأشياء في مواضعها . وفي كل حال يتجافى في كلامه عن كل زخرف باطل لأن
مقصوده لا يتوقف على الرونق الظاهر والبهرجة السكاذبة ، بل على اختيار المعاني
النفيسة وتنسيقها وشرحها بالدقة ، وصوغها في قالب لطيف ، وإلباسها ثوبا شفافا
حسنا ، مستعينا في إبلاغها أذهان السامعين وإنفاذها في قلوبهم ودفع السامة والملل
عنهم ، بإيراد الشواهد عليها من الحكم النظرية والشعرية ، والملح^(١) التاريخية ،
والفكاهات الأدبية .

فَمِنْ الْحُكْمِ النَّظَرِيَّةِ قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِ مَنْ

(١) الملح من الأحاديث واحدها ملحمة كسجة ملح الشيء من باب ظرف حسن فهو مليح .

تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في مودة من لا ينفعه ، ومدح من لا يعرفه . وقوله
أظلم الناس لنفسه اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف
وتكبر على ذوى الفضل — وقوله من وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ، ومن
وعظه علانية فقد فضحه وشانه — وقوله التواضع يورث المحبة ، والقناعة تورث
الراحة ، وأرفع الناس قدراً من لا يرى قدره ، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله .
وقول ابن شبرمة : العجب ممن يحتذى من الحلال مخافة المرض ، ولا يحتذى من الحرام
مخافة النار — وقول بعضهم من سمع بأذنه صار حاكياً ، ومن أصغى بقلبه كان
واعياً ، ومن وعظ بفعله كان هادياً — وقولهم اجتمعت حكاء العرب والعجم على
أربع كلمات : لا تحمّل بطنك مالا تطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولا تثق بامرأة ،
ولا تغتر بمال وإن كثير . وقولهم : ثروة العاقل في علمه ، وثروة الجاهل في ماله ،
وهم السعيد آخرته ، وهم الشقي دنياه .

وقولهم : إرفع علم الحق يتبعك أهله — العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل
التوفيق ، وقربين الهوى الخذلان ، والنفوس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه .
أحق من عطفت عليه بجملك ، من لم يستشفع إليك بغيرك — يسار النفس أفضل
من يسار المال ، ومن أحسن وهو على ظهر الأرض لن يساء إليه في بطنها — من
كساه الحياء ثوبه ، خفي على الناس عيبه .

ومن حكم سيدنا على رضى الله عنه

أدبُ المرء خيرٌ من ذهبه — بشر نفسك بالظفر بعد الصبر — خَفِ الله تأمنَ
غيره — خليلُ المرء دليلُ عقله — صاحبُ الأخيار تأمنَ الأشرار — عَشْ قَدَمًا
تسكن مِلْكًا — وَحَدَّةُ المرء خيرٌ من جليسِ السوء — شرُّ الناس من لا يبالي أن
تراه الناس مُسيئًا — كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان — الحازم من حفظ ما في يده
ولم يؤخر شغل يومه لغده . وقال حكيم : اجتنب سبع خصال يسترح جسمك ،
وقلبك ، ويسلم لك عرضك ودينك : لا تحزن على ما فاتك ، ولا تحمل هم ما لم ينزل

بك ، ولا تلُم الناس على ما فيك مثله ، ولا تطلب الجزاء على ما لم تعمل ، ولا تنظر بشهوة إلى ما لم تملك ، ولا تغضب على من لم يضره غضبك ، ولا تمتدح من لم يعلم من نفسه خلاف ذلك — وقال الأحنف بن قيس : لا مروءة للكذوب ، ولا سودد لبخيل ، ولا ورع لسيء الخلق . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من ذهب حياؤه مات قلبه — من كذب فخر ومن فجر هلك — ثلاث خصال من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان . حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يحجزه عن المحارم ، وخلق يدارى به الناس — أقلل من الدين نعش حراً ، وقال حكيم : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال آخر : إذا جالست الجاهل فأنتصت لهم ، وإذا جالست العلماء فأنتصت لهم ، فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم . وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه — ومن الحكم الماثورة : لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب الأحمق من وراء لسانه : يتكلم بكل ما عرض له . وقال معاذ رضى الله عنه : أنت سالم ماسكت ، فإذا تكلمت فمليك أولك . وقال بعض الحكماء : إلزم الصمت فإنه يكسبك صفوة الحبة . ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مؤنة الاعتذار — وقال حممة بن رافع الدوسى من حكماء العرب : أجدر الناس بالصنيعة من إذا أعطى شكر . وإذا منع عذر ، وإذا مظل صبر . وإذا قدم العهد ذكر . وقال : أكرم الناس عشرة من إذا قُرب منح . وإذا ظلم صفح . وإن ضويق سمح . وقال : ألام الناس من إذا سأل خضع . وإذا سئل منع . وإذا ملك كنع^(١) ظاهره جشم وباطنه طمع — وقال : أجل الناس من عفا إذا قدر . وأجل إذا انتصر . ولم تطفه عزة الظفر — وقال : أنعم الناس عيشاً من تحلى بالعفاف . ورضى بالكفاف . وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف .

(١) قبض . يقال : تكنع جلده إذا تقبض . يريد أنه ممسك بخيل .

وقال : أشقى الناس من حسد على النعم ، وسخط على القسَم ، واستشعر الندم على ما الحتم — وقال : أغنى الناس من استشعر اليأس ، وأظهر التَّجَمُّل للناس ، واستكثر قایل النعم ولم يسخط على القسم .

ومن الحكم الشعرية قصيدة أبي الفتح البستي وهاهي مشروحة بإيجاز .

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

الزيادة النمو ، يحىء لازماً ومتعدياً ، وهذا لازم لوقوعه في مقابلة النقصان ، وهو لازم . الربح اسم ماربحه ، ويحىء مصدراً أيضاً ، وضده الخسران . المحض الخالص الخير ضد الشر . والمعنى : زيادة كل امرئ في دنياه زيادة تشغله عن الله تعالى نقصان في الحقيقة ، وما ربحه من المال في الدنيا خسران في الحقيقة ، إلا إذا كان خيراً محضاً ، وهو ما يبتغى به الدار الآخرة ، والجمع بين الزيادة والنقصان والربح والخسران طباق .

وكل وجدان حظ لاثبات له فان معناه في التحقيق فقدان

وجدان مصدر وجدت الشيء وجدانا بالكسر ووجوداً مقابل فقده . الحظ النصيب . التحقيق : مصدر حققت الأمر وأحققته إذا صرت منه على يقين . وفي بمعنى عند . فقدان بضم الفاء وكسرها . فقد الشيء إذا عدمه . لاثبات له : لابقائه والمعنى كل نصيب من دار الدنيا أصابه المرء لادوام له ، فانه عند إمعان النظر عدم فلا يعول عليه ، ولا يركن إليه ، والذي يعول عليه عند أولى النهى الحظوظ الأخروية لأنها الباقية ، ولو ذكرت الفاء بدل الواو ليعكون تعليلاً لما أضممته البيت الأول لكان أوجه .

يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً بالله هل لخراب العمر عمران

الخراب ضد العمران ، والدهر الزمان . الاجتهاد بذل الوسع لنيل المقصود . العمر بضم العين عيش الإنسان ، والعمران مصدر كغفران . المعنى يا عامراً لما خبر به مرور الزمان باذلا طاقته في كل أوان ، أخبرني هل عامر لخراب عمرك موجود ؟ والجمع بين

العمارة والحراب طباق . وبين العمر والعمران تجنيس تام .

وياحربصاً على الأموال يجمعها أنسيت أن سرور المال أحزان

الحرص : الجشع — النسيان خلاف الذكر والحفظ أنسيت مبنى للمجهول وفاعله الأصلي إما الحرص أو الجمع الدال عليهما أول الكلام . المعنى ياجشعاً في جمع الأموال أساك الحرص والجمع كون سرور المال هموماً وأحزاناً ، أما في الدنيا فكما ترى ، وأما في الآخرة فلأنه يحاسب عليه من أين جمعه ، وفيه أنفقه . والجمع بين السرور والحزن طباق .

دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها فصفوها كدر والوصل هجران

دع . بعد بقرينة استعماله بمن ، وبروى زع مكان دع ، من وزع يزع وزعاً مثل وضعه يضعه وضعا . أى كيفه — زينتها : زخرفها — صفوها الشيء خالصة . الوصل : الالتقاء ، والهجران بالكسر كالهجر ضد الوصل . المعنى : لما كان سرور المال يوجب الأحزان ينبغي أن تبعد قلبك عن حب الدنيا والافتتان بزينتها لأن ما تصورت صفوه منها فهو بخلافه ، ووصلك إياها هو في الحقيقة قطيعة .

وأرغ سمك أمثالا أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان

الإرغاء : الأصغاء — السمع : الأذان — والمراد بالأمثال الأبيات التي تذكر بعد — التفصيل : التبيين — الياقوت : الحجر المشهور — المرجان : الخرز الأحمر المعروف . ومعناه واضح .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

استعبد الإنسان إتخذه عبداً والفاء للتعليل — وما في طالما وقلماً كافة ، عن طلب الفاعل ، وتسكتب موصولة كما في ربما وإنما ، هذا إذا كانت كافة أما إذا كانت مصدرية فليس إلا الفصل . وهنا يصلح لكل واحد منهما . المعنى يشبه أن يكون مأخوذاً من كلام الإمام علي كرم الله وجهه إذ يقول « بالبر يستعبد الحر » معناه : المرء ببره يسترق الحر ويستحق الشكر .

ياخد الجسد كم تسعى لخدمته أنطاب الربح مما فيه خسران
الجسم : الجسد وكذا الجسمان والجثمان . كم للاستفهام ، منصوب على الظرفية
أو على المصدر حسب تقدير المميز ، أى كم زماناً تسعى ، أو كم سعياً تسعى . والمهمزة
للاستفهام التوبيخى ، أى لا ينبغي لك أن نطاب الربح فى غير محله . المعنى : يا من
يخدم جسمه ويطلب إرادته كثر سعيك لخدمته . وينبغى للعاقل ألا يسعى وراء
شهوته ، فليس فى ذلك ربح له ، بل فيه خسرانه ، لأن فى خدمته تقويته ،
وهى توجب استيلاء القوة الشهوية والغضبية ، ومن غلبت عليه هذه القوة
التحق بالبهائم .

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
الإقبال : ضد الإدبار ، والنفس : الروح — والاستكمال : طلب الكمال
والفضائل جمع فضيلة وهى المزية ، كالتحلى بالأخلاق الحميدة . والمعنى : لما زجر
عن خدمة الجسم لسوء مغبتها ، أمر بتربية النفس ، وذلك بتحليلتها بالأخلاق
الكريمة ، والشمال المرضية ، وتنزيهاها عن المكدرات الطبيعية ، والعلائق البدنية
فإن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه .

وإن أساء مسيء فليكن لك فى عروض ذاته صفح وغفران
أساء إليه تقيض أحسن إليه — عروض : مصدر عرض الأمر إذا ظهر —
الصفح : الإعراض عن الذلة ، والغفران : التغطية والستر — صدر البيت فى معنى
الإيشاء أى لا تشتغل بإساءة من أساء إليك ، بل أعرض عنه واستر زلته —
ولو كان مكان الواو فاء ليكون تفرعاً على البيت قبله لكان أقرب ولم يحتاج
إلى هذا التكلف .

وكن على الدهر معواناً لذى أمل يرجو نذاك فإن الحر معوان
معوان للمبالغة من المعونة — الأمل : الرجاء — الندى : العطاء — الحر :
كناية عن الكريم : المعنى من كان يرجو منك عطاء يستعين به على نوائب الزمان
لفحق أهله أملة ، لأن ذلك دأب الكريم .

واشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

الشد : العقد ، يقال شد شد يشد بضم الشين وكسر ها إذا عقد . الحبل : الرسن ويستعمل في العهد مجازاً ، وفي بعض النسخ بحبل الدين مكان بحبل الله . والدين الإسلام . الاعتصام : طلب المصمة ، وهى الحفظ : ركن الشيء جانبه الآخر ، وقد يطلق على العز والمنعة كقوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » المعنى استمسك بعهد الله ودينه الذى رضىه لسعادة الناس ، فإن من استمسك به فقد استمسك بالركن الذى لا يشقى أندأ من لجأ إليه واعتصم به فى دينه ودنياه .

من يتق الله يحمده فى عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
التقوى : امثال الأوامر واجتناب النواهي . والحمد : الثناء بالجميل على الجليل .
عواقبه : عاقبة كل شيء آخره — يكفه : من الكفاية بمعنى الوقاية — العز :
خلاف الذل . والهوان خلاف العز . والمعنى : من يطع الله بامثال الأوامر
واجتناب النواهي كان محموداً فى عواقب ذلك . ويدفع الله عنه شر جميع الناس .
سواء أكانوا أعزاء أم أذلاء .

من استعان بغير الله فى طلب فإن ناصره عجز وخذلان

الاستعانة طلب الإعانة . فى طلب أى شيء مقصوده . العجز : الضعف .
الخذلان : ترك العون والنصر . وقوله فإن ناصره عجز ، من قبيل قولهم رجل عدل .
وفيه ثلاثة أوجه : فإن قيل يشترط فى الجملة الشرطية أن يكون الأول سبباً للثانى
وطلب الإعانة من الغير ليس سبباً لأن يكون ناصره عاجزاً : قلنا تقدير الكلام من
استعان بغيره تعالى فى طلب مقصوده يكن ذلك سبباً للإخبار بأن ناصره عجز
وخذلان . فجواب الشرط محذوف ، نظير قوله تعالى « إن كان قميصه قد من قبل
فصدقت » أى يكون سبباً للإخبار بأنها قد صدقت . والمعنى يفهم مما ذكر .

من كان للخير مناعاً فليس له على الحقيقة إخوان وأخذان

مناع : مبالغة مانع . الحقيقة : من حق إذا ثبت ، والمراد الواقع والخدن

الصديق . المعنى : من كان دأبه وديدنه منع الناس من الخير فليس له في الواقع صاحب ولا صديق ، وكان شريراً عدواً لنفسه ولغيره ، ومن أظهر له الحبة فيما لدفع شره أو لغرض آخر ، وليس في الواقع محباً ولا صديقاً له .

من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للإنسان فتان جاد بالشيء : سخابه وسمح . قاطبة : جميعاً . فتان مبالغة من الفتنة ، وهى الامتحان والاختبار . والمراد هنا السحر والجذب . والمعنى : من سخا بالمال أحبه الناس جميعاً وانقادوا له ، فان طبيعة المال سحر النفوس وجذب القلوب إلى صاحبه .

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان المسألة المصالحة . يسلم : مضارع من السلامة . الغوائل جمع غائلة من الغول وهو الإهلاك فجأة ، يقال غاله الشيء واغتماله إذا قتله من حيث لا يدرى وعن الكسائى أن الغوائل هى الدواهى . والمراد هنا الشرور . عاش من العيش وهو الحياة . قرير العين : قرت عينه تقرّ بكسر القاف وفتحها ضد سَخِنَتْ . والمراد الاطمئنان ، الجذل بالتحريك : الفرح . يقال جذل بالكسر يجذل فهو جذلان . المعنى من دار مع الناس ولم يعاند معهم سلم من شرورهم وعاش مطمئناً هادئ البال فرحاً مسروراً .

من كان للعقل سلطان عليه غدا وما على نفسه للحرص سلطان يقال للقوة المفكرة عقل ، وللعلم الاستفادة بتلك القوة أيضاً عقل . السلطان : الوالى والحجة والبرهان أيضاً . وعلى الثانى يجرى مجرى المصدر . المعنى : أن من كانت أعماله صادرة عن سلطان الدين والعقل لم تغلب عليه الشهوة ولا الحرص والطمع ، وكان محبوباً لدى الله والناس أجمعين .

من مد طرفاً لفرط الجهل نحو هوى أغضى عن الحق يوماً وهو خزيان الطرف : العين . الفرط : أفرط فى الأمر إذا جاوز فيه الحد ، والاسم منه الفرط . الهوى : مقصوراً ميل النفس إلى الشيء ، من هواه يهواه إذا أحبه . والنحو الجانب . الخزى الهوان . أغضى عن الحق أعرض عنه . المعنى : من مدعينه إلى جانب هوى

نفسه الأمانة بالسوء لتجاوز جهله الحد ، وأغض عينيه عن رؤية الحق ، وأعرض عنه في يوم أى يوم ، والحال أنه خزيان في ذلك اليوم ، مهان حيران ، فاعاقل من لا يجعل زمام عقله في يد نفسه وهواه .

من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر برهان
صروف الدهر : حوادثه ونوائبه ، والطبع والطبيعة : السجية التي خلق الإنسان عليها . البرهان : الحجة . المعنى من رجع إلى حوادث الزمان ونوائبه ونظر إليها بالعين السليمة ، ظهرت له الحجة القاطعة على طبيعة الزمان ، وأنه لا يؤمن غائلته .
ويقرب من هذا البيت قول بعض الأدباء :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبان
الزرع : البذر على الأرض ، والمراد العمل . يحصد : حصدُ الزرع جزاءه وقطعه
والمراد يحصد . إبان الشيء . بكسر الهمزة وتشديد الباء وقته ولاحقوبة وقتها ، كما قال تعالى « وأملئ لهم إن كيدى متين » فالظلمة والأشرار إن لم يندموا في العاجل فلهم ندامة في الآجل ، وكان الظاهر أن يقال من يزرع الشر يحصد الشر ، إذ أن المحصود لا يكون إلا من جنس المزروع ، إلا أنه من قبيل إقامة المسبب مقام السبب ، وهي سائغة شائعة .

من استنم إلى الأشرار نام وفي قميصه منهم صلُّ وتعبان
استنم إليه : سكن واطمأن ، والمراد ركن إليهم . الأشرار : جمع شركوند وأزناد ، وقيل جمع شرير ، وهو كثير الشر ، مثل يتيم وأيتام . الصل بالكسر الحية التي لا يفيد معها علاج . والتعبان ضرب من الحيات . المعنى : من صاحب الأشرار وخالطهم وصل شرهم إليه من حيث لا يدري ، ولا يقدر على دفعه . وفي ذكر القميص لطيفة تدرك بالتأمل .

كن ريق البشر إن الحرهمته صحيفة وعليها البشر عنوان
الريق بالتشديد من كل شيء أفضله ، ومنه ريق الشباب ، وريق الثياب ،

وقد يخفف . البشر — بكسر الباء — طلاقة الوجه . المهمة : ما يعمئك من نفسك على طلب المعالي . الصحيفة : القرطاس . وقيل الأوراق المكتوبة ، وهو المراد هنا بقرينة قوله : وعليها البشر عنوان . المعنى : كن طلق الوجه بشاشاً ولا تكن منقبضاً عبوساً . فإن عادة الكريم إدخال الفرح ابتداءً على أخيه خصوصاً عند اللقاء كصحيفة جاءت من قريب أو حبيب تحمل البشارة ، فإن من وصلت إليه تلك الصحيفة يحصل له الفرح والنشاط بمجرد النظر في عنوانها ، بخلاف ما إذا كانت معنونة بضدها ، فإنه يتألم لمجرد رؤيتها . كذا من دأبه العبوس والانتقباض عند لقاء الناس كما قال بعض الأدباء :

بشاشة وجه المرء خير من القِرَى وكيف إذا جاء بالقِرَى وهو ضاحك
ورافق الرفق في كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذمه إنسان
الرفق ضد العنف . الأمور : جمع الأمر وهو الشأن — الرفيق : اللين الهين .
المعنى : صاحب اللين في كل الشئون ، فإن اللين من بنى الإنسان لا تلحقه ندامة ولا يذمه أحد من الناس ، وإنما يذم الشديد المعاند . وفي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . وقال بعض الحكماء : عليك بالصدق في مقالك ، والرفق في أفعالك ، فمن صدق في مقاله جل قدره ، ومن رفق في أفعاله تم أمره .
ولا يغرنك حظ جره خرق فأنلحرق هدم ورفق المرء بنيان
غرته الدنيا غروراً من باب فقد خدعته بزينتها ، واغتر بالشيء خدع به .
الحظ النصيب — الخرق بفتححتين مصدر والاسم الخرق بالضم ، والأخرق ضد الرفيق وبابه طرب . المعنى : لما أمر بالرفق واللين حذر من الغرور بنصيب جره إليه العنف والشدة لأنهما كالهدم والرفق كالبنيان ، والأول مستلزم للعدم ، والثاني مستلزم للوجود .

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة فلن يدوم على الإحسان إمكان

يقال : أمكنه إذا جماله قادرا . المقدرة بالضم اليسار ، وحذف معمول أحسن يفيد العموم أى أحسن إلى كل أحد لأن من أحسنت إليه إذا كان أهلاً له فالإحسان إليه واجب ، وإن لم يكن أهلاً له فأنت أهل له . ومعنى البيت واضح .

فالروض يزدان بالأنوار فاغمة والحر بالعدل والإحسان يزدان الروضة : الموضع المعجب بالزهور والروضة : العشب والبقول . يزدان من الزين بمعنى يتزين . الأنوار : جمع نور بفتح فسكون ، ونور الشجرة زهرها — فغم الورد : انفتح . المعنى : أحسن ما دمت متمكناً من الإحسان قادراً عليه ، لأن زينة الحر الكرم بالعدل والإحسان إلى الناس ، كما أن الروض زينته بالأنوار المتفتحة . فنزل الحر منزلة الروض ، والعدل والإحسان منزلة الأنوار المتفتحة ، والأصل في هذا الكلام تقدم المصراع الثانى على الأول ليكون تمثيلاً له إلا أنه قدم لضرورة النظم .

صن حُرَّ وجهك لا تهتك غلالته فكل حر حُرَّ الوجه صَوَّان حُرَّ وجهك المراد به ماء الوجه — الهتك : مصدر هتك الستر هتكاً من باب ضرب خرقه أو شقه حتى يظهر ما وراءه . وهتك الله ستر الفاجرة : فضحه . الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب والدرع ، والمراد من الحر الكريم . المعنى : صن ماء وجهك لا ترقه لأمر دنيوى لأن الكريم هو الذى يصون ماء وجهه ويحفظه عن كل لئيم كما يصون عرضه كما قال ابن عبد القدوس .

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه حياءك فاحفظه عليك فإعما يدل على فعل الكريم حياؤه دع التكاسل فى الخيرات نطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان التكاسل إظهار الكسل مع عدم إرادته كالتجاهل . والمراد به هنا الكسل والتثاقل عن الأمر وبابه طرب . السعادة : خلاف الشقاوة . ومعنى البيت جلى . ولا ظل المرء يعرى من شىء وتقى وإن أظلمته أوراق وأفنان

الشيء جمع نُهية وهو العقل سُميَ بها لأنه ينهى صاحبه عند القبيح ، وإنما جمعه لأنه أراد به العقل العملي والنظري ، فالعقلي قوة للنفس الإنسانية بها يقتدر على تحصيل الآراء في الأمور التي تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس والبدن ، والنظري قوة يتمكن بها من تحصيل العقائد والآراء في الموجودات التي لا تدخل تحت كسبه ، وبهذه القوة كمال النفس الإنسانية . وإطلاق الجمع على الاثنين سائغ . التقى والتقوى بمعنى ، وهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي . الأوراق جمع ورق الشجرة والكتاب واحده ورقة . الأفنان جمع فنان وهو الغصن . الواو من وإن أظلمته للعطف على محذوف كقولك « أتيتك إن أتيتني وإن لم تأتني » وعند البعض الواو للحال وعلى كلا المذهبين معنى الشرطية منسلخ عنها ، إذ المراد التسوية . المعنى : أن من لم ينتفع بالعقل بنوعيه ولم يمثل الأوامر ويجتنب النواهي فليس يعد في زمرة الإنسان وإن كانت تظله أوراق الأشجار وأغصانها ، وإن كانت صورته صورة الآدمي ، فإنه في الحقيقة ليس بآدمي ، لأن كل شيء خلق لغاية ولم تحصل عنه تلك الغاية كان في حكم المعدوم ، ولذا كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء هذا ليس بفرس ، والإنسان البذيء ليس هذا بإنسان ، ويقال فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل فعل عينه وأذنه وإن كان شبيهماً باقياً ، وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عى فهم لا يبصرون » في من لم ينتفع بهذه الأعضاء . وعبر بانتفاء الظل وأراد انتفاء الإنسان لأن الظل من لوازمه وانتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم .

والناس أعوان من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوان العون إذا استعمل باللام كان معناه الحجة وإذا استعمل بعلی فعناه البنض . الموالاة ضد المعاداة وهي المصادقة من قولك وليه يليه إذ أحبه وصادقه ، ومنه الولي ضد العدو . الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال كانت لنا عليهم الدولة ، والجمع الدول بكسر الدال . الدولة بالضم في المال يقال صار الفیء

دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . واجمع دولات ودول . والادالة :
الغلبة يقال اللهم أدنى على فلان وانصرنى عليه . ودالت الأيام دارت . والله يداولها
بين الناس . وتداولته الأيدي أخذته ، هذه مرة وهذه مرة . والمعنى واضح
سَحْبَانُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ بِأَقْلٍ حَصِيرٌ . وبأقل في ثراء المال سَحْبَانُ
سحبان رجل من بلغاء العرب يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة يقال
هو أفصح من سحبان بن وائل . وبأقل : رجل مشهور بالعى حتى يضرب به المثل
فيقال أعبى من بأقل — الحَصَرُ : العى وعدم البيان . الثراء : كثرة المال . والمعنى
أن الرجل الفصيح البليغ مع الفقر لا يؤبه به ولا يسمع له . والرجل العيى الذى
لا يكاد يُبين مع الغنى موقر محترم وهذا من فساد الزمان .

لا تودع السر وشاء به مذلا فما رعى غما في الدو سرحان
أودعه مالا دفعه إليه ليسكون ودبعة عنده واستودعه ودبعة استحفظه إياها .
وشى فى كلامه وشيا : كذب ، ووشى به عند السلطان وشيا : سمى به . وبابه
وعد . مذل بسره كعلم ونصر وكرم فهو . مذل ومذبل أفشاه الغنم : اسم جنس
لا واحد له من لفظه — الدو والدَّوِيَّة : المغارة . والسرحان بالكسر الذئب جمعه
سراحين والأنثى سرحانة — المعنى لا تقل سرى عند من هو معروف بإفشاء
الأسرار لأنه لا يؤتمن عليه كذئب فى فلاة لا يؤمن على الغنم بل الغالب أنه يمزقها
ويفرقها . شبه السر بالغنم والوشى بالذئب فكما أن صاحب الغنم يريد حفظها
كذلك صاحب السر ينبغي له أن يحفظه من واش يفشيه بين الناس كتفريق
الذئب الغنم .

لاتحسب الناس طبعاً واحداً فلهم غرائز است تحصيلن ألوان
الطبع : السجية التى جبل عليها الإنسان وهو فى الأصل مصدر والطبيعة مثله .
الغريزة الطبيعة والقريحة — اللون : النوع والهيئة كالسواد والبياض وهو صفة
الغرائز وكذلك الجملة الفعلية بعدها قدمت للضرورة . المعنى : لا تظن أن الناس

طبيعة واحدة وغرائز متحدة ، لأن غرائزهم متنوعة وطبائعهم مختلفة ، فإذا اقتضت طبيعة بعضهم حفظ السر فلا تظن أن كل أحد أمين عليه . ولتحقيق هذا أورد مثلين . سائرین فقال :

ما كل ماء كصداء لوارده نعم ولا كل نبت فهو سعدان

صداء ككتان أعذب عين عند العرب ، السعدان نبت من أفضل مراعى الإبل . أصل المثل الأول أنه لما قتل لقيط بن زرارة من بنى دارم تزوج امرأته رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطا ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ فقالت : كل أموره حسنة ، ولكنى أحدثك أنه خرج مرة إلى الصيد فلما رجع إلى وبقميصه نضح من دم الصيد والمسك تضيع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه فضمنى ضمة وشمى شمة ، فليتنى مت ثمة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ فقالت : ما كل ماء كصداء لوارده . فأرسلته مثلاً يضرب للشئ يفضل على أقرانه ويعلو على أشكاله . وأصل المثل الثانى ما رواه أبو عبيد عن المفضل أنه لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ القيس وكان مفترطاً ، فقال لها أين أنا من زوجك ؟ فقالت : مرعى لا كسعدان . فأرسلته مثلاً : نعم حرف يقرر به ما سبقه مثبتاً كان أو منفيًا ملفوظاً أو مقدراً كقولك لمن يقول أقام زيد ؟ نعم . أى قام أو يقول لم يقيم زيد : نعم . أى لم يقيم . وهنا يقرر بها ما تقدم تقديره لأن الشاعر لما قال المصراع الأول تخيل سائلاً سأله أى أصادق أنت فيما قلت ؟ فقال : نعم . أى أنا صادق فيه — المعنى : ليس كل إنسان من دأبه إخفاء سر صديقه بل إخفاء أسرار الأحرار شيمة الكرام الأبرار ، كما قيل صدور الأحرار قبور الأسرار كما ليس كل ماء كماء صداء فى السلامة والعذوبة لوارده ولا كل نبت كنبت سعدان فى التسمين والمنفعة لراعيه .

لا تخدشن بمطل وجه عارفة فالبر يخدشه مطل وإيان

خدشه خدشا من باب ضرب جرحه فى ظاهر الجلد خرج منه دم أولاً —

المطل التسوية بوعد الوفاء مرة بعد أخرى ، وبإيه قتل . العارفة . المعروف .
الليان بفتح اللام أكثر من كسرهما وتشديد الياء المطل في الدين فهو مرادف لما
قبله . المعنى لا تجرحن بأظفار مطلق وجه معروفك وإحسانك لأن الماطلة تشين
البر والمعروف . قال بعض الحكماء : خير المعروف من لم يتقدمه مطل ولم يتبعه من
فخير البر عاجله ، وأفضل الإحسان ما سلم من المن والأذى .

لا تستشر غير ندب حازم يقظ . قد استوى فيه إسرار وإعلان
شاوره في الأمر واستشاره بمعنى ، أى أخذ رأيه فيه ، ندب خفيف في الحاجة .
الحزم ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة . يقظ حذر متحذر : الأسرار : السكتان .
الإعلان : الإظهار . فيه أى عنده . المعنى : لا تستشر في أمورك إلا من توفرت
فيه هذه الخصال الأربعة الخفة في الحاجة وضبط الأمور والتيقظ والصراحة في الحق .

فللتدبير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
التدبير جمع تدبير وهو النظر في الأمر الذي تؤول إليه عاقبته . فرسان
جمع فارس كصحبان جمع صاحب ركض الفرس برجله استحثه ليعدو — أبر الرجل
على أصحابه علام وغلبهم من الأبرار وهو الغلبة والعلو — المعنى : لما نهى عن
استشارة من لم تتوفر لديه شروط الاستشارة تخيل أن المخاطب يحسب أن أهل
التدبير انعدموا وأهل الاستشارة فُقدوا ، فأزال هذا التوهم بقوله : فللتدبير .
أى أن أهل الاستشارة باقون ولها رجال إذا ركضوا في ميزان الرأى نفعا من
يرجع إلى رأيهم ، كما أن للحرب فرسان إذا جالوا في ميدان القتال غلبوا على
أعدائهم وظفروا بهم .

وللأموار مواقيت مقدرة وكل أمر له حد وميزان
المواقيت جمع ميقات وهو الوقت . محددة حد الشيء نهايته ومعناه واضح .
فلا تكن عجلا في الأمر تطلبه فليس محمد قبل النضج بحران
العجل صفة مشبهة من العجلة وهى خلاف البطء . والنضج بضم النون وفتحها

الإدراك . البحران : عند الأطباء شر المقاومة والمواقفة التي تكون بين الطبيعة والمرض وتلك إنما تكون في كل ثلاثة أيام ونصف يوم . ثم هذه المقاومة إن وقعت بعد نضج مادة المرض فهي علامة غلبة الطبيعة وآية الصحة ، وإن وقعت قبل نضجها كانت غالباً علامة الهلاك فلذا قال فليس يحمد قبل النضج بحران — المعنى : لما كان للأمور أوقات مقدرة وأزمان معينة ، فيكون لها نهاية عينها الله تعالى لحصولها ولا تحصل قبل بلوغها فإذن لا فائدة في العجلة فليس يحمد كما لا يحمد البحران قبل نضج مادة المرض . وأورد المصراع الثاني على سبيل التمثيل والفاء في المصراع لأول للتعليل .

كفى من العيش ما قد سد من عوز فقيه للحر قنيان وعُنيان .
المراد من العيش ما يحصل بسببه العيش — سدّت الثلثة : أصلحتها وأرتقتها
عوز الشيء عوزاً من باب تعب عز فلم يوجد وعزت الشيء أعوزته من باب قال
احتجت إليه فلم أجده ، وأعوزني المطلوب مثل أعجزني وزناً ومعنى ، وأعوز الرجل
إعوازاً افتقر ، وأعوزته الدهر أفقره . وفي بعض النسخ رفق مكان عوز . والرق
بقية الروح . قنيان : مال يتخذ قنية تقول قنوت الغم وغيرها قنوة وقنيته قنية
بكسر القاف وضمها فيهما إذا اقتنيتها لنفسك لا للتجارة ، واقتناء المال وغيره اتخاذه
وقى الرجل بالكسر قى كرضى صار غنياً وراضياً وأقناه الله أعطاه ما يقتنى من
القنية والنشب . وأقناه أيضاً : أرضاه . والقنى الرضا ويقال أيضاً أغناه وأقناه :
أعطاه ما يسكن إليه . غنيان : مصدر غنيت بكذا عن غيره من باب تعب إذا
استغثت به ، والاسم الغنية بالضم فأنا غني وغنيت المرأة بزوجه غنياً بالضم
استغثت عن غيره . المعنى : كفاك من المال ما أزال فقرك فلا تطلب كثرة المال
لأن بذلك القدر راحة للاحر وغنى عن الكثرة مع التعب .

وذو القناعة راض من معيشتة وصاحب الخرص إن أترى ففضبان
قنع قناعة من باب سلم رضى بالقسم — الثراء بالمد كثرة المال ومن في من

معيشته بيان لمخدوف أى راض بما قسم الله له من أسباب عيشه بخلاف الحريص فهو غضبان غير راض عن الله تعالى وإن أكثر عليه نعمته وماله لأنه غير راض بالمقسوم وما أعطاه الله تعالى بالنسبة إلى حرصه قليل .

حسب الفتى عقله خلا يعاشره إذا تحاماه إخوان وخلان
حسب الفتى كاف له عن غيره . الخل بكسر الخاء : الخليل كالحب والحبيب
المعاشرة : المخالطة — تحاماه الناس . توقوه واجتنبوه . المعنى : إذا اجتنب الفتى
إخوان سوء وأحابب زور فعقله يكفيه عنهم ، فالرجوع إليه عند الحاجة أولى .

هما رضيعا لبان حكمة وتقى وسا كننا وطن مال وطنيان
اللبان بالكسر لبن المرأة خاصة . الحكم : القضاء وأصله المنع يقال حكم عليه
بكذا إذا منعه من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك . والحكمة وزان قصبة
للدابة سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجراح ونحوه ومنه اشتقاق الحكمة
لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرزال . وهى لغة كمال العلم قال ابن الأعرابي حكم
يحكم إذا تنهى فى علمه . واصطلاحاً استكمال النفس الإنسانية بالعقل النظرى
والعمل على قدر الطاقة البشرية . وعند القوم إصابة الصواب فى القول والعمل أو
هى نور يقذفه الله تعالى فى قلب المؤمن يدرك به الأشياء كما يدركها بعينى رأسه .
التقى والتقوى بمعنى وهو ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس . الطغيان مجاوزة
الحد — الأعراب هما ضمير مبهم مبدأ يفسره الخبر كما تقول هى العرب تقول كما
شاءت . وفائدة هذا الصنيع تشويق السامع أولاً بذكر المبهم ثم تفسيره ثانياً ليكون
أوقع فى ذهنه . خبره رضيعاً لبان أى لبان ثدى واحد بمعنى إخوان . حكمة بدل
من رضيعاً . والمعنى الحكمة والتقوى إخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر والمال
والطغيان يسكنان فى وطن واحد لا يفارق أحدهما صاحبه . والحكم باعتبار الأغلب

إذا نبأ بكرم موطن فله وراؤه فى بسط الأرض أو طان
يقال نبأ بفلان منزله إذا لم يوافق . وراء بمعنى خلف ويحى بمعنى أمام فهو من

الاضداد . والمراد هنا الثانى . بسيط واسع . المعنى : إذا لم يوافق الكريم مسكنه
لحصول الموان له من الأردال فأرض الله واسعة أمامه فليرتحل إلى بلد موافق وفى
هذا المعنى يقول بعض الأدباء .

فأقم بدار ما أصبت كرامة وإذا نبا بك منزل فتحول

يا ظالمًا فرحًا بالعز ساعده إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

الظلم وضع الشيء فى غير موضعه — العز خلاف الذل . ساعده أعانه . السنة :
بالكسر النوم الخفيف والمراد هنا النوم وهو غشية ثقيلة تقع على القلب فتمنعه معرفة
الأشياء . والسنة ما يتقدمه من النعاس . الدهر الزمان والمراد خالقه . المعنى : يا من
يظلم الناس مستعينًا بعزه إن كنت فى نوم وغفلة فאלله تعالى ليس بذائم ولا غافل
فيجازيك ويحاسبك على ظلمك حسابا عسيرا فى هذه الحياة وفى تلك الحياة .

ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكله وهل يلد مذاق المرء خطبان

مرؤ الطعام من باب ظرف ومرى بالكسر صار مريضًا سائغًا هنيئًا محمد عاقبته
واستمرأ وجده مريضًا . الظلم المراد به ما أخذه ظلمًا . الإنصاف : العدل . لذ الشيء .
يلد من باب سلم لذاذاً ولذاذة بالفتح صار شهيًا فهو لذ ولذيد . ولذذت الشيء وجذته
لذيدًا يتعدى ولا يتعدى . المذاق الفم أو العصب المفروش على سطح اللسان المودع
فيه القوة الذائقة . أخطب الحنظل إذا صار خطبانًا وهو أن يصفر وتصير فيه خطوط
خضر وخطبان فاعل يلد ومفعوله مذاق المرء وهو من باب القلب كقولهم عرضت
الفاقة على الحوض لأن واجد اللذة هو المذاق لا الخطبان . المعنى : لو أنصفت الناس
من نفسك ونظرت إلى العاقبة علمت أن ما أكله الظالم مما أخذه ظلمًا لم يسع من
خلقه بل ينغص فيه ولا يجد له لذة فى الحقيقة فهو بمنزلة الحنظل الذى لا يجد المرء
لذة فى تناوله .

يا أيها العالم المرضى سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريان

السيرة : الطريقة وما عليه الرجل من الأخلاق والأفعال . البشارة : الخبر الذى

يسر به الانسان حتى يظهر أثر السرور على بشرته . الريان : ضد العطشان . المعنى :
يا من اتصف بالعلم النافع وحسنت سيرته في الناس بشر نفسك بحسن الحال
والاستغناء عن الناس فأنتك حينئذ غنى النفس خفيف على القلوب حبيب لدى الله
والملائكة والناس أجمعين .

ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج فأنت ما بينها لاشك ظمآن
الجهل ضد العلم . أصبح بمعنى صار . لجة الماء بالضم معظمه وكذا اللج ومنه
بحر لجى — الظمآن العطشان والبيت مقابل للبيت قبله . فبعد ما بين حال من
جمع إلى العلم النافع السيرة الحسنة ، بين حال من اتصف بضدهما ، لكن لما كان
الجهل مستلزماً ضد الثانى من الوصفين تركه . المعنى : يا من رسخ في الجهل ولم يبذل
طاقته في الخروج من ظلمته لو صرت في لجج لم تنتفع بمائها فأنت فيها على حالك
قبلها إذ لا شعور لك بالعطش لأن جهلك يحول بينك وبين الشعور به فالعلم حياة ونور
والجهل موت وظلمة .

لا تحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان
الحسبان والحسبة : الظن — الدوام الاستمرار . الأبد : الدهر . ساءه ضد
سره من باب قال . ومساءة بالمد والإسم السوء بالضم والفتح ومعناه واضح .
يارافلا في الشباب الوحف منتشياً من كأسه هل أصاب الرشد نشوان
رغل في ثيابه أطالها وجرها متبختراً من باب نصر . الشباب : الحداثة وكذا
الشبيبة وهو خلاف الشيب — الوحف : الشعر الكثير الأسود ويحرك . ومن
النبات الريان تقول : وحف النبات والشعر يوحف ككرم ووجل وحافة ووحوفة
بالضم غزُر والمراد هنا الحسن والقوة . الإصابة : الوصول والبلوغ — الرشد بضم
فسكران الهداية والاستقامة على طريق الحق — النشوة السكر وانتشا إذا سكر
والنشوان السكران . المعنى : يا من اغتر بشبابه وسكر من كأسه ولم يتدبر في
عواقب أمره أجب عن هذا السؤال وهو : أن السكران يجد طريقاً إلى الهداية
وسبيلاً إلى الاستقامة على الحق (لا) .

لا تفتقر بشباب رائقٍ خَصِلٍ فكم تقدم قبل الشيب شبان
الشباب والشيبه حدائة السن خلاف الشيب — راق الشراب صفا وراقه
الثنىء أعجبه وبأيهما قال . الخَصِل الرطب . الشيب : بياض الشعر . والمشيب
دخول الرجل في حد الشيب من الرجال ، الأشيب المبيض الرأس وجمعه شيب —
الشبان جمع شاب — المعنى : لا تفتقر بعنفوان الشبان وقوته فكثيرا سبق في الموت
القوى الضعيف والصغير الكبير .

ويا أخا الشيب لو ناصحت نفسك لم يكن لمثلك في الإسراف إمعان
النصح الصدق والإخلاص ومنه التوبة النصوح — الإسراف مجاوزة القصد
— والسرف بفتحتين اسم منه والمراد الإسراف في بقية العمر — أمعن القرس
إمعانا تباعد في عدوه . وأمعن في الطلب إذا بالغ في الاستقصاء . والمعنى واضح .

هب الشيبه تبلى عذر صاحبها . ما عذر أشيب يستهويه شيطان
هب : احسب وافرض يتعدى إلى مفعولين ليس له ماض ولا مضارع —
الشيبه حدائة السن — تبلى تظهر ومنه أبلى في القتال إبلاء حسنا أظهر بأسه —
الأشيب مبيض الرأس — يستهويه يذهب به يقال استهواه كذا إذا هوى به
وأذهبه ومنه قوله تعالى « كالذى استهوته الشياطين فى الأرض » ذهبت به مرده
الجن بعد أن كان بين الأنس . وقيل استهواه استهامه والمراد زين له الشيطان
طرق المعاصى وأضله عن الهدى — المعنى : افرض أن حدائة السن عذر يقبله
الناس ولا يلومونه على ما فرط منه وإن لم تصلح عذرا فما عذر من أبيض شعر
رأسه وجاءه نذير الموت ، يزين له الشيطان أنواع الفساد ويستميله إلى الشرور
والقبائح ؟ فطوبى لمن ملك زمام نفسه ولم يغلب هواه على عقله لأن الهوى مَلِكٌ
غشوم وسلطان ظلوم .

كل الذنوب فإن الله يغفرها إن شيع المرء إخلاص وإيمان
الذنب الأثم والمراد بالذنوب المذكورة ما سوى الشرك بقرينة قوله إن شيع

المرء الخ الففر التغطية والستر ، والمراد يتجاوز عنها . التشيع السير خلف المسافر للوداع وكذا خلف الجنائز — الإخلاص في الطاعة ترك الرياء وخالصه في العشرة صافاه . الإيمان حديث النفس التابع للمعرفة أى قول الإنسان بعد العلم بالشيء قبلت هذا ورضيته وأذعنت له . أو تصديق النبي صلوات الله وسلامه عليه في كل ما جاء به عن الله تعالى ومعناه واضح .

وكل كسر فإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران الكسر بمعنى المكسور والجبر : أن تغنى الرجل من فقر أو تصلح عظمه من كسر وبابه نصر تقول جبرت العظم جبراً وجبرانا أصلحته : وجبر العظم بنفسه جبورة انجبر وبابه دخل . القناة الريح وجمعه قنا كحصى وهى الرماح — الدين : ما شرعه الله على لسان الرسول من اعتقادات وعبادات ومعاملات وأخلاق كريمة — المعنى أن الله تعالى يغفر الذنوب إذا كان للعبد إخلاص وإيمان لأن الدين يصلح كل ثمة وخلل في العمل . وأما كسر قناة الدين فخلل واقع في أصله ولا يرجى له إصلاح .

خذها سوائر أمثال مهذبة فيها لمن يبتغى التبيان تبيان الأخذ التناول . السوائر جمع سائر على غير قياس . أمثال جمع مثل وقد تقدم معناه . التهذيب التنقية ويكون بالتنبيه على العيوب ، ورجل مهذب مطهر الأخلاق . الابتغاء الطلب . والتبيان الإيضاح . والمعنى ظاهر .

ما ضر حسانتها والطبع صائفها إن لم يصنفها قريع الشعر حسان الضر خلاف النفع — حسانتها قائلها وناظمها يعنى نفسه والضمير لأبيات القصيدة ، ولما كان الناظم شاعراً مطبوعاً معروفاً بالفصاحة والبلاغة نزل منزلة الصفة التى اشتهر بها فى الأوّل ، وأراد بالثانى العلم الموضوع لحسان شاعر الرسول صلوات الله وسلامه عليه — الطبع السجية — الصانع من صاغه يصوغه صوغاً وبابه قال : القريع السيد المحنك ، يقال : هو قريع دهره من قرعه دهره إذا كان

ذا كان تجربة وبصيرة يقرع الشدائد والحن التي تصيبه — الإعراب ما استفهامية خبرها الجملة حسانها مفعول به والضمير فيه يعود على أبيات القصيدة المتقدمة ، والواو للحال ، وإن للشرط يصفها فعله ، والجزاء محذوف دل عليه ما تقدم — ويروى أن بالفتح وعليه تجعل ما نافية وأن وما دخلت عليه فاعل ضر وقرع الشعر فاعل يصفها وحسان عطف بيان عليه — والمعنى : ما تلونا عليك من الأبيات المنقحة والأمثال المهدبة هي غاية في الحسن ونهاية في الإبداع وإن لم يكن ناظرها قد بلغ رتبة حسان رضى الله عنه . فإن الشعر لا يعتبر باعتبار قائله ، بل بسلاسته وجودة سبكه . قال على رضى الله عنه وكرم الله وجهه : (لا تنظر إلى من قال ، وانظر إلى ما قال) ومعناه : إذا سمعت كلاماً فلا تنظر إلى حال قائله ، ولكن انظر إلى كثرة طائله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ومن الملح التاريخية ما روى البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسأله ألف دينار ، فقال : اتنى بالشهود أشهدهم ، فقال . كفى بالله شهيداً ، قال فأتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً . قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى » فخرج الذى استلف « فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها » حال كونه « يقدم عليه » بفتح الدال على الذى أسأله « للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً » زاد فى رواية أبي سلمة : وغدا رب المال إلى الساحل يسأل عنه ويقول اللهم أخلقنى وإنما أعطيت لك « فأخذ » الذى استلف « خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه » الذى استلف منه « ثم زجج موضعها » سمرها بمسامير كالزج وهو النصل « ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك وإنى جهدت » بفتح الجيم والهاء « أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها »

وفي رواية استودعتكما « فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه » دخلت البحر « ثم انصرف وهو » أى والحال أنه « في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده » أى بلد الذى أسلفه « فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم « الرجل » الذى كان أسلفه ، فأتى بالآلف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لأتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك المال « الذى بعثت في الخشبة ، فانصرف » بصيغة الأمر « بالآلف الدينار » التى أتيت بها حال كونك « راشداً » مهتدياً .

وعنه رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال : أى شيء أحب إليك ؟ فقال : لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويذهب عني الذى قد قذرني الناس » أى تباعد عني وكرهني الناس به أى بسببه . فالتفت محذوف وبابه طرب . تقول : قذرت الشيء وتقذرت واستقذرت : كرهته « فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال : البقر (شك الراوى) فأعطى ناقةً عشرين فقال بارك الله لك فيها — فأتى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ، قال : شعرٌ حسنٌ ، ويذهب عني هذا الذى قد قذرني الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً — قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرةً حاملاً . قال : بارك الله لك فيها — فأتى الأعمى فقال أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر الناس . فمسحه فرد الله إليه بصره . قال فأى المال أحب إليك قال الغنم فأعطى شاةً ولداً : فأنجب هذان « المشار إليهما صاحبا الإبل والبقر » وولد هذا فكان لهذا واد من الأبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص

في صورته وهيئته فقال : رجلٌ مسكينٌ قد انقطعت بي الحال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيره أتبلغ به في سفرى فقال : الحقوق كثيرة . فقال كأنى أعرفك ألم تكن أبرصَ يقدرُك الناس « بفتح الذال يكرهك » فقيراً فأعطاك الله ؟ قال إنما ورثتُ المال كابرًا عن كابر « أى كبيراً عن كبير في العز والشرف أى ورثته عن أبى وجدى : فقال « إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنتَ — وأنى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا وردّ عليه مثل ما ردّ هذا ، فقال : إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنتَ — وأنى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجلٌ مسكينٌ وابنُ سبيل انقطعت بي الحال في سفرى فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفرى . فقال : قد كنتَ أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله عز وجل . فقال أمسك مالك فانما ابتليتم » أى امتحنتم أى عاملكم الله العالم بالخفيات معاملة المختبر ليرتب على عملكم جزاءه « فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك » متفق عليه ، والناقة المشراء بضم العين وفتح الشين وبالمدهى الحامل . وقيل الحامل التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر من يوم طرقتها الفحل وهى من أنفس الإبل . قوله أنتج وفي رواية فنتج معناه تولى نتاجها والنتاج الأولاد والنتج والإنتاج تولى الولادة والنتاج للناقة كالتقابلة للمرأة : « وقوله ولد هذا » هو بتشديد اللام أى تولى ولادتها وهو بمعنى نتج في الناقة : فالمولد والنتاج والتقابلة بمعنى لكن هذا للحيوان وذلك لغيره . وقوله « انقطعت بي الحال » هو بالحاء المهملة والباء الموحدة أى الأسباب في طلب الرزق . وقوله لا أجهدك : معناه لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالى . وفي رواية البخارى لا أحمدك : بالحاء المهملة والميم . ومعناه لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه كما قالوا ليس على طول الحياة ندم أى على فوات طولها .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر بمن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فاحدثت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا يُنَجِّيكُم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أُغْبِقُ قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بى طاب الشجر يوماً فلم أُرَحْ عليهما حتى ناما فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فسكرت أن أوقظهما وأن أُغْبِقُ قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدحُ على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبيبة يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه — قال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحبَّ الناس إلى فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى أَلَمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت فلما قعدتُ بين رجلها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفتُ عنها وهى أحب الناس إلى وتركتُ الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها — وقال الثالث اللهم استأجرت أجراً وأعطيتهم أجراً غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فتمرت أجره حتى كثرتُ منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أدِّ إلى أجرى ، فقلت : كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقى . فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى ، فقلت لا أستهزئ بك . فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون — متفق عليه — أغبى بفتح فسكون أى ما كنت أقدم عليهما فى شرب نصيبهما من اللبن أقارب ولا رقيقاً والغبوق كصبور ما يشرب بالعشى . وأرح بضم الهمزة وكسر الراء أرجع من أراح رباعياً . ويتضاغون يضحون من الجوع .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اشترى رجل من رجل عقاراً فوجد الذى اشترى العقار فى عقاره جرة فيها ذهب فقال له الذى اشترى العقار : خذ ذهبك إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أشتِ الذهب ، وقال الذى له الأرض : إنما بعثتك الأرض وما فيها . فتحاكما إلى رجل فقال الذى تحاكما إليه : السكما ولد ؟ قال أحدهما لى غلام . وقال الآخر لى جارية . قال أنكحها الغلام الجارية وأنفقا على أنفسهما منه فتصرفا » متفق عليه . وفى صحيح مسلم من حديث أنس : مات ابن لأبى طلحة ، من أم سليم ، فقالت لأهلها ، أى لقرابتها الذين عندها وشعروا بوفاء ابنها ، لانهذوا أباطلحة بوفاء ابنه ، لثلا يتنقص عيشه وهو صائم فلا ينال حاجته من الطعام ، حتى أكون أنا أحدثه فجاء ، فقال : ما فعل ابني ، قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، أى أهدأ أحواله فإنه كان فى قلق واضطراب للنزع فذهب ذلك حينئذ وظن أبوطلحة أنها تريد أنه زال ألمه وأخذ فى العافية وفى عبارتها التوجيه ، فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له ، بتحسين الهيئة بالحلى ونحوه ، أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك الوقت . وهذا يدل على قوة صبرها وكال يقينها ، فوقع بها — جامعا — فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أباطلحة أرايت أخبرني لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم — أى أهل البيت المستعيرين — أن يمنعوهم ؟ قال لا ، قالت فاحتسب ابنك . أى أطلب ثواب ابنك وأجر مصيبتك فيه من الله ولا تندسها بما يحبط الثواب فإنه كان عندك عارية استرده مالكة . قال أنس : فنضب أبوطلحة وقال لأم سليم : تركتني حتى تلتطخت — أى تقذرت بالجماع — ثم أخبرتنى بابني . فانطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك (المذكور من فعل أم سليم الدال على حسن صبرها وكال يقينها مما يعجز عنه كثير من الرجال) فقال النبي صلى الله عليه وسلم بارك الله لكما فى ليلانكما . قال أنس : فحملت أم سليم وولدت غلاما سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ورزق عبد الله هذا تسعة أولاد صالحين كلهم قد قرءوا

القرآن لدعائه صلوات الله وسلامه عليه لهما بالبركة — وفي الحديث فوائد : التسليّة عن المصائب ، واجتهادها في عمل مصالحه ، ومشروعية المعارض إذا دعت إليها الضرورة ولم يترتب عليها ابطال حق لمسلم ، وإجابة دعوة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه — والحامل لأُم سليم على هذا الصنيع المبالغة في الرضا والتسليم لأمر الله وقضائه ورجاء اخلافه عليها ما فقد منها ، إذ لو أخبرت أبا طلحة بالأمر في أوله تنكد عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادته ، فلما علم الله صدق نيتها وإخلاصها له في العمل بلغها منها وأصلح لها في ذريتها — وكان لأُم سليم من قوة القلب وثبات الجنان الغاية القصوى فسكانت تشهد الوقائع وتداوى الجرحى وكانت مثلاً أعلى في الشجاعة والمروءة رضى الله عنها . وبالجملة فقد ذكر الإمام النووي في رياض الصالحين أحاديث كثيرة نافعة في هذا المعنى وعقد الملاح باباً خاصاً في آخر كتابه هذا فارجع إليه .

ومن الفكاهات الأدبية — ماروى أن الهرمزان أحد قواد الفرس دخل مستسلماً على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا عمر كنا وإياكم في الجاهلية على بعد من الله جل وعلى ، فغلبناكم لأنه لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان الله معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا باجتماعكم وتفرقنا — أى ولما جمع الله تعالى بالإسلام بين قلوبنا غلبناكم .

ومنها ما روى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم باناء فيه مرق حار وعنده أضياف فعمرت فصب المرق على رأسه فأراد ميمون أن يضربها فقالت له الجارية : يا مولاي أعمل بقول الله تعالى « والكاذمين الغيظ » : فقال لها قد فعلت . فقالت أعمل بما بعده : « والعافين عن الناس » قال قد عفوت عنك . قالت الجارية : « والله يحب المحسنين » قال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله تعالى ولك ألف درهم — وهذا غاية في الحلم والكرم والعفو عند القدرة .

ومنها ما روى : أن محمد بن المنكدر كان يبيع قطعاً من الثياب بعضها بخمسة

دراهم وبعضها بعشرة . فباع غلامه في غيبته قطعة من الحمسيات بعشرة فلما عرف لم يزل في طلب ذلك الأعرابي الذي اشتراها حتى عثر عليه فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال : يا هذا قد رضيت فقال وإن رضيت فأنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا فاختر إحدى ثلاث إما أن تأخذ قطعة من العشريات بدراهمك ، وإما أن ترد عليك خمسة ، وإما أن ترد قطعتنا وتأخذ دراهمك . فقال أعطني خمسة . فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا التاجر ؟ فقليل له هذا محمد بن المنكدر فقال لا إله إلا الله هذا الذي نسمع أنه مستجاب الدعاء . وهذا مثل أعلى في العفة والأمانة .

ومنها : أنه كان للمالك بن دينار جار يهودي فحول اليهودي مستحمة إلى جدار البيت الذي فيه مالك وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة وكان مالك ينظف البيت كل يوم ولم يقل شيئاً . وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى فضاق صدر اليهودي من طول صبره على هذه المشقة . فقال : يا مالك قد آذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تخبرني ولم تشكني إلى أحد . فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فقدم اليهودي وأسلم وحسن إسلامه — وعن عبد الرزاق قال : صبت جارية لعلي بن الحسين الماء ليتيها للصلاة فسقط الأبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : « والكاظمين الغيظ » فقال لها كظمت غيظي . قالت : « والعافين عن الناس » : قال لها قد عفا الله عنك . قالت : « والله يحب المحسنين » قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

من فضائل علي كرم الله وجهه وإنصافه من نفسه ما روى أن يهودياً شكاً — على بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فلما مثل بين يديه قال الفاروق لعلي أجلس يا أبا الحسن مع خصمك مجلس الخصومة . فظهرت دلائل الامتناع على وجهه فلحظ ذلك أمير المؤمنين فقال له : أكرهت يا علي أن تجلس

أمام خصمك ؟ قال . لا ! ولكنك ناديتني بكنتيتي فرفعتني عليه فكهرت ذلك —
أى أن من آداب القضاء التسوية بين الخصمين في مثل ذلك — فانظر هداك الله
إلى رجل يتمتع لأن الحاكم يرفعه على خصمه لمجرد ندائه بكنتيته (يا أبا الحسن)
وهذا مما تفتبط به الناس وترتاح له ولكن عليا رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه كان
حريصا على الحق في نفسه ناصرا له في مجتمعه ، ولو كان ذلك على نفسه . إن عددا
قليلًا من هؤلاء السادة الأفذاذ الذين يقومون على حراسة الدين ، الخفيف وآدابه
السامية جديرون أن يفتحوا الأرض وأن يصلحوا منها ما فسد وقد فعلوا فأدهشوا العالم .
ومنها ما حكى عبد الله بن عبد الرحمن قال : كنت عند سهل بن عبد الله
التستري^(١) الصوفي وهو يتكلم على الناس فوقف علينا غلام جميل فد بعض الناس
عينه ينظره وواقفه جماعة في النظر . فقال سهل : مهلا أيها الناس تعفرون بحلم الله
عنكم وإمهاله لكم فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح
وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، فانكم هجتم على ما نهاكم
عنه فان عدتم إلى أسره أقام لكم على حلمه ، وإن تماديتم في شهواتكم لم آمن
عليكم عقوبة تأتي إليكم ، فانه ذو مغفرة وذو عقاب أليم ، فغلبهم البكاء وأعلنوا
التوبة والانابة إلى الله تعالى .

(ومنها أيضا) ما روى أن خدام بعض الملوك التقطوا طفلا وجدوه مطروحا
في الطريق فأمر الملك أن يضموه إلى أهل بيته وسماه أحمد اليتيم ، فلما نشأ ظهرت
عليه أمارات النجابة والذكاء فهذه وعلمه ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولي عهده به
فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيا وخداما أمينًا ، وبعد ذلك
قدمه في أعماله فصار حاكما على جميع حاشية الأمير ومتصرفا في شئون قصره ،
وفي بعض الأيام أمره أن يحضر شيئا من بعض حجارته فذهب ليحضره فرأى بعض
جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يزنيان ، فتوسلت إليه الجارية أن يكتم

(١) يضم التاء الأولى وفتح الثانية ويجوز ضمها منسوب إلى تستر مدينة بخوار ستان سكن
البصرة . صحب ذا النون الصرى توفي سنة ثلاث وثمانين .

الخبر ، ووعده كل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمن شره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، ثم تركها وانصرف على أن يكتم السر — لكن الجارية أوجست في نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم يفشى أمرها فانتظرت الأمير حتى حضر ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها فقالت إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا ، فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه فمزم على قتله ثم دبر له قتلة في الخفاء حتى لا يعلم الناس بسبب هذا القتل — ذلك أنه قال لكبير خدمه إذا بعث إليك أحداً يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وابعث به إلى لأطمئن ثم ادفن الجثة فأجاب الخادم بالسمع والطاعة ، وفي يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم وقال له : اذهب إلى فلان الخادم وقل له يعطيك كذا وكذا . فامثل الأمر وذهب إلا أنه لقي في طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم في أمر فاعتذر وقال : إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا نبعث فلانا الخادم نائباً عنك ليحضر ما تطلب حتى تفصل في شأننا . فأجابهم إلى ما طلبوا فأرسلوا واحد منهم وهو الشاب الذي سبق له الزنا بالجارية ، فلما ذهب وأخبر الرئيس بالرسالة أخذه إلى المكان الذي أعده ثم قطع رأسه على غرة وجاء به إلى الأمير ، فلما أبصره زال عنه ما كان يجده من انقباض نفسه ، ولكنه لما رفع الغطاء عنه رأى رأساً غير رأس أحمد اليتيم فسأله عن الذي قتله ، فقال هو فلان ، قال : ألم يكن أحمد ؟ قال لا ، فأمر بإحضار أحمد فسأله عما فعل فأخبره بما كان ، فقال الأمير : أتعرف لهذا الخادم ذنباً ؟ قال : نعم إنه فعل كذا وكذا مع فلانة ، وقد سألوني بالله وبك أن أكتم الخبر ، فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية ، وعاد إلى ما كان من محبة أحمد وإكرامه — وكانت هذه عاقبة الوفاء للوفى وعاقبة الخيانة للخائن والجزاء من جنس العمل « وما ربك بظلام للعبيد » قال الأستاذ الإمام رحمة الله عليه في مقام التشابه من آيات الصفات وأخبارها النبوية ما خلاصته .

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والنقلي على هذه العقيدة (عقيدة التنزيه) فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يناقض ظاهرة التنزيه فللمسلمين فيه طريقان إحداها طريقة السلف وهي التنزيه وتفويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك أى فيقال مثلاً نؤمن بـ « الرحمن على العرش استوى » ولا نعلم حقيقة معنى ذلك والمراد به مع أننا نعتقد أن الله تعالى منزّه عن الحلول وسمات الحدوث .

والثانية طريقة الخلف وهي التأويل — يقولون : إن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منه عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغى طلبه بالتأويل لأنه لا بد لكلام الشارع من فائدة يحمل عليها أى فيقولون في « الرحمن على العرش استوى » المراد به الاستيلاء والملك — والقاعدة عند العلماء (أن ظاهر الكتاب أو السنة يجب إبقاؤه على ما هو عليه ما لم يخالف المعقول) ومعنى هذه القاعدة أنه يجب حمل كل لفظ ورد في الكتاب أو السنة على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب العدول عن تلك الحقيقة اهـ
وبهذا البيان القيم يمكن فهم وتطبيق الوقائع على الوجه المعقول الصحيح وبالله التوفيق .

الفصل الثالث عشر

ضرب الأمثال

لضرب الأمثال أثناء العظة أكبر الآثار في النفوس — فإن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في العقول ما لا يؤثره وصف الشيء ذاته — ذلك بأن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي ، والغائب بالشاهد ، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك هو النهاية في الإيضاح — ألا ترى أن الترغيب

في الإيمان إذا كان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأ كد وقوعه في القلب كما يتأ كد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة — وإذا كرهه في الكفر بمجرد الذكر لم يتأ كد قبحه في العقول كما يتأ كد إذا مثل بالظلمة أو بشجرة خبيثة — وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور ، وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الاخبار بضعفه مجردا .

وفرق بين قولك لإنسان وأنت نعظه : إنك لا تجزى على السيئة حسنة فلا تعر نفسك ، وأقلع وأنب إلى ربك ، وبين أن تقول له في أثره : إنك لا تجنى من الشوك العنب وإنما تحصد ما تزرع — وكذا بين أن تقول : إن الدنيا لا تدوم ولا تبقى ، وبين أن تقول : الدنيا ظل زائل وعارية تسترد ووديعة تسترجع ، وتذكر قول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « من في الدنيا ضيف ، وما في يديه عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » . وتنشد قول لبيد :

وما المسال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع
وقول الآخر :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعار

وما إلى ذلك مما ينبئك عن صيغ التمثيل ويخبرك عن حال المعنى معه . وأن إبراز المعاني باختصار في معرض التمثيل ابتداءً أو مجيئه في أعقاب المعاني وعلى أثرها لإيضاحها وتقريرها آكد وقعاً في القلوب وأبلغ أثراً في النفوس إن الآخرة خير لوجوه (الأول) إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة (الثاني) إن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة (الثالث) إن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمسكاره ونعم الآخرة صافية عن السكدورات (الرابع) إن نعم الدنيا مشكوكة فإن أعظم الناس تنمعا لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني ونعم الآخرة يقينية — وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا — إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط

وهو قوله « لمن اتقى » وهذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر .

ولمثل هذا أكرر الله تعالى في كتابه الحكيم وفي سائر كتبه من ضرب الأمثال : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومن سور الإنجيل سورة الأمثال وشاعت في الكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكثر من ضرب الأمثال في مخاطبته ومواعظه كما سيأتى . واعلم أن من قضية وجوب التماثل بين الشئيين في مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم ، والحقير بالحقير .

وقد مثل في الإنجيل غل الصدور بالنخالة ، ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير وجاء في عبارات البلغاء : أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد^(١) وأضعف من بعوض : وأطيش من فراشة ، وآكل من السوس ، وأعز من مخ البعوضة — إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

ومن الأمثال السهلة في ثبوت الحق وزهوق الباطل قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله^(٢) كذلك » أى مثل ذلك الضرب البديع المستعمل على نسكت رائقة « يضرب الله الحق والباطل » أى مثل الحق ومثل الباطل وبين ذلك بقوله « فأما الزبد » من السيل وما يوقد عليه من المعادن « فيذهب جفاء » أى يرمى به « وأما ما ينفع الناس » من الماء الصافي وخالص المعادن « فيمكث في الأرض » ينتفع به أهلها « كذلك » مثل ذلك الضرب العجيب « يضرب » يبين « الله الأمثال » في كل باب إظهاراً لسكال اللطف والعناية في الإرشاد والهداية فانه تعالى مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذى ينزل من جهة السماء فتسيل به الأودية

(١) ذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم فيتحرك لها .

(٢) (زبد رابيا) غناء ورغوة عاليا فوق الماء (زبد مثله) خبث مثل زبد الماء في كونه رابيا فوقه .

على قدر الحاجة والمصلحة حسبما اقتضته مشيئته تعالى وحكمته ، فينتفع به من وجوه شتى ، ويمكث في الأرض بأن يبقى بعضه في منابعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والفتوات والآبار . وبالسبيكة التي تؤخذ من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد للانتفاع بها في الحلى وعمل الأمتعة كالأواني ، وآلات الحرب والبخار ، ويدوم ذلك مدة طويلة ، ومثل الباطل في عدم نفعه وسرعة زواله يزيد الماء والمعادن .

ومنها في سرعة انقضاء الدنيا قوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » أى اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمثوا بها ولا يعكفوا عليها . ولا يضربوا عن الآخرة صفحا ، وأنها كماء أنزلناه من السماء فالتف بسببه نبات الأرض وخالط بعضه بعضا لكثرة فصار النبات إثر بهجته ونضارته مهشوما مكسرا تفرقه الرياح — والمشيبه به الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر براقا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يكن « وكان الله على كل شيء مقعدرا » قادرا على الكمال ومن جملة الشيء الإنشاء والإفناء

ومنها ما فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مَثَلُ الجليسِ الصالح والجلسِ الشَّوِّ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكِيرِ فحاملُ المسكِ إما أن يُحذِرَكَ ، وإما أن تبتاعَ منه ، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيبةً ، ونافخُ الكِيرِ إما أن يُحرقَ ثيابك ، وإما أن تجدَ منه ريحاً مُنْتنةً » . مَثَلُ . صفة : السوء بالفتح مصدر أطلق عليه مبالغة فى التنفير منه وبالضم اسم مصدر . ويجوز ضم وفتح السين فيما ذكر . والكير بكسر فسكون الزق الذى ينفخ به . يُحذِرَكَ كيعطيك وزنا ومعنى . تبتاع تطلب البيع منه . منتنة قبيحة متغيرة . فجليس الخيار إما أن يعطى بمجالستهم من الفيوضات الإلهية أنواع الهبات فضلا من الله وإحسانا ، وإما أن يكتسب بمجالستهم علوما وآدابا يستفيدونها منهم ويأخذونها عنهم وإما أن يكتسب بمصاحبتهم حسن الثناء وجميل الأحذوثة . وجليس الأشرار

إما أن يحترق بشؤم معاصيهم قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »
والركون الميل إليهم بنحو المجالسة والمصاحبة ، وإما أن تدنس سمعته وتقبح بين الناس
سيرته — وفي الحديث حث على مصاحبة من ينال الخير بمجالسته من علم وخلق
حسن وذكر الله تعالى وهداية إلى طرق الخير وأنواع البر ، فعن أبي هريرة رضي الله
عنه أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم
من يخالل » رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح وقال الترمذي : حديث حسن —
الدين الطريق والمسلوك . والخليل الصديق . وإذا كان المرء على مشرب صديقه
فلينظر بعين البصيرة إلى أعمال من يريد صداقته وأخلاقه فمن رضى أعماله وأخلاقه
صادقه ومن سخط أعماله وأخلاقه تباعد عنه — من كلام على رضي الله عنه : إياك
وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره — وفي الحديث
أيضاً تحذير من مجالسة من ينال الشر والإثم بمخالطته كالمفتاب والتمام والسكر
والزاني والمرابي . وهذا المثل في الحث على مصاحبة الأخيار ومقاطعة الأشرار .
وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثلُ المسلم فحذثوني ما هي ؟ فوقع
الناس في شجر البوادي قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا
حدّثنا ما هي يا رسول الله . قال هي النخلة .

مثل بكسر فسكون وبفتحتين كشبه وشبه وزنا ومعنى والمراد الحال العجيبة
أو الصفة الغريبة — وقع الناس ذهبت أفكارهم إلى شجر البوادي وذهلوا عن النخلة
فجعل كل يذكر نوعاً من الأنواع — فاستحييت منعني الحياء من التصريح بما في
نفسي لكونه أصغر القوم ورأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يتكلمان . والمعنى :
كأنه صلوات الله وسلامه عليه قال : إن حال المسلم العجيب الشأن كحال النخلة أو
صفته الغريبة كصفتها . فالمسلم هو المشبه والنخلة المشبه بها ووجه الشبه بينهما
كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده ما دامت حية والانتفاع بنحشها
وورقها وأغصانها وجمال قوامها وتنفيذ طلعتها وجميع أجزائها حتى نواها ينتفع به

علماً للأبل فكلها خيرات ومنافع . كذلك المؤمن خير كله بصلاح عمله وحسن معاملته ومكارم أخلاقه وما يظهر على يديه من جلائل الأعمال النافعة له ولأمتة فالإيمان الصحيح كشجرة طيبة لا يشمر إلا طيباً . وفي الحديث استحباب طرح الأستاذ المسائل العلمية على تلاميذه اختباراً لإفهامهم وتشجيعاً لهم على حسن التفكير ، وفيه أيضاً مشروعية الامتحان لطلاب العلم ليعرف الكفء للوظائف الدينية من غيره — وفيه أيضاً توقير الكبار وعدم التكلم بمحضرتهم واستحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأذهان وزيادة الإفهام والإيضاح . وهذا المثل في بيان آثار الإيمان الصادق وما يجب أن يكون عليه المؤمن من الأعمال النافعة والأخلاق الفاضلة .

وروى أيضاً من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثلى ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأتباعه طائفة من قومه فأدبجوا فانطلقوا على مهالهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم — فذلك مثل من أطاعنى فأتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » — مثل . المثل بفتححتين الحال العجيبة الشأن أو الصفة الغريبة كما سبق . يورده البليغ على سبيل الشبه لإرادة التقريب والتفهم . ما بعثنى الله به إليكم . أى مع المبعوث إليهم فالمثل مورد لهذه الثلاثة كما يعلم من الحديث . عني بالثنائية والإفراد . النذير العريان : المنذر الذى تجرد عن ثوبه وأخذ يرفعه ويديره فوق رأسه إعلاما لقومه بالفارة — ذلك أن ربيثة القوم وعينهم يكون على مكان عال فإذا رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عرياناً — ضرب به النبي صلوات الله وسلامه عليه المثل لنفسه ولما جاء به ولمن جاء إليهم تقریباً لإفهام المخاطبين بما يأنفونه ويعرفونه لأنه تجرد لإبذارهم . النجاء بالنصب مفعول مطلق فيه إغراء أى اطلبوا النجاء بأن تسرعوا بالهرب لأنكم لا تطيقون مقاومة ذلك الجيش . والنجاء الثانى تأكيد وكلاهما ممدودان

وجاء فيهما القصر . فأدجوا من الإدلاج وهو السير أول الليل أو كله وهمزته همزة قطع . المهمل بفتحتين السكينة والثاني . فنجوا لأنهم أطاعوا النذير وساروا من أول الليل . صبحهم الجيش أتاها صباحا هذا أصله ثم استعمل فيمن يطرق بغتة في أى وقت كان . اجتاحتهم بحيم ثم جاء مهمة استأصلهم من جعت الشيء أجوحه إذا استأصلته . ومنه الجائحة وهي الهلاك — وفي الحديث إرشاد الأمة وحثها على التزام المسارعة إلى الخير والطاعة وتحذيرها من الوقوع في الشر والمعصية ببيان حسن مغبة الطاعة وسوء عاقبة العصيان — وهذا مثل في الطائع والعاصي وبيان مآل كل منهما

وروى أيضاً من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . القائم في حدود الله المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، والحدود ما نهى الله عنه . واستهموا اقترعوا : نجوا أى الآخذون في أنفسهم ونجوا بالتشديد أى نجوا المأخوذون ممنوعين — وهكذا إقامة الحدود يحصل لمن أقامها وأقيمت عليه وإلا هلك العاصي بالمعصية والساکت بالرضى بها — وفيه وقوع الجميع في العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من حديث جابر قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً . فقال : اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمك مثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من ترك — فأن الله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد

رسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » .

وإذا أردت أن تبين أن العمل الصالح هو الصاحب النافع فاضرب لهم مثلاً رجلاً كان له أصحاب ثلاثة لا يقوى على مفارقتهم ، وكان يميل إلى اثنين منهم ميلاً شديداً ولا يركن إلى الثالث إلا قليلاً مع أنه كان حسن الطوية خالص النية ، فاتفق له ذات يوم أنه اتهم بتهمة خطيرة (جناية قتل) فقبض عليه وزج به في أعماق السجن وهو في الواقع بريء ، فأخبر أصحابه بأمره وطلب منهم أن يذهب أحد منهم معه إلى دار القضاء ويشهد له بما يعلم كي ينجو من خطر الحاكم . فاعتذر الأول قائلاً : إنه يتمذّر على الانتقال لكثرة ما عندي من الأشغال . والثاني ذهب معه إلى باب المحكمة ثم أحجم عن الدخول خوفاً من غضب الحاكم عليه واتهامه بالتزوير في الشهادة لمكان الصحبة — وأما الثالث الذي كان قليل الميل إليه فإنه لم يتأخر عن الذهاب معه والدخول أمام القضاء . فلما مثل بين يدي الحاكم شهد لصاحبه بالحق وعلم الحاكم صدقه في الشهادة فقبل شهادته وعطف قلبه على صاحبه المتهم فحكم ببراءته وأخلى سبيله .

فلما راد بالأصحاب الثلاثة المال والعيال وصالح العمل — فإن لكل امرئ في هذه الحياة أصحاباً ثلاثة ماله وأهله وعمله لا ينفك عنها ولا استغناء له عنها — فإذا فاضت روحه فارقت أمواله التي هي أعز أحبابه ، وأما أهله وعياله فإنهم يذهبون معه إلى باب القبر ثم يتركونه راجعين إلى منازلهم يتنازعون ماترك — وأما أعماله التي كان لا يغزف ما يترتب عليها من حسن العاقبة فإنها لا تفارقه إلى أن يقف بين يدي أحكم الحاكمين وتشهد أمامه لصاحبها لأعليه ، فيشملة الله بعدله ورحمته ويدخله فسيح جنته — قال صلوات الله وسلامه عليه : « يتبع الميت ثلاث : أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » . متفق عليه .

مثل الدنيا وأهلها في تعلقهم بها

الدنيا شبه ملجأ أقامه ملك قوى غنى لياوى إليه أبناء السبيل المسافرين ، وقد أعد في هذا الملجأ كل وسائل الراحة من أغذية وأكسية وأوان وفرش وجميع ما يحتاج إليه اللاجئ من المسافرين ، وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيه انتفاع العارية ثم يتركها لمن يأتي بعده . فيأخذها فرحاً مسروراً وعند الرحيل يتركها راضياً شاكراً للملك حسن صنيعه . فكان النازلون فيه على قسمين : قسم انتفع بها على أنها عارية ثم سلمها منشراح الصدر شاكراً وهم العقلاء المتبصرون — وقسم ظن أن هذا الملجأ وطن له وأن جميع ما فيه من متاع ليس عارية تسترد بل منحة مؤبدة فكانوا لا يخرجونها من أيديهم إلا بكسر اليد ونزع الروح وهم الخمقى عمى البصائر .

ومثل آخر للدنيا

مثل الناس فيما أوتوا من متاع الحياة الدنيا كمثل رجل هياً متحفاً جميلاً وأباح الدخول فيه على الترتيب لكل جماعة يوم معين فدخله طائفة منهم فقدم إليهم طبق من ذهب عليه بخور ورياحين ليشموه ويتركوه لمن يأتي بعدهم لاليتملكوه فن كان على علم بقانون هذا المتحف ورسومه انتفع به ثم تركه راضياً شاكراً — ومن جهل قانون المتحف ورسومه وظنوا أنه هبة لهم دائمة ومنحة من صاحب المتحف مؤبدة تفجعوا لاسترجاعه منهم وتألوا لأخذه من أيديهم .

ومثل الناس في اشتغالهم بالدنيا وزينتها عن الدين مثل إنسان منحه ملك عظيم جوهرة ثمينة وأمره بالمحافظة عليها ونهاه عن التفريط فيها ، ثم لقيه صائغ خبير بالجواهر فأوصاه أيضاً بالمحافظة عليها وحذره من التفريط فيها ، فلقية شخص محتال عدو لهذا الملك ولرعيته ؛ فلما رأى تلك الجوهرة حسده عليها وأظهر له جوهرة أخرى مزخرفة ومزينة بكل أنواع الزينة من الذهب والفضة والألماس واللؤلؤ والزمرد والياقوت ولا زال يحتال عليه ويزينها له حتى استبدل هذه الجوهرة المزخرفة بتلك الجوهرة الثمينة ، فلقية ذلك الصائغ ثانياً فسأله عن جوهرة الملك فقال قد استبدلت

بها هذه الجوهرة المزينة ، فقال له الصانع هذه ليست بجوهرة بل قطعة بلور مزينة بأنواع الحلى وقد خدعت في الاستبدال فاختلغا في أمرها فتحاكما إلى شيخ الصاغة ففضى بأنها قطعة بلور لا جوهرة فسقط في يده وتحسر على ما فرط في منحة الملك .

فالملك هو الله تعالى ، والإنسان هو المكلف ، والجوهرة الثمينة هي الشريعة الغراء ، والصانع هو العالم الناصح ، والمحتال هو الشيطان فهو للإنسان عدو سبين ، والجوهرة المزينة هي الدنيا وشهواتها ، وشيخ الصاغة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فهو المرجع عند التنازع والاختلاف ، وهو المرشد الأول والناصح الأمين وعلماء الأمة نوابه في ذلك ، وكل من فتن بالدنيا وزينتها وشغل بها عن طاعة الله تعالى فهو لاشك خاسر ونادم في الآخرة « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن فإنه ينفعه ذلك .

ومن الأمثال السهلة في كيفية توزيع الجزاء في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا أن تقول : الناس ينقسمون في الآخرة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك في الدنيا أن يستولى ملك قوى على إقام فيقتل بعضهم فهم الهالكون . ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون . ويُجلى سبيل بعضهم فهم الناجون . ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يُجلى إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في خدمته ونصرته — وتتفاوت الخلع بتفاوت الدرجات في الخدمة . والإهلاك أيضاً يكون بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجات المعاندة . وتعذيبُ المعذبين في الخلة والشدة وطولِ المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم ، فكذلك الناس في الآخرة يتفاوتون في الجزاء بحسب تفاوت الأعمال « الرتبة الأولى » رتبة الهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، ولا تكون إلا للجاحدين المعرضين عن الله تعالى المتجردين للدنيا

المكذبين بالله ورسله وكتبه فإن السعادة الأخروية لا تنال أصلا إلا بالإيمان « الثانية » رتبة المعذبين وهي لمن تحلى بأصل الإيمان واسكن قصر في الوفاء بمقتضاه ، وشدة العذاب وخفته وطوله وقصره بأمرين : الأول قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته والكلام فيمن مات على غير توبة « الثالثة » رتبة الفاجين والنجاة السلامة فقط وهم قوم لم يخدموا فيخاع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين ومن لم تبلغهم الدعوة وعاشوا على البله فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فهاهم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون منزلة بين المنزلتين « الأعراف » رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم السابقون المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان قال تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال عز وجل : في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . متفق عليه .

وفي الكتاب والسنة وكتب القوم من ذلك شيء كثير^(١) مفيد وبمثله يستطيع أن يسترعى الأسماع ويمتلك القلوب حتى يقودها إلى مباشرة العمل ويرد النفوس الشريرة عن الغي إلى الرشد وبمثله يمكنه أن يسحر الأبواب حتى ينسى السامع من يقول ويفكر فيما يقول ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة المرضية ، وبهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشر والفساد ، ويغرس فيها حب الخير والصلاح وروح الألفة والاتحاد ، وبهذا يصلح حال الناس وتنال السعادة في العاجل والآجل وبالله تعالى التوفيق .

(١) وقد تركنا بيان ما يستفاد من بعض هذه الأمثال من المعطيات والمبر لاستعداد الطالب وفضائله .

الفصل الرابع عشر

رعاية مقتضى الحال

وينبغي للمرشد أن يلاحظ مآقتضيه أحوال الأشخاص والمجتمعات الخصوصية والعمومية ويراعى أيضاً الزمان والمكان من إلقاء درس أو خطابة أو شدة أو لين أو جدل بالحسنى أو ضرب مثل أو رواية قصص أو إيجاز أو إطباب فيما يقول إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، والجامع لهذه المتفرقات قول الله جل ثناؤه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فإنه تعالى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى دين الإسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم ، وأخرى بملة إبراهيم بالمقالة المحكمة وهى الحجة القطعية المزيحة للشبهة ، وذلك بالنسبة لأولى النفوس القوية الاستعداد لإدراك المعانى الطالبين للحقائق وهم الخواص ، وبالحطايبات المقتنة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصهم وتتوخى الخير لهم ، وذلك بالنسبة لذوى النفوس السكدرة ضعيفة الاستعداد الشديدة الألف للمحسوسات القوية التعلق بالرسوم والعادات ولكن لا عناد عندهم وهم العوام ، وبأحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات تسكيناً لشغبهم وإطفاء اللهيم كما فعل الخليل عليه السلام ، وهذا بالنسبة للمعاندين المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ، لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ورسخ فى نفوسهم من العقائد الباطلة فصاروا بحال لا تنفع فيه المواعظ والعبر بل لابد من إقامهم الحجر لكن بأحسن طرق الجدال لتلين عريكتهم وتزول شكيمتهم . الشغب بالتسكين تهيج الشر ولا يقال شغب بالتحريك .

ويصح أن يقال إن هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن المدعوتين على ثلاثة أحوال : منيب متذكر ، وهذا شديد الحاجة إلى معرفة الأوامر والنواهى . ومعرض

غافل ، وهذا شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب . ومعارض متكبر ، وهذا شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الآية الكريمة في حق هؤلاء الثلاثة ، ولم يقيد الحكمة بوصف الحسنة إذ كلها حسنة بخلاف الموعظة إذ ليس كل موعظة حسنة وكذلك الجدال ، وهذا قد يرجع إلى حال الجادل وغلظته ولبنه وحدته ورقته ، فهو مأمور بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن .

والحاصل أن طرق الدعوة إلى الله تعالى تتفاوت بتفاوت أحوال الناس فإن لكل مقام مقالا ، ولكل نفس إغراضاً وإقبالا فقد يكون الدرس أنفع للقوم لاشتماله على الأخذ والرد والوقوف على ما عساه أن يكون غامضاً على السائل فلا يعدل عنه إلى الخطابة ، وقد تفضل الخطابة الواحدة ألف درس في بعض المجتمعات والأوساط فلا يعدل عنها إلى الدرس . وقد يكون اللين أفضل من الشدة فقد تكره الموعظة لما فيها من الغلظة أو الخرق . قال رجل للرشيد : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها . قال : كلا ، إن الله أسر من هو خير منك بالإانة القول لمن هو شر مني ، قال لنييه موسى إذ أرسله إلى فرعون : « فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى » أي لا قولاً غليظاً منقراً ، والقول اللين نحو قوله تعالى : « هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » فإن ظاهره الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه الفوز العظيم والسعادة الدائمة والترجى بالنسبة لهما أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجهد طاقته ويبذل أقصى وسعه .

كذلك الإيجاز لا يكون إلا للخواص وأولى الأبواب الراجحة والقلوب الحاضرة . وأما الإطناب فهو مشترك بين الخاصة والعامة ويكون مع الغبي والذكي . وليجمل القرآن الحكيم في ذلك إماماً يقتدى به ومرشداً يهتدى بهديه ، ألا ترى أنه إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الوحي والإشارة لشدة ذكائهم وقوة فطنتهم ورجاحة عقولهم ، وإذا خاطب غيرهم كبنى إسرائيل أو حكي ففهمهم جمل الكلام مطولاً مبسوطاً معاداً في مواضع كثيرة لبعده فهمهم وتأخر معرفتهم

واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة ، فما خاطب به مشركى العرب فى مقام الاستدلال على قدرة الله ووحدانيتة قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

بيانه أن أقل درجة المعبود القدرة على جلب ما ينفع العابد ، ودرء ما يضره ، والآلهة التى عبدها المشركون لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقهم ، فكيف ما هو أكبر منه . ولا يقدرّون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب وهو أضعف الحيوانات ، ولا على استرجاع ما سلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يليق بماعقل أن يعبدها من دون الله ، والمعبود فى الضعف والعجز فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل هو تسوية بين السالب والمسلوب الذباب والآلهة فى الضعف والعجز فالطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما يأخذه مما هو عليه ، ولفظ الآية يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستأب فمن جعل هذا إلهاً مع القوى العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه فى بطلان الشرك وتجهيل أهله وتسفيه أحلامهم والشهادة على أن الشيطان قد لعب بهم أعظم من لعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التى من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات فأعطوها صوراً وتمائيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم أن هذا المخلوق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستردوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدرّوا عليه

وقوله تعالى في الاستدلال على وحدته وأن الألوهية تقتضى الاستقلال بالتصرف في الملك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » فإن هذا الكلام لا يوازيه في الاقتصار كلام .

ومما جاء في مقام الرد على منكري البعث قوله تعالى « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » فإنه لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الإيجاز لم يقدرُوا . ونظيره قوله تعالى « قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » وقوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » فإن هذا معلوم لكل صانع يتكرر منه عمل لأن الأول لم يستقر بعد في خزانة الخيال ، والثانى قد ارتسم وثبت له مثال ، وإذا كان هذا في حق من يتفاوت في قدرته الصعب والسهل كذلك فما ظنك بمن لا يتوقف مقدوره إلا على مجرد تعلق الإرادة الأزلية ؟ فهذه الآيات الكريمة على إيجازها برهان قائم على أن البعث مما يدخل تحت سلطان قدرته تعالى من باب أولى وغير خاف عليك ما جاء فيه عن بنى إسرائيل .

وعلى الجملة فللايجاز موضع كما أن للإطناب موضعاً فاستعمال أحدهما موضع الآخر خطأ واضح وعى فاضح ، كما روى عن جعفر بن يحيى البرمكى أنه قال : متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيباً . وقال الخليل : يختصر الكلام ليحفظ ويبسط ليفهم — وقد كانت العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها — فالإطناب إذا لم يكن منه بد فهو إيجاز وهو في الوعظ خاصة محمود كما أن الإيجاز في الافهام محمود . والمرشد الحازم هو الذى يتفرس في حال القوم ويأتى في كل حال ما يناسبه وسيأتيك مزيد بيان لهذا المقام مع عدة تطبيقات في الضرب الرابع من أضرب التهيب فيفطن له .

الفصل الخامس عشر

« الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في إرشاد الناس »

إعلم أن ذلك يطول بيانه . ولا يمكن استقصاؤه . فانه يختلف باختلاف الأمراض الاجتماعية ويتنوع بتنوع الأحوال والدواعي ، ولكنها ترجع إجمالاً إلى طريقين : الترغيب والترهيب . كما يشير إليه قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم^(١) » ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً . فإن قوله عز وجل ويبشر المؤمنين وما بعده بيان لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ، فالترغيب بوعد الطائعين الحافظين لحدود الله تعالى بعظيم الخير ، وتبشيرهم بحسن المثوبة — والترهيب بوعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى ، وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة — ثم إن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما — والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما .

فقد وعد جل شأنه المؤمنين الصادقين الاستخلاف في الأرض . والأمن من الخواف ، والعزة والسيادة والحياة الطيبة — وأوعد العاصين بالخزي والذل ، وضنك المعيشة في الحياة الدنيا — كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم في الآخرة . وبالوعد ساق الطائعين إلى الجد في الطاعة ، وبالوعد وقف العاصين عند حد الأدب ؛ وإليك بيان الطريقين .

الترغيب

نذكر لك من هذا الطريق ما يفيد في حمل الناس على التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله تعالى لنيل السعادة في الدنيا والآخرة وهو ضربان (الأول)

(١) للذة أو الصريمة أو الطريقة التي هي أقوم الطرق وأسدها وهي ملة الإسلام والتوحيد ، والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى إليها من تمسك به ، لا تحصيل الهداية بالفعل وإلا كان خاصاً بالمؤمنين .

الترغيب في جنس الطاعات بما جاء في ذلك من الكتاب والسنة كقول الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » . فإنه تعالى وعد الذين جمعوا بين الإيمان وصالح العمل — ومنه نصر دين الله — أن يجعلهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف بنى إسرائيل في مصر والشام بعد إهلاك فرعون والجبارين ، وأن يجعل دينهم ثابتاً مقررأ بحيث يستمروا على العمل به ويرجعون إليه في كل ما يأتون ، وما يذرون ، وأن يبدلهم بعد الخوف من الأعداء أمناً بتأييدهم بالنصرة والإعزاز ، ولقد أنجز تعالى وعده هذا للمهاجرين وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم ، وبذلك رغبهم في الطاعة . وقوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » . أى للذين أحسنوا أعمالهم في هذه الدار مشوبةً بحسنة مكافأة لهم فيها على إخلاصهم في العمل وَلَمَتُّوْهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ مِمَّا أُوتُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَثُوبَةِ فهذا وعده تعالى للمخلصين في الأعمال بحسن الجزاء في هذه الحياة وفي تلك الحياة ترغيباً لهم في الازدياد من صالح العمل مع الإخلاص فيه .

وقوله تعالى ترغيباً في صالح العمل : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . فإنه تعالى وَعَدَهُ حَسَنَ الْحَالِ وَالْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ » . فيعيش الموفق عيشاً طيباً هنيئاً ، وإن كان معسراً فإن معه من القناعة ، والرضى بالمقسوم ، وتوقع الأجر العظيم ما يطيب عيشه — بخلاف الفاجر المخذول ولو كان موسراً فلا يدعه الحرص ، وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه فهو دائماً في عناء ونكد ، هذا في الدنيا ، والجزء الآخرة خير وأعظم ، والعيش عيش الآخرة .

وقوله تعالى ترغيباً في التقوى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » . فهذا أيضاً وعد

منه تعالى للمؤمنين الصادقين أن يمنحهم بتقواهم هداية في قلوبهم يفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً وظفراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين والمنافقين كما قال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أو نجاة مما يحذرون في الدارين وفي الآخرة يستر عنهم السيئات ويمفواهم عن الزلات .

والحاصل أن العمل على مقتضى الدين ورعاية سنن الله في خلقه يورث ملكة العلم والحكمة وينير البصيرة ، وبذلك يفرق المرء بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وإذا ذلك يمنحه الله نصراً على أعدائه يعز به المؤمن ويذل به العدو .

وقوله تعالى ترغيباً في التمسك بالدين : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » أى وأوحى إلى أنه لو استقام الجن والإنس على ملة الإسلام لوسعنا عليهم الرزق — وتخصيص الماء الغزير بالذكر لأنه أصل السعة والخيرات كلها في الدنيا « لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً » لنختبرهم كيف يشكرون — وكما يختبر الله تعالى عبده بالبلايا ليظهر أمره أيبصر عليها أو لا يختبره بالنعم أيشكره عليها أم يكفره — ومن يعرض عن طاعة الله تعالى وسماع مواعظته وقبول وحيه يدخله عذاباً شاقاً صعباً لا يطيقه .

وقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » البرهان ما يبرهن به على المطلوب ، والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم سمي به لما معه من المعجزات التي تشهد بصدقه بل هو نفسه برهان على صدق دعواه وحقيقته ما جاء به ، يظهر ذلك لكل من عرف حياته قبل البعثة وبعدها ، فإنه برهان بسيرته العملية كما أنه برهان في دعوته العلمية . فقد نشأ يتيماً أمياً لم يعن بترتيبه عالم ولا حكيم ولا سياسى ، ومع هذا قام في كهولته يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله وطاعته ، ويعلمهم حقيقة الإيمان الصحيح بالله تعالى وكل ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من تقويم العبادات ونظام المعاملات ومكارم الأخلاق . كل ذلك على أساس الحجج الكونية والبراهين العقلية ،

فلا غرابة أن يسمى هو نفسه برهانا — والنور المبين هو القرآن الكريم ، فإنه كالنور النير في نفسه المنور لغيره ، ولا ريب أن القرآن بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيقته ، وأنه من عند الله بإعجازه غير محتاج إلى غيره ، مبين يبين للناس الحجة الواضحة والسبل الهادية إلى سعادة الدنيا والآخرة إذا هم سلكوها واستناروا بضوئه — والاعتصام الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ — والرحمة الجنة — والفضل ما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء كما قال تعالى في آية أخرى « ويزيدهم من فضله » .

والمعنى — بعد ما أقام سبحانه في الآيات السابقة الحجة القاطعة على المشركين والمنافقين واليهود والنصارى وبطلان ما هم عليه من أنواع الكفر والضلال ، وجه هذا النداء العام إلى جميع المكلفين يدعوهم به إلى اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بالنور الذي أنزل معه حيث يقول جل ثناؤه : يا أيها الناس قد أتاكم برهان عظيم شأنه جلى أمره وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم وأنزلنا إليكم على يديه كتاباً كريماً كالنور نير في نفسه منور لغيره يبين لكم كل ما تحتاجون إليه لسعادة العاجلة والآجلة ولم يبق بعد ذلك علة لمتملل ولا عذر لمعتذر — وأن الذين صدقوا بالله واعترفوا بوحديته وآمنوا برسوله وبما جاء به وتمسكوا بهذا القرآن العظيم سيدخلهم في دار الإحسان ، ويتفضل عليهم زيادة على جزاء أعمالهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويهديهم تعالى هداية خاصة موصلة إليه ، ويعرفهم طريقاً قويمًا يبلغون به سعادة الدارين — بالكمال والنصرة والعزة والسيادة في الأولى ، وبالجنة والرضوان في الآخرة — وهذا وعد كريم منه تعالى بهذه الأمور الثلاثة : الرحمة ، والفضل ، والهداية ، ترغيباً لهم في الإيمان بالله ورسوله والتمسك بكتاب الله والعمل بسنة رسوله ، فيا سعادة الموقنين ويا شقاوة الخذولين الخرومين .

وقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته ، وإقراراً بوحديته ، ثم ثبتوا على هذا الإقرار ومقتضياته ، والخوف هم لتوقع المكروه ، والحزن غم لفوت نافع أو حصول

ضار — والمعنى أنه تعالى كتب لهم الأمن من كل هم وغم — وهذا وعد للذين جمعوا بين التوحيد الذى هو رأس العلوم اليقينية والاستقامة فى جميع أمور الدين والدنيا التى هى رأس الأعمال الصالحة . بالأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المكارِه فى هذه الحياة وفى تلك الحياة — وبمثل هذا الوعد الكريم رغبتهم فى الإيمان والاستقامة . وقوله تعالى « من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يقول جل ثناؤه من أخلص نفسه لله تعالى فلم يشرك معه فى العبادة أحداً وهو مخلص فى هذا التوحيد وفى جميع أعماله فله جزاؤه الذى أعد له على عمله وهو الجنة عند مالِك ومدير شئونهِ ولا خوف عليهم فى الدنيا والآخرة من نزول مكروه ، ولا هم يحزنون لقوات مطلوب — وهذا وعد منه سبحانه لأهل التوحيد الصادق والعمل الصالح مع الإخلاص له بالخير العظيم فى العاجلة والآجلة — وبذلك رغبتهم فى التوحيد وصالح العمل والإخلاص فى ذلك له تعالى .

وقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » أى سيجدث لهم فى القلوب مودة ويزرع فيها محبة يعيشون بها فى الدنيا مطمئنين مكرمين لما لهم من الإيمان وصالح العمل . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه . وفى صحيح البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل عليه السلام : إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله أحب فلانا فأحبه فىحبه أهل السماء ، ثم يوضع له المحبة فى الأرض » — وذلك عادة لا يكون إلا لمن تكمل بالإيمان وصالح العمل وتحلى بمكارم الأخلاق وصنائع المعروف — وهذا وعد منه تعالى للمؤمنين العاملين بأنه يجعلهم محل رحمته وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول الناس أجمعين . وبذلك رغبتهم فى الإيمان وعمل الصالحات . وقوله تعالى « فإما يأتينكم منى هدى » من كتاب ورسول « فمن اتبع هداى فلا يضل » فى الدنيا « ولا يشقى » فى الآخرة فهذا وعده تعالى من يتبع الهدى بخيرى الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . يعنى أن الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامثل أوامره واتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه « ومن أعرض عن ذكرى » هداى الذاكر لى والداعى إلى « فإن له معيشة ضنكا » ضيقاً فى الدنيا ، فترى الفاسق شرها حريصاً منهمكا فى جمع المال وعنده فوق ما يكفيه . ولا يهدأ له بال ويضيق صدره لأقل نازلة ، وناهيك بذلك ضيقاً فى معيشتهم وتعذيباً لنفوسهم — وترى الصادق الإيمان مملوء القلب بالقناعة والرضا وليس عنده قوت يومه « ونحشره يوم القيامة أعمى » فاقد البصر كما فى قوله تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً » ويصح أن يكون المراد من هذا أنهم لا يبصرون ما يقرأعينهم ولا ينطقون بما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم فقد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون — والمراد بالعمى فى الآية التى معنا عدم الهداية إلى طريق الخلاص وفقد البصيرة وقد كان فى الدنيا يحسن التفكير ذا بصر فى أموره « قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت » فى الدنيا « بصيراً قال كذلك » مثل ذلك فعلت أنت « أتتلك آياتنا » واضحة نيرة لا تخفى على أحد « فنسيتها » عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلاً « وكذلك » مثل ذلك النسيان الذى فعلته فى الدنيا « اليوم تنسى » تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقاً — وهذا وعيده تعالى لمن يعرض عن الهدى وداعيه بنكد الدنيا وشقاء الآخرة .

وقال تعالى « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » فإنه تعالى وعد المجاهدين المخلصين فى سبيل الله أن يزيدهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى » وفى الحديث : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وإطلاق الجهاد يعم جهاد الأعادى الظاهرة والباطنة .

وقال تعالى « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » فإنه تعالى وعد من ينصر دينه بالنصر على أعدائه حتى يكون هو الظافر . وبين تعالى أنه قوى على

هذه النصره التي وعد بها المؤمنين عزيز لا يضام ولا يمنع مما يريد — واقد أنجز عز سلطانه وعده . حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورشهم أرضهم وديارهم — أجل نصرهم الله تعالى على هؤلاء الأعداء الأقوياء عندما كانوا متمسكين بدينهم وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرف من بعدهم عنه خرجوا من الوعد ، ولوعادوا لعاد الله عليهم بالنصر المبين — وصفوة القول أن طاعة الله تعالى هي المستتبعة للخيرات في العاجل والآجل وعصيانه مستوجب للشروع والآلام في الدنيا والآخرة .

وحدث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات » وفي رواية مسلم ينفعك الله بهن أى بعلمهن والعمل بمقتضاهن : « احفظ الله » أى دين الله بحفظ أوامره ونواهيه فتقف عندها بالامتنال والاجتناب فلا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك « يحفظك » فى نفسك وأهلك ومالك ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياه طيبه » وما يصيب الإنسان من النوائب والشدائد فهو بتضييع أوامر الله تعالى وتعديه حدوده . قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . « احفظ الله تجده تجاهك » أمامك بمعنى معك حفظاً وتأيداً وإعانة حيثما توجهت وقصدت ، من أمور الدين والدنيا فالعمية معنوية : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليكم ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » كناية عن قدم المقادير فلا تبدل ولا تغيير — ولا ينافيه قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت » لأن الحو والأثبات مما جفت به الصحف أيضاً — رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وفي رواية الإمام أحمد وعبد بن حميد فى مسنده « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء » أى سعة الرزق وصحة البدن « يعرفك فى الشدة » بأن يجعل لك من كل هم فرجا ومن كل

ضيق مخرجاً بما سلف منك من ذلك التعرف كما وقع للثلاثة أصحاب الغار^(١)
« واعلم أن ما أخطأك » جاوزك فلم يصل إليك « لم يكن ليصيبك » لأنه
تبين بكونه لم يصل إليك أنه غير مقدور عليك « وما أصابك لم يكن » قدر
« ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر
يسراً » والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة .

(الضرب الثانى) الترغيب فى أنواع الطاعات — كالصلاة والصدقة والصوم
والحج والجهاد لإعلاء كلمة الله وبر الوالدين . وإصلاح ذات البين كذلك يلزم
ترغيب الناس فى أنواع الفضائل النفسية كالشجاعة والعفة ، والصدق والوفاء والأمانة ،
والإخلاص والحلم والتواضع ، والكرم والسخاء والصبر لدى الشدائد ، وطهارة
الضمير وحب الخير للناس — كذا يرغبهم فى إتقان الصنائع الوطنية ، ويحث على
ترويجها بالاقبال عليها ، لما فى ذلك من تشجيع الحركة الاقتصادية التى تعزبها الأمم
وترقى الشعوب ، وإجمالاً كل ما ينفع الأمة فى العاجل والآجل بذكر ما جاء فيها
من الكتاب والسنة والآثار الصحيحة مع شرح ذلك شرحاً وافياً حسبما تدعو إليه
الحاجة — ويرجع فى ذلك إلى مثل كتاب رياض الصالحين للإمام النووي —
وكتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وكتاب إحياء العلوم للإمام الغزالى
مع الرجوع فى تفسير الآيات والأحاديث إلى مظانها فذلك أعون على الإفادة
وتمام الإفادة .

ومن أنفع وسائل الدعوة إلى خير الأعمال وحميد الخصال تنبيه الأمة إلى
ماضى أسلافها الصالحين الذين رفعوا منار العلم والدين ونشروا لواء العدل والمساواة
لتعلم من هم لعلمها تستحى من أن تكون شر خلف لخير سلف بل لعلمها تنقدم
على سوء حالها فتتقاع عما هم عليه من شرور الأعمال وفساد الأخلاق حتى
صارت فى أخريات الأمم بعد أن كانت فى مقدمتها « نعم » هذا من أحسن

(١) حديثهم فى الصحيحين من رواية ابن عمر وفى رياض الصالحين باب الاخلاص وقد تقدم .

الطرق التي ترقى شعور الأمة ، وأقرب وسيلة تهيب بها إلى خير الأعمال والتحلى بحميد الخلال — ذلك أن تذكيرها بشرفها السالف وتشخيص مجدها الرفيع ، وعزها المنيع أمام عيونها يدعوها بلا شك إلى التأسى بهم فيما كان لهم من جلائل الأعمال — وحيد الخصال — أحسن زاجر للمرء عن مساويه إن كان حياً أن يتفكر فيمن مضى من أمته وحماة دين الله فيرى فيهم العلماء الحكماء ، والأمراء العظماء والولاة العادلين ، والشجعان المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم وأمواهم مخلصين في سبيل الله والحق ففازوا بالسعادتين وخلدوا لأنفسهم أحسن الذكرى وجميل الأحدث .

وأكبر ما يهون على المرء احتمال الضيم والذل جهله بنفسه ونسيانه شرف أسلافه وأجداده فتخفى عليه سيرتهم الحسنة وأعمالهم الجليلة الخالدة وأخلاقهم الكريمة فلا يحجل أبداً من السقوط في حماة الرذيلة ولا يستحي أبداً من إتيان النقائص .

من يهن يهن الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لهذا ترى دعاة الاستعمار إذا غلبوا أمة إسلامية جعلوا أكبر همهم القضاء على دينها ولغتها وعاداتها ، وعملوا على إضعاف الروح العلمية فيها حتى تتلاشى قوميتها وتنسى مجدها التالذ وشغلها بزخرف الحياة وزينتها وأنواع الملامى عن كل ما يرقى شأنها فتراها مفتونة بتقاليد الغالبين وعاداتهم القبيحة الضارة ، وتراها تكثر من الإعجاب بما ظهر على أيديهم من المخترعات وإتقان الصناعات ذلك لجهلها بماضى أسلافها وإلا فقد ظهر على يد السلف الصالح من الحكم والآداب وإتقان الأعمال في سياستهم المدنية وفي حروبهم وقضائهم بين الناس ما هو أعلى بكثير مما يندعش له هؤلاء الجهلاء عند ظهوره على يد هؤلاء المستعمرين . فواجب المسلم أن يقف على محاسن دينه وآثار السلف الصالح ليعلم أن الحاسن التي في دينه واسلفه كثيرة جديرة بالحفظ والعناية وبالله تعالى التوفيق .

طريق الترهيب

ونذكر لك من هذا الطريق الأمور النافعة في التحذير من كل المعاصي صغيرها وكبيرها . والمفيدة في حل عقدة الأصرار . وحمل الناس على ترك الذنوب . وهي أربعة أضرب « الأول » أن يذكر مافي القرآن الكريم من الآيات المخوفة للذينين وكذلك ماورد من الأخبار والآثار — فإن الله تعالى حذر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته . وأقامه من سطوات قهره وجبروته ووحدايته . وجعل النفوس المدنسة بالعقائد الفاسدة والأخلاق المدمومة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة والأولى ، كما جعل الأجساد القذرة عرضة للأمراض القاتلة في الدنيا وهو في كل حال حاكم عادل « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون »

قال الله تعالى « فلما آسفونا » أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف إذا اشتد غضبه « انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » معناه أنهم أفرطوا في المعاصي فاستوجبوا أن يُعجل لهم عذابنا وأن لا نحلم عليهم « فجعلناهم سلفا » أي جعلناهم قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم في استحقاق مثل ما حل بهم من العذاب ومثلا للآخرين عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم . أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون — وقال تعالى « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » أخبر تعالى أنهم لما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه اغضبهم وغضب عليهم وجعلهم قردة أزلاء مبعدين والخسوء هو الطرد والصغار والأمر للتسكين ، أي فكانوا بحسب سنة الله في طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستذلة المطرودة من حضرة الناس ، روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالخنازير ، ومثل هذا قوله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » فالمسخ معنوى لاصورى على الصحيح وليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم نص فيه على كون ما ذكر مسخا لصورهم وأنهم قد تحولوا من أناس إلى قردة وخنازير .

وقال تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة »
أى أنه تعالى لو يؤاخذ الناس جميعاً بما اقترفوا من السيئات كما فعل بالأمم الماضية
ما ترك على ظهر الأرض من نسيمة تدب عليها من بنى آدم . وقيل ومن غيرهم أيضاً
بشؤم معاصيهم . وقال تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » أى من يخالف الرسول
فيما جاء به من الحق من بعد ما ظهر له بالمعجزات الدالة على صدق رسالته ويسلك
طريقاً غير طريق المؤمنين الذين هم مستمررون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم
نجمه واليا لما تولاه من الضلال ونحذله بأن نحلى بينه وبين ما اختاره في الدنيا وندخله
جهنم في العقبى — وقال تعالى : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم »
وقال تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها
وله عذاب مهين » والآيات في ذلك كثيرة .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « إن الله يغار
وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه » — وفيهما أيضاً
أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغبر من الله فلذا حرم الفواحش ما ظهر منها
وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل » . والغيرة الحمية والأنفة ،
والمراد بها في حقه تعالى لازمها وهو الانتقام . وروى أحمد والترمذى والحاكم وصحاحه
والنسائى وابن ماجه وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة سوداء في قلبه فان تاب واستغفر
صقل قلبه ، وإن لم يتب زادت حتى تملو قلبه » أى تغشيه وتغطيه تلك النكتة
السوداء « فذلك الران الذى ذكره الله في كتابه — كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون » أى من الخطايا والسيئات وفي قوله « يكسبون » معنى الاستمرار
والاسترسال . وران عليه ستره وغطاه . أى أن قلوبهم قد أصبحت في غلاف من
ظلمات المعاصى حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ولمثل هذا كان السلف
يقولون : المعاصى بريد الكفر . ومن أحدث لكل ذنب يقع فيه توبة نصوحاً

لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « اتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا . وقذف هذا . وأكل مال هذا . وسفك دم هذا . وضرب هذا . فيمطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » . رواه مسلم . وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . رواه البخاري — والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قيل له هل تركت بنو إسرائيل دينهم ، أي حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم كسجنهم قردة وخنازير^(١) وأمرهم بقتل أنفسهم ؟ قال لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه . وإذا نهوا عن شيء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسأخ الرجل من قميصه — وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن أنظر إلى من عصيت — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله . وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله تعالى . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا عظمت الذنب فقد عظمت حق الله تعالى وإذا صغرت فقد صغرت حق الله ، وما من ذنب عظمت إلا صغر عند الله ، وما من ذنب صغرت إلا عظم عند الله — وقال حذيفة رضي الله عنه : إذا أذنب العبد نسكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا أذنب نسكت

(١) تقدم لك أن المسخ معنوي على الصحيح كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره خلافاً لما عليه الجمهور من أن صورهم تحوت فكانوا قردة وخنازير حقيقة .

فى قلبه نكته سوداء حتى يصير قلبه كله أسود . ويؤيده قول السلف : المعاصى
بريد الكفر أى رسوله . باعتبار أنه إذا أورثت القلب هذا السواد وعمته لم يعد
يقبل الخير قط ، فحينئذ يقسو ويخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف فيرتكب
ما أراد ويفعل ما أحب ، ويتخذ الشيطان ولياً من دون الله فيضله ويفويه ويعدّه
ويعنيه ، ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد إليه سبيلاً . قال تعالى : « إن يدعون
من دونه إلا إناثاً » أى ما يعبد المشركون من غيره تعالى إلا أصناماً مؤنثة كاللات
والعزى ومناة « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » وما يعبدون بعبادتها إلا شيطاناً
خارجاً عن الطاعة عارياً عن الخير لأنه هو الذى أغراه على عبادة الأصنام
فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً
مفروضاً » أى شيطاناً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع لأجعلن لى منهم
حظاً مقطوعاً أدعوهم إلى طاعتي « ولأضلنهم » عن الحق بالدعاء إلى الضلالة
« ولأمنينهم » لأتقين فى قلوبهم الأمانى الباطلة من طول الحياة وأن لا بعث
ولا حساب « ولأسرنهم فليبتكن آذان الأنعام » لأحملنهم على أن يقطعوها وكانوا
يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً وحرّموا الإنتفاع بها
« ولأسرنهم فليغيرن خلق الله » دينه بالكفر وإحلال ما حرم وتحريم ما أحل
« لقوله لا تبديل لخلق الله » « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر
خسراناً مبيناً يعدم » يوسوس إليهم أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار
« ويمنيهم » مالا ينالون « وما يعدم الشيطان إلا غروراً » باطلا هو أن يرى شيئاً
يظهر خلافه .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم
بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا
من أصحاب السعير » .

وفى التوراة ما معناه : أنا الله ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين
على الثواب وعلى الروابع . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن وهب قال : إن الرب

سبحانه وتعالى قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل : إني إذا أطاعنى العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه باركت فيه وفى آثاره ، وليس لبركتى نهاية ، وإذا عصانى العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتى تبلغ السابع من ولده . ويؤيده قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » فإنه تعالى أمر الأوصياء بأن يخافوا الله فى شأن اليتامى خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً وإلا فقد عرضوهم للضياع . فى الآية الكريمة بعث على الرحمة وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه ، وتهديد المخالف بحال أولاده ، ولو شرطية جوابها خافوا عليهم والجملة صلة الذين — والمعنى ليخف الله الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شاربوا أن يتركوا أولاداً ضعافاً خافوا عليهم الضياع بعدهم — وأمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد الأمر بها مراعاة العبد! والمنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى — وأن يخاطبوا اليتامى بالشفقة وحسن الأدب وفى الحديث « البر لا يبلى والذنوب لا ينسى . والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان » أى كما تفعل يفعل معك . والقصاص إن لم يكن فيك أخذ من ذريتك ولذا قال تعالى : « خافوا عليهم فليتقوا الله » فإن كان لك خوف على صغارك وأولادك الضعفاء فاتق الله فى أعمالك كلها لاسيما فى أولاد غيرك فإن الله تعالى يحفظك فى ذريتك . ويسر لهم من الحفظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ما تقر به عينك بعد موتك وتسره روحك . قال تعالى « وأما الجدار فكان لفلان يقيم فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا » الآية . وأما إذا لم تق الله فى أولاد الناس ولا فى حُرْمهم فاعلم أنك مؤاخذ بذلك فى نفسك وذريتك وأن ما فعلته كله يفعل بهم .

فإن قيل هم لم يفعلوا فكيف عوقبوا بزلات آبائهم وانتقم منهم بمعاصى أصولهم؟ « قلنا » لأنهم تبع لأوثانك الأصول وناشثون عنهم « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » أى أنهم يرثون الشر عن آبائهم كما يرثون أوصافهم الجسمية — ولئن قيل بالعدوى فى الأمراض الحسية فالنفوس أقبل

لخافى الأمراض المعنوية . هذا ما تشير اليه هذه الآية — ومن استقرأ أحوال الفجار وجد أنهم لا يلدون إلا فجراً — فالخاصل أن الذرية ترتكب ما تستحق عليه العقوبة بشئ ما كان يصدر من الآباء بمقتضى تلك الوراثة والعدوى . ويؤيد هذا حديث : « تحيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه الحاكم . وحديث : « أعف نفسك تعف بناتك » وروى الطبراني في الأوسط من حديث عائشة مرفوعاً « عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » وسلب المال منهم إن لم يكن لسوء تصرفهم كان من قبيل رد الحقوق إلى آربابها لكونها في الأصل مثلاً مفسوبة .

وإن قال قائل قد نجد في فرع العصاة صالحاً كابن أبى طالب وبالعكس كابن نوح وابن آدم القاتل وفي هذا قال بعض الأدباء :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد

وقد ينحث الفرع الذى طاب أصله ليظهر فعل الله فى العكس والطرء

قلنا : هذا مع قلته لأمر باطن يعلمه الله تعالى لو لم يكن منه إلا الأعلام بعجز الخلق حتى الكمل منهم عن هداية أقرب الناس إليهم لكفى « إنك لا تهدي من أحببت » أى لا توصل من أحببت — وربما كان للفاسق ظاهراً أعمالاً صالحة باطنة يثيبه الله بها في ذريته فيتعين الأخذ بقوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » وفي مسند الإمام أحمد أيضاً كتبت عائشة إلى معاوية رضى الله عنهما : أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً . وقال أبو الدرداء : احذر أن تُبغضك قلوب المؤمنين وأنت لا تشعر . قال الفضيل هو العبد يخلو بمعاصي الله فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر — وقال يحيى بن معاذ عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه : اللهم لا تُشمت بى الأعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو . قيل له : كيف ذلك ؟ قال يعصى الله فيشمت فى القيامة كل عدو — وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير . وقال إن الرجل — أى الكامل — ليذنب الذنب

فما ينسأه ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة . وفي صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه . وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار » عبر بالذباب لكونه أخف الطير وأحقره — ولأنه يدفع بأدنى شئ — وقال به هكذا — أى نحاه بيده — وفيه تمثيل الذنوب فى نظر المؤمن بالجبل ثقلاً وخطراً وفى نظر الفاجر بالذباب خفة وحقارة — والمعنى أن المؤمن لقوة إيمانه وشدة خوفه من الله تعالى لا يأمن العقوبة بسبب ذنوبه . والمؤمن دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخاف من أقل الهفوات ، وأن الفاجر لضعف إيمانه وقلة خوفه من مولاه يستهين بالذنوب ولا يبالي بالمعاصى — وقال بعض السلف : يا أهل المعاصى لا تغتروا بطول حلم الله عليكم واحذروا أسفه . أى شدة غضبه من الإفراط فى المعاصى فإنه تعالى قال « فلما آسفونا انتقمنا منهم » والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغى أن يكثر المرشد منها إن كان ورث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة . وورثه كل عالم بما أصابه . وبالله تعالى التوفيق

« الضرب الثانى » حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من المصائب والبلايا بسبب هفواتهم التى هى خلاف الأولى فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق فى صحيح البخارى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قام موسى النبي خطيباً فى بنى إسرائيل » يذكركم أيام الله وأيامه هى نعمائه وبلائه « فستل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم » من جميع الناس فى اعتقاده وظنه فلم يكن ذلك كذباً « فعتب الله عليه ^(١) » تنبيهاً له وتعلماً لمن بعده ولئلا يقتدى به غيره فى تزكية نفسه فيهلك — وأصل العتب المؤاخذة أو تغير النفس والمراد به عدم الرضا بذلك ، ولذا أمره بالذهاب إلى الخضر للتأدب لا للتعليم

(١) عتب عليه وجد وبابه نصر وطرب .

« إذ لم يرد العلم إليه » تعالى كأن يقول الله أعلم « فأوحى الله إليه إن عبدا من عبادى بجمع البحرين هو أعلم منك » بشيء مخصوص وهو ما علمه من الغيوب وحوادث القدرة مما لا يعلم الأنبياء منه إلا بما أعلموا به . كما قال سيدهم وصفوتهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم في هذا المقام « إني لا أعلم إلا ما علمنى ربى » وإلا فلا ريب أن موسى عليه السلام أعلم من الخضر بوظائف النبوة وأمور الشريعة وسياسة الأمة ويدل هذا قول الخضر في هذا الحديث : « إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه لا أعلمه » فانظر كيف عوتب على حكم بناء على ظنه واعتقاده وامتنحن من أجله بالذهاب إلى الخضر وموسى أفضل منه تأديبا له واعتبارا لغيره — وغاية ما وقع منه أنه ارتكب خلاف الأولى فما بالنا ونحن المذنبون المقصرون — وكما روى صاحب القوت رحمه الله أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا ! قال لقولك لأخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون — لم خفت عليه الذئب ولم ترجى له ؟ — ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال : لأنك رجوتنى وقلت عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . وبما قلت : يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . أى اطلبوا خبرهما من الإحساس وهو المعرفة . وروى البيهقي في الشعب من حديث أنس رضى الله عنه : « أتى جبريل يعقوب عليه السلام وقال إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا ، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادى ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب وإذا كان صائما أمر مناديا فنادى ألا من كان صائما من المساكين فليفطر مع يعقوب^(١) » — وكذلك لما قال يوسف عليه السلام لصاحب الملك اذ كرني عند

(١) وأخرجه الحافظ المنذرى في كتاب الترغيب والترهيب من رواية الاصبهاني في باب كفالة اليتيم .

ربك . قال الله تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » .
فعوقب بطول السجن برجوعه إلى غير الله تعالى مع أن الاستغاثة بالخالق في دفع الظلم
جائزة في الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهذا وإن كان جائزاً
لعامة الناس إلا أن الأولى بالصادقين أن يقطعوا نظرهم عن الالتفات إلى غيره تعالى
وأن لا يشتغلوا إلا بالالتجاء إليه .

ومن ذلك ما جرى لسليمان بن داود عليهما السلام من تخلف رجائه من أجل
أنه لم يقل بلسانه إن شاء الله . قال الله تعالى « ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه
جسداً ثم أناب » فإن أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما رواه أبو هريرة رضي الله
عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال سليمان بن داود عليهما السلام
لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تآتى بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له
صاحبه قل : إن شاء الله . فلم يقل إن شاء الله فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة
جاءت بشق رجل والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله
فرسانا أجمعون » متفق عليه ، لأطوفن أى لأجامعن أو لأقمن — وصاحبه قرينه
من الملائكة ، أو وزيره من الإنس ولم يقل إن شاء الله أى بلسانه لا إباء عن
التفويض إلى الله تعالى ، بل لشغل أو نسيان عراه فصرفه عن الاستثناء القدر
السابق أن لا يكون مآتمنى كما هو اللائق بمنصب النبوة . وشق الرجل : هو الجسد
الذى ألقى على كرسيه كما جاء ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تآتى بفارس يجاهد
في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت
بشق رجل فحىء به على كرسيه فوضع في حجره . فوالذى نفسى بيده لو قال إن
شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانا أجمعون . فذلك قوله : ولقد فتننا سليمان »
فهذا مما قد يغيب عن الخواص من خفي سكونهم ، ولمح نظرهم إلى ماسوى الله
تعالى كاتكال المؤمن على قوته . أو إعجابه بها ، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر
ولم يرد بها القرآن الحكيم ورود الأسمار ، بل الغرض منها العظة والاعتبار ، ليعلم

العبد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع جلالة قدرهم عند الله تعالى ، لم يتجاوز عنهم في المغفوات الصغيرة . فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر الذنوب ، فليعتبر بذلك العبد ويكون على غاية الوجل — نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالمؤاخذه ولم يؤخروا إلى الآخرة — والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً — ولأن عذاب الآخرة أشد وأدبر — فهذا أيضاً مما ينبغي للمرشد أن يكثر منه على أسماع المصيرين على الذنوب فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة إن شاء الله تعالى .

(الضرب الثالث) أن يقرر في أذهانهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب والبلايا فهو بسبب جنائياته التي صدرت منه — فرب إنسان يتساهل في أمر الآخرة ويستخفه ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به — فإن الذنوب كلها يعجل شؤمها في الدنيا غالباً — قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . كالجذب وقلة الأمطار والريح في الزراعات ، والربح في التجارات ، ونزول الآفات بالناس والدواب ، وكثرة الحرق والفرق ، ومحق البركة من كل شيء بشؤم معاصيهم ليذيقهم بعض جزاء تلك الجرائم وتماه في الآخرة ، لعلهم يرجعون : كي يقلعوا عما هم عليه من السيئات — وقال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ، أي لو أنهم صدقوا بما أوحى إلى الأنبياء معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالسراء والضراء واتقوا ما أُنذروا به على أسنة الأنبياء ، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ، لو سئنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب ولكن لم تغنهم الآيات والنذر فعاقبناهم بما كانوا يفترون من الكفر وأنواع المعاصي — وقال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . أي ما ينزل بكم من المكاره كالألام والأسقام بالنفس والأهل ، والولد والعاهات بالمرزوعات والمواشي فهو بسبب معاصيكم التي ارتكبتموها ، ويعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها ، هذا في المجرمين ، أما ما ينزل بالطائعين من

الحزن والبلايا فلأسباب أخرى منها تعريضهم لثواب الصبر عليها ، ورفع درجاتهم — وفي الحديث ، (خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : البغى ، والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر) — روى من عدة طرق ، وبنحوه رواه الطبراني من حديث جابر ، وعن أبي بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » : رواه الحاكم والأصبهاني بسند صحيح — حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بذنوبه ، وقد تسقط منزلته من القلوب فيصير ثقيلاً مرذولاً ، ويستولى عليه أعداؤه — قال تعالى : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون » ، أى جعل القرية التي كانت هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة — والمثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشيء موجوداً أم لم يكن فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذا الوصف — وأن يكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لغيرها إنذاراً من مثل عاقبتها .

آمنة : ذات أمن من الفتن الخارجية لا ينزل بها ما يوجب الخوف كما ينزل ببعض القرى من إغارة الأعداء عليها وطلب الإيقاع بها — مطمئنة : ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث في بعض القرى من الفتن الداخلية بين أهاليها ووقوع بعضهم في بعض — يأتيها رزقها : أقواتها — رغداً : واسعاً من جميع نواحيها — فقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والعصيان ، بدل الشكر والطاعة ، فعاجلهم الله بالعقوبة وغشيمهم من آلام الجوع والخوف وأضرارها ما غشيمهم بما كانوا يقتربون فيها قبل على وجه الاستمرار وهو الكفران والتمرد وهو في كل ذلك حاكم عادل — ولقد جاءهم : هذا من تمام التمثيل أتى به لبيان أن ما صنعوه من كفران هذه النعم لم يكن خروجاً عما يوجب العقل السليم فقط ،

بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الطاعة والشكر على النعمة وأنذرهم بسوء عاقبة أمرهم فكفروا برسالته وكذبوه فيما أخبرهم به - فأخذهم العذاب المستأصل لشاقتهم عقب ما ذاقوا منه ما سمعت . وهم ظالمون أى حال تلبسهم بجريمة الكفر والتكذيب غير مقلعين بما ذاقوا من المقدمات الزاجرة عنه لو كانت لهم ضمائر وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد ، وتجاوزهم في ذلك كل حله معتاد . وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى كما يرشد إليه قوله سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، وبه يتم التمثيل فإن حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لهم ولمن سار سيرتهم كافة أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا في حرم آمن يُتخطف الناس من حولهم ولا يخطر لهم خوف من عدو ولا قلق داخلي على بال وكانت تجبي إليهم ثمرات كل شيء . ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول ، فأنذرهم وحذرهم فكفروا بنعم الله تعالى وكذبوه صلى الله عليه وسلم فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » . ما أصابهم من جذب إليهم وأزمة شديدة فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعِلْهَز وهو طعام يتخذ من الدم والوبر في وقت المجاعة وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من إغارة سرايا صلى الله عليه وسلم على مواشيهم وغيرهم وقوافلهم . وما حل بهم يوم بدر أشد وأنكى .

وقال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرِم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . فهؤلاء قبائل اليمن غمرهم الله تعالى بضعفه ومنحهم حياة طيبة ، فلما أعرضوا عن واجب الشكر سلبهم الله النعمة وأرسل عليهم سيلا جارفاً أغرق أموالهم وخرب بلادهم : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه

ثم أعرض عنها إنا من الجرمين منتقمون » — وقال تعالى : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » . وهؤلاء بنو إسرائيل لما أفسدوا في الأرض . وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء واستحلوا المحرم وتكبروا عن طاعة الله سلط الله عليهم أقواماً ذوى قوة وبطش في الحروب فأغاروا عليهم وقتلوا وانخذوا من جلودهم نعالا ومن شعارهم حبالا — وذلك من قبيل نواية بعض الظالمين بعضاً مما جرت به السنة الإلهية . قضينا : أوحينا — والكتاب التوراة — وجاسوا : ترددوا اطلبهم بالفساد — خلال الديار في أوساطها للقتل والفتك بهم إلى غير ذلك من الآيات .

وروى الحاكم بإسناد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه » واللام في الرجل للعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين فلا يقدر فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أكثر مالا وأحسن صحة من العلماء لأن الكلام في مسلم أراد الله أن يرفع درجته في الآخرة فيصيبه من ذنوبه في الدنيا . وبه عرف أنه لا تنافي بينه وبين خبر : « إن الرزق لا تنقصه المعصية » ولذا وجه بعضهم الخبر بأن الله تعالى لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته ، والانهماك في نهيمته — فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زجراً له عما أقبل عليه . وتأديباً له لئلا يعود لمثله ، فعادة الله في خلقه أن العبد متى مال قلبه إلى شيء والتفت خاطره إلى شيء جعل ذلك الشيء منشأً للآفات فينبذ ينصرف وجه القلب عن عالم الحدوث إلى عالم القدس فإن آدم عليه السلام لما تعلق قلبه بالجنة جعلها محنة عليه حتى زالت الجنة فبقى آدم مع ذكر الله تعالى — وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلق شعبة من قلبه بمحبته والله تعالى قد اتخذ خليلاً والخلة مقام يقتضى إفراد المحبوب بالمحبة فلما أخذ الولد شعبة من الوالد جاءت غير الخلة تنزعها من قلب الخليل فأمر بذيح المحبوب . فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب

المشاركة فلم يبق في الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس فيه
فقد حصل المقصود فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وتم مراد الله —
وهذا الامتحان كان في إسماعيل أول أولاده على القول الصواب عند علماء الصحابة
والتابعين ومن بعدهم — ولما استأنس يعقوب بيوسف عليهما السلام أوقع
الفراق بينهما حتى بقي يعقوب مع ذكر الحق جل وعلا . ولما طمع محمد صلى
الله عليه وسلم من أهل مكة بالنصرة والإعانة صاروا من أشد الناس عليه حتى قال :
« ما أودى نبي مثل ما أودى » ، ومشاهد أن من يتعاق بالمال أو البنين يصيبه
من آلام الحياة ومتاعبها ما يذهب بلذة ما تعلق به منهما . قال تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم
الخاسرون) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب
يصيبه . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود
إليه أبدا » وعن عائشة رضى الله عنها « ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى
الشوكة يشاكها وحتى إنقطاع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر » والوصب
بفتح الصاد المرض والنصب بالفتح التعب والنصب بضم فسكون الشر والبلاء
والشمع بالكسر واحد شموع النعل التي تشد إلى زمامها . وقال بعض السلف
ليست اللعنة سواداً في الوجه ، ونقصاً في المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب
إلا وقعت في مثله أو شر منه — وهو كما قال — لأن اللعنة هي الطرد والابعاد .
فإذا لم يوفق للخير وبُسر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أكبر
حرمان . وكل ذنب قاته يدعو إلى ذنب آخر ويجره إليه ويتضاعف فيحرم العبد
عن رزقه النافع من مجالسة الناصحين أطباء القلوب . المنكرين للذنوب ، ومن مجالسة
الصالحين المهذبين ؛ بل يمقتة الله فيمقتة الصالحون .

حكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى في وسط الوحل جامعاً ثيابه ، محترزاً
عن الوقوع حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشى ويبكى ويقول هذا مثل العبد
لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنوبين فعندها يخوض في الذنوب

خوضاً — وهو إشارة إلى أن الذنب تعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر —
ولذا قال الفضيل رحمه الله : ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك
أورثتك ذلك — وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى —
وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي — وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله
لا يفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب يذنبه . فدقائق العقوبات على قدر
جلال الدرجات .

والحاصل أن القوم حملوا الحديث على السكلة من الرجال . والرزق على
المعنوى . والحديث في ذاته شامل للسكلة وغيرهم . وصالح لإرادة الرزق بنوعيه
الحسى والمعنوى . فأهل الدنيا يعاقبون في رزق الدنيا بتعذر طرق الاكتساب
ونقص الأموال وهلاكها . وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق
إصالح الأعمال وتعذر فتوح العلوم النافعة وحسبك في هذا قول الإمام على رضى الله عنه :
لا ينزل البلاء إلا بذنب ولا يرتفع إلا بتوبة — والأخبار والآثار كثيرة في شؤم
الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وسقوط المنزلة من عيون الناس . والذل والاستعباد
وكثرة الهموم حتى تظهر السكابة على وجوه أرباب المعاصي ويحرمون بركة الرزق .
وإن جاءت أحدهم نعمة كانت استدراجاً له ، ويحرم جميل الشكر عليها حتى يعاقب
على كفرانه ، بل من شؤم المذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب من بعده صفته
بطريق العدوى كما سبق . فإن ابتلى خلفه بشيء كان ذلك أيضاً إيلاماً له في ذريته .
وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته . ويوفق
لشكرها ويبارك له في رزقه وفي ولده . وتكون كل بلية نزات به كفارة لذنوبه
وزيادة في درجاته ، بل قال بعضهم كل بلية اقترنت بالصبر كانت نعمة .

(الضرب الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد
الذنوب كالقتل . والزنا . وأكل الربا . ومال اليتيم . وتناول الخمر . والميسر والسرقه .
والقذف . والغيبة والنميمة . كذلك يلزم تحذير الناس من أنواع الرذائل الخلقية ،
كالجبن والشره والكذب ونقض العهد والنذر والخيانة ، والنفاق والرياء ، والغضب

والكبر ، والبخل والشح ، والجزع عند البلايا ، والحقد والحسد ، وتنفيرهم من عدم إتقان الأعمال والمصنوعات ، وعدم الإقبال عليها لما في ذلك من إماتتها وكسادها فتأخر الأمة وتفقد استقلالها وعزتها — وإجمالاً كل ما يضر بالأمة في دينها ودنياها ويرجع في هذا إلى مثل كتاب الزواجر والترغيب والترهيب ، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي . وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه . فينبغي للمرشد أن يكون كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنبض . والسحنة ^(١) على العلل الباطنة ويشغل بعلاجها فليستدل المرشد بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداءً بإمام المرشدين صلوات الله وسلامه عليه . والسلف الصالح من بعده فمن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال : « لا تغضب . فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخاري . وقال له آخر : أوصني يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع ^(٢) وإياك وما يعتذر منه » رواه العسكري في الأمثال والحاكم وغيرهما وصحح إسناده . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفي الثاني مخايل الطمع في الناس وطول الأمل . وعدم حضور القلب في الصلاة . وكثرة الاعتذار لأخوانه فنهاه عنها وقال رجل ل محمد بن واسع البصري رحمه الله : أوصني . فقال : أوصيك أن تكون ملسكاً في الدنيا والآخرة . قال : وكيف لي بذلك ؟ قال إلزم الزهد في الدنيا أخرجك أبو نعيم في الحلية . فكأن محمد بن واسع تخيل في السائل مخايل الحرص على الدنيا فأمره بالزهد فيها — والمخايل العلامات والأمارات . وقال رجل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أوصني فقال كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكأنه تفرس فيه آثار الغفظة والغلظة — وكتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنهما أن اكتبني لى كتاباً توصيني فيه ولا تكثري — وذلك حين تولى الامارة . فكتبت إليه : من عائشة

(١) السحنة بفتحين الهيئة وقد تسكن

(٢) أى مودع نفسه مودع لهواه مودع لغيره سائر إلى مولاه

إلى معاوية ، سلام عليك أما بعد فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس . ومن التمس سخط الله
برضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك » رواه الترمذى والحاكم . فانظر
إلى فقها كيف تعرضت للآفة التي يكون الولاة بصددها من مراعاة الناس وطلب
مرضاتهم — وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك
الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغفوا عنك من الله شيئا والسلام .

فإذن على المرشد أن يصرف عنايته إلى تفرس الصفات الخفية . وذكر النصائح
اللائقة بالمقام والأشخاص ليسكون اشتغاله بهمهم ، فإن ذكر جميع مواعظ الشرع
مع كل واحد غير ممكن . والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه إضاعة للوقت .
ووضع الشيء في غير محله — فإن كان المرشد يتكلم في جمع لا يدرى باطن حاله
فطريقه أن يعظ بما يشترك الناس في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر
فإن في الشريعة أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله
ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري رضى الله عنه : أوصنى . قال : عليك
بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ،
وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت
إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله :
أوصنى فقال : أعز أمر الله يعزك الله . ومن وعظ ابن مسعود رضى الله عنه : مكارم
الأخلاق من عمل أهل الجنة ، وصنائع المعروف تنقي مصارع السوء ، وأهل المعروف
في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . ومعنى قوله : وأهل المعروف في الدنيا الخ أن
أصحاب المعروف في الدنيا يأتون يوم القيامة فيعقر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جمعة ،
فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له ويدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان
إلى الناس في الدنيا والآخرة — وقال ابن عباس رضى الله عنهما صاحب المعروف
لا يقع وإن وقع وجد متكا — وقال لقمان لابنه : يا بني لا تركز إلى الدنيا ولا
تشغل قلبك بها فإنك لم تخلق لها وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها ، يا بني

لا تضحك من غير عجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عمالاً يعنك ، ولا
تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت . يا بني
من يرحم يرحم . ومن يصمت يسلم . ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يآثم ، ومن
لا يملك لسانه يندم . وقال أيضاً لابنه : يا بني زاحم العلماء بركبتك . وأنصت إليهم
بأذنيك . فإن القلب يحيا بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء . ولا
تجادلهم فيمقتوك . وخذ من الدنيا بلاغك . وأنفق فضول كسبك لآخرتك . ولا
ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً . وعلى أعناق الرجال كلا . ولا تجانس
السفيه ولا تخالط ذا الوجهين — عال الرجل افتقر فهو عائل والجمع عالة ، والعيلة
الفقر وعيال الرجل من يعولهم وواحد العيال عيّل كجيد ، وكلا حملاً وثقلاً عليهم ،
فهو مرادف اعيال — وقال رجل لأبي حازم^(١) أوصني فقال : كل ما لو جاءك
الموت عليه فرأيت غنيمة فالزمه . وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه
— وروى البيهقي في الشعب قال : أراد موسى أن يفارق الخضر فقال له موسى :
أوصني . قال : كن نفاعاً ولا تكن ضراراً وكن بشاشاً ولا تكن غضاباً وارجع
عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تعير امرأً بخطيئته . وابك على خطيئتك
يا ابن عمران — وكتب الحسن البصري رحمه الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه
الله : أما بعد فخف مما خوفك الله . واحذر مما حذرك الله . وخذ مما في يديك لما
بين يديك . فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام — وكتب عمر إليه يسأله أن
يعظه فكتب إليه : أما بعد فإن الهول الأعظم والأمور المفضعات أمامك
ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه
رجح ، ومن غفل عنها خسر ومن نظر إلى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ،
ومن حلم غم ومن خاف أمن ، فإذا زلت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع ، وإذا
جهلت فاسأل . وإذا غضبت فأمسك والسلام — فظم الأمر كظرف فظاعة فهو
فظيع شديد شنيع جاوز الحد في القبح — وكذا أفظع الأمر إفظاعاً فهو مفظع —

(١) هو سلمة بن دينار المدني التميمي المشهور بالأعرج كل كلامه حكم وعظة .

أفظم الشيء واستفظة وجده فظيماً ، وكتب مطرف^(١) بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا دار عقوبة ، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الدواء . وكتب عمر بن عبد العزيز ، إلى عدى ابن أرطاة الفزاري^(٢) رحمه الله ، أما بعد : فأن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله ، أما أولياؤه فغمتهم ، وأما أعداؤه فغرتهم — وكتب أيضاً إلى بعض عماله ، أما بعد : فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك ، وأعلم أن الله آخذ للمظلومين من الظالمين . والسلام — رواه أبو نعيم في الحلية .

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ الناس وإرشاد من لا يدري خصوص حاله — فهذه المواعظ مثل الأغذية يشترك الكافة في الانتفاع بها ، متى كانت من ناصح أمين ، مهذب حكيم — قال عامر بن عبد القيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وبالله تعالى التوفيق .

الفصل السادس عشر

أن يحذر الناس من المعاصي بالخوف من الله تعالى فيبين لهم الخوف ، وما ورد في فضله ويتلو عليهم كثيراً مما يورث الخوف ، ويذكر لهم أحوال الأنبياء والملائكة والصحابة والتابعين والسلف الصالح فيه .

فالخوف تألم القلب وانزعاجه لتوقع مكروه في الاستقبال ، وينتظم من علم

(١) من أقران الحسن البصري .

(٢) كان عاملاً له على البصرة ونقل سنة اثنين ومائة . روى له البخاري في الأدب المفرد .

وحال وعمل — فالأول هو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويُجَوِّزُ العفو والافلات ، ويكون خوفه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله من تفاحش الجناية ، وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً ومنتقماً ، وكونه محفوفاً بمن يحمله على الانتقام ، وكان هذا الخائف لاشفيع له عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فقوة خوفه وشدته على قدر العلم بقوة هذه الأسباب ، وضعفه بضعفها . وقد يكون الخوف لاعتناء جناية بل عن صفة المَخُوف ، كالذي وقع في مخالاب السبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته وحرصه على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار ، كذلك الخوف من الله عز وجل تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته من العلم والقدرة والعزة والجلال ، وأنه لو أهلك العين لم يبالي ولم يمنعه مانع ، وكل من يفعل ما يريد من غير مبالاة يجب الخوف منه — وذلك كخوف الملائكة قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » فإنه خوف الإجلال .

وتارة يكون لسكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً — وعلى قدر معرفته بعبود نفسه وعلمه بجلال الله تعالى واستغنائاه وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، وهم العارفون بانفسهم وربه — والخشية أشد الخوف وقيل خوف يشوبه تعظيم الخوف منه وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والله لأنأ أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . ثم إذا كملت المعرفة أورثت حال الخوف وانزعاج القلب ، ثم يفيض أثر ذلك من القلب على الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط منه واستعداداً للمستقبل — ولذا قيل : ليس الخائف من يبيكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه — وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

وأما فضل الخوف فاعلم أن ما ورد فيه خارج عن الإحصاء . وناهيك دلالة على فضله أن الله تعالى جمع للخائفين بين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال تعالى « ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » وقال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وإنما حصر الخشية في العلماء لأنها إنما تكون عن علم ما يخشى منه ، والعلماء هم الذين علموا قدره وسلطانه وشدة تنزيهه وبطشه وأنه الذي يفعل ما يريد من غير مبالاة « ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وقال عز وجل « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » فخص الرضوان بأهل الخشية — وقال تعالى « وخافون إن كنتم مؤمنين » أمر بالخوف منه وأوجبه ، وجعل الإيمان منشأه وعلته ، فلذا لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعفه بضعف معرفته وإيمانه . وقال تعالى « سيدكر من يخشى » — وأخرج ابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحانت عنه خطايا كما يتحاتت عن الشجرة اليابسة ورقها » . وروى ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه « قال الله سبحانه وتعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنت يوم القيامة » وآمنته بالمد جعلت له الأمان — وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضل العلم دال على فضل الخوف لأنه ثمرة العلم بالله تعالى .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : رأس الحكمة مخافة الله . أى لأنها تمنع النفس عن المخالفات — ورأس الحكمة أصلها وأسمها ، والحكمة هنا نور يقذفه الله فى قلب المؤمن التقي يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطأ . وقال أبو سليمان الداراني : كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب — وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : من خاف دله الخوف على كل خير . أى أرشده إلى ما فيه كل خير فى الأولى والآخرة إما ظاهراً وإما باطناً . وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : مسكين ابن آدم

لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . أى لأن خوفه منه يحمله على الشح بما معه على نفسه وعياله ، والإخلال بواجب المال . فلو خاف النار كما يخاف الفقر لهرب من أسبابها إلى أسباب الجنة — وقيل له : من آمن الخلق غدا ؟ فقال أشدهم خوفاً اليوم — وقيل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير — أى تزول عن مواضعها من شدة الخوف — فقال والله إنك إن تحالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمنٌ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف « وفيه استعسان لتغليب جانب الخوف على جانب الرجاء — وعلى الجملة فالتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر . وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده ، بل كل ما ورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية . فإن البكاء ثمرتها ، قال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله » . وذكر منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . متفق عليه — وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يابح النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخري مسلم أبداً » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التى تقرب العبد إلى الله تعالى .

وأما ما يورث الخوف — فقد عرفت أن الخوف من الله تعالى على مقامين الخوف منه والخوف من عذابه . والأول خوف العلماء وأرباب القلوب السليمة والبصائر النافذة العارفين من صفاته تعالى ما يوجب الهيبة والحذر المطلقين على سر قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » وقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » .

والثانى خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما دارى جزاء على الطاعة والمعصية . وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان . وتزول تلك الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة . وبالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ، فان فانت المشاهدة

فالسماح لا يخلو عن تأثير . ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء ، وغلب أمن المكر على الظلمة الأظغياء ، والفراغة الأغبياء . والجهالة والموام والرعاع والطعام ، حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ، ولا نار العذاب ولا بعد الحجاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه سيد الأولين والآخرين كان أشد الناس خوفاً في الحديث الصحيح : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفي صحيح البخاري عن أم العلاء امرأة من الأنصار « أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة قالت : فطار لنا — أى وقع — فى سهمنا عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبد بهم ومن شهد بدرأ فاشتكى مرضناه حتى إذا توفى وجعلناه فى ثيابه دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله تعالى . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمهُ ؟ فقلت لا أدري بأبى أنت وأمى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما عثمان فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير . أى فالإنكار عليها من حيث جزمها بتلك الشهادة من غير مستند قطعى ، فكان اللانق بها أن تبرزها فى حيز الرجاء لا الجزم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ما أدري وأنا رسول الله ما يفعلُ بى . قالت فوالله لا أزكى أحداً بعده » . أى على جهة الجزم بل على جهة الرجاء وحسن الظن بالله تعالى : « قالت وأحزنتنى ذلك فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجرى فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذاك عمله » — ولما توفى عثمان هذا قبَّل صلى الله عليه وسلم خده وبكى حتى سالت دموعه الكريمة على خد عثمان وبكى القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذهب عنها — أى الدنيا — أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس بشيء » . ومما صلى الله عليه وسلم السلف الصالح . وهو أول من قبر بالبقيع رضى الله عنه — فتأمل زجره صلى الله عليه وسلم عن الجزم بالشهادة على الله فى عثمان هذا مع كونه شهد بدرأ وقوله « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرت لكم^(١) » وكونه قبله وبكى ، ووصفه له بأعظم الأوصاف وأفضلها وهو أنه لم يتلبس من الدنيا بشيء ، وبأنه السلف الصالح ، تعلم أنه ينبغي للعبد وإن عمل من الطاعات ما عمل أن يكون على حيز الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء . « فل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً » .

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « شيبتي هود وأخوانها الحاقة ، والواقعة . وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت والناشية » روى من عدة طرق بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتغالهن مع قصرهن على ذكر أحوال الآخرة ومخائبها وفضائلها ، وأحوال المهلكين والمعذبين ، مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمر . وهو من أصعب المقامات الذي لا يتأهل إلا هو صلى الله عليه وسلم وهو ك مقام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يناسب كل جارية من جوارحه على الوجه الأكمل . وإذا لما قيل له صلى الله عليه وسلم عن مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه : أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » والقرآن كله مخاوف لمن تدبر ، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . لكان كافياً ، إذ شرط العبالغة في مغفرته أموراً أربعة يعجز العبد عن آحادها . التوبة والإيمان الكامل المراد في نحو قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه من حديث أنس . والعمل الصالح ، ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله وشهوده

(١) قال ذلك لعمر رضي الله عنه لما قال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . وهي قطعة من حديث الصحيحين وفيه قصة الظلمة التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى مشركي مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإدامة الذكر والفسكر والإقبال على الله تعالى بقاله وحاله ودعائه وإخلاصه —
وأشد منه قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفليحين »
فقد نبهك الله تعالى إلى أنك إذا تبت توبة نصوحاً وآمنت إيماناً كاملاً ، وعملت
عملاً صالحاً كنت على رجاء أن تعد من زمرة الفائزين — ولا تغتر بما قيل إن عسى
من الله واجبة الوقوع فإنه أكثرى لا كلى . قال تعالى « فقولا له قولاً لنا لعله
يتذكر أو يخشى » وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخش تذكراً وخشية نافعين —
فإياك وأن تأمن مكر الله وإن وصلت إلى ما وصلت فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم
الخاسرون — واستحضر قول الله تعالى « ليسأل الصادقين عن صدقهم » . وقوله
تعالى « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا
غائبين » وقوله « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجى الذين
اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » أى ما من أحد إلا داخل النار كان ذلك أمراً محتوماً
أوجبه الله عز وجل على نفسه وقضى أنه لا بد من وقوعه ألبتة ، ثم يخرج منها الذين
اتقوا الكفر والمعاصى ويترك فيها الكفار والمعصاة جثياً ، ومنهاراً بهم كما كانوا
عند إحضارهم حول جهنم — وقوله تعالى « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً
ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » أى نجتمعهم إلى ربهم الذى يغفرهم برحمته الواسعة
وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لإكرامهم وإنعامهم ونسوق المجرمين
كما تساق البهائم إلى جهنم عطاشاً فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش — وقوله
تعالى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » فإنه غاية في الوعيد مستعار من قول الرجل لمن
يتهدده سافرغ لك أى سأبجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه والمراد التوفر
على النكاية فيه والانتقام منه — وقوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » يكفيه في الاهتمام به ويشغله
عن غيره — وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ،
يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فخوف عذاب الله هو الذى

أذهب عقولهم وطير تمييزهم وصيرهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ، ولا نجاة من تلك الأفزاع والأهوال إلا بالتقوى كما أمر الله عز وجل . وقوله تعالى « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم » فأخبر تعالى أنه يسأل بعضهم عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله تعالى ، فيقول الموفقون : إنا كنا في الدنيا في أهلنا أرقاء القلوب من خشية الله فمن الله علينا بالمغفرة والرحمة ووقانا نار جهنم . والسموم الريح الحارة التي تدخل المسام — سميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة — وقوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فانظر بعين بصيرتك ونور سريرتك إلى أنه تعالى قد حكم على كل إنسان^(١) بأنه خاسر إلا من جمع أموراً أربعة فإنه ينجو من الخسران المؤدى إلى الهلاك — الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق بأن يتلبس بما دل عليه الكتاب والسنة من الأخلاق ، والآداب ، والأحكام ، والشروط في سائر الأقوال والأفعال ، والأحوال الظاهرة والباطنة فلا يأتي شيئاً منها إلا وقد أخلص فيه وابتغى به وجه الله وحده . والتواصي بالصبر بأن يصبروا على الطاعات ، وعلى ما يلحقونه من المكروه والبيات ، وعن المعاصي وما لها من الشهوات والاذات . فمن تحقق بهذه الشروط الأربعة كما ذكرنا كان على رجاء عظيم من السلامة من الخسار والبوار والعار والشنار بالفتح العيب والعار .

وفي الصحيحين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباسُ عمَّ رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً : عشيرة الرجل رهطه الأدنون : وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « يا رسول الله والذين

(١) إذ : أل فيه للعموم والاستغراق بدليل الاستثناء.

يأتون » هكذا قراءة عائشة رضى الله عنها « ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » يا رسول الله هو الذى يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال لا يا بنت أبى بكر — أو يا بنت الصديق — ولكنه الرجل يصلى ويصوم ، ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » . رواه الإمام أحمد والترمذى والبيهقى وغيرهم . وفيه دليل على أن الخوف يكون مع كمال طاعة العبد لكونه لا يعلم قبول عمله لخفاء ما يطرأ على الأعمال من الآفات — وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » متفق عليه — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن عمله فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يومئذ تحدث أخبارها » ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة .

وكان ابن السماك يعاتب نفسه ويقول لها : تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطلبين أن تدخلها . هيهات هيهات . للجنة قوم آخرون ، ولم أعمال غير ما نحن عاملون — وقال بعض الساف : لو نودى ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل — وكان سهل التستري رحمه الله يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وحركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : « وقلوبهم وجلة » ، ولما احتضر سفيان الثورى رحمه الله جعل يبكى ويجزع ، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم

من ذنوبك . فقال أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . ومعناه أن المال الجنة إذا تحقق موته على التوحيد — فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدمها مثل الابتداع في الدين ، والزنا والربا وأكل مال اليتيم والكبر ، والنفاق ، والحقد والحسد وجملة من المعاصي والصفات المذمومة . وإنما كان الابتداع في الدين سبباً في سوء الخاتمة لأن المبتدع مرتكب إثماً وعاص لله تعالى — ولا نقول الآن هو عاص بالكبائر أو بالصغائر بل نقول هو مصر على ما نهى الله عنه ، والإصرار بعظم الصغيرة — إن كانت صغيرة — حتى تصير كبيرة ، وإن كانت كبيرة فأعظم . ومن مات مصراً على المعصية يخاف عليه ، وربما إذا انكشف الغطاء وعان علامات الآخرة استفزّه الشيطان وغلبه على قلبه حتى يموت على التغيير والتبديل . وخصوصاً حين كان مطيعاً له فيما مضى من زمانه مع حب الدنيا المستولى على قلبه — قال عبد الحق الأشبيلي رحمه الله : إن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ما سُمع بهذا قط ولا علم به والحمد لله — إنما يكون لمن كان عنده فساد في العقل ، أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم أو لمن كان مستقيماً ثم تغيرت حاله أو خرج عن سننه وأخذ في طريق غير طريقه فيكون عمله ذلك سبباً لسوء خاتمته وسوء عاقبته والعياذ بالله قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وجملة القول أن المبتدع مع كونه مصراً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه معارض للشرعية بعقله غير مسلم لها في تحصيل أمره معتقداً في المعصية أنها طاعة حيث حسن ما قبحه الشارع وفي الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره فهو قد قبح ما حسنه الشارع ، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة إلا من رحم الله . وقد قال تعالى في جملة من ذم : « أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ، والمكر جالب السوء من حيث لا يفطن له فمكر الله تعالى استدراجه

العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ، ولا يأمن مكره تعالى إلا الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها والاستعداد القريب ، المستفاد من النظر في الآيات — وسوء الخاتمة من مكر الله إذ يأتي الإنسان من حيث لا يشعر به نسأله تعالى العفو والعافية^(١) . — ولذا اشتد خوف الصحابة من النفاق وقد فسره الصحابة والتابعون بما لا يخلو عن شيء منه إلا صديق . قال رجل لابن عمر رضى الله عنه : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه البخارى . وقال الحسن البصرى رحمه الله : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج^(٢) . فالمراد النفاق العملى لا الاعتقادى — فإن النفاق العملى هو ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً ومراعاتها علناً ، نسأل الله تعالى السلامة .

الفصل السابع عشر

سوء الخاتمة

هو نوعان : الأول وهو أخطر النوعين وأسوأها عاقبة — أن يقلب الجحود على القلب عند سكرات الموت فتفيض الروح في حال غلبة الجحود فيكون ذلك حجاباً بين العبد وبين الله تعالى أبداً وذلك يوجب البعد الدائم والعذاب المخلد — وسبب الجحود ضعف الإيمان في الأصل . ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ، ومتى ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوى حب الدنيا ، حتى لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، ولا أثر له في كفها عن السيئات — وذلك يورث الانهماك في اتباع الشهوات حتى يُظلم القلب ، وتتراكم عليه ظلمات

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتاب الأبداع في مضار الابتداع الطبعة الرابعة .

(٢) أى الدخول في الأمر والخروج منه على وجه يخالفه .

الذنوب فلا تزال تطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى تصبح طبعاً ورثاً —
فإذا جاءت سكرات الموت ازداد حبه لله ضعفاً لشعوره بفراق الدنيا ، وهي المحبوب
الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعاره فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيحتاج
ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهته من حيث أنه من الله تعالى فيخشى
أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب — كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً
إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب
الضعيف بغضاً . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة
فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً .

والذي يفضى إلى مثل هذه الخاتمة غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح
بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى — أما من كان حب
الله تعالى أغلب على قلبه من حب المال فهو أبعد عن هذا الخطر — فحب الدنيا
رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق لقلّة المعرفة بالله
تعالى إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، ولهذا قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
والله لا يهدي القوم الفاسقين » . أي إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم
أولى من طاعة الله ورسوله ، ومن الجاهدة لإعلاء كلمة الله فانتظروا بما تحبون حتى
يأتي الله بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذا وعيد شديد ، وتهديد شنيع للمتهمين ، في
طلب الدنيا .

فإذن كل من فارقه روحه في حالة الانكار على الله تعالى ، وظهور بغض فعل
الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله ، وماله ، وسائر محابه الدنيوية كان موته قدوماً
على ما أبغضه ، وفراقاً لما أحبه . فيقدم^(١) على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا

(١) قدم من سفره قدوماً ومقدماً بالفتح من باب تعب — وقدم يقدم كنصر ينصر قدماً
كقفل بمعنى تقدم قال تعالى يقدم قومه يوم القيامة — وأقدم على الأمر إقداماً فعلة بشعاعة .

قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الحزى والنكال ، وأنواع الاهانة — وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن للطيع المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ، ووعناء الأسفار طمعاً فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الاكرام ، وبدائع الأنعام — قال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم رحمه الله : يا أبا حازم مالنا نذكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب — قال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله تعالى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أما الحسن فكأنه يأتى أهله فرحاً ، وأما المسىء فكأنه يأتى مولاه خائفاً محزوناً .

الثانى وهو ما دون الأول أن يغلب على القلب عند الموت حب شهوة من شهوات الدنيا فيتمثل ذلك فى القلب ويستغرقه ، حتى لا يبقى فيه متسع لغيره فيكون استغراق قلبه به صارفاً وجهه إلى الدنيا ، ومتى انصرف الوجه عن الله حصل الحجاب ، ومتى حصل الحجاب نزل العذاب — فإن اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطير لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، كما أنه يبعث على ما مات عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب تضاد الصفة التى غلبت عليه ، فإن ذلك بالأعمال ، وقد انقطعت بالموت ولا أمل فى الرجوع إلى الدنيا ليمتدرك ، وعند ذلك تعظم الحسرة ، ويشد الندم حيث لا ينفع ، إلا أن أصل الإيمان إذا كان قد رسخ فى القلب بصالح الأعمال فإنه ينجيه من الخلود فى النار ويخرجه منها القليل منه كما فى الخبر « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . رواه البخارى .

ولهذا النوع سببان : أحدهما كثرة المعاصى والآخر ضعف الإيمان — وذلك أن مقارفة المعاصى من غلبة الشهوات ، ورسوخها فى القلب بكثرة الأنف والمادة وكل ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله إلى

الطاعات أكثر كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله تعالى ، وإن كان إلى المعاصي أكثر غلب ذكرها على قلبه عند الموت — فربما تفيض روحه عند غلبة معصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى لا شغفاله بما تقيد به — فالذي غلبت طاعاته على معاصيه بعيد عن هذا الخطر — والذي غلبت عليه المعاصي وكان قلبه بها أفرح منه بالطاعات خطره عظيم جداً — وأما الذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو أبعد عن هذا الخطر . ويعرف هذا بمثال : هو أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدا طول عمره ، ولا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة — فالمرآق الذي يحتمل لا يرى صورة الوقاع — والفقير الذي قضى عمره في درس المسائل يرى من أحوال العلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة — والتاجر يرى من أحوال التجارة أكثر مما يراه الطبيب والفقير ، لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الألف — وسكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم فيحضره عند ذلك جملة من الأحوال التي عهدا في طول حياته ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكر الشيء في القلب طول الألف فطول الألف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح — ولذلك تخالف منامات الصالحين منامات الفاسقين . فتسكون غلبة الألف سبباً لأن تتمثل صورة فاحشة وتميل إليها نفسه فربما تفيض عليها روحه فيسكون ذلك سبب سوء خاتمته — وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها .

ومن أراد السلامة من ذلك فلا سبيل له إلا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عن الشهوات محافظة على القلب منها ، ويكون طول المواظبة على الخير ، وتخليه الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت وشدائده ، فإن المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه — ولذا نقل عن يقال أنه كان يُلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول خمسة ستة أربعة ، فكان مشغولاً بالحساب الذي طال إلفه له فغلب على لسانه ولم يوفق للشهادتين .

وبهذا عرفت أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم تسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح — ومن أجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها ، وكان موت الفجأة مكروهاً ، إذ ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء ، واستيلائه على القلب وهو لا يخلو عن أمثاله — وأما الشهادة فلأشهر عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج عنه حب الدنيا والأهل والمال ، والولد وجميع الشهوات . إذ لا يَهْجُم على صف القتال موطناً نفسه على الموت ، وبأنه دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به إلا حباً لله وطلباً لمرضاته ، وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها من خاطر السوء الذي قال فيه صلوات الله وسلامه عليه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة^(١) ، فيختم له بما سبق به السكتاب » ، ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاء بل هي الخواطر المتقدمة ، فاشتغل بالاستعداد لها — فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحفظ من المعاصي جوارحك ، ومن الفكر فيها قلبك ، واحترز من مشاهدة المعاصي وأهلها جهلك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفسٍ من أنفاسك خاتمتك إذ يجوز أن تخطف فيه روحك — هذا مادمت في اليقظة ، فإذا أردت النوم فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ليس على لسانك فحسب ، فإن حركة اللسان وحده ضعيفة الأثر وبالله تعالى التوفيق .

(١) الفواق بضم الفاء . وفتحها ما بين الحلبين من الوقت لأنها تحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل اندر ثم تحلب .

الفصل الثامن عشر

أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف

لا ريب أن عقل الأنبياء وعلمهم ومكانتهم عند الله تعالى وكذا الملائكة لم يكن دون عقلك ، وعلمك ، ومكانتك . وقد اشتد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء ففي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على القرآن قلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية — فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً — قال حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان » — أحب صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن من غيره ليكون عرض القرآن سنة أو ليتدبره ويفهمه فإن المستمع أقوى على التدبر ، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ لاشتغاله بالقراءة وأحكامها — وقراءته صلى الله عليه وسلم على أبي بن كعب رضى الله عنه كانت ليمله كيف أداه القراءة ومخارج الحروف . وبكاؤه صلى الله عليه وسلم على المفرطين أو لعظم ما تضمنته الآية من هول المطلاع وشدة الأمر — ذرفت العين ذرفاً من باب ضرب دمع . وذرف الدمع سال وذرفت العين الدمع — وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله » — متفق عليه — وروى أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » — أى فوران وغليان كغليان القدر على النار يسمع صوته ، والأزيز صوت غليان القدر . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام إذا قام إلى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه »

رواه ابن أبي الدنيا . وروى الإمام أحمد رحمه الله أن داود عليه السلام مارفع رأسه إلى السماء بعد هفوته حياء من الله عز وجل ، وسببها أن الخصم لما تسوروا الحراب ودخلوا عليه من طريق غير مألوف غلب على ظنه عليه السلام أنهم يريدون قتله فهم بالانتقام لنفسه منهم ثم تبين له عذرهم فهذا رَوْعه وسكن غضبه ، ومال إلى الصفح والتجاوز عنهم ، طلباً لمرضاة الله تعالى — وكانت هذه الواقعة هي الفتنة ، لأنها جرت مجرى الابتلاء والامتحان — ثم إنه عليه السلام طلب من ربه أن يغفر له ما هم به من الانتقام منهم وتاب من ذلك الهم وأناب فغفر له هذا القدر من الهم والعزم — هذا أقرب ما قيل في بيان فتنة داود عليه السلام . وما عداه فهو إما بعيد الوقوع أو محال صدوره منه لإخلاله بمقام النبوة . وقال المسيح عليه السلام : معاشرَ الحواريين ، خشية الله ، وحبُّ الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان عن الدنيا . بحق أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل — رواه أبو نعيم وغيره وعن أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « سأل جبريل عليه السلام ما لي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ فقال جبريل : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد — وروى ابن أبي الدنيا أن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها — فهذا شيء من أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته وقس نفسك وتأمل في القصور عن لحوق درجاتهم عليهم الصلاة والسلام .

أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في شدة الخوف

عرفت أن أعظم حامل على خوف الله تعالى وخشية سطوته هو العلم ، ومن ثم غلب الخوف على علماء الصحابة ومن بعدهم حتى كان بعضهم يضعف وبعضهم يدهش^(١) وبعضهم يسقط مغشياً عليه قال الله تعالى « إن الذين أوتوا العلم من

(١) دهش الرجل يدهش وبابه طرب .

قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » فهؤلاء علماء أهل الكتاب حين سمعوا القرآن استولى عليهم خوف الله تعالى فسقطوا على الأرض ساجدين من شدة الوله والخشية — ومن شدة الخوف قال أبو بكر رضى الله عنه : ليتنى كنت شعرة في صدر مؤمن ، وقال يوماً لطائر : ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه قيل له في الصلاة : قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء . فقال مروه فليصل — وفي رواية عنها قالت قلت : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء » . متفق عليه . فكان رضى الله عنه رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن كما في البخارى .

وقال عمر رضى الله عنه عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر له ، وروى أنه رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن فكان يعاد أياها ، وأخذ يوماً تَبَدُّنَةً من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه التبنة ليتنى لم أخلق ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً ليتنى كنت نسياً منسياً ليت أمى لم تلدنى — وقال له ابن عباس رضى الله عنهما : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل بك وفعل ؟ قال : وددت أن أنجولاً على ولا لى ، وفي رواية لا أجر ولا وزر ، وكان في وجهه رضى الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا القيامة لكان غير ما ترون — رواه صاحب الحلية — ولما قرأ رضى الله عنه سورة التكوير وانتهى إلى قوله تعالى « وإذا الصحف نشرت » خر مغشياً عليه . وصر يوماً بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة الطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى « إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع » نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً ، ورجع إلى منزله فرض شهراً يعود الناس ، ولا يدرون ما مرضه ولا يستبعد أن يتفق الغشى والإغماء بل

الموت لمن سمع الموعظة بحق فضعف عن مقاومة الرقة وشدة التأثير الحاصل بسببها .
فقد روى عن ابن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع
ابن خيثمة فررنا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار فنظر الربيع إليها
فتمايل ليسقط — ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون
فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية « إذا رأيتم من مكان بعيد
سمعوا لها نغيظاً وزفيراً وإذا أقروا منها مكانا ضيقاً مُقرّنين دَعَوْا هنالك ثبوراً »
فصعق الربيع أي غشى عليه فاحتملناه فأتينا به أهله قال : وربطه عبد الله إلى الظهر
فلم ينفق فربطه إلى المغرب فأفاق ورجع عبد الله إلى أهله — فهذه حالات طرأت
لواحد من أفاضل التابعين بمحضر صحابي جليل ولم يفكر عليه لعله أن ذلك خارج
عن طاقته فصار بتلك الموعظة الحسنة كالنمى عليه — نغيظاً غليظاً كالغضببان إذا
غلا صدره من الغضب . زفيراً صوتاً شديداً . مُقرّنين مصقدين قد قرنت أي جمعت
أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال — ثبوراً هلاكاً وقال عثمان رضى الله عنه وددتُ
أنى إذا مت لم أبعث — وقال ابن عمر رضى الله عنهما في قوله تعالى « أَمَّنْ هُوَ
قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » هو عثمان بن عفان
رضى الله عنه .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه ليتنى إذا مت لم أبعث — ولم يرد به حقيقة
التمنى ، بل أظهر أن له قبائح يخاف من المواخذة بها بعد البعث . ونظيره ما وقع لأسامة
حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حبه حيث قَتَلَ مَنْ نطق بالشهادتين ظاناً
أنه إنما نطق بهما اتقاء لا حقيقة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاتبه وكرر
عليه : هلا شققت عن قلبه ؟ قال أسامة حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمتُ يومئذ —
فإنه لم يتمن الكفر ولا تأخير إسلامه حقيقة إلى بعد هذه الواقعة وإنما تمنى سبق
هذه الفعلة منه لإسلامه حتى يكفرها بالإسلام — ففي الصحيحين من حديث أسامة
ابن زيد رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من
جهينة فصباحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه

قال : لا إله إلا الله فكف عنه الأنصارى فطمعته برحى حتى قتلته قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قال قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً . قال أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » . وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح . قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ » الحرقه بضم الحاء وفتح الراء بطين من جهينة القبيلة المعروفة . متعوذاً معتصماً بها من القتل لا معتقداً لها .

ونقول إن أسامة قد اجتهد فظن أن الرجل إنما اعتصم بكلمة التوحيد خوفاً من السيف ، فلما عتب عليه النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا رسول الله أعطى الله عهداً ألا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علته كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غُبراً بين أعينهم أمثال رُكب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبلى ثيابهم ، والله كأنى بالقوم باتوا غافلين — ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم — هملت عينه : فاضت ، وبابه نصر — وبه : ندام ، وبابه رد — وقال معاوية رضى الله عنه لضرار بن خزيمة الضدائى : صف لى علياً . قال : ألا تعفينى . قال : بل صفه . قال : ألا تعفينى . قال : لا أعفئك . قال أما أنه لا بد « فإنه كان بعيد المدى » واسع العلوم والمعارف لا تدرك غايته فيهما « شديد القوى » فى ذات الله ونصرة دينه « يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه » تأسفاً وحزناً إذ هذا فعل المتأسف

الحزين « ويخاطب نفسه » بالمرعجات والمقلقات « يعجبه من اللباس ما خشن » من باب سهل « ومن الطعام ما حضر ، كان والله كأحدنا يجهينا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعواناه ، ونحن والله مع تقربه لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له فإن تبسم فمن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، ولا يطمع القوى في باطله ، ولا يياس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لرأيتنه في بعض مواقفه وقد أرخى الليل ستوره ، وغارت نجومه وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم « أى اللديغ سمي به تفاؤلاً » ويبكى بكاء الحزين وكأى سمعته يقول ياربنا ياربنا يضرع إليه ثم يقول يا دنيا يا دنيا ألى تعرضت ؟ أم بى تشوقت ؟ هيهات هيهات غرمتى غيرى ، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، فذرفت عين معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء . قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدتها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها » — رقا الدمع والدم سكن وبابه قطع — والعبرة بالفتح تحلب الدمع .

وقال أبوذر رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد . وكذا قال طلحة ابن عبيد الله رضى الله عنه أحد العشرة — وقال عمران بن حصين رضى الله عنه : وددت أن أكون رماداً تنسفى الرياح فى يوم عاصف — وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أندرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ — وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال : قلوبهم بالخوف قرحة وأعينهم باكية ية ولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر أماننا والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله موقفنا . وهذا منه رضى الله عنه بيان عن الخائفين بحسب حاله .

ومر الحسن البصرى رحمه الله بشاب وهو مستغرق فى ضحكته جالس مع قوم فقال له الحسن : يافتى هل مررت بالصرائط ؟ قال لا . قال : فهل تدرى إلى الجنة

تصير أم إلى النار؟ قال لا . قال فما هذا الضحك؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا . وروى عن ميسرة بن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول : ياليت أمي لم تلدني . فقالت له أمه حين سمعت منه ذلك مراراً : يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال : أجل واسكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها — أى ولا جزم عنده بأنه من المتقين الناجين فلذا اشتد خوفه منها — وكان عطاء السليمى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو — وقيل له فى مرضه : ألا تشقى شيئاً ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعاً للشهوة — ويقال إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة — وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء قال . هذا من أجلى يصيبهم ، لو مات عطاء لا ستراح الناس — وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يا بنى ليست النائحة الشكلى كالنائحة المستأجرة . رواه أبو نعيم فى الحلية — وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله : يا أبا سعيد كيف أصبحت ؟ قال بخير . قال كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال تسألنى عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة على أى حال يكون ؟ قال الرجل : على حال شديدة . قال الحسن : حالى أشد من حالهم — نقله فى القوت .

فهذا شيء من مخاوف الخلفاء والأولياء والعلماء والشهداء والصالحين رضى الله عنهم أجمعين — ونحن أجدر منهم بالخوف — ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة . وإلا فليس أمننا لقله ذنوبنا وكثرة طاعاتنا . بل قادتنا شهوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فعميت بصائرنا فلا قرب الرحيل ينهبنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزججنا ، ولا وعظ الواعظين يؤثر فينا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضلہ وجوده أحوالنا ويصلحنا إن كان تحريك اللسان

بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا — سئل سعيد بن جبير رضى الله عنه عن الخشية فقال : هي أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيتك بينك وبين معاصيه . فهذه هي خشيته . وأما الغرة بالله فهي أن يتبادى الإنسان في المعصية ويتمنى على الله المغفرة — وكيف يفتر المعاصي ويطمع في النجاة وهي ليست إلا للعشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة — ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم ليأتني كنت شعرة في صدر مؤمن — وهذا عمر أفضل الناس بعد أبي بكر رضى الله عنهما وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ومع ذلك سأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بالمنافقين والفتن ، فقال له : يا حذيفة هل أنا من المنافقين ؟ فقال : لا والله لست منهم يا أمير المؤمنين — تخاف عمر رضى الله عنه أن تكون نفسه قد لبست عليه حاله وسرت عنه عيوبه وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروطاً بشروط لم تحصل منه فلم يفتر به وعلى الجملة فليس يراد بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل — وإنما يراد خوف يسكن القلب حتى يمنع صاحبه عن المعاصي ويحمله على ملازمة الطاعة فهذا هو الخوف النافع — لا خوف الحمقى الذين إذا سمعوا ما يوجب الخوف لم يزيدوا على أن يقولوا : رب سلم نعوذ بالله ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح — والشيطان يسخر بهم كما نسخر أنت بمن رأيتَه وقد قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن منيع بابه مفتوح له فلم يفرغ إليه . وإنما اقتصر على رب سلم حتى جاءه السبع فأكله .

الفصل التاسع عشر

الحث على المسارعة إلى صالح العمل والتحذير من التأخير

لا شك أن من له إخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما في غد والآخر بعد سنة يستعد للأول دون الثاني — فلا استعداد نذيجة قرب الانتظار ، وعدمه نتيجة بعده — فمن انتظر الموت بعد سنة اشتغل بطول المدة ونسى ما ورائها ولم يفكر أن كل يوم يمضي نقص منها — وذلك يمنعه من المبادرة إلى العمل فإنه أبدأ يرى لنفسه

متسماً من الوقت فيؤخر العمل — وقد قال الله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » من المسابقة بمعنى المبادرة والمصارعة أى بادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم وتزودوا في دنياكم لأخراكم فإن الله تعالى قد بين لكم سبيل النجاة فلا عذر لكم في التفريط . وقال تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » أى بادروا إلى ما يؤدى إليهما من أداء الواجبات وترك المنهيات — وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة إلى غاية لا يملأها إلا الله تعالى على طريق التمثيل . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً » شاغلاً عن أمور الآخرة « أو غنى مطفئاً . أو مرضاً مفسداً » لحاله « أو هرماً » الهرم بالفتح كبر السن وقد هرم من باب طرب « مُفنداً » مورتاً للفند محركاً وهو ضعف الرأى والخطأ فيه « أو موتاً مجهزاً » سريعاً « أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » الداهية الأمر الغضيب الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه — والقيامة فى أقصى غاية من الفظاعة والمرارة . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتصم خمساً قبل خمس . حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك . وفراغك » فى هذه الدار « قبل شغلك » بأهوال القيامة « وشبابك قبل هرمك . وغناك قبل فقرك » وهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها — رواه البيهقى والحاكم بإسناد حسن . وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » من الشواغل الدنيوية المانعة عن أمور الآخرة . والغبن بالسكون فى البيع وفى الرأى بالتحريك — ومن لم يستعملهما فيما ينبغى فقد غبن ولم يحمد رأيه — وقال أبو حامد أى أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما بعد زوالهما — وفيه تشبيه المكلف بالتاجر ، والصحة والفراغ برأس المال بأن كلا من أسباب الربح فمن عامل الله بامثال أوامره ربح . ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله وخسر — ونبه بكثير على أن الموفق لذلك قليل — رواه البخارى والترمذى .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السَّعَف فقال : ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه »
رواه ابن أبي الدنيا والترمذى بإسناد حسن والسَّعَف : غصون النخل جمع سَعْفَة بالتحريك . وقال جابر بن سمرة رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذرُ جيشٍ يقول صَبَّحَكُمْ ومَسَاءً كم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين إصبعيه » رواه مسلم — شبه حاله في خطبته وإنذاره بقرب القيامة . وتهالك الناس فيما يرديههم بحال من ينذر قومه عند غفلتهم بجيش قريب منهم يقصد الإحاطة بهم بغتة فلا يفوته منهم أحد —
فكما أن المنذر يرفع صوته وتحمر عيناه ويشتد غضبه على تغافلهم فكذا حاله صلوات الله وسلامه عليه عند الإنذار . والساعة منصوب على المعية أو مرفوع بالمعطف على الضمير المتصل أى بعثت وبعثت الساعة تنزيلاً لها منزلة الموجود مبالغة في تحقق وجودها ومحيطها — والمقصود التنبيه على قرب القيامة وأن الباقي من عمر الدنيا قليل ليسارع الناس إلى العمل استعداداً للموت وما بعد الموت . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح . فقليل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » رواه البيهقى فى الشعب والحاكم وابن أبي الدنيا وغيرهم من طرق عديدة . وقال عمر رضى الله عنه : « التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير الآخرة .

وخطب الإمام على رضى الله عنه على المنبر فقال : « اتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم » أى ساقبوها وعاجلوا بها أى استكملوا أعمالكم قبل حلول آجالكم « وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم » أى اشترؤا ما يبقى من النعيم الأبدي بما يفنى من لذة الحياة الدنيا وشهواتها المنقضية « وترحلوا فقد جدّ بكم » الترحل الانتقال ، والمراد منه هنا لازمه وهو إعداد الزاد الذى لا يعدمه للراحل والزاد فى الانتقال

عن الدنيا ليس إلا التقوى : فقد جُدَّ بكم — أى حُثِّمْتُمْ وأزْعِجْتُمْ إلى الرحيل « واستعدوا للموت فقد أظلمكم » قرب منكم حتى كأن له ظلاً قد ألقاه عليكم ، ولا عدة له إلا صالح العمل « وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا » أى كونوا قوماً حذرين إذا استنمتمهم الغفلة وقتاً ما ثم صاح بهم صائح الموعظة انتبهوا من نومهم وهبوا لطلب النجاة « وعلموا أن الدنيا ليست بدار » إقامة « فاستبدلوها بدار الآخرة فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ولم يترككم سدى » بل منحكم قوة العقل التى تصغر عندها كل لذة دنيوية ، ولا تقف رغائبها عند حد منها فكأنها مفطورة على استصغار كل ما تلاقيه فى هذه الحياة . وطلب غاية أعلى مما يمكن أن ينال فيها فهذا الباعث الفطرى لم يوجده الله تعالى عبثاً فاستعملوه فيما خلق له — وسدى مهملين بلا راع يزجركم عما يضركم ، ويسوقكم إلى ما ينفعكم ورعاتنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلفاؤهم . « وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية » هى الأجل « تنقصها اللحظة وتهديمها الساعة لجديرة بقصر المدة . وإن غائباً يَحْدُوهُ الجديدان الليل والنهار تحرى بسرعة الأوبة » ذلك الغائب هو الموت يسوقه الليل والنهار بكرورها عليك وما أسرع مرها والانهاء إلى الغاية « وإن قادماً يَقْدَمُ بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل المدة » وذلك القادم أيضاً هو الموت إما بفوز وإما بشقوة وعدته الأعمال الصالحة والمساكن الفاضلة « فتزودوا فى الدنيا من الدنيا ما تُحْرِزون به أنفسكم غداً » أى تحفظونها به وهو تقوى الله فى السر والنجوى وطاعة الشرع وعصيان الهوى « فأتقِ عبدُ رَبِّهِ نصَحَ نفسه . قدَّم توبته وغاب شهوته » أوامر بصيغته الماضى جاءت بياناً للتزود المأمور به قبلها « فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له . والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها » حال من الضمير فى عليه أى لا يزال الشيطان يفعل معه ذلك حتى يفاجئه الموت وهو فى أشد الغفلة عنه « فيا لها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة » لأنه أوتى فيه المهلة ومُكِّن فيه من العمل فلم ينشط له « وأن تُؤَدِّبُهُ أيامه إلى شقوة نَسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة » لا تطغيه

ولا تسدل على بصيرته حجاب الغفلة عما هو صائر إليه « ولا تقصُر به عن طاعة ربه غاية ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » . رواه الطبراني — وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في موعظته : « المبادرة بالمبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك » . رواه ابن أبي الدنيا — فرحم الله امرأ علم أن الدنيا ساعة ، فجعلها طاعة وابتغى الرحمة وهرب من العقوبة حتى جاءه أجله وهو على ذلك .

الفصل العشرون

سنة الله تعالى في الهداية والإضلال

صرح القرآن الحكيم في مواضع كثيرة بأن أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد الإنسان منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح — ويبغض أعمال الفجور فيجازى عليها بالضلال والشقاء . وأيضاً فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما انصفوا به من الفجور .

فمن الأصل الأول قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فإنه يفيد أن العبد إذا آمن بهذا الكتاب الكريم واهتدى به مجلداً وامتلأ أوامره واجتنب نواهيه وصدق بأخباره كان سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا غاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير نهاية — وذلك أن الإنسان إذا آمن بالله

فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة ، ثم إذا واظب على صالح الأعمال حصلت له ملكة راسخة في الإقبال على الآخرة وفي الإعراض عن زخارف الدنيا ، وكلما كانت هذه الأحوال أكثر كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد ، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل كانت معارج المعارف أكثر ، وإشراقها ولعانها أقوى . ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى : « هدى للمتقين » ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد من التقوى والاستقامة ، وكلما فوّت على نفسه حظاً من التقوى فاتته حظ من الهداية بحسبه — فكلما اتقى زاد هدايته ، وكلما اهتدى زادت تقواه . قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . فأفاد أن الله تعالى يهدي بالقرآن من طلب رضاه بالإيمان به إلى طرق السلامة من المخاطر والنجاة من العقاب ، وينقذهم من ظلمات فنون الكفر وأنواع الضلال إلى نور الإيمان والهداية بتيسيره وتوفيقه — فالنور والكتاب المبين هو القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك والإلحاد والزيغ ، وإبانة ما خفى على الناس من الحق — والصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الله تعالى ، والهداية إليه عين الهداية إلى سبل السلام ، عطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتى .

وقال تعالى : « هو الذى يريك آياته وينزل لكم من السماء رزقاً » ، فالله عزت قدرته وجلت حكمته أبدع الآيات الكونية الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرد الألوهية ، وجعلها أمام أبصاركم وعقولكم لتستدلوا بها على كمال قدرته وبالغ حكمته ، وتعملوا بموجبها فتوحده تعالى ، وتخصوه بالعبادة والتعظيم اللائق بجلاله وينزل من أجلكم ما هو سبب أكيد في رزقكم وحياتكم وهو المطر . وأفردته بالذكور مع كونه من الآيات المذكورة ، لانفراده بعنوان كونه من آثار رحمته

وجلائل نعمته الموجبة للشكر : « وما يتذكر إلا من ينيب » أى وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة ويعمل بمقتضاها إلا من يرجع إلى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ، ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ وكذلك الشأن في الآيات التنزيلية لا ينتفع بها إلا من أقبل عليها وتدبر ما في ثناياها ، وتأمل ما فيها من الحكم البالغة ، والعلوم النافعة له في دينه ودنياه . أما من أعرض عنها فهو محروم من هدايتها والانتفاع بها — والحاصل أن الآيات البينات إنما تنفع النفوس المستعدة لقبول الحق المتوجهة إلى طلبه ، وأما النفوس الخبيثة التي يفضحها الحق ويؤلمها ويظهر باطلها التي تحب ستره والاسترسال فيما هي فيه من اللذة البهيمية والجاه المزيف ، فإن الآيات المذكورة لا تزيدها إلا مرأً وجدلاً في القول وجهداً وعناداً بالفعل : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

وقال تعالى « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيا » . أمر الله جل وعلا رسوله المصطفى بتذكير عباده وتبليغهم من غفلاتهم وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى ، والاستعداد لامتنال أوامره والتزام أحكامه ، وأشار بقوله إن نفعت الذكرى إلى ما عليه أهل الباطل القائمون على ما وروثوا عن آبائهم ، وإلى جمودهم وصلابة جهلهم ، وأن الذكرى ربما لا تنجح فيهم قالوا (وذلك كما تقول للواغظ : عظ المرابين إن سمعوا منك) ، وليس الشرط قيداً في الأمر فقد أجمع أهل الدين سلفهم وخلفهم على أن الأمر بالتذكير عام نفعت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله صلوات الله وسلامه عليه أصدق شاهد على ذلك ، ولذا أردف الأمر بقوله : « سيذكر من يخشى » ، أى سيتذكر بتذكيرك من يخاف الله تعالى في الجملة ، فيزداد خوفه بالتذكير فيتفكر في أمر ما تذكر به ، فيقف على حقيقته فيؤمن به ويعمل عليه — فالذكرى نافعة حتماً في فريق من الناس وهو الذى يخاف الله ويخشى عاقبة الجحود

والعناد بعد ظهور الدلائل ووضوح وجه الحق ، وإنما يتجنب الذكري ولا يفتن بها الأشقي الذي غلبه شقاؤه ، وحق عليه الخذلان بإعراضه عن النور الساطع والبرهان القاطع . وهذا الفريق الذي لا يخلو منه زمن سياتي من الله جزاءه كما قال تعالى : « الذي يصلى النار الكبرى » هي نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ثم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة .

وقال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » يلطف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخير فهو تعالى حكيم يعطى الهداية للخير لأهلها .

وقال تعالى : « ويهدي إليه من أناب » . أى أنه تعالى يهدي إلى جنبه العلى الكبير هداية موصلة كل من أقبل على الحق وتأمل ، في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة .

وقال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بأيمانهم » فهدهم أولاً بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به فلما آمنوا هدهم بالإيمان هداية بعد هداية ، أى أنه تعالى يوفقههم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة ويهديهم بإيمانهم أيضاً إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية . كما قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، فإن العمل بدين الله مع رعاية سنن الله فى خلقه يورث العلم والحكمة وينير البصيرة وبذلك تنكشف أمامه الأشياء ونظير هذا قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » ، أى يزيد المؤمنين المهتدين هدى ، وذلك أن بعض الاهتداء يجر إلى البعض الآخر كالإيمان يجر إلى الإخلاص فيه ، كما أن بعض الغواية يجر إلى بعضها — وهو ممكن عقلاً إذ لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطاً ببعض ، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم ، ولا امتناع فى كون بعض العلم مشروطاً ببعض ، فمن اهتدى بالهداية التى هى الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يمنح الهداية التى هى المشروط — مثاله الإيمان هدى ، والإخلاص فى الإيمان زيادة هدى ، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان ، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص — وقوله جل ثناؤه فى سورة

القتال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أى الذين اهتدوا إلى طريق الخير فآمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به ، زادهم هدى بالتوفيق إلى سبل السعادة ، فى الدنيا والآخرة — وإجمالاً زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة ، فى أمور الدين والدنيا ، « وآتاهم تقواهم » ، ألهمهم إياها وأعانهم عليها . وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » . ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل — وبالجملة فالإيمان الصادق له نور يسطع فى القلوب فيهديها فى ظلمات الشبه ، وينير لها السبيل إلى الحق الذى لا يشوبه باطل ، فيسهل عليها أن تميّط كل أذى يتعثر فيه السالك .

وقال تعالى : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فى سورة إبراهيم فى قوله : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . ولقمان فى قوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليبريكن من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . وسبأ فى قوله : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقاتلوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومرزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . والشورى فى قوله : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فأخبر جل شأنه عن آياته العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبر عن آياته القرآنية الإيمانية أنه إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والأنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه ، وأنها إنما تذكر بها من يخشاه سبحانه . قال تعالى : « طه ما أنزلنا

عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » . وقال في الساعة : « إنما أنت منذر من يخشاها » . وأما من لا يؤمن بها ، ولا يرجوها ولا يخافها ، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية .

ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم التي كذبت الرسل وما حل بهم من أنواع الخزي والذل في الدنيا قال بعد ذلك : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » . فأخبر أن في عقوبات المكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة واعتقد صحته ووجوده — وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة في حقه — وإنما كان الصبر والشكر سبباً لانتفاع صاحبهما بالآيات لأنهما أساس الإيمان فنصفه صبر ونصفه شكر — وعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه — وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ولا يتم الإيمان إلا بالصبر والشكر فإن رأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى والشهوة ، ورأس الشكر التوحيد ، فإذا كان العبد متبعاً هواه مشركاً بمولاه ، لم يكن صابراً ولا شكوراً ، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه إيماناً .

ومن الأصل الثاني وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال قوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض » فإن تخصيص الإضلال بهم مترتباً على صفة الفسق وما هم عليه من القبائح المذكورة بعده إيذان بأن ذلك هو الذي أعدم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال . فإن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر في حكمة ضرب المثل إلى حقارة المثل به حتى رسخت به جهالتهم . وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا ما قالوا — فالمراد من الفاسقين هنا العاتون الماردون في الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله والاستهزاء به . وقوله تعالى « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليل ما يؤمنون » فإنه صريح في أنه تعالى أبعدهم عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم

العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرّة ، بعد أن خلقهم على الفطرة
والتمكن من قبول الحق ، وسبب الآيّة أن اليهود ادعوا أن قلوبهم مغشاة بأغشية
جبليّة لا يكاد يصل إليها ما جاء به النبي صلوات الله وسلامه عليه ولا تفقهه . فرد الله
عليهم ما قالوا وكذبهم فيه ببيان أن المانع كسبي لا جبلي

وقوله تعالى : « فما لكم في المنافقين فِئْتَيْنِ والله أركسهم بما كسبوا » روى أن
قومًا من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو معتلين
بوباء المدينة ، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشرّكين ،
فاختلف المسلمون في كفرهم وإسلامهم ، فبين الله أمرهم وأخبر تعالى بأنه قد ردّهم
في الكفر كما كانوا بسبب ما كسبوه من الارتداد والالحوق بالمشرّكين والاحتيال
على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وأصل الرّكس رد الشيء مقلوباً .

وقوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » فأخبر جل شأنه أنه يثبت المؤمنين
على ما ثبت لديهم بالحجة وتمكن في قلوبهم ، وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفحتها
العجيبة « كلمة التوحيد » في الحياة الدنيا ، فلا يزالون عنه إذا فتنوا في دينهم كالذين
قتلهم أصحاب الأخدود وبلال وصهيب — وفي الآخرة فلا يتلعضمون إذا سئلوا عن
معتقدهم في الموقف ، ولا تُدهشهم أهوال القيامة — وأنه تعالى يخاق في الكافرين
الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنين بسوء اختيارهم وظلمهم لأنفسهم . حيث
بدّلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البيّنات الواضحة فلم يهتدوا إلى
الحق « ويفعل الله ما يشاء » من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه
مشيئته النابعة للحكم البالغة .

وقوله تعالى : « وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » فأخبر أنه تعالى عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه
وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم عن اجتهلانه
فلا يبصرونه . لكن لا مع توجههم إليه واستعدادهم له بطريق الإيجاب . بل بأن

يخليهم وشأنهم بعدما علم فساد استعدادهم ونفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلاً ويطبع على قلوبهم حسماً يقتضيه استعدادهم كما بينه تعالى بقوله : « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » أى ندعهم في طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحميكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فأمرهم بالاستجابة له ورسوله بحسن الطاعة حين يدعوه إلى ما فيه حياتهم من العلوم الدينية والجهاد لإعلاء كلمة الله — ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سبباً للحيلولة بينهم وبين قلوبهم .

وقال تعالى : « فلما زاغوا أراغ الله قلوبهم » فأفاد أنهم لما أصروا على الزيف عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه عاقبهم الله تعالى بصرف قلوبهم عن قبول الحق والميل إلى الصواب بصرف اختيارهم نحو الغي والضلال . وقال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته فقالوا أساطير الأولين . وقال تعالى في شأن المنافقين : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم » أخبر تعالى أنهم رجالا ونساء متشابهون في النفاق وصفاً وعملاً كأن كلا منهم عين الآخر يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ويمتنعون عن بذل المال في سبيل الله ، وأنهم تركوا التقرب إليه تعالى بالطاعة والإنفاق في سبيله ، فجازاهم على نسيانهم له تعالى وإهمالهم لطاعته بجرمانهم من التوفيق والهداية ، وفضيلة التقرب إليه بالإِنفاق والجهاد في سبيله في الدنيا ، ومن الثواب على ذلك في الآخرة . فقبض اليد كناية عن الشح . والمراد من نسيانه تعالى لهم لازمه وهو جعلهم كالمُنسى الذى لا يتعهد ولا يعتنى بشأنه ذلك لحبهم وقبائحهم — وقال تعالى في موعظة المؤمنين وحثهم على الخير وتحذيرهم من الشر ومشابهتهم المنافقين في أخلاقهم وقبائحهم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » أخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل

الصالح وهما الهدى ودين الحق — فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له تعالى وإغفالهم لذكره وطاعته .

وقال أيضاً في حق المنافقين : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآثامهم تقواهم » كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حتى رعايته تهاوناً منهم ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة رضى الله عنهم : ما الذى قال الساعة ؟ استهزاء فى صورة الاستعلام والاستعادة شأن الخبيث المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد — فأخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم بأنهم لم يتوجهوا نحو الخير أصلاً واتبعوا أهواءهم الباطلة — وبين أنه تعالى زاد الذين اهتدوا إلى طريق الحق هداية بالتوفيق والإلهام وأعانهم على تقواهم — فإن المؤمن المهتدى يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم .

وعلى الجملة فإن من تدبر آيات الهداية والاضلال يعلم أن الله تعالى إنما يهدى من هو مستعد للهداية بسبب إنايته إلى ربه وأخذه فى سبيل تعرف الحق واستعماله مواهبه فيها خلقت له — وأن من تكبر عن معرفة الحق وأعرض عن كتاب الله وهدى رسوله واتبع هواه جدير بأن يطمس الله على قلبه ويصرفه عن آياته . تلك هى سنة الله عز وجل فى خلقه المبينة على غاية الحكمة ونهاية العدل .

نماذج فى مواظب القرآن الحكيم

قد عرفت بما تقدم لك خطورة وظيفتك وعظم مسئوليتك إذا تصدرت امظة الناس وإرشادهم ، وما ينبغى أن يكون عليه للارشاد من الصفات النفسية والآداب الدينية التى يتحلّى بها لىكون وارثاً نبوياً وعالمًا ربانياً ، ذا حياة طيبة نافعة ، ناشراً للفضيلة . محارباً للنقيصة مذبذباً للنفوس ، صالحاً للتأثير فى الأرواح — وعرفت أيضاً مراجع الوعظ وأنواعه والطرق التى يسلكها فى إرشاد الناس إلى الحق من الترغيب والترهيب .

وبقي عليك أن تعرف جملة من مواظب الكتاب الحكيم والحكم النبوية العالية ، وكيف تتصرف فيها على سبيل الحكمة بحسن التأدية عند القيام بواجب حتمتك ، فإن منهلك الصافي وبحرك الزاخر الذي لا ينضب معينه ، وإمامك الذي تقتدى به ومرشدك الذي يهديك إلى سواء السبيل هو ذلك الكتاب المبين . والسنة الشريفة . وآثار السلف الصالح . ثم كل كتاب في أصول الدين الحنيف أو الفروع أو الأخلاق ، لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة .

وسندكر لك بمون الله تعالى وحسن توفيقه موجزاً من المواظب الجامعة لكثير من شعب الإيمان ووجوه البر ، وشيئاً مما يتعلق بجملة الخلائق وخصوصاً الإنسان حتى تعرف منزلته من بينها وما قدر له من العيش الرغد والحياة الطيبة بقيامه بوظائف العبودية ونزعه لكسب الفضائل وخصائص الإنسانية ، ليكون لك نبراساً تستضيء به ومثالاً حياً تنسج على منواله في عمالك — وإجمالاً تهتدى به في طريق دعوة الخلق إلى الله تعالى حتى تسير بهم نحو السعادة في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

الموعظة الأولى الكمالات النفسية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : قال الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » كان صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يصلى إلى بيت المقدس وبقي كذلك بعد الهجرة يصلى إليه أكثر من سنة (سبعة عشر شهراً) فلما أمر بالتوجه إلى الكعبة كثر الخوض فى القبله وكان فى ذلك محنة للمسلمين واليهود ، والمشركون والمنافقين . فأما المسلمين فقالوا : سمعنا وأطعنا « وقالوا آمنا به كل من عند ربنا » وهم الذين هدى الله ولم يكن كبيرة عليهم . وأما اليهود فقالوا خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبيا

لـكان يصلى إلى قبلة الأنبياء . وأما المشركون فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق ، وأما المنافقون فقالوا ما ندرى محمد أين يتوجه ، إن كانت الأولى حقاً فقد تركها ، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل . وكثرت أقاويل السفهاء من الناس وكانت كما قال الله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليظهر من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه — وعلى الجملة كان من المسلمين الاغتراب بالتوجه إلى الكعبة وكان من أهل الكتاب التشدد فى التوجه إلى بيت المقدس ، وظن كل أنه الغرض الأكبر فى الدين فكان أهل الكتاب يرون أن الصلاة إلى غير قبلتهم لا تقبل عند الله تعالى ولا يكون صاحبها على دين الأنبياء . والمسلمون يرون أن الصلاة إلى الكعبة هى كل شئ لأنها قبلة إبراهيم ، وأول بيت وضع لعبادة الله تعالى — فأراد الله تعالى أن يبين للناس كافة أن مجرد تولية الوجه قبلة مخصوصة ليس هو البر المقصود من الدين . ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلى بالإعراض عن كل ما سواه تعالى فى صلاته والإقبال على مناجاته ودعائه ، فتولية الوجه وسيلة للتذكير بتولية القلب ، وليس ركناً من العبادة فليس لكم أن تذهلوا به عن سائر صنوف البر ، ولكن البر الذى يجب صرف الهمة إليه بر من آمن وقام بهذه الأعمال التى بينها الله عز وجل ، أى أن البر هو الإيمان وما يظهر من آثاره فى النفس والعمل فقال : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » إلخ .

وهنا يذكر للناس حكمة تعيين الجهة فى الصلاة ، وحكمة التوجه إلى بيت المقدس أولاً ، ثم التحويل عن بيت المقدس إلى الكعبة إن اقتضى الحال ذلك وكان فى الوقت سعة كأن يقول : (١) معلوم أن العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم فإنه لا بد وأن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه وأن يبالح فى الثناء عليه بلسانه . ويبالح فى الخدمة والتضرع له بالقراءة والتسبيحات كالثناء ، والركوع والسجود كالخدمة ، واستقبال القبلة بمنزلة التوجه بالوجه نحو الملك لامعرضاً عنه —

وجملة القول أن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان الله سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيل شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى رحمة منه تعالى بعباده . (٢) إن المقصود من الصلاة حضور القلب ، وحضوره لا يحصل إلا مع السكون وترك الالتفات والحركة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا بقي في جميع صلاته مستقبلاً لجهة واحدة على التعمين ، وإذا اختص بعض الجهات بمزيد شرف في الأوهام كان استقبال تلك الجهة أولى لأن شرفها محقق . (٣) إن الله تعالى يحب الموافقة والألفة بين المؤمنين ، ولو توجه كل واحد في صلاته إلى ناحية أخرى لكان ذلك يوم اختلافاً ظاهراً فتعين جهة واحدة يتوجه إليها الجميع في الصلاة يدفع ذلك الوهم ويحمل المؤمنين على الألفة والاتحاد والتعاون على أنواع البر وأعمال الخير ، وفي ذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وأما سر التوجه إلى بيت المقدس والرحوع عنه إلى الكعبة فهو (١) تمييز المؤمنين الصادقين في إيمانهم من غيرهم ليعلم المؤمنين من يوالون ومن يعادون . قال تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » . أي وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل هذا الوقت وهي بيت المقدس إلا لذلك ، فالوصول هو المفعول الثاني لجعل (٢) أنه إذا رسخ في أوهام بعض الناس أن هذه الجهة أشرف من غيرها بسبب أن الله تعالى خص الكعبة بإضافتها إليه في قوله « بيتي » وبناء الخليل وولده لها كان الإنسان عند استقبالها أشد تعظيماً وخشوعاً (٣) أنه لما كان بناء هذا البيت سبباً لظهور دولة العرب وعزهم وفخارهم كانت رغبتهم في تعظيمه أشد (٤) الإسراع في قبول ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي ، لأنه لما كانت الكعبة منشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعظيمها تعظيماً له . ومن رسخ في قلبه تعظيمه كان بقبول شريعته أجدر ، وإلى امتثال أوامره ونواهيته أسرع - ومن الحكمة في جعل القبلة في أول الأمر بيت المقدس أن الكعبة كانت

في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان وكان سلطان أهل الشرك متمكناً فيها ،
والأمل في انكشافه عنها بعيداً ، فصرفه الله أولاً عن استقبال بيت مدنس بعبادة
الشرك - وإن كان الله أمر إبراهيم بتطهيره للطائفين ، والعا كفين والركع
السجود - إلى بيت المقدس قبلة اليهود الذين هم أقرب إلى ما جاء به من التوحيد
والتنزيه ، ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها ،
 وإزالة سلطة الوثنيين عنه جعله الله قبلة للموحدين ليوجه النفوس إليه ، فيكون ذلك
مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة بالاستيلاء عليه ، والسير فيه على سنة إبراهيم من التوحيد
والعبادة الصحيحة لله وحده . وفي قوله تعالى : « ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم
تهتدون » ، بشارة بهذا الاستيلاء تبعث فيهم روح الأمل والرجاء ، ثم يبين لهم أن
البراسم جامع للطاعات وأعمال الخير التي تقرب العبد إلى مولاه تعالى ، ومنه
بر الوالدين واسترضاؤهم بكل ما أمكن ، ويلفت السامعين إلى أن الله عز وجل
اشترط أموراً لا يتحقق البر بدونها .

الأول الإيمان بأمر خمسة (أحدها) الإيمان بالله تعالى أى التصديق بأن
للكون رباً قادراً عليهما ، مدبراً حكيماً ، متصفاً بكل كمال منزها عن كل نقص ،
ولا يكون هذا الإيمان أصلاً للبر إلا إذا كان متمكناً من النفس بالبرهان ، مصحوباً
بالخضوع والإذعان . ويظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل . أما التصديق
الذى لا يستتبع الآثار ولا يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة العمل ، أو تكون
له آثار ناقصة فهو إيمان ناقص لا يوصف صاحبه بالصدق ولا بالتقوى ، ولا ينجمه
من عذاب يوم القيامة - قال حجة الإسلام الغزالي : مثل المؤمن الذى لا يعمل
والمؤمن الذى يعمل كمثل شجرة القرع ، إذ قالت لشجرة السرو : أنا شجرة وأنت
شجرة ، فتقول شجرة السرو : مهلاً حتى يأتى الخريف بعواصفه فتقتلحك ، ويطير
بك الهواء ، أما أنا فأبقى راسخة تزيل العواصف ما جف من أوراقى وتبقى الأوراق
الناضرة . هكذا حال المؤمن تصفيه النوائب فيخرج منها نقياً سليم العرض سليم
العقيدة ، كالذهب تصفيه البوتقة فيظهر نقياً لامعاً . أما ضعيف الإيمان فإن النوائب

تذهب بما عنده منه ، ويخرج منها مردولا مثلوم العرض . كسير النفس ذليلا عند الله وعند العباد . وهنا يلتفت السامعين إلى معرفة الله تعالى بالنظر في الكائنات الدالة على أنه تعالى كامل الألوهية من طريق القرآن الحكيم - ويذكر لهم آثار الإيمان الصادق وأوصاف المؤمنين ، وهي في القرآن أيضا كثيرة ومن أجمعها الآية التي معنا وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . وقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » إلى آخر السورة - وقوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوب وهم ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوب وهم ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » . وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » . ذلك هو الإيمان الذي يصح أن يكون أساس كل برٍّ ومبدأ كل خير وسعادة (وثانيتها) الإيمان باليوم الآخر - ومعنى الإيمان به التصديق بوجوده وما اشتمل عليه من بعث وجزاء وسمى به لأنه آخر أيام الدنيا أى متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس منها حتى يكون آخرها ، فهو من تسمية الشيء باسم مجاوره - وهنا يبين أن هذا الإيمان فرع ما قبله لأنه إذا آمن العبد بأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأنه تعالى تام القدرة على جميع الكائنات آمن بصحة البعث والنشر والحشر ومالا فلا . ويملا قلوب السامعين رهبة من أهوال يوم القيامة بآيات وأحاديث الوعيد الشديد ، ليحملهم بذلك على التزود لسفر طويل ، والاستعداد لحساب عسير . ويبين لهم أن الإيمان باليوم الآخر يهون أمر الحياة الدنيا ويحقّر شأنها ويجعلها عند المؤمن طريق الآخرة ، ووسيلة إليها ، لا يحب منها إلا ما كان مقربا إلى الله وسبيلا إلى سعادة الآخرة . ولا يحرص عليها حرص من ليس له مطمع وراءه ، بل سمان عنده أن يبقى فيها عاملا للصالحات

وأن يفارقها فراراً من شرها وتعجلاً لنعيم مقيم عند الله تعالى . (وثالثها) الإيمان بالملائكة ، أى التصديق بوجودهم وبأنهم كما وصفهم الله تعالى « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والملائكة خلق روحانى عاقل عالم قائم بنفسه ، وهم من عالم الغيب فلا تبحث عن حقيقتهم ، سخرهم الله تعالى لما شاء من مصالح البشر فى الدنيا والآخرة — وهنا يذكر أن الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحى ، لأن ملك الوحي روح عاقل عالم كما عرفت ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبي بما شرعه الله تعالى لعباده ولذا قدم ذكر الملائكة على ذكر الكتب والأنبياء ، فهم الذين ينزلون بالشرائع على المرسلين : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » — فيلزم من إنكار الملائكة إنكار الوحي والنبوة وإنكار الأرواح . وذلك يستلزم إنكار اليوم الآخر ومن أنكر اليوم الآخر يكون أكبر همه حظوظ الدنيا وشهواتها ، وذلك أصل لشقاء الدنيا قبل الآخرة . (ورابعها) الإيمان بالقرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ومعناه التصديق بأنها كلام الله تعالى المنزل على بعض رسله وأن ما تضمنته حق لا ريب فيه . سواء نزل مكتوباً كالتوراة أولاً كالقرآن — وهنا يبين أن الإيمان بالقرآن الحكيم يستلزم العمل به والاهتداء بهديه ، فإن المؤمن الموقن بأن هذا الشيء ضار قبيح لا تتوجه نفسه إلى إتيانه . والمؤمن الموقن بأن هذا الشيء نافع حسن لا بد أن تتوجه إرادته إليه عند عدم المانع — فما بال مدعى الإيمان بالكتاب قد تهاونوا به وأعرضوا عن امتثال أوامره ونواهيه . (وخامسها) الإيمان بالنبیین جميعاً من غير تفرقة بين أحد منهم — وهنا يبين ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز ، ويذكر حكمة إرسائهم والحاجة إلى الرسالة وشيثان خصائصهم وأخلاقهم وسيرتهم ، ليمتلق الناس بهم ويهتدوا بهديهم ، ويتخلقوا بأخلاقهم . وأن ما جاء فى القرآن من عصيان آدم عليه السلام ومن معاتبة جماعة منهم على أمور فعلوها فإنما هو من باب أن لا سيد أن يخاطب عبده بما يشاء وأن يعاتبه على خلاف الأولى

معاقبة غيره على المعصية . أو يقول إن عصيان آدم بالأكل من الشجرة مما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً في عمارة الأرض ببني آدم . ويبين أن الإيمان بهذه الأمور الخمسة قد جمع كل ما يلزم التصديق به ذلك أن للمكلف مبدأ ووسطاً ونهاية . ومعرفة المبدأ والنهاية هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر . وأما معرفة المصالح التي في الوسط فلا تتم إلا بالرسالة ، وهي لا تتم إلا بثلاثة . الملائكة للوحي ، ونفس ذلك الوحي وهو الكتاب ، والنائب عن الله تعالى في إبلاغه للخلق وهو الرسول .

« الثاني » من الأمور المعتبرة في تحقق مسمى البر إعطاء المال لمستحقه قال الله تعالى « وآتى المال على حبه » أى مع حب المال والشح به — وهنا يذكر أن الصدقة حال الصحة أفضل منها عند القرب من الموت . ففي البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا » كناية عن الموصى له والموصى به فيهما « وقد كان لفلان » أى وقد صار ما أوصى به للوارث فيبطله إن شاء إذا زاد على الثلث أو أوصى به لوارث آخر — والمعنى تصدق في حال صحتك واختصاص المال بك وشح نفسك به بأن تقول لا تتلف مالك لئلا تصير فقيراً لا في سياق موتك لأن المال حينئذ خرج منك وتعلق بغيرك — وعن أبي الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذى تصدق عند الموت مثل الذى يهدى بعد ما شبع » — ومعقول أن حال الصحة مظنة الحاجة إلى المال ، وعند الموت يكون الاستغناء ، وبذل الشئ عند الاحتياج أدل على الطاعة من بذله عند الاستغناء عنه — وأن الإعطاء عند الصحة أدل على تيقنه بالوعد والوعيد من إعطائه حال المرض والموت . وأن الهبة عند الموت تشبه الهبة عند الخوف من القوت . ثم يذكر أن ذلك حث على بذل المال في نوافل الصدقات وأنواع البر إلى هذه المصارف الستة الآتية « ذوى القربى » وهم الذين يقربون منه بولادة الأبوين

أو الجدين — والقريب إذا كان أحوج فهو بذلك أولى لأنه صدقة وصلة فإن
الإنسان إذا احتاج وفي أقاربه غنى فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم والإنسان
بفطرته يألم لفاقة قريبه أشد من ألمه لفاقة الأجنبي ، فإنه يقوى بقوته ويضعف
بضعفه — فمن قطع الرحم ورضى أن ينعم وأقاربه بأئسوا كان بريئاً من الفطرة
والدين الصحيح « واليتامى » الفقراء الذين فقدوا من يعولهم وانقطعت حيلهم
وليس لهم بعد الله إلا عطف الأغنياء — وهنا يبحث على العناية بشأن اليتامى لئلا
تسوء حالهم . وتفسد أخلاقهم فيكونون شراً على أنفسهم وعلى الأمة « والمساكين »
من ذوى الحاجة مع العفة والكف عن المسألة ، فإنهم لما عجزوا عن كسب
ما يكفيهم ، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن السؤال ، طلبت مساعدتهم
ومواساتهم من ذوى اليسار « وابن السبيل » المسافر فقد تشتد به الحاجة
للوصول إلى أهله . وفي الأمر بمواساته وإعاقته في سفره ترغيب من الشارع
الحكيم في الضرب في الأرض والسياسة « والسائلين » ضرب من المساكين
أجلاتهم الحاجة إلى استئداء الأكف فكانوا لذلك موضع عطف ورحمة ،
والسؤال محرم شرعاً على القادر على الكسب إلا لضرورة شديدة يجب على
السائل أن لا يمتدأها — وفي هذه المصارف السالفة يجتهد في تحريك العواطف
وهز القلوب نحو البر بهم بما يحضره من وسائل الترغيب والترهيب « وفي الرقاب »
أى وضعه في فكها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب وإعتاقها .
وفي طلب بذل المال في هذا النوع دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب واعتباره أن
الإنسان خلق ليكون حراً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون
الأسير رقيقاً — وهنا يبين سر مشروعية الرق في الإسلام ، ومعاملته للرقيق بالرفقة
والرحمة ، إلى غير ذلك من الترغيب والترهيب في إطلاقه من قيد الرق ، حتى يظهر
الأمر للناس وتنقطع السنة الطاعنين على الدين الحنيف من أجل الرق في الإسلام
— وجملة الأمر أن الإسلام يعتبر الإنسان حراً بطبعه ولا يرضى الرق إلا حيث يخرج
الإنسان عن طبع الإنسان فيقف في سبيل الدين الحق والدعوة إليه وفي طريق نشر

الفضيلة بين الناس ، فعند ذلك يصح أن تهدر آدميته ويعامل معاملة البهيمة ، غير أنه مع ذلك قد شرع الإسلام للتحرير طرقاً كثيرة في الكفارات ، وفي أموال الزكاة المفروضة ، وفي الصدقات غير المحدودة . كما سيأتى ذلك مفصلاً في محاضرة سر مشروعية الرق في الإسلام آخر الكتاب إن شاء الله تعالى . وارجع في ذلك إلى كتب حكمة التشريع في الكلام على الجهاد .

« الأمر الثالث » مما لا بد منه في تحقيق البر « إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » وهنا يبين سر مشروعية الصلاة وأنها إذا أدت على الوجه المطلوب كان لها أحسن أثر في جلاء القلوب وتطهير النفوس من أدران الرذائل ، وفي ذلك سعادة المجتمع الإنسانى ، وما عم الشقاء وزاد البلاء إلا من إضاعتها بلا خشية — ويبين أيضاً حكمة الزكاة وأنها من أحكم الروابط بين الفقراء والأغنياء . وما انقطعت الصلة وانعدمت الألفة بين المسلمين إلا من منعها . كذا يذكر أنها نظام حكيم عادل معقول لا ما يسعى إليه الأشرار الأغرار دعاة الاشتراكية من قلب النظام الإلهى وهيهات هيهات أن يبلغوه حتى يأتى وعد الله .

« الرابع » مما لا بد منه في تحقيق البر الوفاء بالعهد . والموفون بعهدهم الذين إذا وعدوا أنجزوا . وإذا نذروا أو حلقوا وفوا . وإذا قالوا صدقوا . وإذا ائتمنوا أدوا — ثم بشرح لهم أن الوفاء يتناول كل ما يلتزمه العبد اختياراً فيما بينه وبين مولاه من النذور والأيمان . وما يأخذه على نفسه كذلك بينه وبين سائر العباد في عقود المعاوضات من الشرائط . وكذا ما ينبغى الوفاء به من الوعود العامة بين الناس وأنواع المحالفات . ويمتدح الوفاء وأهله ويحث على التخلق به . ويذم الإخلاف ويحذر منه .

« والخامس » مما لا بد منه في تحقيق البر الثبات لدى الشدائد ، والصبر عند المكاره . فإن الله تعالى مدح الصابرين « فى البأساء » الفقر والشدّة « والضراء » المرض والزمانة « وحين البأس » وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب — وهنا يذكر فضيلة الصبر ومعناه ويسهل على الناس التخلق به فى جميع الأحوال بأن الله

تعالى أضاف إليه جميع الخيرات و بلوغ أعلى الدرجات . وأن الذين تحلوا بهذه النعموت الجميلة هم الذين صدقوا في الدين واتباع الحق وتحرى وجوه البر لم تغيرهم الأحوال ولم تنزلهم الأهوال « وأولئك هم المتقون » عن الكفر وسائر الرذائل .

ثم يحتم القول ببيان الآية إجمالاً ليكون ذلك أثراً باقياً في نفوس السامعين كأن يقول : إن الله عز وجل بعث الناس على استيفاء أنواع الطاعات ووسائل السعادة ، ونههم إلى أنه ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ما عداه . إن الخير كثير الوجوه فلا تقفوا موقف الذين قصرت أنظارهم . فالبر كل البر أن تجمل النفس بالمعارف وأهمها الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ، وأن يسخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأن يكون المرء حسن العشرة فيبذل المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وأن يكون كريم الأخلاق فلا يخلف إذا وعد . ولا يجزع عند الملمات . كالفقير وشدته . والمرض وحدته ، والقتال وصدته . فالآية الكريمة كما ترى جمعت الكمالات البشرية كلها تصريحاً وتلويحاً في خصال ثلاث . صحة الاعتقاد : وذلك بما بين شعب الإيمان من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين . وحسن المعاشرة بإيتاء المال لمن ذكر ، وتهذيب النفس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء والصبر . وبذلك يتم الجمال والكمال . ويلزم لاستيفاء البيانات المشار إليها استحضار معاني النظم الكريم والرجوع إلى كتاب رياض الصالحين . والأحياء . وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم

على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس فيها خالدون .
إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته ، واستعمل
جوارحه فيما يرضيه . والسعيد الموفق إذا جاءت الموعدة انفتح لها قلبه ونشطت للعمل
عليها أعضاؤه ، أولئك هم أهل الهداية . وأولوا الأحلام الراجحة وأولئك لهم البشرى
في الحياة الدنيا وفي الآخرة . « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . ثم يبين أن الله عز وجل حكم
بالفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع .

(الصفة الأولى) الإيمان بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد صلوات الله
وسلامه عليه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها حيث قال تعالى : « قد
أفلح المؤمنون » ، فهؤلاء الذين اختصوا من بين المؤمنين بأن جعلوا بواطنهم بأنوار
المعارف ، وكلوا ظواهرهم بالقيام بوظائف العبودية ، وتحلوا بمكارم الأخلاق قد فازوا
بكل خير ونجوا من كل ضير حسبما كان متوقفاً من حالهم فإن إيمانهم الصادق
وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح بموجب هذا الوعد الكريم
وفي هذا المقام يشبه الإيمان بشجرة طيبة ، ويذكر لهم أن المقصود هو الإيمان
الصحيح الذي يظهر أثره في تهذيب النفس واستقامة الأعمال ، وليس ينفع المرء أن
يقول أنا مؤمن وهو خبيث النفس سيء القول . فقد روى البخاري في تاريخه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقّر في القلب وصدقه
العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن
نحسن الظن بالله تعالى . وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

(الصفة الثانية) الخشوع في الصلاة بالخضوع والتذلل للملك الملوك ورب
الأرباب ، وعدم التفات القلب فيها إلى شيء سوى التعظيم له تعالى ، وبسكون
الجوارح والإطراق بالنظر إلى موضع السجود ، وعدم الالتفات يميناً ويساراً ، وهذه
الثلاثة من لوازم خشوع القلب وتفرغه له تعالى . فقد رأى بعض السلف رجلاً
يعبث بيده في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه . روى ذلك

عن حذيفة وسعيد بن المسيب رضى الله عنهما . قال تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » . فهؤلاء الخائفون من هيبة الله عز وجل المتذللون له الخاضعون لجلاله قد ألزموا أبصارهم مساجدهم فكانوا هم الفائزين — وفي هذا المقام يبالي في الخض على الخشوع في الصلاة مبيناً أن منزلته منها منزلة الروح من الجسد فكما لا عبرة لجسد بلا روح كذلك لا عبرة لصلاة بلا خشوع ، وذلك أن المصلي إنما يناجي ربه والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وما الصلاة إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود . أما الذكر فإنه مناجاة ولا تحقق لها إلا إذا كان اللسان معبراً عما في القلب من التضرعات . فأى سؤال في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلاً عنه ، ولا ريب أن المقصود من القراءة والذكر الثناء والدعاء . والمخاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب غافلاً عن جلالة وكبريائه وإسائه يتحرك بحكم العادة ، فما أبعد عن القبول . وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم له تعالى ومحال أن يكون مع الغفلة تعظيم . فلم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس في ذلك المعنى ما تصير الصلاة لأجله عماد الدين وفاصلاً بين الكفر والإيمان . من أجل ذلك قال أر باب القلوب بوجوب الخشوع فيها . كذلك يحذر الناس من العبث والالتفات في الصلاة بأن المصلي مشمول بإحسان الله تعالى ما لم يلتفت ، فإن التفت قطع الله عنه إحسانه فعن أبي ذر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإن التفت أعرض عنه » . رواه أبو داود والترمذى . وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . رواه البخارى — والاختلاس الاختطاف . وعن معاذ بن جبل « من عرف من على يمينه وشماله متممداً وهو في الصلاة فلا صلاة له » . وإجمالاً يبين أن الأليق والأحوط الخشوع في الصلاة .

(الصفة الثالثة) ترك العبد ما لا يعنيه من كل ما لا يعود عليه منه فائدة في الدين والدنيا قولاً أو عملاً . كالهزل واللعب وضياع الأوقات فيما لا ينفع والاسترسال

في الشهوات إلى غير ذلك من كل ما نهى الله عنه . بل ينبغي للمرء أن يشتغل بما ينفعه من عمل صالح لمعاده أو درهم حلال لمعاشه . ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . قال تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » تاركون له في عامة أوقاتهم وخاصة حال اشتغالهم بالصلاة ، فهؤلاء قد مدحهم الله تعالى بالإعراض عما لا يفيد والتباعد عنه رأساً مباشرة وميلاً وشهوداً . فهم لا يفعلونه ولا يرضون به ولا يخالطون من يأتيه . قال تعالى في امتداح الكملة من عباده : « وإذا مرو باللغو مروا كراماً » أى معرضين عنه — وفي هذا المقام يحذر السامعين من الكسل في الأعمال الدينية وإهمال الصنائع الدنيوية وينفرهم من البطالة وأهلها بما يحضره من الشواهد الشرعية وآثار الصالحين في ذلك .

(الصفة الرابعة) أن يقوم أغنياء المسلمين بأداء الحق الواجب في أموالهم إلى مستحقه فبذلك تملك القلوب ويدوم الوثام والوفاق ويتم الصفاء والهناء بين الناس ، ويعظم الخير وتعم الرحمة والبركة في الدارين . قال تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » مؤدون . وصفهم تعالى بذلك بعد ما وصفهم بالخشوع في الصلاة دلالة على أنهم بلغوا الغاية من القيام بالطاعات البدنية على وجهها والمالية إلى أربابها والتجنب عن المحرمات وكل ما توجب المروءة اجتنابه ، فطوبى لهؤلاء صلحت قلوبهم فخشعوا ، وطابت نفوسهم فبدلوا ، وفي هذا المقام يرغب الأغنياء في دفع الزكاة ، ويرهبهم من منعها بذكر نصوص الوعد والوعيد في ذلك مع بيان سر مشروعيتهما فإنه يدع في نفوس السامعين أحسن أثر .

(الصفة الخامسة) نهى النفس عن مطاوعة الهوى والشهوة بمنع الفرج عن كل ما لا يحل . وقصره على ما أحل الله له من الحرائر أو الإماء بعقد النكاح ، وملك اليمين . ففي ذلك الغنم والسلامة . قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم » الآية . فهؤلاء الذين غلبت عقولهم على شهواتهم وهي داعية لهم إلى ما لا يخفى فصانوا فروجهم . وغضوا أبصارهم فلم يرسلوها على أحد إلا على الحلال والحلال وبذلك بلغوا كمال العفة . أما من أرضى شهوته ولم يحصن فرجه ورضى لنفسه أن

يكون حيوانا ينزرد ذكره على أنثاه من غير قيد ولا شرط ، فذلك الجاني على حرمة
الآداب المنتهك للحرمات ، قد أفرط في الاعتداء على الأعراض ، وجاوز الحد
في تمزيق ثوب العفاف ، وعرض نفسه وأمته لمخاطر الشقاء في العاجل والآجل .

وفي هذا المقام ينفرد الناس من الزنا واللواط والاستمناء باليد وإتيان البهائم
ويحذرهم من إرسال النظر إلى النساء والعلمان بل ومن إتيان الحلائل حال الحيض
والنفاس مبيناً ما في ذلك كله من الأضرار الدينية والبدنية والمالية والاجتماعية من فقد
الحياء والزهرى والنهاب المثاني والسل الرئوى والسيلان وضياع الأموال وفساد الأخلاق
(الصفة السادسة) رعاية الأمانات والعهود وحفظها فتلك فضيلة عظيمة ومنقبة

جليلة ، وآية على شرف النفس وعلو الهمة . قال تعالى : « والذين هم لأماناتهم
وعهدهم » لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق « راعون » قاعون
عليها حافظون لها — وفي هذا المقام يبين أن الأمانة تتناول كل ما يكون تركه خيانة
لله أو للعبيد فمن ذلك سائر العبادات فإن المرء مؤتمن عليها ، ومنها ما يلتزمه بفعل
أو قول كالودائع والعقود وما يتصل بهما — ومنها الأمرار المأمور بكتمانها : فيلزمه
الحفاظة عليها وعدم إفشائها ، ويبين أن العهد يتناول العقود والإيمان والنذور ،
وأن مراعاة هذه الأمور والقيام بها لا بد منه لحصول الفلاح ودرك السعادة ويرغب
الناس في الأمانة والوفاء ويحذرهم من الخيانة والغش في الصنائع والمعاملات ، ومن
نكث العهود بما يحضره من الآيات والأحاديث والآثار مبيناً ما في الخيانة والاختلاف
من الأضرار الخلقية والاجتماعية وبضرب لذلك الأمثال ويسوق الحكم .

(الصفة السابعة) الحفاظة على الصلوات بالمواظبة عليها وتأديتها في أوقاتها على
الوجه الأكمل وتلك فضيلة مستقلة ، كما أن الخشوع فضيلة أخرى ، قال تعالى :
« والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وفي هذا المقام يحض الناس على الحفاظة على
الصلاة في الأوقات وشهود الجماعات وإتمام أركانها وشروطها ، فبذلك تهذب
النفس ويصفو القلب ويمتلئ بحياء وخشية — وبذلك يُنال الخير وتسعد الأمة وتقلع
النفوس عن غيها . ثم يذكر كل ماله بالمقام صلة . وهنا يرغب السامعين بأن الذين

توفرت فيهم تلك الصفات السبع وامتازوا بها عن غيرهم من عامة المؤمنين موعودون من الله تعالى من أجل هذه النعوت الجليلة بدار النعيم ، وأنهم المستحقون لها بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم قال تعالى : « أولئك هم الوارثون » الجديرون بأن يسموا وراثاً لا من ورث كراثم الأموال ورغائب الدخائر : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون — وإجمالاً يذكر أن هذه الآية جمعت كثيراً من علامات حسن الخلق وشمائل الأبرار الكاملين ، وهذا كله لا يتيسر للمرشد على الوجه الأكمل إلا بعد استحضاره معاني النظم الكريم وإعداد كل ماله بهذه البيانات صلة حتى تتشرب به مخيلته وتعيه ذاكرته ، ونعم المساعد على هذا رياض الصالحين وبالله التوفيق .

الموعظة الثالثة النهي عن الانهماك في طلب الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » .
إن من نظر إلى الدنيا بعين البصيرة أيقن أن نعيمها ابتلاء ، وحياتها عناء ، وعيشتها نكد ، وصقوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية ، مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب . وحرامها عقاب ، إن أخذه من حله حوسب عليه ، وإن أخذه من حرام عذب به ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، من أحبها أذلته ، ومن أبصر إليها أعنته والناس فيها طائفتان :

طائفة فطناء علموا أنها ظل زائل ، ونعيم حائل ، وأضغاث أحلام . بل فهموا أنها نعم في طيها نقم ، وعرفوا أن هذه الحياة الفانية إنما هي طريق إلى الحياة الباقية ، فرضوا منها باليسير وقنعوا فيها بالقليل ، فاستراحوا قلوبهم وأبدانهم .

وسلم لهم منها دينهم ، وكانوا عند الله تعالى هم المحمودين لم تشغلهم دنياهم عن طاعة مولاهم ، جعلوا النفس الأخير وما وراءه نصب أعينهم ، وتدبروا ماذا يكون مصيرهم ، وفكروا كيف يخرجون من الدنيا وإيمانهم سالم لهم ، وما الذى يبقى معهم منها فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم^(١) فى الدنيا ، ومن لا يغنيهم من الله شيئاً يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ويبقى عليهم وباله ونكاله ، أدركوا كل هذا فتأهبوا للسفر وأعدوا الجواب للحساب ، وقدموا الزاد المعاد « وخير الزاد التقوى » فطوبى لهم خافوا فأمنوا وأحسنوا ففازوا .

وأخرى جهلاء : عى البصائر لم ينظروا فى أمرها ، ولم يتكشفوا سوء حالها ومآلها ، برزت لهم بزيئها ففتنتهم فإليها أخلدوا ، وبها رضوا ، ولها اطمأنوا ، حتى ألهمهم عن الله تعالى وشغلهم عن ذكره وطاعته « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » نعم إنهم نسوا الله : أهملوا حقوقه ، وما قدره حق قدره ولم يراعوا لأنهما كهم فى الدنيا مواجب أوامره ونواهيه ، حق رعايتها « فأنساهم أنفسهم » ، جعلهم بسبب ذلك ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها وسIRON يوم القيامة من الأهوال ما ينسيهم أرواحهم ويجعلهم حيارى ذاهلين . « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » — وفى مثل هؤلاء يقول الشيخ ابن عطاء الله « اجتهدك فيما ضمن لك مع تقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك » . أقاموها فهدمتهم ، واعتزوا بها من دون الله فأذلتهم ، أكتثروا فيها من الآمال ، وأحبوا طويل الآجال ، ونسوا الموت وما وراءه من أهوال ومخاوف فخاب أملهم وضل سعيهم وخسروا الدنيا ولم يدركوا الآخرة .

روى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته

(١) من الأزواج والأولاد : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له ، فلا يسمى إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً . وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة . وكان الله بكل خير إليه أسرع .

ثم يكشف للسامعين عن حقيقة الدنيا ويبين لهم قصر مدتها . وانقضاء لذتها ، بما يضربه من الأمثال الحسية . كما تقدم فى الفصل الثالث عشر . ويذكر ما جاء فى الكتاب والسنة فى وصفها والتحذير من الافتتان بها . كقوله تعالى « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » شرح لنا العليم الحكيم فى هذه الآية حال الدنيا التى أفتتن بها قصار النظر وبين أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلاً عن الافتتان بها والانهماك فى طلبها بأنها لعب لا ثمره فيها سوى التعب . وهو تشغل صاحبها عما ينفعه فى آخرته وزينة لا تفيد المقتون بها شرفاً ذاتياً كالملابس الجميلة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة . وتفاخر بالأنساب والعظام البالية . ومباهات بكثرة الأموال والأولاد وعظم الجاه — ثم أشار جل شأنه إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال قريبة الاضمحلال كمثل مطر راق الزراع نباته الناشء به ثم يهيج يتحرك وينمو إلى أقصى ما قدر الله له فسرعان ما تراه مصفراً متغيراً ذابلاً بعد ما رأيت أخضر ناضراً . ثم يصير من اليبس هشياً متكسراً .

ففى تشبيه جميع ما فى الدنيا من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويتلاشى فى أقل من سنة إشارة إلى سرعة زوالها وقرب تلاشيها — وبعد ما بين سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها تزهيداً فيها وتنفيراً من الانهماك فى طلبها أشار إلى فحاشة شأن الآخرة وفضاعة ما فيها من الآلام وعظم ما فيها من اللذات ترهيباً من عذابها الأليم . وترغيباً فى تحصيل نعيمها المقيم ، حيث قال « وفى الآخرة عذاب شديد لمن عصاه لأنه نتيجة انهماكهم فيما ذكر مفصلاً من أحوال الحياة الدنيا (ومغفرة)

عظيمة (ورضوان) عظيم لمن أطاعه . وما زينة الحياة المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الغرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها مزرعة للآخرة ومطية لنعيمها .

وفي البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك . ومن حياتك لموتك . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه سر على شاة ميتة فقال : أترون هذه الشاة هيئة على أهلها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها . قال : والذي نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » أخرجه الترمذى وهذا أبلغ شيء في تحقير الدنيا التى استعبدت الناس وأذلتهم وشغلتهم عن خالقهم ومالك أمرهم . لهذا حذر الله تعالى عباده المؤمنين حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » أى لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والاسترسال فى التمتع بملاذها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر أنواع العبادات المذكرة لجلال المعبود الموصلة إلى هناءة الدنيا وسعادة الآخرة . والمراد نهيهم عن الانهماك فى جلبها والتلهى بزخارفها عن السعى فى كسب رضا تعالى ونيل إحسانه وإنذار الغافلين عن الله تعالى المفتونين بحبها — وحبها رأس كل خطيئة — بقوله « ومن يفعل ذلك » وألهاه ماله وولده عن ذكر الله وطاعته وأهل أمر السعادة « فأولئك هم الخاسرون » السكاملون فى الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفانى . وأمرهم أن يبادروا قبل فوات الفرصة فى تخليص أنفسهم من خطر المسئولية ويبرئوا ذمتهم من الحقوق الواجبة كإعانة المجاهدين والفقراء والمساكين بقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » وهو فى حكمه عادل وبالجميع رءوف رحيم . فما كلف الأغنياء بما يعسر عليهم ولكن بقليل من كثير صار لديهم من واسع الكرم تفضلاً منه وإحساناً إيدخاراً للآخرة وتزوداً إليها ، يحمله لهم الفقراء إلى الدار الآخرة من قبل أن ينزل الموت بساحته ويشاهد دلائله ويعاين أماراته لا يسمع له

عذر ولا تنفعه شفاعة (فيقول) عند تيقنه بحلوله يا « رب لولا أخرتني » أمهلتنى « إلى أجل قريب » أمد قصير متمنيا أن يزاد في أجله حتى يتصدق ويزكى وهو تعالى لا يمهل من انقضت مدته وحضر أجله « وإن يؤخر الله نفساً » عن الموت « إذا جاء أجلها » انتهى زمنها المقدر لها عنده سبحانه « والله خير بما تعملون » فيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فسارعوا إلى الخيرات واستعدوا لما هو آت .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) أى السورة المسماة بما ذكر لكونه صدرها » قال النبي بعد إتمامها « يقول بن آدم » أتى بالمضارع إشارة إلى أن هذا القول ديدنه ودأبه بحسب طبعه « مالى مالى » أى مالى هو الذى أعتنى به وأهتم ، فالتكرار لفظاً للتعظيم والاهتمام « وهل لك » أى أتقول ذلك « يا ابن آدم » وتهتم بأمره وهل لك « من دنياك التى » اهتممت بأمرها واحتفلت بشأنها ، والاستفهام للإنكار أى مالك منها على الحقيقة « إلا ما أكلت فأفريت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت » على محتاج قاصداً وجه الله تعالى « فأمضيت » أنفذته وفى رواية فأبقيت — والمراد أمضيت التصدق ونجزته فأبقيت ثوابه مدخراً لك عند الله تعالى — رواه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح . وملخصه مالك من دنياك إلا ما انتفعت به فى دنياك بأن أكلت أو لبست ، أو أخراك بأن تصدقت ، وما عدا ذلك من باقى المال ، فانت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره — وفيه تحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة وادخار ما عداه عند مولاه — وما أحسن قول بعضهم اجعل ما عندك ذخيرة لك عند الله ، واجعل الله ذخيرة لأولادك .

ويختتم المقال بذكر معنى النظم الكريم إجمالاً كأن يقول : إن الله تعالى ينبه عبده إلى المبادرة بطاعته وشكره من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإهمال ويتعذر عليه تدارك الأمر ويفوت وقت القبول فيتحسر على ما فرط . وبعض على أنامله لفقد ما كان متمكناً منه — ويذكر لهم هنا ما يناسب المقام كأن يقول قال سعيد

ابن جبیر : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعيتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

وقال لقمان لابنه : « يا بني إنك قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها » وقال : « يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراءها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً ، وعيسى عليه السلام لم يضع لينة على لينة » . وكان يقول : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل لآمن أدهم رحمه الله : بم وجدت الزهد في الدنيا ؟ قال : بثلاثة أشياء : رأيت القبر موحشاً وأيس معي مؤنس ، ورأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد ، ورأيت الجبار قاضياً وليس معي حجة ولا من يدافع عني .

فعلى الرجل الرشيد أن يتحرز بطاعة الله عن مساخطه ، ويتدارك أمره قبل أن ينزل عليه سلطان الموت ، فلا تقبل منه توبة ولا ينفع له عمل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الرابعة هداية القرآن إلى السعادة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال الله تعالى « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

إن الله تعالى قد امتنَّ على عباده برسوله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وكتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والذي هو أكبر نعمة لله عز وجل على المؤمنين « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » اتضح به للناس سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم . بما أرشد إليه من صحيح العقائد . وما فصل فيه من الأحكام وبين من أخلاق وآداب واتسع للعقول طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار . فهو الضياء والنور

والشفاء لما في الصدور . من أعرض عنه هلك ، ومن طلب العلم في غيره ضل . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، لا تنقض عجائبه ، ولا تنتهي غزائبه ، من آمن به سبق ، ومن قال به صدق ، ومن عمل به نجا ، ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه ، هو ينبوع الملة ، وأساس الإسلام الذي ارتضاه الله عز وجل ديناً لعباده ، وقانون حكيم يرشد الناس إلى سعادتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ذلك هو المقصد الأسمى منه ، وما وراء هذا من أحكام وآداب ونحوها وسيلة للوصول إليه ، وإن فيه من تهذيب النفوس ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها وإخراجها من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان . وإرشادها إلى نظام حياتها الاجتماعية مالا يستغنى عنه أحد من الناس ، وإن له من السلطان على نفوس الذين يفهمونه والتأثير في قلوب الذين يتدبرون آياته ما ليس لكلام سواء .

وهنا يبين للسامعين أنه ينبغي لكل إنسان لا فرق بين عالم وجاهل أن يتدبر آيات القرآن الحكيم وينظر في معانيها بقدر طاقته ، ويكفي العامى من فهم الآيات ما يعطيه ظاهرها كما تقدم لك . ولا شك أن فهم هذا القدر مما يسهل على المؤمن من أى طبقة كان . ومن الممكن أن يستفيد كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر ، فإن الله عز وجل أنزله لهداية الخلق ، وهو يعلم كل ما هم عليه من الضعف قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . وقال تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . كان البدوى راعى الغنم إذا سمع القرآن خر له ساجداً لما فيه من حلاوة ، ولما عليه من طلاوة . وهل خضعت العرب للحق إلا بمجاذبية القرآن — قال الأصمعي سمعت بنتاً أعرابية في السادسة تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قتلته إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله انتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أصبحك . فقالت ويحك أبعد هذا فصاحة مع قول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي

ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاءلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين — وسمع بعض الأعراب قارئاً يقول : « والله غفور رحيم » بدل « والله عزيز حكيم » في آية : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن فأنكره وقال : ليس هذا من كلام الله إذ الحكم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان ، لأنه إغراء عليه . وروى ابن ماجه عن علي رضي الله عنه أنه قال : « أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، فخرج وأما معه وأبو بكر ، فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشهاداتين وإلى أن ينصروه فإن قریشاً كذبوه . فقال مقرون بن عمرو : إلام تدعونا أبا قریش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية . فقال مقرون بن عمرو دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . ثم يبين لهم أن الله عز وجل أنزل القرآن لمقاصد خمس .

الأول : التوحيد وهو أهم ما جاء لأجله الدين الحنيف فإن الناس بومئذ كانوا في ظلمات الشرك والوثنية ، واقد جاء في القرآن الحكيم من آيات التوحيد ومقارعة المشركين ما يكفي لاقتلاع جذور الوثنية والشرك ، وهدم منار الإلحاد في أى أمة وفي أى زمان . . . ويتلو على السامعين شيئاً من تلك الآيات التي قضت على الوثنية التي كانت قاشية في تلك الأمم ، وفتحت أمام العقول أبواب النظر في الكائنات لتهتدى إلى أن لها صانعاً حكماً قادراً عليماً . كقوله تعالى « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يَخفون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها م لهم أيد يبطشون بها . أم لهم أعين يبصرون بها . أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

وكقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صفوان ، وغير صفوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

الثانى : وعد الطائعين الحافظين لحدود الله بجميل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالى وإنذارهم بشديد العذاب وسوء العاقبة ترغيباً وترهيباً ، وأن الوعد بالخير يعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتتهما . والوعيد كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما ، فقد وعد جل شأنه أهل الاستقامة بالاستخلاف فى الأرض والعزة والسيادة والحياة الطيبة ، وأوعد المخالفين بالخزى والذل فى الدنيا ؛ كما وعد بالنعيم المقيم وأوعد بنار الجحيم فى الآخرة — وبالأول ساق الطائعين إلى الجد فى المطاعة ، وبالثانى أوقف العصاة عند حد الأدب ويتلو عليهم شيئاً من آيات الوعد والوعيد التى ذكرناها فى الترغيب والترهيب .

الثالث : العبادة التى تجلو القلوب وتهذب النفوس وتنمى فيها شجرة الإيمان . وتقوى فيها روح التوحيد . ويتلو شيئاً من آيات العبادة والإخلاص فيها ، كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا — والله على الناس حج البيت — وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

الرابع : مكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين : وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنسانى ويوصل الناس إلى خير الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتعاليم . ويتلو عليهم ما فى ذلك من الآيات .

الخامس : العظة والاعتبار . والنظر فى الشئون العامة التى كانت عليها الأمم

الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله في خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالى وخضع لأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم . ويتلو عليهم شيئاً من أخبار الأولين .

هذه هي المقاصد التي اشتمل عليها القرآن الحكيم . وفيها حياة الناس وسعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة . وإن الفاتحة قد اشتملت عليها إجمالاً — فأما التوحيد ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » فإنه تعالى استحق الثناء لأنه على الحقيقة مصدر كل نعمة وإحسان يستوجب الحمد . ومنه نعمة الإيجاد والتربية — وأما الوعد والوعيد ففي قوله تعالى : « مالك يوم الدين » فإن معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء — وأما العبادة مع الإخلاص فيها ففي قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وأما مكارم الأخلاق ونظام الاجتماع . ففي قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » فإنه السبيل القويم الذي اختاره الله عز وجل لعباده . وجعل السعادة في الاستقامة عليه . والشقاء في الانحراف عنه ، ولا ريب أن الاستقامة ثمرة العبادة وسرها . وأنه ما من أمة انحرفت عن هذا الصراط سوى . ولم تراع سنة الله في خلقه إلا وحل بها من العدل الإلهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد السلطة وسقوط الهيبة — وأما العظة والاعتبار بالأمم الماضية ففي قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فإنه يفيد أن هناك أقواماً تقدموا أنزل الله عليهم شرائع هدايتهم « ففريق » أطاع الله ورسله ففازوا برضاه وهم الكاملون المخلصون من أهل الحق الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به « وفريق » جحد وعاند الدعاة إليه تعالى فاستحقوا المقت الإلهي والخزى في الحياة الدنيا « وفريق » أخلوا بالاعتقادات الصحيحة وضلوا عن الصراط السوي فباءوا بالفشل والخيبة — والقرآن الحكيم قد فصل لنا من أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يكفي للعبرة والانعاظ ، فشرح لنا حال الذين حافظوا على الحق وصبروا على ما أصابهم في سبيله ، وحال الذين قاوموا الحق عناداً وحال الذين ضلوا فيه ضلالاً بعيداً —

فاتضح بذلك أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على هذه المقاصد التي فصلها القرآن تفصيلاً لا خفاء معه ولذا سميت الفاتحة بأُم الكتاب .

ويحتم القول ببيان فضل القرآن مستشهداً بما ورد في ذلك من السنة ويحتمهم على الاعتناء به تعلماً وحفظاً وترتيلاً^(١) وعلى احترام مجلسه بالسكوت وعدم اللفظ وشرب الدخان وبضرب لذلك الأمثال — كأن يقول نزل القرآن كغيرة من الكتب السماوية ليعمل على طريقه العاملون ويهتدى بهتدي المهتدون قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » نزل ليكون ترغيباً للطائع وترهيباً للعاصي . نزل لتهذب به نفوسنا ونصالح به شئوننا . فواجبنا أن نقبل عليه لنفلح ونسعد وإليكم شهادة ألد أعداء القرآن للقرآن . روى أن الوليد بن المغيرة صر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ حم السجدة ، فلما وصل إلى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت ، لعلمه أنه مقبول الدعاء صادق الالهجة ، ولما رجع الوليد قال لهم : والله لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه . فقالت قريش : صبا والله الوليد والله لتصبأن قريش كلها ، فقال ابن أخيه أبو جهل « أما أ كفيكموه فقعده عنده حزينا وكله بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جر بتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا سحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وما الذي يقوله إلا سحر يأتريه عن أهل بابل ؟ فارتج النادى فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه .

ولا يخفى أن استعظامه للقرآن أولاً واعترافه بأنه ليس من كلام الإنس والجن يدل على أنه كان في ادعائه السحر معانداً لأن السحر يتعلق بالجن وأنه كان يقول

(١) يرجع إلى « الإحياء » و « رياض الصالحين » في فضل القرآن وآداب تلاوته .

خلاف ما يعتقد ترضية لقومه وحرصاً على حياته — من كلامه إن كان محمد صادقاً
فما خلقت الجنة إلا لى . وكان من وجهاء قريش وصناديدهم ، ولذلك لقب بالوحيد
وريحانة قريش — وأولاده عشرة كلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد وعماره
وهشام والعاصى وقيس وعبد شمس ، أسلم منهم أربعة : الوليد وله قصة — وخالد
وهشام وعماره .

نماذج فى مواعظ السنة النبوية

الموعظة الأولى فى الحث على الكسب من طريقه الحلال

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به
عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه » . اعلم أن رب الأرباب وخالق
الأسباب ، جعل الآخرة دار العقاب والثواب ، والدنيا دار التشمير والاكتساب
وليس التشمير فى الدنيا مقصوداً على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة إلى المعاد
ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها قال تعالى : « وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ
الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » . والناس
ثلاثة رجل شغله معاشه عن معاده فهو من المفرطين الهالكين . ورجل شغله معاده
عن معاشه فهو من الغالين المكروهين . والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى
شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين المحبوبين . فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم
قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى
على ما يفتنى » رواه أحمد وغيره أى لأن الانهماك فيها يشغله عن طاعة مولاه
فيخسر الآخرة ، والانتقطاع الآخرة يمتعه عن الكسب فيصير حملاً ثقيلاً على كاهل
الامة . وفى الحكم للأثورة « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ،
ولم يكن كلا على الناس » فأفضل الأمرين التزام حد الوسط .

وقد جاء الشرع الشريف بفضل الكسب والحث عليه من طريقه الحلال قال تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقال تعالى : « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » أى وقتاً يلزم السعى فيه لتحصيل المعاش . وقال عز وجل : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » والمناكب جوانبها وطرقها وقال عز وجل : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » أى يسافرون فيها لطلب ما قدر لهم من الأرزاق والأرباح في تجارتهم وأسفارهم — وقال بعض السلف : « إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » متى صحت النية وكان صابراً محسناً فإن الحسنات يذهبن السيئات لاسيما إذا كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو يعول ذرية ضعافاً يصونهم عن الضياع . ويكفهم عن التطلع إلى ما في أيدي الناس فهو لاشك في سبيل الله تعالى . روى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال : أنعبد . قال : ومن يعولك ؟ قال : أخى . قال : وأين أخوك ؟ . قال : في مزرعته قال : أخوك أعبد منك — وقال لقمان لابنه : يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال « رقة في دينه » وهو كناية عن قلته فإن الفقر قد يحمله على ما يوجب ذلك « وضعف في عقله » وذلك لكثرة ما يعتريه من الهموم والأفكار . وهى لاشك تظلم العقل وتفسد الرأى « وذهاب مروءته » ولا دين لمن لا مروءة له . وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به . واحتقارهم له . وازدراؤهم لحاله . وقال حكيم : إن في صلاح الأموال سلامة الدين ، وجمال الوجه ، وبقاء العز ، وصون العرض — وقال أحيحة بن الحلاج : أصاحوا أموالكم فإنكم لاتزالون ذوى مروءات ما استغنيتهم عن عشيرتكم — وقال ابن عباس رضى الله عنهما : اطلبوا الغنى بإصلاح ما في أيديكم ، فإن الفقر يجمع العيوب . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى . فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان يقول : ما من موضع يأتي الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشتري . وقال

أبو سليمان الداراني سيد الزهاد : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك بقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد .

وعلى الجملة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم يتجرون في البر والبحر . ويعملون في نخلهم ومزارعهم . وكفى بهم قدوة . وأنه لا بد للعبد من حركة ومباشرة لسبب من أسباب العيش . ووسيلة من وسائل الرزق فينفع نفسه وغيره ويعيش عزيزاً كريماً — ثم يشرح للسامعين مزايا التعب في كسب الحلال من الاستغناء عن الناس وعن إظهار الحاجة إليهم . وإيصال النفع إلى الغير . والقيام بوظائف المدنية وقضاء المصالح التي عليها نظام العمران والسلامة من فساد البطالة واللهو والعبث وكسر النفس ليقبل طغيانها ويأمن من غوائلها . والتعفف عن ذل السؤال فلا يريق به ماء وجهه . وفوق هذا كله نيل الثواب متى كان صادقاً في عمله بعيداً عن الأذى . ويذكر لهم أنه يحرم على المؤمن أن يسأل وهو يستطيع العمل ، روى أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه : « أن رجلين أخبراه أنهما أنبيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن الصدقة فقلّب فيهما البصر ورأهما جليدين فقال لهما : إن شئكما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوى » وكذا يحرم الإعطاء لأنه تعاون على الإثم لا البر ، وما رواه الإمام مالك في الموطأ من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » ففيه مقال ، وعلى فرض صحته فهو محمول على تحقق عجزه وحاجته ، فالواجب التفرس في حال السائل كما يرشد إليه حديث عبد الله بن عدي — ثم إن العاجز لا يسأل إلا بمقدار حاجته ، روى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنيما يستكثر من جمر جهنم قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه ويعشيه » — وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً بعد المغرب فقال لرجل من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيت . فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً فقال لست سائلاً

لكذك تاجر . ثم أخذ الخلالة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالذرة وقال
لانهد — ولولا أن سؤاله كان حراماً ما ضربه ولا أخذ مخلاته .

ويبين لهم أن أحل أنواع الكسب وأفضلها ما كان من عمل يده إذا نصح
وعمل بإتقان وإحسان بعيداً عن الغش . وافية بحق الصنعة غير ملتفت إلى مقدار
الأجر . فبذلك يحصل الخير والبركة ، وبضده يكون الشر والوبال . ففي صحيح
البخارى عن المقدم بن معديكرب السكندى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وإن نبي الله داود
عليه السلام كان يأكل من عمل يده في الدروع من الحديد ويبيعه لقومه » وخص
داود لأن اقتصره في أكله على ما كان يعمل بيده لم يكن عن حاجة لأنه كان خليفة
الله في الأرض ، وإما اختار الأكل من الطريق الأفضل . ولهذا أورد النبي صلى
الله عليه وسلم قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد
وأن في ذلك دليلاً على أن الاكتساب لا ينافي التوكل على الله متى كان الاعتماد
في حصول الرزق عليه تعالى لا على الأسباب .

ويبين لهم أن هذا كله في من طلب الكفاية لنفسه وعياله ، فأما من كان عنده
الكفاية ولكن يطلب الكسب لتحصيل الثروة والزيادة على الكفاية فإن كان
مقصوده استئثار المال وادخاره لا ليصرف في وجوه الخير ونافع الأعمال له ولأئمة
فذلك مذموم عند الله والناس أجمعين لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة
فإن كان مع ذلك ظالماً للناس خائناً غاشاً في المعاملات مقصراً في الواجبات فذلك
الذي خسرها الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكانت دنياه وبالاً عليه ونعمة
لا نعمة — وإن كان يطلب الزيادة على الكفاية لإصلاح نفسه وعياله ، وصرفها
في أنواع البر والأعمال النافعة مع البعد عن مظالم العباد ، واجتناب الغش والخيانة ،
والقيام بما وجب عليه فذلك هو السعيد الموفق المحمود عند الله والناس .

ويبين لهم مضار البطالة ، وأن قعود الرجل فارغاً من غير شغل أو اشتغاله
بما لا يعنيه ؛ من سفه الرأي وسخافة العقل ، واستئلاء الغفلة وجهل بآداب الدين

القويم ، وأن العمل مهما كان حقيراً فهو أفضل من البطالة ، وسؤال أحد من ذوى المال إن أعطاه فقد حمله ثقل المنّة مع ذل السؤال . وإن منعه فقد باء بذل الخيبة مع ذل السؤال — حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « مكسبة فى دناءة خير من سؤال الناس » ، وقال بعض الحكماء : « لا تدع الحيلة فى التماس الرزق بكل مكان فالسكرىم محتمل ، والدنىء عيال » حمل على من يعوله ، ولا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حملاً على كاهل المجتمع ثقيلاً مرذولاً . يتكفف الناس فهذا أسر ممقوت محقر ، وخير منه أحقر أنواع السعى كالاكتطاب من رءوس الجبال والفلات فيبيعه ويمون نفسه وعياله منه كما أرشد إلى كل ذلك هذا الحديث الشريف سمع أحد الأدباء رجلاً فى الثلث الأخير من الليل يقول :

وأكرم نفسى أننى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أحد بعدى
فأعجبه قوله فأتاه حتى وقف على رأسه فإذا به يقيم الشارع (زبال) ليبيع القمامة ويمون نفسه وعياله من ثمنها — فقال له أنت تقول أكرم نفسى ؟ فأى إكرام أنت فيه مع ما تصنع من جمع القمامة ؟ فقال له : إليك عنى لقد أكرمتها بهذه الحرفة عن ذل السؤال لمثلك . فقال : صدقت وقبله بين عينيه .

ويبين أن شر أنواع الكسل التعلل بالأمانى الكاذبة والترفع عن صغير الأعمال النافعة طمعاً فى نيل ما هو أشرف منها فى اعتبار بعض الأوهام ، فتضيع على المرء أوقاته ، ويزداد قعوده ، وتخور عزيمته ، وينتهى به الحال إلى الحق والرذيلة كان قس بن ساعدة الأيادى ينفذ على قيصر الروم ويورده فقال له القيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال معرفة المرء بنفسه . قال فما أفضل العلم ؟ قال وقوف الرجل عند علمه . قال فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه . قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق . وصفوة القول أن العمل على الحياة أس العمران وقوام حياة الفرد والجماعة ، وضمان الشرف ، وأمان من الذلة والمهانة ، وخير فى الدنيا والآخرة . لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على العمل ، والتحذير من البطالة والكسل وبالله تعالى التوفيق .

الموعظة الثانية علامات النفاق

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » متفق عليه . زاد في رواية لمسلم : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم »

النفاق مخالفة الظاهر للباطن . والمنافق هو الذى يظهر خلاف ما يبطن — وهو نوعان اعتقادى وعملى « فالأول » أن يظهر الإسلام وهو يخفى الكفر . وكان هذا حال المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخبث أنواع الكفر وأشدّها خطراً قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وقال تعالى « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » وفى القرآن الحكيم كثير من فظائع منافق اليهود وفضائحهم — « والثانى » ترك المحافظة على أمور الدين سرّاً ومراعاتها علناً ، وهذا يسمى فى لسان الشرع نفاقاً ، كما جاء « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . وإما هو كفر دون كفر وفسوق دون فسوق . ونفاق دون نفاق . ومنه قول عمر لحذيفة رضى الله عنهما « هل تعلم فى شيئاً من النفاق ؟ قال لا^(١) » وتتفاوت مراتبه على قدر تفاوت آثاره فى الاجتماع . ومن البين أن أعمال الجوارح كلها مصدرها القلب . وأنها عنوان عليه ومعيار له صلاحاً وفساداً — لهذا جعل الشارع هذه الخصال الثلاث علامة على ما فى القلب من الخبث والفساد .

« الخصلة الأولى » الكذب فى القول . فإذا حدث غيره بشيء أخبر عنه بخلاف ما هو عليه قاصداً الكذب . ولا ريب أنه من قبائح الذنوب . وفواحش العيوب . معاقب عليه بالسقوط فى الدنيا والخزى فى الآخرة . فعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهتدى إلى البر وإن البر

(١) هذا عمر رضى الله عنه على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمة لنفسه رضى الله عنه وكل من كان أوفر عقلاً وأقوى ديناً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه إلا أن هذا قد عز فى هذا الزمان وجوده

يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا . متفق عليه . وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة . أصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم . واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » . رواه أحمد وابن حبان والبيهقي ورجاله ثقات . وقالت عائشة رضى الله عنها : « ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما تنجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث الله عز وجل منها توبة » . رواه أحمد وغيره ورجاله ثقات — وورد أن أعرابيا بايع النبي صلى الله عليه وسلم على تركه خصلة من الخصال المحرمة كالزنا والسرقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « دع الكذب » فصار كلامهم بسيئة قال كيف أصنع إن سألني النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فإن صدقته حدثني . وإن كذبتة فقد عاهدني على ترك الكذب . فكان سببا لترك الفواحش كلها وحسن توبته .

وهنا يبين للسامع أن من أقبح أنواع الكذب والفجور فى الخصومات بالليل عن الحق ودعوى الباطل والدفاع عنه — والحلف الكاذب لا سيما فيما يتعلق بالمعاملات وشهادة الزور . فى البخارى عن أبى بكره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالها ثلاثا . قالوا بلى يا رسول الله . قال : أكبر الكبائر . الإشراف بالله وعقوق الوالدين — وجلس وكان متكئا — ثم قال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » — وجلة القول أن من الخيانة أن تحدث أخاك بحديث هو لك فيه مصدق وأنت له به كاذب — وإن اللسان الأخرس خير من لسان ناطق بالكذب .

« الخصلة الثانية » إخلاف الوعد ، فكل من وعد إنساناً بخير في المستقبل ولم يف كان منافقاً . والإخلاف قد يكون فعلاً كما يكون قولاً ، وكله قبيح مذموم . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » هذا إذا وعد غيره وفي عزمه عدم الوفاء ، أما إذا كان عازماً حال الوعد على الوفاء ثم عرض له مانع أو بدله رأى فلا يعد ذلك من النفاق . ففي حديث الطبراني : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف . وحديث أبي داود وإذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يف له فلم يف فلا إثم عليه — ثم يبين مضار الإخلاف وآثاره السيئة في الدين والدنيا ، ويحث على الوفاء بنحو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فدفعها إليه فخرج في البحر فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار فرمى بها في البحر ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه فإذا بالخشبة فأخذها لأهله حطباً فلما نشرها وجد المال » . الحديث رواه البخاري بتمامه في باب الكفالة وقد تقدم في الفصل الثامن .

(الخصلة الثالثة) الخيانة في الأمانات بالتصرف فيها على خلاف ما يقتضيه الشرع الشريف ، وهي أيضاً قبيحة شرعاً وعقلاً ، ومن شر أنواع الخيانة الغدر في المعاهدات . وكل من تحالف مع إنسان على شيء ثم غدر كان منافقاً « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . فوبال ذلك عليه وحده قال تعالى : « ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تصنعون » . ومن الخيانة أيضاً إفشاء السرفاء حرام لما فيه من الإيذاء والنهائون بحقوق الإخوان والأصدقاء وإن خلا من الإيذاء فهو لؤم ودناءة — وهنا ينفر الناس من الغدر بأنه مما يعاقب عليه صاحبه في الدنيا قبل الآخرة ففي الحديث « خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة البغي والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعرفة لا يشكر » . روى من عدة طرق — ويحث الناس على التخلق بالصدق والوفاء والأمانة بنحو قول الإمام على رضي الله عنه « إن ملاك العقل ومكارم الأخلاق صون العرض ، وأداء الفرض

والوفاء بالعهد ، والإنجاز بالوعد . ومن حاول أمراً بالمعصية كان أقرب إلى ما يخافه وأبعد مما يرجو » :

وجملة القول أن للنفاق علامات كثيرة وهذه الخصال الثلاث تشمل جميعها . ذلك أن أصل الديانة منحصر في القول . والفعل . والنية . فنبه هذا الحديث الشريف على فساد القول بالكذب : وعلى فساد الفعل بالخيانة ، وعلى فساد النية بالخلف ، وإن هذه الخصال الثلاث أمارات النفاق والبحث في الباطن ، وصاحبها شبيه بالمنافق في هذه الخصال . ومتخلق بأخلاق المنافقين بإظهاره خلاف ما يبطن فكان منافقاً في حق من حدثه ووعدته وائتمنه ، وإن لم يكن منافقاً في الاعتقاد ، وأن كل خصلة يمكن أن يطبع عليها المؤمن إلا الكذب والخيانة ، فإنهما بالتطبع والاعتقاد — قال على رضى الله عنه . من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من التساهل في أمر هذه الخصال فتصبح لهم عادة خشية أن تفضى بهم إلى نفاق الكفر والعياذ بالله تعالى إذ كل من غلبت عليه ونهاون بها واستخف بأمرها كان فاسد الاعتقاد غالباً — أما من وقعت منه نادراً من غير اختيار أو اعتياد فلا ، متى تاب عنها وحسنت توبته . « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

الموعظة الثالثة الزواج وعادات الناس

في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ، ولجلالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

النكاح ركن عظيم من أركان الحياة الاجتماعية التي لأجلها خلق الله تعالى هذا النظام السكوني ، ووضعت لها القوانين العادلة والشرائع السماوية على اختلاف أنواعها ، فإنه السبب الأعظم في بقاء النوع الإنساني على أحسن وجه وأكمل نظام والوسيلة الشريفة لتكوين الأسر ؛ وسبيل إلى التآلف والتعاون بين أفراد الأمم ،

بل صلة الزواج أقوى صلة ، فإنه ينقل المودة بين أهل كل من الزوجين حتى يكون الكل ربطة واحدة وتصير كل عشيرة عوناً وعضداً للأخرى على درء المضار وجلب المنافع ، كما أنه موجب للعفة وحصن للنفس من الوقوع في المناهي وصيانة للمرأة عن الهلاك بالنفقة والسكنى واللباس : فإنها عاجزة عن الكسب لا تقوى على ما يأتيه الرجل من ضروب السعي وتحمل المشاق في سبيل الحصول على الزاد ومرافق الحياة وصيانة الأولاد أيضاً عن الهلاك ؛ فإنه لولا النكاح لاختلطت المياه واشتبهت الأنساب وضاعت الأولاد لعدم من يدعيها وهذا هو الواد الخفي ، بل أشد أنواع القتل — وبالجمل أن في النكاح فوائد جليلة ومصالح كثيرة من حفظ الفروج ودفع التباغض والتحاسد ، وقطع النزاع المنفعى إلى حدوث الفتن والاقتتال ، ففيه حفظ النوع البشري عن الهلاك والإنقراض وتكثير عدد الموحدين لله تعالى في أرضه على وجه يزيد في عمرانها وصلاحها ، هذا وقد جرت عادات الناس بأنهم يرغبون في زواج المرأة لواحد من الأغراض الآتية :

(لما لها) ولو كانت وضيفة دميعة فاجرة ؛ لأنها إذا كانت ذات مال فقد تستغنى بما لها عن مطالبة بعائها بما يحتاج إليه غيرها من النساء ، وقد يرزق منها بولد فيعود إليه مالها بالإرث ، (وهنا) يشرح للناس ما في ذلك من المتاعب وكدر العيش ، فإن ذات المال منهم طاغية ما لم يكن لها دين يمنعها عن الرذائل وسوء الخلق ، وما في ذلك من عكس الآية الإلهية ، فإنه تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام الولاية على الرعية ، وملك الرجل ناصية المرأة بأمرين . «أحدهما» وَهَبَ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» . من رجحان العقل وزيادة الدين والحظ في الميراث والقوة على الأعمال والجهاد وإقامة الشعائر وأهلية الولايات والنبوة والتزوج بأربع من النساء وانتساب الولد إليه «والثاني» كسبي ذكره تعالى بقوله : «وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» أي بسبب ما أخرجوا لنكاحهن من الأموال في المهور والنفقات . وبذلك كانت للرجال عليهن درجة ، فأولئك الذين يطلبون المرأة لما لها حتى ينفقوا ضعاف الثقة بالله ، رضوا لأنفسهم في سبيل هذا الخطام

القائى بالذل والإهانة إن تم لهم الانتفاع بما لها — وعلى الجملة : إن كان النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى إليه كان المال هو المنكوح فان اتفق معه أحد الأسباب الباعثة على الانتلاف جاز أن يثبت العقد وتدوم الألفة وأن تجرد عن غير المال . فأخلاق بالعقد أن ينحل وبالألفة أن تزول سيما إذا غلب الطمع وقل الوفاء .

« ولحسبها » أى شرفها والحسب فى الأصل الشرف بالآباء وبالأقارب : مأخوذ من الحساب لأنهم كانوا إذا تفاخروا عدوا مناقبهم ومآثر آبائهم وقومهم وحسبوها ، فيحكم لمن زاد عدده على غيره — وهنا يبين الحسب الممدوح والمذموم ويرغب فى الأول . وينفر من الثانى كما يحذر من طلب الدينثة كينت الزنا وبنت الفاسق واللقطة ومن لا يعرف لها أصل ، فانه مكروه . روى الحاكم « تحيروا لنطفكم فان العرق دساس » أى فلا تضعوها إلا فى أصل طاهر ، لأن العرق نزاع ينزع إلى أصل أمه وطبائعها ، وإجمالاً أنها سترى أولادها وتؤدبهم فاذا لم تكن من بيت شريف لم تحسن التأديب والتربية وكانت وبالا على بعلمها وعيالها .

« ولجمالها » لأن الجمال مطلوب فى كل شىء لا سيما فى المرأة التى تكون قرينة وعشيرة . روى الحاكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير النساء من تسر إذا نظرت وتطيع إذا أمرت » فان كان النكاح رغبة فى الجمال فذلك أدوم ألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ، فان سلم الجمال من الأدلال المفضى إلى الملال دامت الألفة واستحكمت الوصلة ، لكنهم كرهوا الجمال الباهر لما يحدث عنه من الأدلال المؤدى إلى الوقوع فى قبضة الأذلال .

« ولدينها » وهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها عن الخسائس وفرجها عن المحارم أزلت بزوجها وسودت وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه . فإن سلك سبيل الحمية والغيرة بقى فى بلاء ومحنة ، وإن تساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والألفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد وفتنتها عمياء ودهيتها صماء : إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، فهو إذاً فى نارين مبتلى ببلائين . وإن

كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه : ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين بقوله « فاظفر بذات الدين تربت يداك »

وهنا يذكر أن النساء على قسمين « صالحات » مطيعات لأزواجهن تصون عرضها وتحفظ مال زوجها في غيبته كما قال تعالى « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » وروى أبو داود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » .
ثم تلا هذه الآية : فالدنيا متساع وخير متاعها المرأة الصالحة : فإذا رزق العبد امرأة كذلك فليعلم أنها نعمة من الله سيقت إليه « وفاسدات » بليات مائلات مميلات كما قال تعالى « واللاتي تخافون نشوزهن » عصيانهن . وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز المكان المرتفع . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس . ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رموسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » « كاسيات » تستر بعض بدنهن وتكشف بعضه إظهاراً لجمالهن ونحوه أو تلبس ثوباً رقيقاً شفافاً يصف لونهن « مائلات » يمشين متبخترات « مميلات » لاكتافهن وقيل مائلات يمتشطن المشطة الميلاء وهى مشطة البغايا ومميلات يمتشطن غيرهن تلك المشطة « كأسنمة البخت » أى يعظمها بلف عصابة ونحوها « لم أرهما » أى فى حياته صلى الله عليه وسلم . والحديث من علامات النبوة . فقد وجد الصنفان فى هذا الزمان بالمشاهدة .

وجملة القول أن اللائق بذوى المروءة وأرباب الديانة أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شئ لا سيما فيما يدوم ويعظم خطره ، فلهذا اختاره صلى الله عليه وسلم بأكبر وجه وأبلغه حيث عبر بالظفر الذى هو غاية البغية ومنتهى الاختيار ، وبالطاب الدال على تضمن المطلوب انعمة عظيمة وفائدة جليلة ، فإن ذات الدين تريح الرجل

وتعينه على خيرى الدنيا والآخرة . روى ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً « لا تتزوجوا النساء الحسنهن ففسى حسنهن أن يردين ، ولا تتزوجوهن لأموالهن ففسى أموالهن أن تطعنهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » تربت يدك « إن خالفت ما أمرتك به وهى كلمة جارية على ألسنتهم لا يريدون بها حقيقة الدعاء والمقصود منها هنا الحث على ذات الدين فيوافق قوله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » إذ الصالح هو صاحب الدين . وهنا يبين أن المقصود من الحديث النهى عن مراعاة الجمال وغيره مجرداً عن الدين فلا ينافى استحباب ذلك فى المرأة بدليل أنه صلى الله عليه وسلم أمر من يريد التزوج بالنظر إلى المرأة قبل الخطبة ، وهو لا يفيد معرفة الدين وإنما يعرف به الجمال أو القبح ، فمن المعيرة رضى الله عنه « أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » رواه الترمذى وحسنه ويؤدم أن تدوم بينكما المودة والألفة — والسرفى كون ذلك قبل الخطبة أنه لو كان بعدها فلربما أعرض عنها فيؤذيها — وينظر الخاطب من الحرة الوجه والكفين فقط لأن الوجه يدل على الجمال والكفين على خصب البدن — وتماه فى كتاب الأبداع فى مضار الابتداع فى الفصل الحادى عشر فى بدع المعاشرة والعادات .

وينفر الناس من طلب المرأة لغير الدين ومن الغلو فى المهر بنحو قوله صلى الله عليه وسلم « من نسكح المرأة لما لها وجمالها حرم ما لها وجمالها ومن نسكحها لدينها رزقه الله ما لها وجمالها » وقوله صلى الله عليه وسلم « من تزوج امرأة أعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لما لها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . وقوله : « أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وقال عروة رضى الله عنه وأنا أقول من عندى : أول شؤمها أن يكثر صداقها .

ويبين أن على الولى أن يراعى خصال الزوج قال صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لاتفعلوا تسكن فتنة في الأرض وفساد كبير » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . فلا يزوج كريمته من ساء خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها . فإن النكاح رق فلينظر الرجل أين يضع كريمته . فالاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة ولا مخلص لها منه إلا سلطان الدين . ومن زوج ابنته فاسقاً أو سىء الخلق فقد جنى عليها . وأساء إليها . وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . قال رجل للحسن : قد خطب ابنتى جماعة فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتق الله فإنه إن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وفى الأثر من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها . وفى الحكم الماثورة لاتزوج كريمتك إلا من عاقل ذى دين إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها .

وهنا يبين ما لكل من الزوجين على الآخر من حقوق الزوجية كأن يقول له عليها أن لاتمنعه نفسها . وأن تطيع أمره . وأن لاتخرج إلا بإذنه . وإلا لعنها الله والملائكة حتى تتوب أو ترجع ، وأن لاتعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه وإلا كانت له الأجر وعليها الوزر . وأن لاتدخل فيه من يكره وأن لاتخونه فى نفسها أو ماله وأن تسكون قاعة منه بما قسم الله قل أو كثر . قاعة بخدمة الأولاد وإصلاح البيت بالمعروف كاتمة لسره قليلة المراجعة له .

ولها عليه النفقة والكسوة بحسب حاله . والسكنى بين قوم صالحين . وأن يتعلم ويعلمها ما تحتاج إليه من أمر دينها .

وهنا أيضاً يذكر أنه ينبغى للوالدين تعليم الأولاد حقوق الزوجية وآداب المعاشرة : فمتى عرف كل من الزوجين ماله وما عليه نحو صاحبه وقام كل منهما بواجبه كان ذلك بلاريب أدوم للألفة . وأبقى للهواء والصفاء .

وإليكم وصية أب حكيم لابنته عند زفافها : روى صاحب القوت واليهيقي فى الشعب عن أسماء بن خازجة الفزارى - وكان من حكماء العرب - أنه قال لابنته عند زفافها إلى زوجها « يا بنية قد كانت والدتك أحق بتأديبك منى أن لو كانت

باقية ، أما الآن فأنا أحق بتأديبك من غيرى فافهمى عنى ما أقول : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، وصرت الى فراش لاتعرفينه . وقرين لاتألفينه . فكونى له أرضاً مطيعة أو ذليلة منقادة : أو هيئة « يكن لك سماء » يظل عليك برأفته ورفعته أو يمطر عليك بإحسانه ونعمه « وكونى له مهاداً » فراشاً « يكن لك عماداً » تستندين إليه « وكونى له أمة يكن لك عبداً ولا تلحنى به » لاتلحنى عليه فى شىء « فيقلاك ولا تباعدى عنه » كناية عن امتناعها عنه فى الفراش « فينساك » يغفل عنك . فان من بعد عن العين بعد عن القلب « إن دنا منك فاذنى منه » بالمداغبة والانبساط « وإن نأى عنك » بقبض وهيبة « فابعدى عنه » أى كونى من قلتاته على حذر « واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك إلا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر إلا جميلاً ، زيننا . إشارة إلى حسن الهيئة » وكونى كما قلت لأملك ليلة ابتنائى بها »

خذ العفومنى تستدبى مودتى ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة فانك لاتدرين أين المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب باله وى فيأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب
هكذا تكون الآباء الرحاء والحكماء الأكياس .

ولما تزوج الحارث بن عمر ملك كندة ابنة عوف بن محم الشيبانى وأرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها :

أى بُنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال — أى بُنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلقت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك

دقيقاً ومليحاً — فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً ، يا بنية : احملني عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه . فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ ، وتنغيص النوم مَبْغَضَةٌ ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والأرعاء على نفسه وحشمه وعياله . فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والأرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تنشى له سرا ، ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمن غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان فَرِحًا ، والاكتئاب عنده إن كان فَرِحًا ؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقةً يكن أطول ما تكونين له مرافقةً واعلم أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يَخِيرُ لك . فحَمِلْتُ فسَلِمْتُ إليه فعَظُمَ موقعها منه ، وولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا اليمن بعده — وهكذا تكون الأمهات الفضليات وبالله تعالى التوفيق والهداية .

(نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية)

المحاضرة الأولى

سر مشروعية القتال في الإسلام

الحمد لله بين للناس سبل الاستقامة والهداية ، وأزال عن بصائر من أناب إليه غشاوة الضلالة والفتوة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وداعياً إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأرواحهم صابرين مخلصين ، فكانوا هم السادة الغالبين ، الفائزين المنصورين « أما بعد » فإننا سنتحدث إليكم الليلة والليالي بعدها إن شاء الله تعالى في أمر خطير يهم كل غيور على دينه أن يكون منه على بينة . ألا وهو « سر مشروعية القتال » في الدين الخفيف ، وقبل أن نتناوله بالبيان نسمعكم كلمة لا غنى عنها فنقول :

لا ريب في أن الدين الإسلامي قام على الحجة والبرهان ، وظهر على كل الأديان بقوة البيان وإعجاز القرآن . ولم يقم بالسيف والقوة ، والقهر والجبروت « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ولم يسَلْ دينُ الإسلام السيف من غمده إلا بعد اعتداء الأعداء ، وبغى الأشقياء على النبي وأصحابه ، ووقوفهم حجرة عثرة في طريق الدعوة إلى الحق ، وصدّهم عن سبيل الله ، وصراطه المستقيم . لقد علمت قريش وشاهدت وشهدت بأن سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها هو الصادق الأمين ، والطاهر المعصوم ، والمثل السكامل ، النقي السريرة ، الكريم النقيبة ، الحكيم الحكيم ، والشجاع الحليم الرحيم ، ولقد رأوا من دلائل نبوته ورسالته ، وآيات صدقه في دعوته مالا يدع مجالاً للريب ولا يترك موضعاً للشك في أمره صلوات الله وسلامه عليه — يعرفون عنه ذلك كما

يعرفون أبناءهم ، وعلموا من كماله ما لم يعلمه سواهم ، فلما جاءهم بالحق من ربه ، ودعاهم إلى الإسلام كبر عليهم ما دعاهم إليه ، وقابلوه بالسخرية والاستهزاء ، والأنكار والإيذاء له ولمن آمن معه ، ظلموا واعتدوا ، وتكبراً وعناداً « وجحدوا بها واستيقفتها أنفسهم ظلماً وعلواً » وهذا دأب المبطلين ، وديدن المبهوتين ، مع الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المصلحين في كل أمة « وقال الذين كفروا الرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو نعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين » رأى منهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ما رأى من السخرية والإيذاء ، والتكذيب والإنكار فصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ومضى في نشر دعوته ، وتبليغ رسالة ربه غير هيب ولا وجل ، ولم يبال بأذى ولا ضرر ولا وعد ولا وعيد ، يتلو عليهم القرآن ويقيم لهم الحجج والبراهين ، وتتوالى عليه الآيات ، ويشاهدون منه المعجزات .

ولما عاب آلهم . وسفه عقولهم - فإنهم كانوا إذا احتجوا في تماديهم على الباطل ، واستمرارهم على عدم اتباع الحق - ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقه له . كما قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وكقوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » وقال لهم : « يا قوم والله لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم لما عاب آلهم ثارت في رؤوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها تقليداً لآبائهم بلا عقل ولا روية ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أعدائه فطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم ، أو يخلى بينهم وبينه . فردهم أبو طالب رداً جميلاً . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريد لا يصدده عن مراده شيء . ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تقدم شيئاً تذا مروا وحض بعضهم بعضاً

عليه ، ثم رجعوا ثانياً إلى أبي طالب قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينزلوه وإياه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال : يا بن أخى إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبقى على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . فظن الرسول أن عمه خاذله ومُسْلِمُهُ ، وأنه ضَعُف عن نصرته والقيام معه « فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ثم استعبر وبكى » فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا بن أخى فلما أقبِل عليه قال له اذهب فقل ما أحبيت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً .

ولما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة له ولأصحابه ، فأما هو فقد أغروا به سفهاءهم - وهم العُدَّة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحاً - فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وهو ماض في سبيله يصارحهم بما يكرهون : من عيب دينهم وترك أوثانهم ، لا يبالي بما يصنع سفهاؤهم معه - وأما أصحابه فإن كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالإسلام بأنواع التعذيب الذي يفزع من ذكرها قلب الحليم وهم يحملونها بصبر عجيب .

الإيذاء له صلوات الله وسلامه عليه

لقد رأى رسول الله من المشركين كثيراً من الأذى خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكان من أكثرهم أذى له صلى الله عليه وسلم جماعة سُموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين : فأولهم وأشدّهم أبوجهل عمرو بن هشام بن المغيرة الخزومي القرشي . قال يوما : يا معشر قريش إن محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر لأطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف

ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقریش فی أُنْدِيَتِهِمْ ينتظرون ما يفعل أبو جهل ، فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه من الفزع ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قریش قالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط ، هم بي أن يأكلنى . فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذاك جبريل ولودنا لأخذه » .

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه البخارى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبه بن أبى معيط ابن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبی وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القدر فرمته عنه فلما قام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال : اللهم عليك الملائ من قریش وسمى أقواما قال ابن مسعود : فرأيتهم قتلوا يوم بدر - وبما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى جهل أن هذا اتباع أجمالا من رجل يقال له الأراشى فطلبه بأثامها ، فجاء الرجل مجمع قریش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله ، فدلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبى جهل ، استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول صلوات الله وسلامه عليه - فتوجه الرجل إليه وطلب منه المساعدة على أبى جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : من هذا ؟ قال : محمد . فخرج منتقع اللون ، فقال له الرسول : أعط هذا حقه - فقال أبو جهل : لا تبرح حتى تأخذه . فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قریش : ويحك يا أبا الحكم ! ما رأينا مثل ما صنعت . قال : ويلكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابى حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وأن فوق رأسى فخلا من الإبل ما رأيت مثله .

ومن جملة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله ، كان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى بالقذر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطرحه ويقول : « يا بني عبد مناف أى جوار هذا ؟ » وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتكلم فيه بالنمائم ، خصوصاً بعد أن نزل فيها وفى زوجها سورة الهمب .

ومن جملة المستهزئين عقبة بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعمل معه كأبى لهب : صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله وسلامه عليه : « والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله » فتشهد فبلغ ذلك أبى بن خلف الجحى القرشى المشهور - وكان صديقاً له - فقال : ما شئ يلفنى عنك ؟ قال : لا شئ ، دخل منزلى رجل شريف فأبى أن يأكل طعامى حتى أنهى له فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له . قال أبى : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبرق فى وجهه ، وتلطم عينه . فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك . فأنزل الله فى سورة الفرقان « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً » .

ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه قال : « بينما النبي يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنسكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وقال : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ »

وغيرهم كثيرون ؛ وكل هؤلاء قد انتقم الله منهم كما قال تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك بضيق .

صدرك بما يقولون ، فسيح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقد وضع جل ثناؤه الوعد في صورة الماضي لتحقق وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هؤلاء كان بعد الهجرة — فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لبب والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة .

وكما أودى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أذى أصحابه لاتباعهم له ، وخصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وترد عنه كيد عدوه ، وكل هذا الأذى كان حلاً في أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين . واقد أنجز لهم وعده في قوله جل ثناؤه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليسكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؛ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ومن أودى في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية بن خلف الجحى القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد لم يشغل ما هو فيه عن توحيد الله ، وكان أمية يخرج به وقت الظهيرة في الرمضاء الشديدة الحرارة ، لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد . مرة به أبو بكر يوماً فقال : يا أمية أما تتقي الله في هذا المسكين ، حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فاشتراه منه وأعتقه — ومنهم حمالة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدرى ما يقول ومنهم امرأة تسمى زينة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيماناً . ومنهم أم عيسى كانت أمة لبني زهرة ، وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث فاشترها منهم أبو بكر رضي الله عنه وأعتقها .

ومن عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : « صبراً آل ياسر فوعدكم الجنة . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت » . أما أبو عمار وأمه فأتتا تحت العذاب رحهما الله — وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فإن أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها — فقال المسلمون : كفر عمار فقال عليه الصلاة والسلام : « عمار ملئ بالآيمان من فرقه إلى قدمه » . وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جل ثناؤه : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب ولهم عذاب عظيم » . ومن أودى في الله خباب بن الأرت سبي في الجاهلية فاشتريته أم أنمار وكان حداداً وكان النبي يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار ؛ فتأتى بالحديدة المحمّاة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيماناً وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ : « فعمد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهه فقال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحالة الشديدة التي لا يتصور فيها أ عقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة ، اللهم إلا أن ذلك وحى يوحى إليه . ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين في قوله : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذى لحقه ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وقوة إيمانهم ، فإنهم لم يسلموا لغرض دينوى يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفقهم الله لإدراك الإيمان حقيقة فأروا كل شيء دونه سهلاً .

ولما اشتد الأذى بالمؤمنين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ففعلوا ، وتلك أول هجرة في الإسلام ، وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال وأربع نسوة ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، معهم من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار .

هل تظنون أنهم تركوا هؤلاء المهاجرين (لا والله) لم يتركوهم ، بل أرسلوا في أثرهم رجلين إلى الحبشة هما عبدالله بن أبي ربيعة ، وعمر بن العاص بالهدايا للنجاشي ملك الحبشة ، ولبطارقتهم وطلباً إليه رد هؤلاء إلى بلادهم ، لأنهم خطر عليه وعلى بلاده ، وبعد محاورة بينه وبينهما وبين المهاجرين لم يسمع لقلوبهما وأكرم وفادة المهاجرين واقتنع أنهم على الحق وإلى الحق يدعون .

وبعد ثلاثة أشهر رجع المهاجرون إلى مكة حيث لا يتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلوا العدد وفي الكثرة بعض الأذى ، وأضف إلى ذلك أنهم من أشرف قريش ومعهم نساؤهم . وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة . ثم هاجروا مرة ثانية إلى الحبشة هم ومن استطاع الهجرة ممن آمنوا فراراً بدينهم من الفتنة ، لما يلاقونه من بغى المشركين .

وبقى الرسول صلوات الله وسلامه عليه سائراً في طريق الدعوة صابراً على أذى غير مبال بما يضعونه أمام الدعوة من عقبات ، والله تعالى يعصمه منهم ويحرسه ، وهم يتقننون معه في ضروب الشر من نوع إلى نوع ، حتى لقد أجمعوا على مقاطعته ومقاطعة من آمن معه . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجهنهم ، ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشترون منهم شيئاً . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك . واستمروا على هذه المقاطعة سنتين لقي فيهما النبي وأصحابه صنوف الشدائد وأنواع العذاب .

ويدل على شدة ما لقيه الرسول والمؤمنون ونزل بهم من المشركين ما روته أم عبد الله بنت أبي خيثمة - قالت : والله إنا انزحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على - وهو يومئذ على شركه - فقال : إنه الإنطلاق

يا أم عبد الله . قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتموننا ، وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً — وبعد ماضا قوا بالنبي وأصحابه ذرعا ولم تنجع فيهم هذه الأعمال ، ولم تؤثر فيهم تلك الفظائع ، اجتمع المشركون في دار الندوة بمكة فتشاوروا ماذا يصنعون للخلاص من محمد وأصحابه ، فقرّر الرأي على ما قال أبو جهل عدو الله ورسوله وهو أن يختار من كل قبيلة شاب جلد نسيب وسيط ثم يجتمعون على باب محمد حتى إذا خرج ضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلهم . فعمينوا الفتيان والليلة واجتمعوا فأعلم الله رسوله بما بيتوا له وأمره بالهجرة إلى المدينة ، وذلك في السنة الثانية عشر من البعثة وهي السنة الثانية والخمسون من عمره صلى الله عليه وسلم وسنة ٦٢٢ من الميلاد ، وعصمه الله من المشركين أعداء الحق والدين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جعلوا يلحقون الأذى بمن بقي من أصحابه بمكة من مستضعفي المؤمنين الذين كانوا يقولون من هول ما يلاقون . « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وبالجملة هذا قليل من كثير مما لقيه الرسول وأصحابه من أذى شديد ، ومعاملة قاسية من أهل مكة العتاة الجابرة ، المردة الشياطين ، بعد مارأوا الآيات وشاهدوا المعجزات ، وسمعوا القرآن . فهل مثل هؤلاء يرجى منهم إيمان ، أو يؤمل فيهم خير (كلا) ، فما بعد هذا كله إلا السيف ، هو الذي يكسر شوكة كل شيطان مرید ويقطع دابر كل كفار أثيم . لذلك وجب القتال وشرع الجهاد ، لاحباً في دنيا ولا طمعا في مال ولا رغبة في سيادة ، بل شرع دفاعا عن الدين وأهله ، وحماية للدعوة إلى سبيل الله .

وقبل مشروعية القتال أسلم كثيرون من أعلام قريش ونسائها وشبابها ودخلوا في دين الله راضين مختارين موقنين بأنه الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده ، واختار لسعادة بنى الإنسان ، فأى داع دعا هؤلاء إلى اعتناقه سوى ما سمعوا من القرآن ،

وشاهدوا من المعجزات ، ولم يكن للرسول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ قوة ولا سطوة ، ونذكر لك هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آثروا العقل على الهوى ، ولم يشترخوا الضلالة بالهدى . فمنهم السيدة خديجة بنت خويلد وزيد بن حارثة ، أبو بكر الصديق ، علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، عمر بن الخطاب ، حمزة بن عبد المطلب ، طلحة بن عبيد الله ، سعد بن أبي وقاص ، أبو عبيدة عامر بن الجراح ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف ، أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، بلال بن رباح ، خباب بن الأثر ، عثمان بن مظعون ، سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب .

ولا يزال كثير من ذوي الرأي والمفكرين يعتنقون الدين الإسلامي معتقدين أنه الدين الحق لاسواه ، لا خوفا ولا رهبة في زماننا هذا الذي ضعفت فيه الشوكة وفترت فيه الدعوة ، مما يدل على أن هذا الدين يقوم على الحجة والبرهان لا على السيف والاكراه .

وإليكم ماجاء في مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم لتعلموا أن الأسباب التي لها شرع القتال ترجع إلى أمرين :

(الأول) الدفاع عن النفس عند الاعتداء (والثاني) الدفاع عن الدعوة إلى الله إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة المؤمنين بالأذى والتعذيب ليعودوا في ملة الكفر أو بمنع الداعي من التبليغ ، أو بصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه .

قال الله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » ذات هذه الآية الكريمة على أن الله عزت قدرته وجلت حكمته أذن المؤمنين في القتال

وبينت السبب في الأذن وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير موجب إلا الإيمان بالله وحده . ثم بينت حكمة الأذن بالقتال ، أى أنه لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا لهم حتى يكون لهم السلطان وتخرب أما كن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله في الأرض ذكر . فكان من رحمة الله بالناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين — ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف المصلحين الذين ينصرهم الله ما نصره الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض ذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — صوامع للرهبان ، بيع : كنائس النصراني صلوات : كنائس اليهود — مساجد للمسلمين .

وقال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وقاتلهم حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوك فيه ، فإن قاتلوك فاقتلهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » بينت هذه الآيات الأذن بالقتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوك في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم ، وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن ولا يؤذى فيه . وبينت أن الفتنة في الدين بالتعذيب والإخراج من الوطن أشد قبحاً من القتل إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه على اعتقاده الذي تمكن من قلبه ونفسه ورآه سعادة له في عاقبة أمره . ونهت عن الاعتداء وأعلنت أن الله يبغض المعتدين (٢٠)

وهم الذين يبدون غيرهم بالشر وبينت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي الزيادة فيه على ما فعله للبادي به .

وقال تعالى « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال (الأول) سبيل الله وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (الثاني) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين منه الخلاص . فهولاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم إيذاء الظالمين وتجعلهم أحراراً فيما يدينون وما يعتقدون — وقال تعالى « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » بينت هذه الآية حكم الله في المنافقين وهو النهي عن قتالهم متى امتنعوا عن قتال المؤمنين وسالموهم ، والأمر بقتالهم إن اشتركوا مع المشركين في فتنة المؤمنين في دينهم . فالسبب في القتال دفع الفتنة في الدين .

وقال جل وعلا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » بينت أن السبب في القتال هو فتنة المسلمين في دينهم والوقوف في طريق الدعوة — فأمرهم بالقتال إلى أن تزول الفتنة ، وتسير الدعوة في طريقها آمنة ، فيسلم الناس ويذهب الشرك ويصير الدين خالصاً لله وحده لا أثر فيه لخشية أحد ولا دهائه — وقال جل وعلا : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تفتنهم في الحرب فشردهم من خلفهم لعلمهم يذكرون » أفادت الآية أن السبب في القتال هو نقضهم العهد مرة بعد أخرى فأمر الله تعالى

نبيه أن يجاهدكم ويوقع بهم أشد النكال ليكونوا عبرة لغيرهم من المشركين فلا ينقضوا له عهداً ولا يعلنوا عليه حرباً — وقال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » بينت الآية أن السبب في القتال هو ميل المشركين إلى الحرب فإن مالوا إلى المسالمة وجب ألا يقاتلوا ، وإن خيف من خداعهم بإظهار الجنوح إلى السلام ليكف المسلمون عنهم فيأخذوهم على غرة فما النصر إلا من عند الله ، ولا يحقيق المكر السيء إلا بأهله — فترون من هذا أن الكتاب الحكيم يأمر أهله بالسلم ولو خيفت عاقبته .

وقال جل وعلا : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة . أنتخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » بينت هذه الآية أن سبب القتال تلك الجرائم — نقض العهود — الطعن في دين المسلمين — الممُّ بإخراج الرسول حين تأمروا عليه بدار الندوة — بدءوهم بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناقضون عهدهم آخرأً ، وأنتم قد أبيح لكم مجازاة المعتدى بالمثل .

كان اليهود قد مالوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوهم في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بموجبها ، فأمر المسلمون بقتالهم . وفي ذلك جاء قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فالسبب في قتالهم هو نقضهم عهد الرسول بمعاونتهم لأعدائه ، ووقوفهم في سبيل الدعوة ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق وهو الإسلام — وقال تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » المراد بهم أيضاً اليهود حول المدينة وهم بنو قريظة وبنو النضير ويهود خيبر ، لأنهم نقضوا العهد وحرّضوا العرب وأعانواهم على المسلمين في غزوة الأحزاب فالسبب هو نقض العهد .

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمالئونهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب الحكيم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ » . متفق عليه فإن المراد بهم المشركون ومن على شاكلتهم كالجوس — وذلك أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الإسلام مالا يقاومها سواهم وكان استقرار الدين من غير دخول مشرك جزيرة العرب في الإسلام ضرباً من المحال — وإذا لم تغد العقاقير فأخر الدواء السكي — .

هذا ما جاء في الكتاب الحكيم خاصاً بأمر الجهاد ، وكله صريح في أنه لم يشرع إلا دفاعاً عن النفس أو تأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها ، وأعلن أنه لم يجيء معتدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يحنح إلى سلم من سلمه . ومما يؤيد تلك الروح السلبية ويوضحها قوله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » وبالله تعالى التوفيق والهداية .

المحاضرة الثانية

الرق في الإسلام

وقبل الكلام عليه نذكر معنى الحرية والمساواة في نظر الإسلام فنقول :
الحرية خلوص الإنسان من ضيق الحجز وتمتعه بكل حق إنساني قضى به الشرع
وسوّغه العقل ، وهي حق طَبْعِي للإنسان إذا حرم منه فقد سلب إرادته وفقد
إنسانيته ، لهذا قررها الإسلام ورفع من شأنها ، وصانها من العبث بها وجعل الإنسان
حر النفس ، حر العقل .

حرية النفس

قرر الاسلام للناس حرية نفوسهم وصانهم من ذل العبودية إلا الله تعالى ،
ومن الخضوع إلا لشرعه القويم ، فلا سلطان لأحد من رؤساء الدين والدنيا على روح
المسلم : ولا سيطرة لهم على سريره . ولا واسطة بينه وبين ربه إلا العمل بكتابه ،
وما بينه رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يقدر أحد من هؤلاء على حرمانه من
ثواب الله ورحمته ما دام مستقيماً على طريقته ، ولا يملكون غفران خطيئته إذا خالف
أمر ربه ، بل ذلك كله لله وحده : يقول الله تعالى مبيناً وظيفة الرسل صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين .

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فلا سيطرة لهم على سرائر الناس
وليس لهم حق إكراههم وإجبارهم ، بل أمرهم إلى الله بعد تبشيرهم وإنذارهم . ويقول
عز وجل لمحمد صلوات الله وسلامه عليه « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »
وقال له : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وقال تعالى : « نحن أعلم بما يقولون »
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وقام صلوات الله وسلامه عليه
حين أنزل عليه : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يا معشر قريش اشتروا
أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ! لا أغني عنكم من الله

شيئاً ، يا عباس عمّ رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمّة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً « متفق عليه .

نعم تجب على المسلمين طاعة الرسول وأولى الأمر ولكن فيما ينفذون من شرع الله تعالى لأنها طاعة له جل وعلا ، أما في غير ذلك فقد كان للصحابة حرية الرأى مع الرسول في المصالح العامة التي لم ينزل فيها وحى ، وكان صلوات الله وسلامه عليه ينزل على رأى الواحد منهم إذا تبين له صوابه . يدل على هذا مشروعية المشاورة في الأمور الدنيوية فإنه لا تكون مشاورة إلا مع حرية الرأى . وقد كانوا كذلك في عهد الخلفاء الراشدين : عليهم الطاعة فيما أمر الله تعالى ولهم الحرية فيما وراء ذلك ، وهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول في أول خطبة له بعد الخلافة : أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، وفيها يقول : أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . ومن خطبة عمر رضى الله عنه : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه . فقام إليه رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه . فانظر إلى أى حد بلغت حرية الضمائر فى المسلمين فى الصدر الأول وبها عزوا وسادوا :

حرية العقل : كما جعل الإسلام الناس أحرار النفوس أطلق لهم حرية العقول ، فأباح التفكير فى ملكوت السموات والأرض بل حث على ذلك وجعل النظر الصحيح أساس الاعتقاد الصحيح وأثنى القرآن الكريم على الذاكرين المتفكرين ونهى على الغافلين الضالين . فقال فى الأولين : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم . ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فبقنا عذاب النار » وقال فى الآخرين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نبتع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » والقرآن الكريم

كله يناشد العقل يُهيب به إلى التفكير والتأمل ويحفزه إلى البحث ليستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع جل وعلا ، وليتعلم ويتفكر وينتفع بما خلق الله في السموات والأرض وما أودع الكون من أسرار ومنافع — يُهيب يدعو . يحفز يدفع .

المساواة في نظر الدين

احترم الاسلام النفوس والعقول وكفل لها حريتها كما علمت . وبذلك تقرر مبدأ المساواة على أكمل وجه . فأصبح المسلمون به إخوانا متساوين في الحقوق والواجبات ، كلهم يحترم النفس والعرض والمال وكلهم مسئول أمام القانون الإلهي العادل عما قدمت يداه « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً » لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى ولا غنى وفقير ولا ملك وسوقة ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أنكر الإسلام التمايز بين الشعوب والتفاخر بالأنساب والتكاثر بالأولياء والأنصار ، والتطاول بالجاه أو المال . بل سوى الإسلام بين المسلم وغير المسلم إذا دخل في ذمة المسلمين . فإن له حينئذ ما لهم وعليه ما عليهم . وقد أثبت الكتاب الحكيم مبدأ المساواة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وتجلى في كلام الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكلام أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . وصدق فيه القول العمل قال صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » متفق عليه ، وقال صلوات الله وسلامه عليه حين جاءه أسامة بن زيد يشفع في المرأة الخزومية التي وجب عليها حد السرقة : « أنشفع في حد من حدود الله عز وجل ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » متفق عليه . وقال في حجة الوداع : « أيها الناس من أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ومن ضربته ضربة فليقتص منى قبل يوم القيامة » . متفق عليه . وقال في أهل الذمة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وقال أبو بكر رضى الله عنه من خطبة له : ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى أخذ الحق منه — وكتب

عمر رضى الله عنه إلى عماله بالأمصار يقول : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى - وقد أفاد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من نفسه لما أصاب بطن رجل بزج الرمح فخرجه فقال له : « تعال فاقصص » . فعفا عنه - وكذلك فعل أبو بكر وعمر فقد جاء رجل إلى أبي بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر : إنه استحملني فحملته فبلغني أنه باعه . ثم قال للرجل : دونك فاقصص . فعفا عنه - وضرب عمر جارية لسعد بن أبي وقاص بالدرة فساء ذلك سعداً فناولوه عمر الدرة وقال له : استقد . فعفا عنه - هذا شيء يسير من أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه والخليفتين من بعده وأعمالهم . يمثل لك مبلغ احترامهم للمساواة وعنايتهم بتقريرها بين الناس قبل أن يدب ديب الأثرة والاستبداد في النفوس ، وبتقرير الاسلام الحرية والمساواة شعرت النفوس باستقلالها وعزتها وسيادتها وظهرت مواهب كثير من المسلمين في العلم والحرب والسياسة واستروح الناس عبير العدل يسطع من ناحية الجزيرة العربية حتى عم الأقطار التي فتحها المسلمون وتمتع أهل تلك الأقطار - من أسلم منهم ومن لم يسلم ودخل في ذمة المسلمين - بحرية لم ينعم الناس بمثلها في عصر من العصور - هذا والآن نبين سرّ مشروعية الرق في الاسلام .

قد عرفت معنى الحرية والمساواة في نظر الدين ، وما لهما من منزلة : فإن قيل لك إذا كان الاسلام قد رفع من شأنهما وجعل الناس سواء في الحقوق فما باله أباح الرق وأن يكون الآدمي عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، فلا يملك ولا يتصرف إلا بإذن سيده ، وهل الرق إلا قتل للحرية ، وأهدار للآدمية وهدم لمبدأ المساواة فنقول إن الاسترقاق كان عادة فاشية في الأمم السابقة على الإسلام ، فالفرس واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والمصريون كل هؤلاء كانوا يسترقون وكان الرق يضرب لأسباب كثيرة في قوانين تلك الأمم (منها) الأسر في الحرب أياً كان الغرض منها ، وكان اليونان والرومان يعدون الأمم المغلوبة عبيداً . وكان القانون الروماني يبيح ضرب الرق على بعض المذنبين ، كما كان الاسترقاق أيضاً يتخطف

النساء والأطفال — وكانت معاملة الرقيق في غاية القسوة والشدة يكلف أشق الأعمال ويعاقب أشد العقاب على الهفوة يهفوها ، ولسيده أن يبقية أو يقتله لا يسأل عما يفعل — وقد أمرت التوراة بالرق — ولم يجرمه الدين المسيحي ، وسكت عيسى عليه السلام عن الوصية بالأرقاء بل جاء في بعض رسائل الخواريين أمر العبيد بطاعة سادتهم في كل شيء جاء الإسلام والاسترقاق كما بينا عادة متمكنة في النفوس وبناء الجمعية البشرية قائم على سواعد الأرقاء في أكثر الأعمال . فلم يكن من الحكمة في التشريع إبطال الرق دفعة واحدة ولا إلزام من يسلم وفي ملكه رقيق بإعتاقه ، لما في ذلك من الأضرار بالسادة والعبيد معا ، إذ فيه اختلال مصالح الأولين وتضييع الآخرين (نعم) لم يُبطل الإسلام الرق ولكنه أوجب الرق بالأرقاء والإحسان في معاملتهم مما لم يرد مثله ولا ما يدانيه في قانون ولا شريعة سابقة .

وإليك بعض ما جاء في ذلك من الكتاب الحكيم والسنة الشريفة قال الله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » وعن بعض الصحابة قال : رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الأرقاء وهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه متفق عليه . وعن ابن مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي يقول : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود ، فألقيت السوط من يدي . فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبداً » . رواه مسلم وغيره وقال صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة » . أخرجه في الجامع الصغير وابن عساكر عن ابن عمر — وقد توفي صلوات الله وسلامه عليه

وهو يقول : « اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم » . أخرجه الخطيب عن أم سلمة .

على أن الإسلام قد رغب في تحرير الرقاب وإزالة الرق عنها بطرق شتى (منها) أنه جعل للأرقاء من الزكاة نصيباً يفتدون به أنفسهم من سادتهم قال الله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (ومنها) أنه أمر بالاعتاق وجعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة لا يجزى غيره عنه عند القدرة عليه . فقال تعالى في كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » ثم يقول : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » فانظر كيف جعل الاعتاق هو الواجب الأول في تكفير ذنب القتل خطأ — وقال تعالى في كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا » وجعله أيضاً أحد المكفرات للحنث في اليمين بالله حيث قال جل وعلا : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » (ومنها) أنه جعل الاعتاق من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمه فقال تعالى ممتناً على الإنسان : « ألم يجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب اليمين » فجعل إعتاق الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم المرء بشكر نعم الله المتتالية . بل أمر السادة بإعانة العبيد والإماء بشيء من المال على أداء نجوم الكتابة إذا علموا فيهم أمانة وقدرة على الكسب فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » يستعينون به في أداء ما التزموه لكم وفي معنى الأداء حظ شيء مما التزموه عنهم — والكتاب المكاتبه —

ورسول الله رغب كثيراً في تحرير الرقاب ، قال صلوات الله وسلامه عليه :
 « أيما رجل أعتق إمرأً مسلماً استنقذ الله تعالى بكل عضو منه عضواً من النار »
 رواه البخاري . استنقذ خلّص . وعن أبي نجیح السلمي رضي الله عنه قال : سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من
 النار » رواه أبو داود والنسائي . وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال : « أيما امرئ مسلم أعتق امرأً مسلماً كان فكاه من النار ، يجزي
 كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاه
 من النار ، يجزي كل عضو منهما عضواً منه » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح —
 وكان السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم يتقربون إلى الله تعالى بعتق مواليتهم
 حتى لقد كان بعضهم يخرج عما يملك من العبيد ، وبعضهم يشتري الأرقاء
 ليحررهم لا يستخدمهم .

مما تقدم تعلم أن الإسلام شديد العناية بالرقيق . عظيم الرغبة في حريته (نعم)
 أباح الاسترقاق ولكن في حالة واحدة لا ثانية لها ، فإذا وقعت حرب شرعية بين
 المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعتدون عليهم ويفتنونهم في دينهم ويصدونهم عن
 سبيل الله ، وأسّر المسلمون من أعدائهم فإن للإمام أن يضرب الرق عليهم ، وله
 أن يمن عليهم ويخلى سبيلهم ، وله أن يفتدي بهم أسرى المسلمين ، يفعل من ذلك
 ما يرى فيه المصلحة . وإنما أبيع الرق في هذه الحال حياطة للدين . وكسراً لشوكة
 من يريد إيذاء المسلمين ، وإطفاء نور الإسلام ، وليستدرج الأرقاء إلى تعاليم الإسلام
 بما يكون من حياتهم بين المسلمين حتى إذا ما اعتنقوا الدين الإسلامي كان أحب
 شيء إلى الله تعالى ردهم إلى الحرية — ومن تدبر الأمر وجد أن الرق الشرعي قد
 بطل من زمان بعيد بزوال سببه وهو الأسر في قتال مشروع يراد به الدفاع عن
 الدين وحماية الدعوة إلى الإسلام فإن الإسلام قد توطدت دعائمه وثبتت تعاليمه ،
 فلم تقع حرب دينية من قرون مضت وإنما هي حروب سياسية تثيرها الأهواء
 والمطامع . وضرب الرق على أسراها لا يجوز بحال — كما لا يجوز استعباد الأحرار

بأى سبب آخر : فما كان يفعله النخاسون من بيع الأطفال والنساء المخطوفات قد حرمه الإسلام وتوعد عليه قبل أن تحرمه الحضارة الغربية بثلاثة عشر قرناً — قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر . ورجل باع حراً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى ولم يوفه أجره » . رواه البخارى وابن ماجه .

وصفة القول أن الإسلام لم يبطل الرق الذى كان فاشياً فى الأمم وقت ظهوره رعاية للمصلحة العامة ، ولكنه عطف على الأرقاء وأمر بالإحسان فى معاملتهم ، ورغب فى الاعتاق وأوجبه فى بعض الأحوال . وهو وإن أجاز الرق فى الحال التى ذكرناها لم يوجبه بل أباحه إذا كان فيه مصلحة . وحرم اختطاف الأحرار واستعبادهم والانجاء بهم . ومن تدبر هذه المبادئ علم أن الإسلام يكره الرق كراهة شديدة ولذا ضيق دائرته ولم يبيحه إلا بسبب واحد حياطة للدين ، وأنه يجب الحرية ، ولهذا رغب فى الاعتاق وأثاب عليه وأوجبه فى أحوال كثيرة وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الثالثة

سر تعدد الزوجات

قد كثر طعن المخالفين فى الدين الإسلامى من أجل ما أباحته الشريعة من الزوج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون أسرار الشريعة الفراء وماحوته من الحكم البالغة المعقولة ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما هو براء منه .

كان تعدد الزوجات عادة شائعة فى العوب وسائر الأمم الشرقية وكان شره فيهم مستطيراً ؛ فأنهم لم يكونوا يتقيدون فيه بعدد ، ولا يراعون عدلاً بين الزوجات ، فكان ذلك مما أصلحه الإسلام ، فلم يمنعه منعاً باتاً ، لما فى المنع من الحرج ، ولم

يتركه فوضى كما كان ، بل أباحه إلى أربع وشرط للحل شرطاً وثيقاً وهو العدل بين الزوجات في المعاملة ، قال الله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فتراه قد شرط إباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً في تحريم التعدد ، فمن لم يأنس من نفسه أن يقوم بالقسط بين زوجاته لايتاح له التعدد ويجب عليه الإقتصار على واحدة « نعم » إن الأصل في التزاوج التوحد ، فيه يتم سكنون كل من الزوجين إلى الآخر ، ويستقيم أمرهما ويهنأ عيشهما وتسعد أولادهما ولكن قد تدعوا الحاجة إلى التعدد وتقتضيه المصلحة . ولا يمكن لأحد أن ينكر كثيراً من الأحوال التي تقتضي ذلك . واللائق بشريعة اجتماعية هي خاتمة الشرائع أن تبيح ما فيه تيسير للناس ومنفعة عظيمة لهم ، مع حياطه بما يمنع ضرره أو يحففه إن كان فيه شيء من المضار .

أما كون التعدد من حاجات الاجتماع في بعض الأحوال فيظهر في أمور كثيرة « منها » أن رجلاً تزوج امرأة فأصابها مرض غير مرجو الشفاء ماتت منه شهوتها وأصبح بعلمها تعاف نفسه أن يواقعها ، وليس لها من يعولها إذا فارقها زوجها ، ولا يرغب غيره في زواجها ، فلا يكون من الوفاء طلاقها ، ولا يكون من المصلحة منع الزوج من التزوج بغيرها مع بقائها لئلا يحرم النسل المقصود من الزواج « ومنها » رجل تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض إلى خمسة عشر يوماً أو استمر بها دم الإستحاضة معظم حياتها « ومنها » رجل تكره امرأته المباشرة أو تتألم منها في كثير من أشهر الحمل — فأمثال هؤلاء إما أن يصبروا مع العنت والمشقة « وقليل الصابرون » وإما أن يأتوا الفاحشة — وأولئك هم العادون الخاطئون — وكل عاقل يرى أن تعدد الزوجات مهما كان فيه من الضرر الذي يظنه الخالف مهما كان فهو أسلم عاقبة من إتيان الفاحشة التي تؤدي إلى خراب العالم وانتشار الأمراض الخبيثة في الأمة « ومنها » أن عدد النساء قد يزيد على عدد الرجال في الأمم ولا سيما في أعقاب الحروب التي تأتي على كثير من الرجال فإذا لم يبح للرجل أن يتزوج

بأكثر من واحدة أفضى ذلك إلى تعطيل عدد كثير من النساء ومنعهن من النسل ، وقد يصبح كثير منهن بغير كافل يقوم بشئونه ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المضار ، وفي أحوال الأم التي زاد فيها عدد الأناث على الذكور اليوم عبء للمعتبر . فظهر مما تقدم أن التعدد قد أبيع لما فيه من المصلحة للرجال والنساء ، وأنه مضيق فيه جداً باشتراط العدل لأنه قلما يتحقق ، وما لم يتحقق العدل يكون التعدد حراماً - هذا . وإن كثيراً من المسلمين لم يرع هذا الشرط بل قد يقصد بعضهم إلى الزوج بثنائية انتقاماً من الأولى أو ضرراً بها وإغاظة لها ، وبثلاثة ورابعة كذلك حتى أدى ذلك إلى مقاسد كثيرة وهذا مادعا بعض من لم يفهم حقيقة الإسلام إلى الطعن فيه وينعى عليه إباحة التعدد مع أن الدين من عمل هؤلاء المضارين برىء . ولكن الحق أبلج يظهر ولو بعد حين ، فقد عرف فضل إباحة التعدد كثير ممن كانوا يعيبونه من الغربيين وقام من رجالهم ونسائهم من يدعوا إليه في صفوفهم وغيرها وإليك ما كتبتة فاضلة انجليزية ملخصاً .

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك وإذا كنت امرأة ترانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزننا وماذا عسى أن يفيدهن بئى وحزنى وتوجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لافائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ، والله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل للشفاء » وهو إباحة الزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الوسطة يزول البلاء لا محالة وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ولا بد من تفاهم الشر إذا لم يبيع للرجل الزوج بأكثر من واحدة . وصدق الله العظيم قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

وصفوة القول أن تعدد الزوجات هو عين الرحمة بل عين الحكمة التى اهتدى بها قوم وضل بها آخرون - وأعجب من إنكار تعدد الزوجات أمر الرهبانية التى

ابتدعوها حتى قضت في الأعصر الحالية على كثير من العقول الزكية وحرمتهم
لذة الحياة من غير ما ذنب ، ولم يعد منها أدنى فائدة على عالم الحياة الدنيا - ومنشأ
تلك الرهبانية كان إما تقليداً للمسيح عليه السلام أو التفرغ المطلق إلى عبادة الحق
تعالى ،^(١) ولا يزال الكاثوليك يتمسكون بالرهبانية ويقبحون الزواج ويزدرون
المتزوج معتقدين أنه دنس نفسه بميله إلى الشهوات الحيوانية ، وقالوا : إن المسيح
عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته ، وقارنوا بينه وبين محمد
صلوات الله وسلامه عليه القائل : « من رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه .
وبمثل هذا كانت منسوخة في شريعته فلا رهبانية في الإسلام . وانتهى بهم الأمر
إلى النيل من كرامة نبيينا الصادق الأمين قائلين شتان بين من غلب على نفسه
وبين من استرسل مع هواها فأرضاهها - ولا يخفى بطلان هذه الدعوى فإنه لا تنافي
بين الصلاح والزواج ، وقد تزوجت الرسل قبله وهم أولوا النفوس الزكية والههم العلية
بشهادة قوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » على
أن تقليد السيد المسيح في الرهبانية يفضي إلى خراب البيوت وفناء الأمم وانقراض
النوع الإنساني . ولا يخفى أن هذا يناقض مقتضيات الخلافة والعمران . وهادم لنظام
الأكران « من يهتدي الله فماله من مضل ومن يضلل الله فماله من هاد » .

المحاضرة الرابعة

سر تعدد زوجات المصطفى

كثيراً ما يتساءل الناس : لماذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع
نسوة جمعاً ومنع الأمة من الزيادة على الأربع ؟ فإن قلتم : إن الله هو الذي عمل
ذلك بنص الكتاب والسنة وهذه خصوصية للنبي صلوات الله وسلامه عليه . قلنا :
نعم ولكن المخالف لا يصدق الكتاب والسنة ، ويقول المخالف : إن منزلة النبوة

(١) راجع كتاب الابداع في مبحث تفسير البدعة الى حقيقة وإضافة .

التي ادعاها محمد كان يجب أن تحول بينه وبين إكثاره من عدد الزوجات . فنقول له : إن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لم يكن فيما فعله بدعا من الرسل فذاذك داود وسليمان عليهما السلام قد تزوجا كثيراً من النساء وهما ذاك الرسولان اللذان لا يسع عاقلاً إنكار نبوتهما أو احتقار شريعتهما وما أتيا به من الصحف السماوية . ونذكر لك في زوجات المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ما لو تدبره عاقل منصف لرجع عن غيه واهتدى إلى الصواب فنقول :

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص ما ليس لأمته ، وذكروا أشياء منها تجاوزته بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشروطه كما تقدم ، وغير خاف أن هذا لا يكفي لاقناع المخالف الذي ندّد بالنبي صلى الله عليه وسلم فنذكر لك من أسباب ذلك خلاصة عادلة من الكتب الصحيحة والتاريخ الصادق توافق الواقع ويرضاها العقل السليم .

فاعلم أن أول أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان سنّها أربعين سنة ، وكان صداقها عشرين بكرة من الإبل . ولم يتزوج عليها النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفيت رضي الله عنها ، وكانت متزوجة قبله برجل اسمه (هند) وولدت منه ولداً اسمه (هالة) فكان ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وسبب زواجها به أنه لما قدم غلامها (ميسرة) إلى سيدته خديجة اللبينة الحازمة وأخبرها بما شاهدته من بركات النبي صلوات الله وسلامه عليه بعثت هي إليه فقالت له : يا بن عمي إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وصدق حديثك — وكانت خديجة مرغوباً فيها لشرف نسبها ورفعة قدرها بين قومها — فعرض النبي صلوات الله وسلامه عليه الأمر على أعمامه فوافقوه على زواجه بها وتوجهوا معه إليها وأنموا عقد الزواج بينهما على ما هو معروف في كتب السير .

وقد قضى النبي صلوات الله وسلامه عليه شبابه وطائفة من كهولته ولا زوج له إلا خديجة . ماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت معه

خمساً وعشرين سنة ، ولدت له فيها جميع أولاده سوى إبراهيم . فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو في أول عنفوان شبابه ، وقد كانت العرب يكثر من الزوجات ، حتى إن منهم من كان تحته العشر والعشرون امرأة في وقت واحد فلو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه لاتخذ من الزوجات من شاء خصوصاً من الأبنكار ، وهو في أول شبابه واستكمال قواه ، لاشرع يحول بينه وبين بغيته ، ولا عادة تمنعه من قضاء مآربه وتمتعه بلذة الحياة — ولا سيما وقد كان مرغوباً فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم الأخلاق وحيد الخصال والجمال الذي فاق به يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(الثانية) بعد أن ماتت خديجة رضى الله عنها تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن جاوزت الخامسة والخمسين ، وقد كانت من السابقين إلى الإيمان وهاجرت مع زوجها السكران بن عمرو الأنصاري إلى الحبشة في المرة الثانية . مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة وقد كانت أسلمت قبل ذلك وخالفت قومها وأقاربها وبنى عمها ، فما أجل ما فعله النبي صلوات الله وسلامه عليه من الرحمة بها وتعويضها خيراً مما ضاع منها ، بل هو عين الحكمة ومنتهى الشفقة والحنان ، فقد مات عنها زوجها وأصبحت لا حامى لها ولا مدافع عنها سوى أقاربها الذين خالفت دينهم وأسلمت رغم أنوفهم ، فكان تزوج المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بها حماية لها أن تصل إليها يد الأذى ، كما كان ذلك أكبر سلوان لها على فقد بعلمها ، ولولا ذلك لارتدت على أعقابها خاسرة لتوالى الحزن وكثرة الفتن التي كانت تحيط بها كما يشهد بذلك التاريخ العادل .

(الثالثة عائشة رضى الله عنها) مات أبو طالب لشهر من موت خديجة رضى الله عنها وبموته فقد النبي صلوات الله وسلامه عليه رجلاً كان يناضل عنه ويصد عنه هجمات الأعداء ما استطاع ، فبعد موته أخذ الأمر يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى أن يجعل بينه وبين قريش رابطة قوية فعقد على السيدة عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنه ، وهى بكر صغيرة بين السادسة والسابعة من عمرها — ذلك أن

(٢١)

أباها الصديق رضى الله تعالى عنه كان صدرا وجيها معظما فى قرىش ، واسع المال عزيز الجانب . يرشدك إلى ذلك مبادرة النبى صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع أنها قاصر ، وأنه لم يدخل بها إلا وهى بنت تسع سنين ، فلم تكن بالعقد عليها محلا لقضاء شىء من المآرب الشهوية حتى يميل إليها نظر النبى صلوات الله وسلامه عليه أو غيره — ولكنه نظر الحكمة والسداد الذى أيد الله به رسوله الأكرم وحبيبه الأمين الأعظم .

(الرابعة حفصة) وهذا الاعتبار هو الذى دعاه إلى التزوج بحفصة بنت عمر ، ومكانة عمر فى العرب معروفة ، فلم يتزوج النبى من حفصة لحب أو لرغبة وإنما لم يكن أواصر هذه الجماعة الإسلامية ، ولأنه قد استشهد زوجها الأنصارى خنث ابن حذافة فى واقعة بدر ، وحفصة كانت مواسية للجرحى فى الميدان . فكان ذلك الزواج مرضاة للشهيد وزوجته ووالدها أجمعين .

(الخامسة أم حبيبة) — ومن هذا القبيل تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب الأموى وتسمى « هنداً » . أورملة « وهى التى نبذت دين أمها هند وأبيها أبى سفيان فحل قرىش . زعيم القوم وكبير العشيرة . أبى معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها تكنى ، فتنصر زوجها هناك وثبتت هى على الإسلام ثم مات زوجها هناك أيضا ، فكتب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى النجاشى ليزوجها إياها ، فأبلغها النجاشى ذلك فسر خاطرها سرورا لا يعرف مقدارَه إلا مولاهما الذى يعلم السر وأخفى ، فأكرمها ولطف بها . والذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة . وكل من اطلع على التاريخ واهتدى منه إلى الصواب يعلم مقدار ما كان بين النبى صلوات الله وسلامه عليه وبين بنى أمية من العداوة ، كما يعلم أنه قد كان أبو سفيان والد معاوية ألد بنى أمية عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فإنه لم يعتنق الدين الإسلامى إلا بعد أن فعل بالمسلمين كل ما قدر عليه من أنواع الإيذاء الشديد ،

فتزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه أم حبيبة ليكون بينه وبين أعدائه نسب وراية « تكون له في الجملة » وسيلة إلى حملهم على تقليل الأذى عنه وعن المسلمين ، كما أنه اختارها لنفسه لأنها خرجت من ديارها فارة بدينها حبا فيه وخوفا عليه ففى عدم حمايتها ووقايتها « وقد مات زوجها » تعرض إلى مقاساة الشدائد والأهوال واختارها لنفسه أيضاً لشرفها فى قومها ، فلو أنها زوجت من غير كفاء لاتخذ بنو أمية ذلك سبيلا إلى إثارة الفتن بين القبائل وإيقاد نار الحرب بأغراء قومهم وحلفائهم بالمسلمين على قلة عددهم وضعف عددهم — فما أجملها من هداية ، وما أكرمها من حكمة .

(السادسة جويرية) كانت الأسرى من النساء يتخذن إماء إما للبيع وإما للخدمة ، لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شيء ، ولما فزن بنعمة العتق فأراد النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يعلم المسلمين بالعمل بنفسه ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الأسرى من التحرير والكرامة ، وأن يصون سيدات البيوت ، فمن ذلك تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بجويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق واسمها (بُرّة) فقد كانت من سبايا بنى المصطلق فتزوجها بعد أن أعتقها ليقتدى به المسلمون فأعتقوا من كان بأيديهم من نساء بنى المصطلق إكراما لمصاهرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لهم . فأسلم بنو المصطلق جميعا فكانت (جويرية) رضى الله عنها أيمن امرأة على قومها — فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما ، فوعدت جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فى سهم ثابت بن قيس ، فجاءت إلى الرسول فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومى ، وقد أصابنى من الأمر ما قد علمت ، وقد كاتبنى ثابت على تسع أواق فأعنى على فكأكى . فقال : أو خير من ذلك ؟ فقالت : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله : قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون ؟ فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبي بنى المصطلق ، فبلغ عتقهم

مائة بيت بتزوجه عليه الصلاة والسلام إياها « متفق عليه — فانظر إلى ما قصد الرسول من تزوجه بها فياله من صنيع مليء رحمة وحكمة .

(السابعة صفية) ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ومن أشرف بيوت اليهود ، ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت ممن اصطفاها صلى الله عليه وسلم من الغنائم . فعن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : « لما دخلت صفية على النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله إن الله يقول في كتابه « ولا تزرن أزوة أزواجهن قبلكن » فقال لها رسول : اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك . فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ، حيث صرت إلى رحلك ومالى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ ، وخيرتنى الكفر والإسلام فאלله ورسوله أحب إلى من العتق وأن أرجع إلى قومي . قال : فأمسكها رسول الله لنفسه « رواه غير واحد . وقد رضيته بعلا مع أنه كان لها أن ترجع إلى أهلها بعد العتق .

(الثامنة أم سلمة) المسماة (هنداً) زوج أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم وهى (برة) بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع مات أبو سلمة ومعهما أربع بنات : برة وسلمة وعمرة ودرة . فأواها النبي صلوات الله وسلامه وعليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت : إنى امرأة مسنة ، وإنى أم أيتام ، وإنى شديدة الغيرة ، فأجابها على لسان رسوله يقول : الأيتام أضمتهم إلى ، وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهديات والعقبات من أقوى الدواعى للأسراع فى طلبها وعطفها عليها ورحمة بيناتها وصلة لرحمها ، ووفاء بحق أخيه من الرضاع ، وإيواء لصغاره من بعده — ولا ريب أن هذا الصنيع عين الحكمة ونهاية الكرم .

(التاسعة زينب ابنة جحش) ومما حوى من الحكم أعلاه ومن المصالح أغلاه تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزينب ابنة جحش امرأة مولاه زيد بن حارثة الذى

تبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد — ذلك أن زينب كانت بنت عمه النبي أميمة بنت عبد المطلب ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر ، حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إياها وإباء أخيها عبد الله بن جحش ، وعدّ هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها آية « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » فكانه أرغمها على زواجه بما ألهه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك — ولو كان للجمال سلطان على قلبه لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في رواثه وجدته مع نقاء رحمها وطيب فيها ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغب لنفسه ورغبها لمولاه ، فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية — لم يعرف فيما يقرب على مألوف البشر أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب إلى أن تبلغ حد العشق خصوصاً إذا كان معاشراً له من صغره بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض متى تعاشرُوا فكيف يظن أو يتوهم أن النبي صلوات الله وسلامه عليه الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وخاطبه بقوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ، أم كيف يخطر بالبال أن من عصمه الله ظاهراً وباطناً وحفظ قلبه من كل دنيسة يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ، ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وهو الرؤوف الرحيم لم يبال بإباء زينب ونفورها من زيد وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة ، فما كان يصح له وهو سيد المصالحين أن يكره امرأة على التزوج برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين ، لولا أن النبي صلوات الله وسلامه عليه يجد من نفسه أن هذا التزوج مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم إلهي فيه رحمة للأمة ، وذلك أن

التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه بالشرف والحسب فكانوا يعطون الدّعى جميع حقوق الابن ويُجْزَوْنَ عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها لابن حتى في الميراث وحرمة النسب ، وهي عادة جاهلية رديئة ، أراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب إلا الحق للصريح ولا يجري من أحكامه إلا ما له أساس صحيح ، لهذا أنزل الله « وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .
ثم قال : « ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » فهذا هو العدل الالهي ألا ينال حق الابن إلا من يكون ابناً . أما المتبني فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين : فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدّعى لمن تبناه وأن يجعلوا له شيئاً من حقوق الابن ، وشدد الأمر حتى قال : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو عن الكلمة تصدر من غير قصد كأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني لا عن قصد التبني ، ولكنه لا يعفو عن الذي يقصد منه الاتصاف بتلك اللحمة ، كما كان معروفاً من قبل ، وكان من عادة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يبادر في كثير من شرائعه إلى إقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالاً صالحاً تتأسى به النفوس وتقتدى به الأمم ، وحتى يمحى أثر تلك العادة السخيفة التي كانت شر وبال على أهلها ، من ذلك مسألة الحاق في الحديبية وكيف خالفه جميع الصحابة حتى حلق فاقصدوا به .
وعلى هذه السنة كان تزوجه صلوات الله وسلامه عليه بزینب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط تلك العادة السيئة كما ألغى حكمها بالقول الفصل — لهذا أرغم النبي صلوات الله وسلامه عليه — زینب أن تتزوج يزيد وهو مولاه ومتبناه . وبعد أن صارت زینب إلى زيد لم يذهب إياؤها الأول وجفوتها له ولم تحسن أخلاقها معه بل شمتت بأنفها خيلاء وكبرا إذ كانت من صميم قریش وهو مولاها ، وصارت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه أصلاً وأصرح منه حرية ، لأنه لم يجر عليها رقی كما جرى عليه . فاشتكى منها إلى النبي المرة بعد المرة

وهو عليه الصلاة والسلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتمهل ويتأنى في تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد : « أمسك عليك زوجك واتق الله » .

ولامه الله على ما كتم في نفسه من أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال تعالى « وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » فكان عليك أن تبادر بتنفيذ كلمته وتقرر شرعه ، إلا أن زيدا لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة المردولة ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقا دون مخالفتها كما قال « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناهما لئلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لأدعيائهم ، وأكد ذلك بالتصريح في نفس الشبهة بقوله « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » وقد قالت العرب إذ ذاك : تزوج محمد حليمة ابنه . وأما قولهم إن النبي صلوات الله وسلامه عليه رأى زينب بعد أن تزوجت يزيد فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب فسمعت التسيبحة فنقلتها إلى زيد فوقع في قلبه أن يطلقها . إلى آخر ما حكموه : فقد قال الإمام أبو بكر بن العربي : إنه باطل لا يصح النظر إليه فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن هناك حجاب يمنعها منه فكيف تنشأ معه وينشأ معها وينظرها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله ، فكيف يتجدد الهوى بعد العدم ؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات ١٥ باختصار .

(العاشرة) — وتزوج صلوات الله وسلامه عليه وهو بمكة لعمره القضاء ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ولا يخفى ما فى ذلك من البر وحسن الصلة . وقصارى القول هكذا كانت سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه فى جميع تزوجاته فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أملاك لشهوته منه وقت كان فتياً لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله ، لولا أن الله تعالى جعله سيد الصابرين أولى العزم وأن زواجه بهن لم يكن عن شهوة ، بل كان ذلك مواساة لهن وحفظاً لشرفهن وشرف أزواجهن الذين تركوهن وهم صرعى فى ميادين الجهاد — وكيف يظن عاقل أنه صلوات الله وسلامه عليه — وقد بلغ من سمو والعلو الغاية — يتزوج مثل سودة بنت زمعة التى تفوقه سناً إلا ليحفظ للمجاهدين والمجاهدات فضاهم وفضلهم ، فليت شعرى أى شهوة وأى غرام وإعما هو الكمال والأباء والشرف وحسن الخلق والمكافأة بحسن الصنيع .

هذا كله على فرض أن النبي صلوات الله وسلامه عليه تزوج هؤلاء السيدات وهن سودة بنت زمعة . عائشة . أم حبيبة . حفصة . جويرية . صفية . أم سلمة . زينب . ميمونة . بعد تحريم ما زاد على الأربع بقوله تعالى « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » أما إذا كان قبل ذلك كما قال بعض المحققين فلا حاجة بنا إلى التماس شيء من تلك الأسباب . على أن ميمونة بنت الحارث الهلالية كانت آخر من تزوج النبي صلوات الله وسلامه عليه وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد .

ولك أن تقول إن الله تعالى بعد ذلك كله حرم عليه أن يتزوج غيرهن ، وأن يستبدل بهن أزواجا فكان للمسلم بكل من الأربع غيرها بحيث يطلقها ويتزوج غيرها والرسول محرم عليه ذلك . قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مَلَكَت يمينك وكان الله على كل شيء

رقيباً « أى لا يجوز لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له زواج أخرى ولا أن تبدل بهن من أزواج فتطلق واحدة وتزوج أخرى مكانها — وقال بن عباس : إن النبي لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكرهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن — فتبين من هذا أن القانون قد عامله بالشدة فجعل لمن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقاً ولا استبدالاً فكثرة العدد تقابل الحصر والمنع — وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالاً وطلاقاً فلئن ضيق عليهم في الحكم فقد ضيق عليه في الكيف . ولئن وسع عليه في الحكم فقد وسع عليهم في الكيف فالمساواة متعادلة ضيقاً وسعة — والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المحاضرة الخامسة

الحث على الوفاء والتنفيذ من الأخلاف

الوفاء والإيفاء الأتيان بالشئ وافيّاً تاماً غير منقوص ، ومنه قوله تعالى « وأوفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » وقوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ويقال لمن لم يوف الكيل والميزان : أخسر الكيل والميزان . ولم يف بالعهد : غدر ونقض . فلكل كلمة موضع يليق بها — والعهد الذى أمرنا بالوفاء به عبارة عما يلتزم به الإنسان لغيره وهو بعمومه يتناول ما عاهد الله عليه العبد بمقتضى الأيمان من السمع والطاعة والاذعان لكل ما جاء به الدين الحنيف من الأوامر والنواهي ويتناول أيضاً كل ما يلتزمه العبد باختياره فيما بينه وبين العباد في عقود المعاوضات من الشروط ، وكذا الوعود العامة بين الأفراد ، وأنواع التحالفات التى تبرم بين الأمم والشعوب ، وإجمالاً هو كل ما يعهد إليه لأجل احترامه والحفاظة عليه ويطلب منه القيام به ، ويراد به فى الغالب ما يعاهد الناس بعضهم عليه — وعهد الله كل ما عهد إلى عباده رعايته وحفظه والقيام به والتلبس به من جميع التكاليف

الشرعية ، اعتقادات ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاق فاضلة ، فهو مرادف لمطلق العهد — والعقد في الأصل ضد الحل وهو الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض — ويستعمل في الأجسام كعقد الحبل وعقد البناء ، ثم يستعار للمعاني كعقد البيع والعهد وغيرها ، ومنه عقدة النكاح — ويقال عقد اليمين وعقد النكاح أبرمه ، وعقد البيع أو الشركة مع فلان — ويقال عاقده وعاهدته ، وتعاهدنا وتعاهدنا أبرمنا ذلك وأمضيناه فهو على هذا مرادف للعهد ، وبعضهم يفرق بينهما بأن في العقد معنى الاستيثاق والشد ولا يكون إلا بين اثنين — وأما العهد فقد ينفرد به الواحد ، والوعد في الأصل الخبر بالخير في المستقبل . وشاع استعماله في العهد —

فضله وأثره في الأفراد والأمم — ثم إن الوفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض وألزم الواجبات التي فرضها العليم الخبير حفظاً لنظام المعيشة وبقاء لل عمران بدوام الثقة ورواج الصناعات والتجارات ، وتبادل المنافع الحيوية التي لاغنى عنها بين الأفراد والأمم ، وإن الفسد والأخلاف لمن الذنوب الهادمة للنظام المقوضه لدعائم العمران ، القاتلة للأمم والشعوب ، وما فقدت أمة الوفاء بالعهد الذي هو ركن الأمانة ، وقوام الصدق في المعاملات إلا وحل بها من أنواع العقاب الإلهي ما تستحق : ولا يعجل الله الانتقام من الأمم لسيئة من السيئات تفشو فيها مثل سيئة الأخلاق بالعهد ، والأخلاف بالوعد ، الذي هو شر أنواع الكذب ، وأخف ضرر الخيانة .

أنظر حال أمة استهانت بالإيفاء بالعهود ولم تبال بالالتزام بالعقود ، تركيف حل بها عذاب الله بالأذلال والاهانة ، وفقد الاستقلال وضياح الثقة بينها حتى في الأهل والعيال ، فهم يعيشون عيشة الأفراد متفرقين ضعفاء ، لاعيشة الأمم مجتمعين أقوياء ، وحوش مفترسة في صورة بني الانسان ، كل يخاف الآخر أن يغتاله ، ويأكل ماله ، ولذا يضطر كل واحد منهم إذا تعاقد مع أي إنسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر عليه ، ويحتوس من غدره بكل ما أمكن ، حتى قل فيهم التحاب والتعاقد والتعاون ، والتناصر والتآزر في المشاريع النافعة التي تعود عليهم

بالنفع العميم ، والخير العظيم ، بل استبدلوا هذه الفضائل السامية أضدادها الوضيعة كالتمحاسد والتباغض ، والتخاذل والتخاصم ، بأسهم بينهم شديد ، واسكنهم أذى كالعبيد ، ولو كان في الناس وفاء لسلموا من كل هذه البلايا والمصائب وكانوا أسعد الناس وأرقى الأمم .

من أجل هذا جاء الحث عليه في الكتاب والسنة فقال تعالى ترغيباً في التحلى بفضيلة الوفاء ، وتنفيراً من الأخلاف « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » وقال جل شأنه « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون » وقال جل ثناؤه « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » فأوجب على المؤمن أن يحترم الوفاء بما تعاقد عليه مع غيره وارتبط به ، وقال جل ذكره في صفات البررة الكاملين « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وهم الذين إذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا أنجزوا وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة إلى أهلها ، وإذا نذروا وفوا ، وإذا حلفوا لم يحنثوا ، وإذا تعاقدوا لم يغرروا . وما جاء في التنفير من خلف الوعد ونقض العهد قول العليم الحكيم « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » والمقت أشد البغض . وهذا يتناول نقض العهد كما يتناول الكذب في القول . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » متفق عليه . فجعل خلف الوعد من أمارات النفاق العملى وهو التظاهر بالتدين مع تركه باطناً — وهذا إذا وعد غيره وفي نيته عدم الوفاء ، أما إذا كان حال الوعد عازماً على الوفاء ولكن عرض له مانع منه أو بدا له رأى فلا يذم ، فقد روى الطبراني أنه صلوات الله وسلامه عليه قال : « إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف » . لأنه حينئذ يظهر خلاف ما يبطن وهذا كذب وغش وخيانة .

وحسبنا أن الله جل ثناؤه أثنى على إسماعيل عليه السلام بقوله « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » قدم صدق الوعد على

الرسالة والنبوة لأنه لا يمكن أن ينال الرسالة والنبوة من لم يتحل بهذه الصفة الجليلة — صدق الوعد — فهي كالمقدمة لهما ، فقد وعد إسماعيل أباه الخليل عليهما السلام أن يصبر على الذبح فوفى بوعده — ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى في الوفاء . روى « أنه وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحي بيدي . فذكر الرسول وعده لأبي الهيثم فجعل يقول : كيف بوعدي لأبي الهيثم ؟ فأثره بالخادم على ابنته فاطمة وفاء للوعد مع شدة حاجتها إليه إذ كانت تدير الرحي بيدها الكريمة » — وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع في قبضته الهرمزان فأمر بقتله ، فطلب إليه شربة ماء فأتى له بها فطلب الأمان حتى يشرب ، فلما : أعطاه أمير المؤمنين الأمان أراق الماء على الأرض وامتنع عن الشرب وقال : الوفاء نور أبلج . فلم يسمع عمر رضى الله عنه إلا أن يخلى سبيله . وبعد ذلك أسلم الهرمزان فقال له عمر : ويحك أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامي كان جزعا — والأنصار رضى الله عنهم مثل أعلى في الوفاء أيضاً ، فقد بايعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على نصرته ، فلم ينكثوا وضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل نصرته — قال زيد بن ثابت : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال : إن رأيته فأقرنه مني السلام وقل له : كيف نجدك ؟ قال : فأتيته وهو في آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم . فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : إني في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى السلام وقل : إن سعد بن الربيع يقول جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل إني أجد ريح الجنة ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله تعالى إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه وفيكم عين تطرف . ثم لم يبرح أن مات ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره » .

وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أعرابياً نصيبه وقال : قسمته لك . فقال ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى حلقه — فأموت وأدخل الجنة . ثم أتى بالرجل قد أصابه سهم حيث أشار وكفن في جبة النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه « — رواه البخارى ومسلم .

والوفاء في ذاته معقول الفائدة وحسن لدى العقول السليمة ، لذا كانت العرب في الجاهلية يقدرونه قدره ويرفعون من شأن من اشتهر به . حتى كانوا يضربون بهم الأمثال ويلهجون بذكرهم في الأندية والجمعات ، ويترنمون بمدحهم وحسن الثناء عليهم ، وينقادون لأوامر الأوفياء انقياء العبيد للسلادة . ومن اشتهر بينهم بالوفاء السموءل بن عدياء . وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر الرومان استودع السموءل دروعه . فلما مات امرؤ القيس طلبها منه ملك من ملوك الشام وهو الحارث بن المنذر فأبى ، فعزاه من أجلها فتحرز منه السموءل فأخذ ذلك الملك ابنه خارج الحصن وصاح قائلاً : يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه ، فإن دفعت إلى الدروع وإلا ذبحت ابنك . فقال السموءل : أجلنى . فأجله فجمع أهل بيته وشاورهم في الأمر فكل أشاروا بدفع الدروع إليه وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح أشرف عليه وقال : ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه — وكان يهوديا — وانصرف الملك ووافى السموءل الموسم بالدروع فدفعها إلى ورثة امرئ القيس — فانظر كيف فرط وتهاون في فلذة كبده ومهجة قلبه وتركه لذلك الملك الجائر القاسى حتى فجعه فيه وذبحه أمامه ، ولم يفرط في تلك الدروع — فلا غرابة إذا طار صيته في الآفاق ، ولا عجب إذا كانوا يضربون به المثل فيقولون — أوفى من السموءل بن عدياء —

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم يؤسه — وكان له يومان يوم يؤس ويوم نعيم ، لم يلقه أحد في يوم يؤسه إلا قتله وأرداه ، ولا في يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه — فلقية يوم يؤسه

أعرابي من طيء فقال : حيا الله الملك إن لي صبية صفاراً لم أوص بهم أحداً ، وقد تركتهم على شفا تاف من الجوع ، وقد خرجت مبكراً في طلب صيد لهم ، ففتح الله على بهذا الأرنب آخر اليوم ، فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم وله على عهد الله أن أرجع إليه إذا أطعمتهم وأوصيت بهم حتى أضع يدي في يده . فرق له النعمان وقال له : لا إلا أن يضمّنك رجل ممن معنا ، فإن لم تأت قتلناه بدلا منك . وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل ، فنظر إليه الطائي وقال له : يا شريك بن عمرو وهل من الموت محالة . يا أخا كل مضاف . يا أخا من لا أخاله ، يا أخا النعمان . فك اليوم عن شيخ غلاله . ابن شيبان قبيل أصلح الله فعاله . فقال شريك : هو على أصلح الله الملك ، فمضى الطائي وأجل له أجلا يأتي فيه ، فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكا وجعل يقول له إن صدر النهار قد ولى ، وشريك يقول : ليس لك على سبيل حتى تمسى . فلما جاء المساء ظهر شبح من بعد والنعمان ينظر إلى شريك فقال شريك : ليس لك على سبيل حتى يدنوا ذلك الشخص فعله صاحبي ، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان للطائي . أما أنت يا أعرابي لم تدع لأحد في الوفاء سبيلا ، وأما أنت يا شريك فلم تترك لأحد في الجود سبيلا — وفي رواية : والله ما رأيت أكرم منكما وما أدرى أيكما أكرم . أهذا الذي ضمنك وهو الموت ؟ أم أنت وقد رجعت إلى القتل ؟ والله لا أكون أنا الأم الثلاثة . ثم أطلقه وأمر برفع يوم يؤسه وأنشد الطائي :

ولقد دعيتي للخلاف عشيرتي فأبيتُ عند تجمُّم الأقوال

إني امرؤ مني الوفاء سجيّة وفعال كل مهذب مفضال

قال النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف مهجتك ؟ قال : ديني .

وقال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب لما أيقن بزوال ملكه : قد احتججتُ إلى أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بي فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد مماتي . فقال عبد الحميد : إن الذي أمرت به أنفع

الأشياء لك ، وأقبحها بي ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فهذا من حسن الوفاء وصدق الإيمان ، فإن عبد الحميد قد أثبت عليه مروءته ومنعه أدبه أن يتظاهر بالغدر لأميره حتى لا يوصم بعار الغدر ، وإن كان فى ذلك وفاء لمولاه ، ولكنه رآه وفاء لا يصل إليه إلا من طريق الغدر المشين ، فأباه وعاهد أميره على أن يظل معه حتى يأتى الفرج أو يموت معه — فما أحسن هذا الأباء ، وما أجمل هذا الأدب والوفاء .

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد أن صالحه وكتب له بذلك كتاباً وأشهد عليه قال لرجل كان يستشير ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : ما رأيك فى الذى كان منى ؟ قال : أمر قد فات دركه . قال : لتقولن . قال حزم لوقتله وحييت : قال أو لست بحى ؟ قال ليس بحى من وقف نفسه موقفاً لا يوثق له فيه بعهد ولا بعقد . قال عبد الملك : كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت وهذا أيضاً مثل أعلى فى الوفاء — وفيه ثلاثة أمور (الأول) أن المستشار كان شجاعاً فى الحق ؛ مخلصاً للخليفة ، فقد جهر بالحق ولم يكتمه . (الثانى) أن الذى لا يوثق له بعهد ولا بعقد ميت ، وإن كان حياً ، لأن الحياة الصحيحة حياة النفس حياة الضمير لا حياة الجسم ، وناكث العهد لا ضمير له (الثالث) أن الخليفة خضع لسلطان الحق حين ظهر له ، وندم على ما كان منه ، ولم ير النصيح مراً على نفسه والفضل فى ذلك كله يرجع إل الدين الحنيف وسلطانه على نفوس الأمراء والفضلاء ولن تقوم للأمم الإسلامية قائمة إلا إذا رجعت إلى الدين ، وتمسكت به وعملت بأحكامه وتحات بأدابه . اللهم وفق الأمة إلى طريق الهدى والرشد يارحم يارحيم .

المحاضرة السادسة

إعداد النشء ليكونوا رجالاً

الحمد لله خلقنا وسوانا ، وعلى موائد بره وكرمه ربانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه : « وإنك

لعل خلق عظيم » وعلى آله وصحبه الذين صلحت قلوبهم وتهذبت أخلاقهم فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وكانوا هم الفائزين الغالبين .

(و بعد) فإننا سنتحدث إليكم في موضوع له شأنه وخطره في حياتنا الاجتماعية ألا وهو « إعداد النشء ليكونوا رجالا كاملين ناهضين » فنقول : مقدمات :

١ - لا ريب في أن الإنسان مجبول على حب البقاء ، بل البقاء أحب شيء إليه ، وأشهى شيء لديه ، ولكنه يعلم أنه لا محالة هالك ، وأنه لا بد لوجوده من نهاية . من أجل هذا اقتضت إرادة الله عزت قدرته وجلت حكمته ، أن يجعل له في نسله بعض العوض عن ذلك ، فإنه يرى بقاءه مستمرا في نسله ، وذكراه لم تنقطع بذريته ، فلا يتندم على جهاده في معترك الحياة ، ولا يأسف على مفارقة ما جمعه من مال وعقار ، لعله أنه تركه لخلفه الذي هو جزء منه ، فكأنه هو الذي يستمتع به ، وكأنه باق لم يلحقه فناء ، وهذا كله مسلم لدى جميع العقلاء ، فالكل يحب الولد لأنه يرى فيه بقاء لذكراه ، ويوقن أنه خليفته في هذه الحياة .

٢ - كل إنسان يشعر بالحاجة إلى معين مخلص ، ومساعد أمين يحمل عنه بعضاً من متاع الحياة ، ويكون عُذته عند النوائب ، وردءاً له في الشدائد ، ولا أحد أجدر من الولد بثقة الوالدين في هذا المعنى . لهذا كان حب الذرية غريزة قوية في الإنسان « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » .

٣ - محبة الذرية كغيرها من المشتهيات تارة تكون ممدوحة ، وتارة تكون مذمومة . والأشياء بمآلها وآثارها ، فالممدوحة ما تؤول إلى الخير ، وتفضي إلى نفع المجتمع وبناء العمران ، ولهذا رغب صلوات الله وسلامه عليه في نكاح الولود ، وحذر من زواج العقيم ، روى أبو داود وغيره من حديث معقل بن بشار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له : تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثركم بكم الأم »

والمذمومة ما تؤول إلى الشر ، وتفضى إلى ضرر الاجتماع وفساد العمران : بارتكاب المظالم ؛ وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات لأجلهم ، ومن سوء تربيتهم .

هذا وإن تربية النشء تربية حسنة حكيمة من أهم الفرائض ، وألزم الواجبات التي لا يصح أصلاً التهاون فيها ، لشدة خطرها ، وعظم مسئوليتها ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » . أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وغيرهم من حديث علي رضي الله عنه في معنى الآية قال : « علموا أنفسكم ، وأهليكم الخير ، وأديبهم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصي الله ، ومروا أولادكم بامثال الأوامر ، واجتنب النواهي ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار » . وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الزموا أولادكم ، وأحسنوا أديبهم » فهذا الحديث الشريف أوجب على الآباء مراقبة الأولاد مراقبة دقيقة ، وتأديبهم أحسن الأدب . فعلى الأبوين أن يقوموا بهذه المراقبة داخل البيت وخارجه : يحبان إليه النافع من الأعمال ، والطيب من الأخلاق ، وينفرائه من الضار منهما بقدر ما يسعه إدراكه . وروى البيهقي عن أبي رافع « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لا يرزقه إلا طيباً » والصبي أمانة في عنق والديه يسألان عنها في عرصات القيامة ، وقلبه الطاهر جوهرة نقية خالية من كل نقش وصورة ، فهو قابل لكل ما ينقش فيه ويغرس ، قبول العجينة في يد الخباز ، ومستعد للتوجه به إلى أى جهة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإما أبواه يهودانه وينصرانه ، ويمجسانه » متفق عليه من حديث أبي هريرة . ومعناه أنه يولد على نوع من الجبلّة والطبع المنهى لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد بحكم البيئة — ثم تمثل بأولاد اليهود وغيرهم في اتباعهم لأبائهم والميل إلى أديانهم انحرافاً عن مقتضى الفطرة السليمة — فإن عود الخير (٢٢)

وعلمه نشأ عليه ، وكان سعيداً في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك في نفسه ، وكان شقاء و بلاء على أمته ، وكان الوزر في رقبة ولي أمره والقيم عليه .

وأول ما يجب العناية به من أمر الطفل أن يختار له حاضنة مهذبة ومرضعاً صالحة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا خير فيه ولا بركة ، فإذا نشأ منه الطفل اعجنت طبيئته من الخبث فيميل طبعه إلى الخبائث ، وهذا سر تحريم لحوم السباع والوحوش من الطير والبهائم ، فإذا فصل من الرضاع لوحظ في تربيته ما يأتي (١) من واجب الوالدين أن يُعوّداً الطفل على القليل من الغذاء . وبحولاً بينه وبين تناول كل ما يميل إليه من ألوان الأطعمة ، فإن أول ما يغلب على الصبي شهوة الطعام والشره في الأكل وذا مضرّ به . (٢) أن يمنعاه من النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل . (٣) يمنعانه من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بطريق الخيلة ، بل يُعلم أن الرفعة في الإعطاء ، والدناءة في الأخذ إن كان الأخذ من أولاد الأغنياء ، وإلا فهو لؤم وخسة . كما يمنع من الحلف رأساً صادقاً أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك من الصغر . (٤) يعلمانه آداب المجالس وإذا ظهر منه فعل حميد أو خلق جميل كالصدق والعفة والشجاعة مدح به وجوزى عليه بما يشجعه على المثابرة عليه ، وإن ظهر منه فعل ذميم أو خلق قبيح كالكذب والخيانة والجن ، ذمه أمامه ، وأتبه عليه (٥) عندما يبلغ حد التمييز بحولان بينه وبين مخالطة الأشرار وفاسدى الأخلاق وغشيان الملامى وأما كن الخلاعة والفسوق ، ومحبيان إليه الاشتغال بما يفيد وينفعه في دينه ودنياه . من صناعة أو تجارة أو زراعة ، مع تعويده على القيام بالفرائض الدينية بعد تعليمه واجباتها وآدابها^(١) (٦) أن يترك له فرصة للرياضة حتى لا يسأم العمل وأن يتغاضى عما فرط منه من الهنات الهينة التي لا تؤدي إلى فساد نفسه وخلقه إذا فعلها خفية

(١) فقد روى الترمذى من حديث عمر وابن شعيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مهروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » .

وكان يحجل من إظهارها ، وإلا وجب تأنيبه عليها كي لا ينشأ على الوقاحة ، وعدم
المبالاة بارتكاب المحازى . (٧) أن يضرب له الأمثال بالأولاد العاملين المجدين ،
والشجعان المهبذين وما وصلوا إليه من رقى وسعادة بفضل جدهم واستقامتهم ،
وبالأولاد المهملين الكسالى ، والجبناء الأشرار ، مبيناً له سبب تأخرهم وشقايتهم .
(٨) اجتناب الضرب والتهديد ، فقد ينتجان عكس المطلوب . ويتركان أثراً سيئاً
فى نفس الولد ، فضلاً عما يحدثان فيها من الجبن والكذب ، والخيالات الفاسدة .
نعم ! إذا رأى المربي أنه لا يفيد فى العلام إلا الزجر ولا يصلحه إلا التخويف
فلا بأس به لكن بقدر الحاجة من غير إفراط . وعلى الجملة فالمربي كالطبيب الحاذق
الذى يعرف العلة ويصف لها ما يناسبها من الدواء . ولكن لابد من المراقبة الفعلية
والملازمة العملية ؛ التى يفيدها الحديث الآتى على أى حال . (٩) مما يجب التنبه له
قيام الأبوين بتنفيذ الخطة التى رسمها للولد عملياً بملازمتهم له ملازمة تامة فى تنفيذها
كما يشير إليه هذا الحديث الشريف : « الزموا أولادكم » . فلا يكفى مجرد الترغيب
والترهيب بالقول وضرب الأمثال . (١٠) إذا بلغ الصبى حد الشهوة اشتدت المراقبة
حرصاً على سلامة دينه وصحته وعقله ، ومحافظة على أخلاقه وحياته ومستقبله . وأهم
ما تعالج به هذه الحالة هو شغله بعمل من أعمال الحياة ، وصرفه عن كل ما يثير الشهوة
وبيعثها من مرقدها ، فإذا درج على ذلك وتعود سهل عليه قطع هذه المرحلة آمناً
على نفسه ودينه وصحته ومستقبله ، والقول الجامع لكل ما ذكرنا قوله جل ثناؤه :
« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » . أى نارا
شديدة تنوقد بالناس وبالحجارة كما يتوقد غيرها بالخطب .

نعم احفظوا أنفسكم منها بأعمالكم الطيبة ، واحفظوا أزواجكم وأولادكم من شرها
بوصيتكم وإرشادكم ، وإذا كان الأب يصون ولده من نار الدنيا ؛ فلأن يصونه عن
نار الآخرة أحق وأولى بأن يؤدبه ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق وجلال
الأعمال ، ويحفظه من القرناء السوء .

ومن حق الولد على أبيه أن يحسن أدبه على ما وصفنا ، ويحسن اسمه ويختار أمه ، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر الابن وأنبه على عقوقه لأبيه ، فقال هذا الابن : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال بلى ، قال : فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) . فقال يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سماني جُعَلًا [جعرانا] ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً . فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له أجبته إلى تشكو عقوق ابنك وقد عققته قبل أن يعقلك ، وأسأت إليه قبل أن يسئ إليك ؟ (أى الشر بالشر والبادى أظلم) . وتلك عاقبة من فرط فى الحقوق والواجبات ، ورحم الله والدأ أعان ولده على بره بتوفيقه ما له عليه من الحقوق ولم يحمله على العقوق بسوء صنيعه ، لأن الوالد إذا كان عادياً جافياً جر الولد إلى العقوق . وقد قيل : ولدك ريمانتك تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ؛ وقريب من هذا قول بعض الحكماء : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اترك حبله على غاربه . وقال يزيد بن معاوية رضى الله عنه : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بجر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدم ، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلت على وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد فلما خرج الأحنف ، رضى عن يزيد ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ، ومئتى ثوب . فأرسل إلى الأحنف نصف ذلك ، مائة ألف درهم ومائة ثوب .

هذا . والسعيد من كان أنسه بالله لا بالولد : لما خرج موسى فاراً من فرعون وقومه انتهى إلى مدين على الحال التى ذكر الله تعالى ، وهو وحيد غريب خائف

جائع ، قال يا رب : وحيد مريض غريب ! فقيل له : يا موسى الوحيد من ليس له
مثلى أنيس ، والمريض من ليس له مثلى طيب ، والغريب من ليس بينى وبينه
معاملة ، نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بهدايته ، وأن يستعمل جوارحنا فيما يرضيه ،
إن ربى لسميع الدعاء وقريب مجيب .

المحاضرة السابعة

الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى وسلم على رسول الله :
الاستقامة جميلة المبنى ، جليلة المعنى ، قليلة العبارة ، كثيرة الإشارة ،
من تحلى بها فهو السعيد الموفق ، ومن تخلى عنها فذلك الشقي المخذول المحروم .
من عرف بها عظمت بين الناس حرمة ، وعلت فيهم درجته ، وحسنت سيرته ،
ووجبت محبته ودامت بينهم مودته ، وتبوأ من قلوبهم منزلة يغبط عليها ، ورجح
من نفوسهم مكانة تصبو إليها نفوس ذوى الهمة والفضل فى كل أمة ، وكان مقبولا
لدى الله والناس أجمعين « ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »
فلاستقامة درجة بها كمال الأمور وتماها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ،
ومن خلا منها وتجرد من ثيابها ضل سميها وخاب جده .

« ماهى الاستقامة » الاستقامة فى وضعها ضد الاعوجاج والاستواء فى جهة
الانتصاب . يقال استقام العود أو العمود إذا اعتدل . أما فى العرف فلكل قوم
فيها ذوق خاص كل قال فيها بقدر استعداده وبحسب ما حباه الكريم منها من حظ
على قدر جده وسعيه « وكل ميسر لما خلق له » .

قال بعض العارفين : الاستقامة توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص
بلا التفات ، ويقين بلا تردد ، وتفويض بلا تدير . وهذا العمر الحق مقام عزيز
لا يحكمه إلا من تصفى كالذهب الأبريز — وقال آخر : الاستقامة اتباع الحق والقيام

بالعدل ، ولزوم المنهج القويم وهذا أيضاً خطب جسيم ، ومقام عظيم لا يكون إلا لمن
اشرق قلبه بالأنوار القدسية ، وطهرت نفسه من الأدران البشرية والظلمات الطبيعية
وأيده الله تعالى بروح من عنده — وقليل ما هم — وقال ثالث : الاستقامة كمقام
الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق
لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكمل — وهى على
هذا المشرب عريضة المنال لا يطيقها إلا الأكابر الواصلون . والسابقون السابقون
أولئك المقربون .

ومن أجل ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت »
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق
عليه من هذه الآية — ولذا قال صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه حين قالوا له : قد
أسرع إليك الشيب يا رسول الله : « شيبتنى هود وأخواتها » وهى الواقعة والحاقة .
وسأل سائل وعم يقساءون وإذا الشمس كورت والقارعة . روى من عدة طرق
بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى . قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف
العظيم والوعيد الشديد بأشمتاهن مع قصرهن على حكاية أحوال الآخرة وأهوالها
وفظائعها وبيان أحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر
بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى له : « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة
تكون بحسب المعرفة فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهييه فاذا سمع « كما
أمرت » علم أنه مطالب بالاستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه .

والقول الجامع لهذه الأقوال كلها أن الاستقامة هى المتابعة للطريقة المحمدية مع
التخلق بالأخلاق المرضية . لاسير مع الهوى والابتداع فان السير مع الهوى يعنى
عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ولا يفرق بين الخير والشر بل ينكسه ويعكسه
فيرى البدعة سنة والسنة بدعة والضلالة هداية والهداية ضلالة « ومن أضل ممن اتبع
هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

مدارج الاستقامة

لها ثلاث مدارج أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة . فالتقويم يكون من حيث تأديب النفس بإصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة . والإقامة تكون من جهة تهذيب النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة ، كالخقد والحسد ، والكبر والعجب والنفاق والرياء . والاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار الإلهية والأنوار القدسية من القلوب ، وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة . فالأول تمحيص والثاني تحقيق والثالث توفيق .

علامة المستقيم في الناس

أن يكون مثل الجبل لا يذوبه الحر ولا يضره البرد ، ولا يحركه الريح ، ولا يذهب به السيل العظيم . كذلك المستقيم في الناس لا يؤثر فيه مر المصائب ولا يحوله عن ثباته صدمة البلايا ، — وهذا الوصف الأول — والثاني إذا أساء إليه إنسان يبارد القول وقارص الشتم لا يتشوش منه بل يتجاوز عنه ويعدو عدما ويهمله ، بل يقابل الإساءة بالإحسان « وإذا سروا باللغو مروا كراما » والثالث : هو نفسه الأمانة بالسوء لا يحوله عن أوامر سيده وطاعة مولاه . والرابع : أن متاع الدنيا وسيل زخارفها لا يشغله عن ربه ولا يلهيه عن طاعته . وصفوا الكلام أن علامة المستقيم الصبر في الشدائد ، والثبات عند البلايا ، والاعراض عن الجاهلين والصفح عن أساء إليه ، وأن لا يكون للهوى والشهوة سلطان على نفسه ، وأن زخارف الدنيا لا تأخذ من مولاه ولا تشغله عن سيده .

آثارها في صلاح الفرد والمجتمع

إذا كان المستقيم راعياً لاشك صلحت رعيته . وإذا كان مربيّاً سعدت على

يديه تلاميذه . وإذا كان صانعاً تقدمت صناعته . وإذا كان تاجراً ربحت تجارته .
وإذا كان زارعاً كثر خيره ، وبورك له في عمل يديه . وإذا كان رب منزل استقام
أهله وصالحت ذريته ، ولا ريب أنه متى استقامت الأفراد وصلح حالها استقامت
الأسر ، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمة بأجمعها . فان من لا يبت له لا أمة له
وغنى عن البيان أن كل أمة يكون حظها من الرقي والسعادة على قدر حظ أفرادها
من الاستقامة وسلوك المنهج القويم والسير على الصراط المستقيم .

حث الشارع على لزوم الاستقامة في كل حال

من رحمة الله تعالى بعباده أن أرشدهم إلى مافيه الخير والسعادة وما يضمن لهم
الفوز والفلاح في الآخرة والأولى . وقد عرفت مافى الاستقامة والتحلى بها من الآثار
الحسنة والمزايا الجليلة ، وبقي لك أن تعرف شيئاً مما جاء عن الشرع في الترغيب
فيها والحث على التجميل بها في عموم الأحوال . من ذلك قوله تعالى « إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فانه جل شأنه قد وعدهم على
توحيدهم له تعالى ومعرفةهم بجلاله واستقامتهم على الطريقة المرضية « وعدهم »
الأمن من كل المخاوف والسلامة من جميع المسكاه في الدنيا وضمن لهم النعيم الدائم
في الآخرة ، ذلك بأنهم جمعوا بين توحيد الله تعالى الذى هو على الحقيقة خلاصة
العلم ورأس العلوم ورئيسها ، وبين الاستقامة على أمور الدين كلها من صحيح العقائد
وخالص العبادات وحسن المعاملات ومكارم الأخلاق التى هى ثمرة الأعمال وأثرها
وعليها مدار المعاملات وانتظامها . لهذا كانوا لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم
يحزنون لقوات مطلوب وضياع محبوب . هذا ما لهم في الدنيا بمقتضى هذا الوعد
الكريم من الغنى الرحيم . وما لهم في الآخرة أغلى وأعلى « أولئك أصحاب الجنة
خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » أى من صنوف البر وأنواع الحسنات العلمية
والعملية والمآثر النافعة لهم ولأمتهم التى خلدت لهم حسن الذكرى وجميل الأحداث
ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبى عمر سفیان بن عبد الله رضى الله

عنه . قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » سألته رضى الله عنه أن يبين له فى دين الإسلام وشريعته قولاً جامعاً لأُمُوره يكفيه بحيث لا يحتاج إلى أن يسأل عنه أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لـكونه واضحاً فى نفسه مبيناً لغيره ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بالاقرار بالتوحيد لله تعالى ومعرفة بربه أولاً . ثم الاستقامة على طريقة الدين وأُمره ونواهيه ، عقائده وعباداته ، معاملاته وآدابه . وهذا من بديع جوامع الكلم التى اختص بها صلى الله عليه وسلم فإنه جمع للسائل فى هاتين الجملتين جميع معانى الإسلام لأنه إجمالاً أمور أربعة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق كريمة .

فالعقائد مستفادة من الجملة الأولى وما عداها من الطاعات والمعاملات والأخلاق الحسنة فهو فى ضمن الجملة الثانية . إذ الاستقامة امتثال كل مأمور واجتناب كل منهى .

طريق الوصول إلى الاستقامة

إن الحصول على الاستقامة بوجه عام ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها بل من السهل الهين والميسور القريب ، فإن المرء إذا عود نفسه أن يراقب الله تعالى عند كل عمل يعمل موقناً أن الله تعالى مطلع على جميع أعمال العباد ومعتقداً أنه تعالى يجازى من أطاعه برضوانه وإحسانه ، وأنه ينزل غضبه ومقته على من خالفه وعصاه — إذا عود نفسه ذلك سهل عليه أن يفعل ما أمره الله به ويجتنب ما نهاه الله عنه . فإذا سوات له نفسه أن يأتى معصية من معاصى الله ردها وزجرها وذكَّرها بعزة الله تعالى وجلاله ، وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه خافية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم » متى لاحظ المرء ذلك وعود نفسه عليه لا يُقدم

على منكر ولا يقصر في مطلوب منه ، فتصير الاستقامة له عادة ينتقل بها من وهدة الشقاء إلى ذروة العز والسعادة ، ويخرج بها من الظلمات إلى النور بإذنه سبحانه ، فمنه التوفيق ومنه الهداية .

المحاضرة الثامنة

الإنسان في الشدة والرخاء

من نظر إلى الإنسان وفكر في أحواله وطبائعه وجدده كثير العجز قليل الصبر عند نزول الشدائد والبلاء ، كثير الغرور قليل الشكر عند حصول الرخاء والنعاء . فإذا أصابه نوع مكروه كضيق وعسر ومرض وفقر وغيرها من بلايا الدنيا وشدائدها استولى عليه اليأس وملكه الجزع وظهر ذلك على وجهه وجوارحه بالتغير والاضطراب . ثم إذا تاب إلى رشده وعاد إليه صوابه أقبل على مولاه وأكثر من التضرع والدعاء له تعالى في جميع أحواله نائماً أو مضطجعاً ، قاعداً أو قائماً ، ساكناً أو متحركاً ، مجتهداً في التذلل والخضوع . طالبا منه تعالى إزالة تلك الشدة والحنة وتبديلها بالنعمة والمنحة . فإذا استجاب له ربه وكشف عنه ما نزل به من شدة وبلية مضى في سبيله وعاد إلى سيرته الأولى واستمر على طريقته التي كان ينتهجها قبل مساس الضر وإصابة المكروه . ونسى حالة الشدة والبلاء وأعرض عن شكر مولاه ولم يعرف نعمته عليه ، وصار بمنزلة من لم يشعر بمكروه ولم يدع مولاه تعالى للكشف ضر كان قد نزل به . وهذا بلا ريب يدل على ضعف طبيعة الإنسان وقلة وقائه لمولاه وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه . وفي ذلك يقول الله تعالى « وإذا مسَّ الإنسانُ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضره مثله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » والمسرف هو الذي ينفق المال الكثير في الغرض الخسيس . وإسراف هؤلاء لأن الله تعالى إنما منحهم القوى والحواس الظاهرة والباطنة ليستعملوها فيما خلقت له من التفكير والعمل النافع ، وأغدق عليهم صنوف

الخيرات أعطاهم نفائس الأموال ليصرفوها في مصارفها المعروفة ، ووجوهها المشروعة . وما إلى ذلك من كل ما يعود على المرء وأمنته بالخير والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة . فلما استعملوها فيما لا فائدة منه وصرفوها إلى مالا خير فيه — وهي رأس مالهم — فقد أساءوا التصرف فيها وأتلفوها وأضاعوها وأسرفوا بإسرافا ذميا ، وكانوا من حزب الشيطان الرجيم الذي زين لهم ذلك بالتسويل وحسنه بالوسوسة .

ويقول أيضاً : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا منى الشر فذو دعاء عريض » . فأفاد سبحانه أنه إذا تفضل على عبده بنعمة كعافية ورخاء أعرض عن شكره وطاعته وشغل بنعمته عنه واستطال بنعم الله على خلقه وثنى عظمه متبختراً كبرياء وعظمة . وإذا عرض له نوع مكروه كمرض وعسر أكثر من التضرع والدعاء إليه تعالى لكشف ما عرض له من المسكاره .

فهذا شأن الإنسان وهذا حاله في الشدة والرخاء كما بينه الله تعالى لنا في كتابه الحكيم تنبيها على أن هذه طريقة ممقوتة وأخلاق مذمومة . وأن واجب الإنسان العاقل المفكر أن يكون شجاعا في الشدائد ثابتا عند نزول البلايا ، شاكرا عند الفوز بالنعاء ، وحقه أن يكون كثير الدعاء والتضرع إليه تعالى في أوقات الراحة والرفاهية ، ليسكون بحاج الدعوة في وقت الألم والحنة . ففي الحديث الصحيح أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : « تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » . رواه عبد بن حميد والإمام أحمد . وعنه صلوات الله وسلامه عليه « من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء » . رواه غير واحد .

وصفة القول أن الإنسان جبيل على الضعف والعجز والقلق وقلة الصبر ، كما جبيل على الفرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو . فإذا نزل به البلاء حملة ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد . وإذا زال عنه ذلك البلاء وحصل على الراحة استولى عليه النسيان وغفل عن إحسان الله تعالى إليه ، ووقع

فى النى والعدوان والجحود والنكران . وهذه الأحوال كلها من نتائج طبيعته ومبادئ خلقته ، ولكنه معذور ولا عذره ، ومخلوق عاجز ضعيف فى صورة جبار عنيد ، لا يصبر على الأواء ولا يشكر عند النعماء ، إلا من رحم الله وعصمه من هذه الدنایا والنقائص — وقليل ما هم . وهم الذين يرجعون إلیه تعالى فى جميع الأحوال موقنين بأنه وحده هو المقدر للأمور حسب علمه وحكمته والمصرف لها وفق مشيئته وإرادته . فلاجرم إذا أصابهم السراء شكروا ، وإن أصابهم الضراء صبروا ، وأفنوا إرادتهم فى إرادته ، وقبلوا حكمه ورضوا بقضائه . وفى أمثال هؤلاء يقول الله تعالى « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » فقد وصف الصابرين بأنهم عند المصيبة يقرون له تعالى بالعبودية ، وفى ذلك تفويض الأمور إلیه والرضا بقضائه . وأخبر تعالى أن جزاءهم عنده ثناء ومغفرة ورفع شأنهم عند الله والناس وإحسان عظيم — ومنه ما يجدونه فى نفوسهم من برد الرضا وحسن العزاء — وأنهم محتصون بالاهتداء لكل حق وصواب . ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى .

ولقد أرشد الخلاق العليم عباده فى كتابه الكريم إلی التغلب على هذه الطبايع والسلامة من تلك الأدواء بقوله تعالى « إن الإنسان خلق هلوعا » إذا أصابه المكروه لم يصبر ، وإذا جاءه الخير لم يشكر . وقد فسره أحسن تفسير وبينه أجمل بيان ، قوله تعالى « إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا » فانه تعالى كشف لنا عن خبيثة الإنسان وأظهر ما فيه من علة وجبلة ، وأنه كثير الجزع وقت الشدة . كثير الأمساك والبخل وقت الرخاء . ثم عقبه بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مُشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لقروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون » فاستثنى هذه الأصناف الثمانية المتصفين بهذه النعوت الحميدة من

المؤثنين بتلك القبائح الذميمة . لأن نعوتهم الجليلة تنم عن اهتمامهم بطاعة الخالق . والرافة بالخلق بايتاء الحقوق المالية والعطف على البائسين والمحرومين ، وتنبيه عن إيمانهم بيوم الجزاء وما فيه من هول وحساب . وخوفهم من عذاب الله — مع ما لهم من عمل صالح — وقع شهوتهم واقتصارهم على ما أحل لهم من النساء ، وإيثار الآجل على العاجل بالاخلاص والصدق والوفاء في المعاملة ، وإقام الصلاة على أكمل وجه على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب العاجل والركون إليه والاغترار به وقصر النظر عليه . فبمثل هذه الأدوية النافعة ينجو الإنسان من الشر ، وتسلم القلوب من الجزع عند عروض البلايا ورذيلة البخل في وقت الرخاء . واعلم أن من واجب المؤمن إذا ابتلى ببليّة ونزلت به محنة أن يراعى أموراً :

(منها) أن يكون راضياً بقضاء الله عز وجل غير معترض عليه بالقلب واللسان لأنه تعالى مالك على الإطلاق . وملك بالاستحقاق . ومن كان كذلك فله أن يفعل في ملكه وملكه ما شاء كما يشاء . ولأنه أيضاً حكيم على الإطلاق منزّه عن الباطل والعبث ، فكل ما فعله صواب وحكمة ، إن أبقى على عبده المحنة فهو عدل . وإن أزالها عنه فهو فضل . ومن آمن بهذا وجب عليه الصبر والسكون والرضا والتسليم وعدم القلق والاضطراب .

(ومنها) أن يصلح نفسه بالتوبة إلى الله تعالى والانابة إليه مما فرط منه فقد تكون البلية عقوبة معجلة لبعض ما اقترف من السيئات لعله يثوب إلى رشده ويرجع عن غيه . قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » وقال « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فالجذب وقلة الأمطار ونزول الأزمات والعاهات بالناس والدواب والزروع وبحق البركة من كل شيء ، كلها من شؤم المعاصي .

(ومنها) أن يشتغل في ذلك الوقت بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا من الدعاء له . لأن الاشتغال بالذكر والثناء اشتغال بالحق ، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطالب حظ النفس . ولا ريب أن الأول أحسن وأفضل . ومتى صدقت في ذلك نيته .

وصحت عزيمته . أصلح الله بآله وأجزل له في العطاء . ففي الحديث القدسي « من شغلته ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

(ومنها) أن يبذل وسعه في شكره تعالى إذ أزال عنه تلك الحنة وأن لا ينقطع عن ذلك الشكر في عموم الأحوال من السراء والضراء والشدة والرخاء فإن أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل . ومما ينفع في تخفيف وطأة الشدائد وتهوين البلايا والكروب ملاحظة أمور سبعة :

(١) مقام التوحيد وأن الله تعالى هو الذى شاء ذلك وقدره ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (٢) العدل وأنه تعالى ماض فيه حكمه عدلٌ فيه قضاؤه (٣) الرحمة وأن رحمته تعالى فى هذا المكروه غالبية غضبه وانتقامه (٤) الحكمة وأن حكمته تعالى البالغة اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاء عبثاً (٥) الحمد وأن له تعالى الحمد التام والثناء الحسن الجميل على ذلك من جميع الوجوه (٦) العبودية وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده بحكم كونه مالكة يتصرف فيه بما يشاء كما يشاء (٧) أن الأمور لها انقضاء وأن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسراً . وأن كل شئ يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا البلايا فانها تبدو كبيرة ثم تصغر . وهذا من رحمة الله بعباده — وكل هذا لا يمنع العبد أن يستخدم مواهبه فى تلمس الخلاص من بعض ما نزل به بالوسائل المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذى يسلكه المرء عند نزول البلايا وعروض الشدائد .

ولأرباب البصائر النافذة هنا مقام أقوم وطريق أسلم مما سمعت . قالوا : إن من كان وقت إصابته النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم كان عند نزول البلية مشغولاً بالبلاء لا بالمُبلى . ومثل هذا المرء يكون دائماً فى نكد وبلاء . أما فى وقت البلاء فواضح وأما فى وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها بلاء عظيم ، وكلما كانت النعمة ألد وأكمل كان تألمه لزوالها أشد وأعظم . فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبداً فى هم وبلية . وأما من كان وقت النعمة مشغولاً بالمنعم ، كان فى وقت البلية مشغولاً

بالمبلى . ومتى كان النعم والمبلى واحداً كان نظره أبداً على مطلوب واحد لا يتغير ، ولا يتبدل . ومن كان كذلك كان وقت الشدة والبلاء وفى وقت الرخاء والنعماء مطمئن النفس هادئ البال واصلاً إلى أقصى درج الكمال ، فائزاً إن شاء الله بغاية السعادة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة التاسعة

الاقتصاد — أثره فى الفرد والجماعة

الحمد لله مستوجب الحمد ، خلق بنى الإنسان وسوأم ، وعلى موأند كرمه وجوده ربهم ، ورزقهم من الطيبات ، وابتلاهم بتقلب الأحوال ، ورددهم بين اليسر والعسر والغنى والفقر ، والتبذير والتقتير ، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وينظر أيهم آثر العاجلة على الآجلة وقدم الدنيا على الآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبى الرحمة ومرشد الأمة الذى كانت حياته المثل الأعلى فى جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله واهتدوا بهداه . (أما بعد) فانا سنتحدث الآن فى موضع له خطره وشأنه فى بناء قومية الأمة ، وحياتها عزيزه قوية ألا وهو « الاقتصاد » والبيان فيه يكون بأمر : (١) الكشف عن حقيقة وبيان معناه ليقوم البناء على مفهوم ويكون الحكم على معلوم ، ويتبع ذلك أو يتصل به انصلاً وثيقاً الكشف عما يحيط به من طرفيه الإسراف والتبذير ، والشح والتقتير . (٢) بيان أثر الاقتصاد فى سعادة الفرد والمجموع . (٣) عناية الشارع به لما له من الأثر الحسن الحميد ، فى حياة الأمم والشعوب . (٤) الكلمة الختامية للموضوع . فنقول وبالله التوفيق ، ومنه تعالى الهداية :

الاقتصاد والقصد : التوسط والاعتدال : من قصد فى الأمر قصداً توسط وطلب الأسد ولم يجاوز الحد ، ومنه حديث : « ما عال من اقتصد » أى ما افتقر من لا يسرف فى الانفاق ولا يقتتر ، وحديث : « القصد القصد تبلغوا » أى عليكم

بالتوسط في الأمور تصلوا إلى غاياتكم — والاقتصاد في عرف الناس إدخار جزء من المال ينفع صاحبه عند الحاجة إليه . وهو وسط بين طرفين كلاهما ذميم وقبيح عند الله والملائكة والناس أجمعين : إسراف وتبذير ، وشح وتقتير — فالإسراف كالسرف مجاوزة الحد ، وهو نتيجة الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير تفريق المال كما يفرق البذر كيفما كان من غير تعمد لمواقعه ، فهو نتيجة الجهل بمواقع الحقوق ، أي أنه ينفق المال ولا يعرف أين ينفق ولا أن يحسن التصرف فيه بإصابة مواضعه — والإسراف والتبذير في نظر الدين معناهما واحد ، لأن مآلهما واحد وهو إنفاق المال في غير مواضعه ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « التبذير إنفاق المال في غير حقه » . ومعناه أن المبدّر يجهل بمواقع الحقوق التي تستحق إنفاق المال فيتجاوزها إلى غيرها أو يعلمها ، ولكن تدفعه شهوته الخبيثة إلى مجاوزتها .

وروى عن ابن عباس وغيره ، أن الإسراف كالتبذير إنفاق المال في مساخط الله تعالى — فهو ذميم وقبيح شرعاً وعقلاً لمجاوزته الحد الذي حده الحكيم العليم لعباده في إنفاق المال بوضعه في غير ما رسم له ، ولذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : التبذير إنفاق المال في غير حقه . ولا تبذير في عمل الخير — أما الشح والتقتير أو الاقتار فهو إمساك المال والضمن به عن الواجبات التي لا بد منها ، والبخل به على نفسه وعياله ، وهو أيضاً ذميم وقبيح ، وتفرط مهين ومشين — فتحصل من هذا البيان أن الاقتصاد الحسن الجميل وقع وسطاً بين جارين كلاهما قبيح وذميم عند الله والملائكة والناس أجمعين . قال بعض الأدباء :

ولا تك فيها مُرطاً أو مُفَرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميم
وقال : —

تسامح ولا تستوف حَقَّك كله وأبق فلم يستوف قط كريم
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصاد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

أثره في سعادة الفرد والجماعة

وأما أثره في ذلك فظاهر جلي وواضح لا خفاء فيه — فقد دل البحث الصحيح على أن المدنية الحاضرة قامت على أربعة أركان : العلم ، والمال والنظام والأخلاق المفاضلة . وإن كل أمة تجردت من العلم والمال والنظام والأخلاق الكريمة كان الشقاء حليفها والتأخر نصيبها — والمشاهدة أصدق شاهد . وليس بعد العيان بيان — وهل يكون مع الجهل والفقر والقوضى وسوء الأخلاق في الناس خير ؟ اللهم لا . فالمال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم ونهوض الشعوب . وبه تكون الأمة عزيزة قوية ؛ جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم ، وبفقد المال تصبح الأمة ذليلة ضعيفة ، فاقدة الهيبة ساقطة الحزمة والكرامة ، مستعدة لأن تصير فريسة للأقوياء وغنيمة للمستعمرين واقعة في أفواه الظالمين .

لهذا وأمثاله عني الشارع الحكيم الرحيم بأمر الاقتصاد . وحمل الناس عليه ، ونهى على الإسراف والتبذير . وسفه أحلام الميسرفين والمبذرين ، كما نعى على الشح والتقتير ، وقبح من شأن المقترين وأهل الشح ، قال تعالى في وصف أولى الحزم والكمال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وسطا . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله ، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله — ومعناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله فهو الاقتار ، ومن أنفق في طاعة الله فهو القوام — فالآية كما ترى حث على الاقتصاد وسلوك حد الاعتدال في صرف المال وهو الوسط الممدوح .

وقال تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » في الآية إرشاد إلى مواضع الانفاق وهو أن يكون في مواضع البر والخير وأداء الواجبات التي فرضها الله على الأغنياء ، فتجب صلة الأقارب بما تبلغ إليه القدرة ، وحسبما يقتضيه الحال ، (٢٣)

ومساعدة المساكين وأبناء السبيل بالتصدق عليهم ، أو مما لهم من صدقة الفرض ، لأنهم من الأصناف الثمانية ، وفيها نهي على التبذير وأهله يجعلهم من إخوان الشياطين والمراد المائة التامة في عمل الشر ، أو أنهم قرناؤهم في كفران أنعم الله التي أنعمها الله عليهم . فبدلاً من أن يشكروه عليها بامتثال أمره في شأنها وضعوها في غير مواضعها ، فانقلبت عليهم نقماً ، وكانوا في العذاب مع الشياطين « وكان الشيطان لربه كفوراً » كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق لأنه مع كفره لا يفعل إلا الشر ولا يدعو إلا إليه . ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه .

وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » والمراد نهى الإنسان أن يُمْسِكَ إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله وعياله ، وأن يتوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه ، بحيث يجاوز الحد المعقول فيه ، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط ، وينتج منه مشروعية التوسط ، وهو العدل الذي ندب الله إليه عباده : وقد مثل الله تعالى في هذه الآية حالة الشحيح بحال من ربطت يده إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها — ومثل حال من يجاوز الحد في الإنفاق بمن يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض عليه الأيدي ، وهو تمثيل بليغ وتصوير شنيع . ثم بين عاقبة الطرفين المنهى عنهما فقال : « فتعبد ملوماً » عند الله والناس بما أنت عليه من الشح والتقتير « محسوراً » بسبب ما كان منك من الإسراف والتبذير منقطعاً عن المقاصد بسبب ما جلبته على نفسك من الفقر والفاقة ، حتى أصبحت صفر اليدين ، والمحسور في الأصل المنقطع عن السير ، من حسيره السفر إذا بلغ منه ، والبعير الحسير هو الذي ذهب قوته ، فلا انبعاث به ومنه « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أي كليل منقطع .

وجملة القول : فالمال عماد الحياة الأولى ، وقد يكون سعادة في الآخرة ، فإذا جمعه العبد من طريق شريف حلال وحافظ عليه على حال ترضاه الشريعة الغراء ، وأنفقها كما جمعه في طريق حلال ، فهو ممدوح وصاحبه مأجور ومحبوب لدى الله

والناس أجمعين . وإن جمعه من طريق وضع وحرام وأضاعه في لذاته وشهواته ، أو حرم منه نفسه وعياله فهو مذموم وصاحبه مكروه لدى الله والناس ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

المحاضرة العاشرة

الحسد وآثاره السيئة في المجتمع

قال حفظه الله بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى وسلم على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

الكلام على الحسد من وجوه : (١) بيان حقيقته والكشف عن معناه ليكون الحكم على معلوم ، والبناء على أساس واضح مفهوم (٢) بيان ما جاء في التحذير منه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (٣) الأسباب التي ينشأ عنها والآثار السيئة التي تعود على بني الإنسان منه .

وقبل الكلام عليه من هذه الوجوه نذكر مقدمات لها بالموضوع صلة :

الأولى — كلنا يعلم ويؤمن بأن الله جلت حكمته وعزت قدرته قد أنزل الكتاب المبين هدى للناس ورحمة . نعم إنه يهدي من تمسك به ، ويوصل من لم ينحرف عنه إلى السعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وفي ذلك رحمة منه تعالى بخلقه وإحسان عظيم منه إليهم « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً » أي شأنه الهداية إلى ذلك . وأقوم الطرق وأعد لها هي ملة الإسلام والدين القويم .

جاء هذا الدين بالأوامر والنواهي ، ووعد القائمين عليها والحافظين لها بحسن الحال والمآل ، وتوعد المخالفين لها والمتمردين عليها بوخامة العقوبة في العاجل والآجل « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » كل هذا ليسوق الناس من طريق الترغيب إلى الخير فيغنموا فيربحوا ، ويمنعهم بطريق التهيب عن الشر فيسلموا من مخاطر الشقاء ونكد العيش ، وهو في كل ذلك حكيم عليم ، وغنى عادل .

الثانية — لا ريب أنه لا طيب للحياة ولا هناء للعيش إلا إذا سلمت القلوب من الأذى وبرئت من الأمراض الاجتماعية كالكبر والحقد والحسد ، وحل محلها التواضع والمحبة والرحمة .

الثالثة — لا يجتمع في قلب المرء إيمان صحيح وحسد لنعمة على مخلوق إلا كما يجتمع الصبر مع العسل . ولا شك أن المعجون المركب من الصبر والعسل نكرة مجهولة وحقيقة غير معروفة لأحد ، وذلك لأن الرضاء عن الله جل وعلا في قضائه وفعله جزء من الأجزاء التي لا يتم الإيمان بدونها ، ولا تكون حقيقة الإيمان إذا لم يوجد أى واحد منها ، كما جاء في حديث الإيمان . إذا عرفت هذا فنقول :

الوجه الأول في بيان حقيقة الحسد ومعناه

قال العلماء : الحسد كراهة نعمة الغير وتمنى زوالها عنه ، سواء أتمنى انتقالها إليه أم لا ، وهو قبيح بنوعيه إلا أن الثاني أقبح وأشد حرمة من الأول . وهو ألم في نفس الحاسد لا يسكن إلا إذا زالت نعمة المحسود . قال سيدنا معاوية رضى الله عنه : « كل أحد أقدر على رضاء إلا حاسد النعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم ، من الحاسد : غم دائم ونفس متتابع » .

وأما الحسد في عرف العامة فهو عبارة عن نظرة العين إلى الشيء نظرة إعجاب واستحسان ، وقد يكون ذلك عن حسد في النفس وكراهة للنعمة . وننتكلم عليه إن شاء الله تعالى واتسع الوقت .

هذا الحسد المذموم وذلك المرض المشثوم هو الداء العضال الذي ابتلى به كثير

من الناس اليوم ، فأوغر صدورهم وأفسد ضمائرهم وفرق شملهم ومزق وحدتهم ، ففشلوا
وزهدت ریحهم وتلاشت قوتهم حتى ذلوا واستكاثوا وطمعت فيهم أعداؤهم . وهو
أول ذنب عُصى الله تعالى به ، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لأبينا آدم عليه
السلام إلا الحسد ، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل سوى الحسد . وأى
معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة أو ينالك
منه سوء .

الوجه الثانى فى تحذير الشارع منه

لمثل ما ذكرنا نفر الشارع منه وجعله الله تعالى من أوصاف المنافقين إذ قال
تعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا
بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسؤم وإن تصبكم سيئة
يفرحوا بها وإن تصبروا وتقفوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » الحسنة
النسمة ، كالرخاء والخصب والنصرة والغنيمة . والسيئة المصيبة ، كالضيق والجذب
والهزيمة ، والأول الحسد والثانى الشماتة . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهما
لا يضران المحسود ولا المشموت به إذا اتقى ما حرم الله عليه وابتعد عما عنه نهى ،
وصبر على مشاق التكاليف وعداوة المنافقين ، ولم ينتقم منهم لنفسه بل فوض الأمر
فيهم إلى الله تعالى . وقال أيضاً فى المنافقين وبيان ما تُكِنُّ نفوسهم القدرة وتحويه
ضمائرهم الخبيثة من الكيد والمكر وأنواع الأذى لجماعة المسلمين « ودُّوا ما عنتهم قد
بذت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم
وشدة ضرركم قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم كانوا لا يتألمون مع مبالغتهم
فى ضبط أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يفضح أمرهم ويعلم به بغضهم للمسلمين .
فالحاسد مهما بالغ فى إخفاء ما انطوت عليه نفسه للمحسود من الكراهة فهو لا محالة
مفضوح ، ونار الحسد تغلب عليه ويظهر حسده على وجهه وفى عينيه ولسانه .

وقال تعالى فى وصف الأنصار المخلصين لله والرسول والناس أجمعين :

« والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » أى لا تضيق صدورهم من رؤية النعمة عند إخوانهم ولا يفتنون لها ، فأثنى عليهم بسلامة قلوبهم من الأذى وصفاء نفوسهم وطهارة ضمائرهم من أدران الحسد .

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » والأكل هنا عبارة عن عدم القبول ، وأن حسنات الحاسد مردودة عليه وليست بثابتة في صحيفة عمله الصالح . ذلك أن الحسد في المعنى اعتراض على الله تعالى فيما لا عذر للعبد فيه ، لأنه لا تضره نعمة الله على أخيه والله تعالى حكيم في قسمة الحظوظ بين عبيده ولا يضع الشيء في غير محله ، فكان الحاسد يعترض عليه تعالى في قسمة المعيشة بين خلقه ، وينسب ربه للجهل والفسه ، ولم يرض بقضائه ، فلذلك ردت حسناته ولم تبقى في ديوان عمله ، ومن ثم قال بعض العارفين « الحاسد جاحد ، لأنه لا يرضى بقضاء الواحد » وقال صلى الله عليه وسلم « الحسد يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » .

وقال في النهي عن الحسد وأسبابه وآثاره : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » . فإن التباغض من أسباب الحسد والمقاطعة والغيبة من آثاره السيئة ونتائج المؤلمة . رواه البخارى ومسلم . وقال أنس رضى الله عنه : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج (الطريق في الجبل) رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف (تقطر) لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال . فلما كان من الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل . وقال في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عمرو بن العاص فقال له إني لأحيت أبى (خاصمته في أمر) فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ،

فإن أردت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم . فبات عنده ثلاث ليال — يرقب أحواله في حركاته وسكناته — فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا قلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال : غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث وكدت أحترق عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هُجْرَةٌ ، والسكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عمالك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً ، يوجب تلك البشارة العظيمة فما الذي بلغ بك ذلك ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطبق . رواه أحمد بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم . ولا حرج على فضل الله تعالى أن يمنح الخير الكثير على مثل طهارة القلب من درن الغش والحسد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه سيصيب أمتي داء الأمم . قالوا : وما داء الأمم ؟ قال الأثر » محرقة كفر النعمة « والبطر » محرقة الطغيان عند توفر النعمة « والتكائر » من جمع المال « والتنافس في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البنى » مجاوزة الحد والاعتداء على خلق الله « ثم يكون الخروج » بفتح فسكون القتل . رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد . وفيه تحذير شديد من التشاحن في الدنيا ، والتحاسد عليها ، فإن ذلك أصل الفتن ، وعنه تنشأ الشرور والبلايا .

وحسبكم في ذم الحسد وقبحه أنه يفسد الطاعات ، ويأكل كل الحسنات ويبعث على الخطايا والبلايا ، وأن الله تعالى أمر بالاستعاذة من شر الحاسد كما أمر بها من شر الشيطان الرجيم ، وأن الحاسد لا ينال من الناس إلا بفضأ وذمماً . ومن الملائكة إلا لعنة . ولا ينال من الدنيا إلا جزعاً وغماً ، وعند النزاع إلا شدة وهولاً وفي الموقف إلا فضيحة ونكالا .

١٠ الأسباب الداعية إلى الحسد

من أهمها العداوة والبغضاء . فإن من آذاه إنسان لسبب من الأسباب أبغضه قلبه وغضب عليه ، ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز عن التشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما ظن ذلك كرامة له عند الله تعالى ، فإذا نزلت بعدوه بلية فرح بها وشمّت فيه ، وظنّها لأجله ، وإذا أصابته نعمة ساء ذلك لأنها ضد مراده ومرغوبه ، وهذا مما وصف الله تعالى به المنافقين كما سبق . والحسد يسبب البغض ، وكثيراً ما يفضى إلى التنازع والتقاتل والسعى فى إزالة النعمة بالطرق الخبيثة والحيل القبيحة . وهو بغى شديد وظلم فاحش (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . تجد بعض العاطلين من الناس إذا وُصف عنده حال إنسان وذكر أمامه بخير يشق ذلك عليه ويؤله ، وإذا وُصف له بسوء وشر فرح به ، فهو أبداً يكره الخير للناس ويتألم منه ، ويجب لهم الشر والأذى كأنهم يأخذون الخير من بيته وخزائنه ، وهو من فضل الله وجوده « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ويقول العلماء الباحثون : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره على الناس . والحسود شحيح يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ويعادى فضل الله على خلقه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع ، ومعالجة هذا شديدة عسرة ، لأن الحسد بسائر الأسباب أسبابه عارضة يمكن زوالها فيزول ، وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فلذا تعسر إزالته .

وأما المنافسة فليست من الحسد المذموم المحرم وإن سميت باسمه فى لسان الشرع بل هى مباحة فى الأمور الدنيوية ، وقد تكون واجبة فى الأمور الدينية قال تعالى فى مقام الحث على أسباب الوصول إلى النعيم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » أى وفى أحوال هؤلاء الأبرار وما صاروا إليه من أنواع النعيم المقيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى . وأصل التنافس التغالب فى الشيء النفيس الذى تحرص

عليه نفوس الناس ويحب كل واحد أن يستأثر به ويضن به على غيره . وفي هذه الآية السكرية إشارة إلا أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم لافى النعيم الحقير الفانى — وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . أى بادروا إلى ما يوصلكم إلى المغفرة والجنة من أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المنهيات والتحلل بالفضائل والتخلي عن الرذائل . وإنما تكون المسابقة عند خوف الفوت كالعبدین يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزع كل واحد ويؤلمه أن يسبقه صاحبه إلى مولاه فيحظى بمنزلة لا يحظى هوبها . والمنافسة أن يتمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يحب زواله عنه ، فهي فضيلة محمودة منشؤها علو الهمة .

وأما الحسد عند العامة الذى هو عبارة عن نظرة العين فهو من الأسباب العادية التى قد يترتب عليها آثارها من إصابة المعيون على ما صرح فى السنة ، روى البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — أو أمر — أن نسترق من العين » . أى بسببها . وذلك أن المعيان (الحسود) إذا نظر إلى شيء أو إنسان أو حيوان نظرة إعجاب واستحسان مشوب بحسد فقد يحصل للمنظور عاهة أو ضرر بعادة أجراها الله تعالى — وهل هناك جواهر خفية تنبث من عينه تصل إلى المعيون كإصابة السم من نظر الأفعى أولا ؟ . ذلك أمر لا يقطع بإثباته ولا بنفيه .

والحق أن الله تعالى يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به ، إذا شاء ما شاء من عاهة أو ألم أو هلاك ، وقد يصرفه الله عز وجل عنه قبل وقوعه بالرقية المشروعة لا بالعرازم المخترعة والطلاسم المجهولة المعنى — وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » أى أن الإصابة بها ثابتة موجودة لا يصح إنكارها . وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفة فقال : « استرقوا لها فإن

بها النظرة » رواه البخارى — والسنة بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين مهملة سواد أو حمرة يعلوها سواد أو صفرة . والمراد أن السفعة أدركتها بسبب النظرة وإصابة العين . و « استرقوا لها » اطلبوا من يرقبها . هذا هو الذى يصح اعتقاده والعمل به وغيره لا خير فيه . ومما ينفع لدفع شر العائن أن يقول المرء صباحا ومساء هذا الدعاء : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة . كما صح به الحديث . أو يقول : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . رواه أصحاب السنن . ومن رأى شيئا فأعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره راجع الإبداع فى الفصل الثانى عشر صفحة ٤٢٣ من الطبعة الرابعة .

المحاضرة الحادية عشرة

الغضب وسوء عاقبته

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجحون . يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى يسير تحت لوائه النبيون . وعلى آله وأصحابه الهداة الراشدين . وبعد . فإننا سنتحدث إليكم الآن فى موضوع خطير لما له من الصلة بالحياة الاجتماعية ، ألا وهو كيف يملك الإنسان نفسه عند الغضب .

حقيقة الغضب

إن الله عزت قدرته لما خلق الإنسان معرّضا للفساد والهلاك بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجية عنه ، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل مسمى — أما السبب الداخلى فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتبخرها حتى تصبح أجزاءها بخارا يتصاعد منها ، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لهلك الحيوان . فخلق الله الغذاء وخلق

فيه قوة تبعثه على تناول الغذاء لجبر ما انكسر وصد ما انتلم ليسكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب — وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسيف والسنان وما إلى ذلك من وسائل الهلاك التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمة تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وعجنه بطينة الإنسان ، فإذا توزع في غرض من أغراضه وصد عنه اشتعلت نار الغضب فيه وفارت قوراناً يغلي منه دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعلى البدن ارتفاع الماء في القدر ، ثم ينصب في الوجه والعينين حتى يحمرا منه ، إذ البشرة لصفائها كالزجاجة تحسكي لون ما فيها . هذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن كان على من فوقه وأيس من الانتقام منه انقبض الدم إلى جوف القلب ، وكمن فيه وصار حزناً فاصفر اللون . فإن كان على من يساويه الذي يشك في القدرة عليه تردد الدم بين انبساط وانقباض ، فيحمر لونه تارة وبصفر أخرى . والغضب يتحرك من داخل الجسد إلى خارجه ، والحزن يتحرك من خارجه إلى داخله . ولذلك يقتل الحزن ولا يقتل الغضب لبروز الغضب وكون الحزن . فصار أثر الغضب السطوة والانتقام ، وأثر الحزن المرض والأسقام وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومنها وبها غليان دم القلب ، لدفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو الانتقام والتشفي بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به .

درجات الغضب وحكمة خلقه في الإنسان

للفضب ثلاث درجات « الأولى » درجة الاعتدال بأن يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله ، أو ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلوم ، وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الغضب ، فهو مخلوق لحكمة ضرورية اقتضتها طبيعة العمران ، وطالبها نظام المجتمع الإنساني ، فان التنافس في هذه الحياة والتراحم على مراقفها يستدعي دفاعاً قوياً عن النفس والدين والمال والعرض والحقوق العامة ،

ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض نظام الاجتماع ، لأن من لا يغضب لنفسه كان معرضاً للزوال من هذا الوجود ، أو معرضاً لأن يسخره غيره تسخير الدواب التي لا تغضب لنفسها — ومن لا يغضب لدينه فإنه يكون عرضة لتقليد القوى في كل ما يراه ويستحسنه ، فينتقل من دين إلى دين بسبب التقليد الأعمى ، ومن لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه وتختلط الأنساب وتشيع الفاحشة في طبقات الأمة ، ويصبح الإنسان كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه بدون غيره ولا حمية — ومن لا يغضب لماله فإنه لا يلبث أن يسلبه الناس منه فيصبح فقيراً معدماً — وإذا فشا سلب المال تعطل نظام العمل ، بل بطلت الأعمال التجارية والصناعية والزراعية ، واعتمد الناس على سلب بعضهم بعضاً ، وذلك شر و وبال في العاجل والآجل — ومن لا يغار للحقوق العامة وإنصاف المظلومين فقد خالف مقتضى الطبيعة التي فطر الله الناس عليها ، وفي مثله يقول الإمام الشافعي رحمه الله « من استغضب فلم يغضب فهو حمار » أى بليد الطبع فاقد الحمية . وإلى ذلك يشير قوله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » « الثانية » درجة التفريط ، وهى أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بأن يضعف فى الانسان أو يفقد منه رأساً . وتلك الحالة مذمومة شرعاً وعقلاً ، لأن من لا يغضب لنفسه أو لدينه أو لعرضه أو لماله أو للمصالح العامة فهو جبان لم يجر على سنن الله فى خلقه . وفى ذلك خطر عظيم على الاجتماع لأنه يشار الفوضى فى جميع مرافق الحياة كما علمت « الثالثة » درجة الأفراط وهى أن يخرج الغضب عن حد الاعتدال ويطنى على العقل والدين ويندفع فى سبيل الشر اندفاعاً قد يؤدى إلى الهلاك من حيث لا يدرك ، وربما جره غضبه لأجل أمر يسير إلى ارتكاب أكبر الجرائم وشر الموبقات . ومعلوم أن الغضب فى تلك الحالة مذموم شرعاً وعقلاً . وتتفاوت درجات الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً . فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكبر جرماً وأكثر ذمّاً .

أسباب الغضب

للعصب أسباب كثيرة : منها الجدال والمُزاح والسخرية بالناس ، والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان : فلا يبالي بسب الغير أو غيبته أو النّم عليه ، وما إلى ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والمعجب ، فإن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما فاته ما يعتقد أنه يستبقى عظامته ومنزله في الناس ، فإذا طالبه أحد بحق اشتاط غضبه ، وكذا إذا نهاه عن رذيلة أو عارضه في أى أمر كان ، لاعتقاده أنه كامل من جميع الجهات ، فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهيه أو يقف في سبيله . وهو في الواقع ناقص من كل وجه ، يحاول أن يجبر نفسه بكبريائه — ومنها مصاحبة الأشرار الذين يحسبون التهور شجاعة ، وطفيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك ، وتصبح سرعة الغضب عادة له وشعاراً .

تلك أهم الأسباب التي تثير الغضب وتهميجه . والغضب المترتب عليها كلها قبيح شرعاً وعقلاً ، بخلاف ما كان متعلقاً بالدفاع عن النفس والدين والعرض والمال أو الحقوق العامة وإنصاف المظلومين فإنه فضيله لا يكون إلا بمن قويت عقولهم واعتدلت طباعهم ، فأصبحوا خاضعين لسلطان الدين والعقل . ولقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم حيث إنه وصفهم بالشدة واللين — ولكل موضعٍ يليق به — فقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب ، وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم ، وكانوا المثل الأعلى لمن يناضل في سبيل الحقوق العامة .

ما جاء في التنفير من الغضب

قال الله تعالى « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » فقدم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة والثبات والوقار — وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم

أوصنى قال : لا تغضب فردد مراراً قال : لا تغضب » رواه البخارى فى الأدب . وهو من جوامع كلمه التى حُص بها — وعن عبد الله بن عمرو « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يبعدنى من غضب الله ؟ قال لا تغضب » أخرجه أحمد فى المسند — وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعدون الصُّرعة فيكم ؟ قلنا : الذى لا تصرعه الرجال . قال : ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » رواه مسلم بلفظ ولكنه . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصُّرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه — وقال سليمان بن داود عليهما السلام « يا بنى إياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم » رواه ابن أبى الدنيا . وقال أبو الدرداء : « قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة . قال : لا تغضب » رواه الطبرانى وغيره باسناد حسن — وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال مجاهد قال إبليس : ما أعجزنى بنوا آدم فلن يُعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بحزامته فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، والثالثة نبخله بما فى يده ونمنّيه بما لا يقدر عليه » رواه ابن أبى الدنيا . وقيل لحكيم « ما أملك فلانا لنفسه !! » قال إذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب » رواه ابن أبى الدنيا . أى فهذه خواص من ملك نفسه — وقال بعضهم : إياك والغضب فانه يصيرك إلى ذلة الاعتذار — وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم وكيس فى رفق ، وإعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتجمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة ، وصبر فى شدة . لا يغلبه الغضب ، ولا تجمع به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف . لا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر . يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء .

علاج الغضب

هو إما أن يكون طبيعة في المرء وإما أن يكون مكتسباً بالمخالطة ، فمن كان الغضب له طبعاً فعلاجه باجتناب الأسباب المثيرة له كالتكبر والافتخار والتعيير والمزاح والجدل ، فإذا برئت نفسه من هذه الأمراض فلا يضره أن يكون سريع الغضب بطبعه ، ويجب عليه أن يروض نفسه دائماً على التواضع والحلم ، ويذكرها بعظمة الله وحده وأنه مخلوق من ماء مهين ، وأنه صائر إلى الفناء وسيكون عظماً نخرة وتراباً تطؤه الأقدام ، وأرجل الدواب ، ومن كان هذا شأنه لا يليق به أن يكون متكبراً فخوراً . كما قال الإمام على رضي الله عنه : مال ابن آدم والفخر ! وإنما أوله نطفة وآخره جيفة — ومن كان غضبه مكتسباً بالعادة والاختلاط فعلاجه اجتناب الأسباب المهيجة للغضب المذكورة آنفاً ، واجتناب مصاحبة الأشرار والابتعاد عنهم ، وأن يعلم أن ليس للإنسان أن يغضب إلا لدينه أو نفسه أو عرضه أو ماله ، وما وراء هذا فالغضب فيه رذيلة يجب الاحتراس منها . وهذا طريق الوقاية من الوقوع في ثورة الغضب ، فإذا ثار غضبه كان العلاج شاقاً لأنه يذهل النفوس ويخرجها عن حد الصواب والرشد ، وينسيها ما لها وما عليها من الواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأعمال مالا يصدر عن العقل — فإذا هاج غضبه وجب عليه أن يذكر على الفور قوله تعالى « والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ذكر ذلك في معرض المدح للمتقين — والكظم هو الكف ، وذلك إما بضبط النفس ومنعها عن التشفى ، أو بالصفح عن المسيء . والمعنى والمتحملين الغيظ وهو الغضب الكامن في القلب . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » رواه ابن ماجه باسناد جيد من حديث ابن عمر . وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رهوس الخلائق ويخير

عن أى الحورشاء » رواه أبو داود والترمذى وغيرهما . وقول عمر رضى الله عنه :
« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة
لكان غير ماترون » . أخرجه ابن أبى الدنيا . وقول محمد بن كعب القرظى :
ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله . إذا رضى لم يدخله رضاء فى باطل ، وإذا
غضب لم يخرج غضبه عن الحق ، وإذا قدير لم يتناول ما ليس له . رواه ابن أبى الدنيا .
وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك .
واعرف قدرك تنفعك معيشتك (٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله فيقول : قدرة الله
على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو نفذت غضبي عليه فما آمن أن يمضى
الله غضبه على يوم القيامة ، أحوج ما أكون إلى العفو (٣) يحذر نفسه عاقبة
العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسمى فى إيذائه (٤) أن يتفكر فى قبح
صورته عند الغضب ، بأن يتمثل صورة غيره فى حالة غضبه ومشابهة الغضبان
للكلب الضارى والسبع العادى ، ومشابهة الخليم الهادى التارك للغضب للأنبياء
والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع ، وبين أن يتشبه
بالأنبياء والعلماء فى عاداتهم ، كي تميل نفسه إلى الاقتداء بهؤلاء . هذا هو العلاج
العلمى — وأما العملى فيقول : أعوذ بالله من الشيطان . هكذا « أمر رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه أن يقال عند الغضب » متفق عليه . فإن لم يزل بذلك
فليجلس إن كان قائماً ، وبسطجمع إن كان جالساً . قال صلوات الله وسلامه عليه :
« إن الغضب جرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا
وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم » رواه
الترمذى — والأوداج عروق العنق — فإن لم يسكن غضبه فليتوضأ أو يغتسل .
قال صلوات الله وسلامه عليه : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه أبو داود .
والمقصود من هذا أن ينتقل الإنسان من حالة إلى حالة ليتفكر فى قبح الغضب
وجمال الحلم ، ومتى اتجه عقله إلى هذه الناحية سكن غضبه . روى أن أبا ذر

قال لرجل : يا ابن الحراء — في خصومة بينهما — فبلغ ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال « يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عبرت أخاك بأمه . فقال : نعم فانطلق أبو ذر يرضى صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل . ثم قال : إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد ، وإن كنت قاعداً فاتكى . وإن كنت متكئاً فاضطجع » . أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح والله الهادي إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثانية عشرة

الإنسان هو المقصود من العالم — إيجاد كل ما عده لأجله — الحكمة التي من أجلها خلق .

اعلم أن الله تعالى جعل الإنسان سلالة العالم وزبدته . واختصه بأنواع التكريم من اعتدال القامة والتميز بالعقل والإفهام بالنطق وتناول الطعام بيده لا بفيه . والتمكن من الصناعات . قال تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » على الدواب والسفن ونحوها من المخترعات الحديثة « ورزقناهم من الطيبات » المستلذات « وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً » بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة . والمستثنى جنس الملائكة أو خواصهم — فليس فضله على غيره بقوة الجسم ، فالقيل والبعر أقوى جسماً منه . ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول منه عمراً . ولا بشدة البطش فالأسد والتمر أشد منه بشطاً . ولا بحسن اللباس فالطاووس والدراج أحسن منه لباساً . ولا بالقوة على الوقاع فالخمار والصفور أقوى منه وقاعاً . ولا بكثرة الذهب والفضة . فالملادن والجبال أكثر منه ذهباً وفضة . ولا بعنصره الذي تكون منه كما وهم إبليس لعنه الله حيث قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وإنما فضله على غيره بما خصه الله عز وجل من السر الذي أودعه فيه ، والمعنى الذي رشحه له ، وأشار إليه تعالى بقوله : « فإذا سويته ونفختُ » (٢٤)

فيه من روحى ففعوا له ساجدين » أى إذا عدّلت خلّقتة وهياتة لنفخ الروح فيه .
وأصل النفخ إجراء الريح فى تجويف جسم آخر . والمراد منه إجراء الروح فيه
وتعليقها به . وما أحسن قول بعضهم :

لولا العقول لكان أدنى ضعيف أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدى الحكمة عوالى المران

المران بالضم الرماح واحده مرانة كرمانة — فهذا الجسم الطينى غلاف لسرمكنون
إن غاب عنا جوهره فقد دل عليه أثره ذلك السر هو معنى الإنسانية ، وبسكنى
هذا المعنى الغريب فى ذلك الجسم المادى كان ملكا لجميع الكائنات الأرضية
يتصرف فيها تصرف المالك الشرعى فى ملكه — والملائكة عليهم السلام لما
نهبهم الله عز وجل لفضل آدم عليه السلام تنبهوا فأذعنوا وسجدوا كما أمر —
وإبليس اللعين لما وقف عند ظاهر آدم وبدنه وتعالى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل
المعنى الذى ضمنه الله آدم والعاقبة التى جعلها له ، أبى واستكبر وكان من الكافرين —
وقد اقتدى به الكفار فى إنكار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين حيث
قالوا : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » وقالوا مال هذا الرسول
يا كل الطعام ويمشى فى الأسواق » وقد نبه الله تعالى على أن فضلهم ليس بظاهر
أبدانهم وإنما ذلك لمعان فى نفوسهم عى عنها الكفار فقال تعالى : « أنظر كيف
ضربوا لك الأمثال » . وقالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة ،
إذ مثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون « فضلوا » بذلك عن الطريق الموصل
إلى معرفة خواص النبى والمميز بينه وبين غيره « فلا يستطيعون سبيلا » إلى الهدى
والرشد — وهنا ينبه السامعين إلى أن الإنسان بنفسه لا يحسمه ، ويحذرهم من
الاعتثار بالمظاهر الكاذبة ، لما تقدم ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم
واسكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

وقد أوجد الله تعالى ما سوى الإنسان معونة له كما نبه عليه بقوله عز وجل :
« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » أى أوجده لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم
بإستخدامكم له فى مصالح أبدانكم ودينكم ، بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمه
من لذات الآخرة وآلامها ، فالآية تصور لنا قدرته التامة ونعمه الشاملة . وأى قدرة
أكبر من قدرة الخالق ، وأى نعمة أعظم من جعل كل ما فى الأرض مهياً لنا ومعداً
للانتفاع به فى الحياة الجسدية ، والاعتبار به فى الحياة العقلية . ف سبحانه من إله جواد
كريم عليم حكيم — وقوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » صيرها
متوسطة بين الصلابة والرخاوة ، حتى صارت مهياة لأن يقعدوا ويناموا عليها
كالفرش المبسوط « والسماء بناءً » قبة مضروبة عليكم « وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وقال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى
الأرض جميعاً منه » . وقال تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب
ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
الثمار إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » وقال تعالى : « الله الذى خلق السموات
والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك
لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر
لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتوه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن
الإنسان لظالم كفار » كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكفر لنعمة ربه بإغفال شكرها
خلق كل ذلك للإنسان وأباح جميعه له ، فله أن ينتفع بكل هذا على وجهه : إما
فى غذائه أو فى دوائه أو فى ملابسه ومشوماته ومركوباته وزينته . والتلذذ بصوته
وصورته والاعتبار برؤيته . وبإستفادة علم منه والافتداء بفعله ، فيما يستحسن منه ،
والاجتناب عنه فيما يستقبح منه . فمثلا نتعلم التعاون من النمل والفحل ، والوفاء من
الكلب ، والنشاط من الغراب . فقد نبه الله عز وجل على منافع الموجودات وأطلع
الخلائق عليها تارة على السنة الأنبياء وتارة بالوحى والإلهام .

وهنا يذكر لهم أنه كما أن حق الإنسان أن يعرف منافع الحيوانات فى ذواتها

فينتفع بها في المطاعم والملابس والأدوية مثلاً ، فحقه أن يعرف أخلاقها وأفعالها كي ينتفع بها في اجتناء الحسن واجتناب القبيح ، فقد أحسن من قال : تعلمت من كل شيء أحسن ما فيه . حتى من الكلب حمايته على أهله . ومن الغراب بكوره في حاجته — وقد أشار تعالى إلى ذلك في وصف النحل فقال : وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً » فبِهِ سبحانه على أن من حق الإنسان أن يقتدى بالنحل في مراعاته لوصي الله وإلهامه ، فكما أنها لا تتخطى وحي الله في تحرى المصالح طبعاً ، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختياراً .

ولا ريب أن الله تعالى أوجد الإنسان « وهو الغنى » ليعرف له تعالى كمال الألوهية . ويعبده . وينصره . ويعمر أرضه ، كما نبه جل شأنه على ذلك بآيات في مواضع مختلفة حسبما اقتضت الحكمة ذكره ، قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ^(١) » أى أنه تعالى خلقهم مستعدين لها أتم استعداد وممكنين منها أكل تمكن ، مع كونها مطلوبة منهم . واللام للغاية والثمره . ولا نزاع أن أفعاله تعالى تستتبع غايات جليلة وثمرات عظيمة ، كيف لا وهى رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وهو عنهم غنى « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أى أن شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم . وقال تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » وهو من يخلف غيره وينوب منابه . والمراد آدم عليه السلام ، لأنه كان خليفة الله في أرضه . وكذلك كل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجته تعالى إلى من ينبيهه ، بل لقصور المستخلف

(١) جوز كثير من أهل السنة تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد وعلى رأى المانحين (المقرلة) ينزل ترتب العاية على ما هي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ما هو غرض له — فإن استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متفنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لا أقدم عليها مما لا نزاع فيه .

عليه عن قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسيط ، ولذا لم يستنبيء ملكا ، وقال تعالى : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى يعلم علم مشاهدة من يجاهد لنصر دينه وإعلاء كلمته وتأييد دعوة الرسل . وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار لله » وقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » أفدركم على عمارتها وأمركم بها — وكل ذلك إشارة إلى تولية النوع البشرى أمورا لم يستصلح لها سواه كما نبه عليه تعالى بقوله للملائكة « إني أعلم ما لا تعلمون » .

وفي هذا المقام يذكر أن الناس فيما أمروا به أقسام ثلاثة « قسم » أدخل بالأمر وانسلخ عما خلق لأجله واتبع خطوات الشيطان وسلك سبيله واثتم به واقتفى أثره وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا . إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » إلى غرورا « وقسم » أذعن للأمر وجد في وظائف العبودية حتى وقف بغاية جهده حيثما وقف كالموصوفين بقوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » الآيات « وقسم » تردد بين الطريقين كما قال تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فمن رجعت حسناته على سيئاته فهو موعود بالإحسان إليه — وعلى الأقسام الثلاثة دل قوله تعالى « وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم » ثم ذكر مآل كل فريق إجمالا في آخر السورة فقال : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان واستراحة ورزق طيب » وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وأصلية جحيم . وجملة القول أن من وفق لفضل ما وهبه الله تعالى وهدى لما أعده له وعرف نفسه وربه ثم استقام فقد أوتى خيرا كثيرا . والله الهادى إلى سواء السبيل .

المحاضرة الثالثة عشرة

مَن الإنسان ؟ — ضرورة الشرع لسعادة البشر — فضيلة الشرع — من لم يتقيد به فليس بإنسان .

مقدمات

١ — لا ريب أن الإنسان إنما صار إنساناً بالعقل ، الذي لو فرضناه خلواً منه لخرج عن كونه إنساناً ، ولم يكن — إذا قطعنا النظر عن الشبح المائل — إلا بهيمة مبهمة أو صورة إنسان وليس به ، والعقل لا يكمل بل لا يكون عقلاً حقيقة إلا بعد تقييده بالشرع واهتدائه به — ذلك أن العقل البشري كثيراً ما يخطئ في تقدير الأشياء والحكم عليها كما تخطئ الحواس والمشاعر . فالعين مثلاً ترى الكبير على البعد صغيراً ، واللسان حالة المرض يذوق الحلومراً ، وقد يهمل الإنسان استخدام جوارحه وعقله فيما فيه سعادته وفلاحه ، ويسلك بهذه المواهب العظيمة مسالك النسي والضلal فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته ، متقادة لسيطانه وهواه ، حتى يورده موارد الهلاك والخسران ، ومنشأ ذلك الخطأ وهذا الإهمال ، وقوع العقل في قبضة الهوى والشهوة وخضوعه لسلطانهما ، ولا سلامة له من خطرهما إلا بتسليم نفسه لقيادة الشرع وتحصنه منهما بحصنه المنيع ، ووقوفه عند حدوده واهتدائه بهديه ولذا نفي العقل عن الكفار لما تجردوا عن الاهتداء بالشرع في مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم .

٢ — الإنسان مهما أوتى من قوة فليس في استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج ؛ ومسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس ومعاشرتهم لتبادل المنافع التي لا بد منها ، إذن فاجتماع بني الإنسان ضروري لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم في هذه الحياة ، ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل يردع الظالم عن ظلمه وينصف المظلوم من ظلمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال في جميع مرافق الحياة ،

وإلا فكيف يتسنى للإنسان أن يعيش سعيداً هادئ البال إذا خلى وعقله وهو عرضة للخطأ ومنازعة الهوى والشهوة وحظوظ النفس التي لا حد لها ، وكثيراً ما تتناول به تلك الحظوظ إلى ما في يد غيره ، وإذا يفضى إلى أن يبغى بعض الناس على بعض فيتنازعوا ويتدافعوا ، ويتواثبوا ويتناهبوا حتى يفنى بعضهم بعضاً . فكان من رحمة الله تعالى يبني الإنسان أن حمام بنور الشرع من السقوط في ظلمات الأهواء والشهوات ، وأنقذهم منها إذا هم رجعوا إليه ، وبين لهم بالدين حدود الأعمال ليقفوا عندها ويكفوا عما وراءها .

٣ — إن مما جعل في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية ، لها السلطان الأعلى على سائر الأكوان ، وإليها وحدها يرجع كل ما لا يعرف له سبباً ، وإن لهم حياة وراء هذه الحياة المحدودة يلقي فيها كل إنسان جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهل يستطيع العقل وحده أن يصل إلى تحديد ما يجب عليه من أنواع العبادة والخضوع لصاحب تلك السلطة الذي خلقه في أحسن تقويم ، ووجهه من القوى والمشاعر ما يكفي لسعادته في العاجل والآجل ؟ وهل يستطيع العقل وحده — بدون هداية الشرع — أن يعرف أحوال هذه الحياة الثانية وما أعد للإنسان فيها من سعادة أو شقاء ؟ كلا ! إنه في أشد الحاجة إلى هداية الدين في ذلك ، كما أنه في أشد الحاجة إليه في بيان ما ينبغى له أن يعمل ، وما ينبغى له أن يتركه . فالعقل وحده قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كلييات الأشياء دون جزئياتها ، كأن يعلم إجمالاً حسن اعتقاد الحق ، وقول الصدق ، واستعمال العدل ، والتزام العفة ، وقبح أضدادها من غير أن يعلم ذلك في كل شيء تفصيلاً — والشرع يعرف كلييات الأشياء ، ويبين ما الذي يجب أن يعتقد ، وما الذي ينبغى أن يفعل ، وما الذي ينبغى أن يترك تفصيلاً في كل شيء — فالعقل لا يعرفنا مثلاً أن لحم الخنزير والدم والخمر والميسر محررات لمضارها ، وأن لا تنكح المحارم لإفضائه إلى الامتهان وانقراض النسل ، وأن لا تنجام النساء في حال الحيض لما في ذلك من الأذى بالرجل والمرأة معاً . فهذه الأشياء وأشباهها لا سبيل إليها إلا بالشرع — فالشرع نظام الأعمال القويمة والأخلاق

الكريمة . والدال على مصالح الدنيا والآخرة . من تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن انحرف عنه وركب هواه فقد ضل سواء السبيل : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . ومن أجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك وحده قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وقال : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

واعلم أن الشرع من وجه هو دواء مفروغ منه تولى عمله الحكيم العليم الذى له الخلق والأمر . « حقاً » إنه لدواء مفيد لحفظ الحياة الأبدية ، والسلامة الدائمة كما قال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى ضالاً فهديناه . وقال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة السرمدية وقال تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . دواء لهم من الشكوك ، وسوء الاعتقاد — ومن وجه هو سراج مزيل لظلمة الخيرة والجهالة كما قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . ومن وجه هو الصراط القويم : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » — ومن وجه هو النعمة التى لا تقاس بها نعمة . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أى جمع بين قلوبكم بالإسلام فصرتم بنعمة الإسلام إخواناً متحابين .

وبعد : فلسنا نريد من الإنسان ذلك الحيوان الناطق ، إذ كثيراً ما تحسبه إنساناً — بنى آدم — يؤنس به أو يركن إليه ويعول عليه ، فإذا عاملته أو عاشرتة وجدته ذئباً أو ثعلباً أو عقرباً أو حرباء ، بل قرداً وشيطاناً رجياً تزيى إنسان وظهر لك فى صورة بنى آدم — وإنما نريد الإنسان الكامل وهو الذى عرف الله جل وعلا معرفة صحيحة فآمن به إيماناً صادقاً . ظهرت آثاره فى استقامة العمل

وتهذيب النفس . كما روى البخارى من حديث أنس مرفوعاً . « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر في النفس وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » . فالإنسان في الحقيقة هو ذلك الطاهر المذهب الذى عبد ربه وقام بالمعنى الذى لأجله خلق . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . خلقه ليعرفه ويخضع لجلاله ويحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين .

الإنسان الكامل هو الذى يتقى الله فى سره وعلايته وفى شدته ورخائه ، هو ذو الشفقة والرحمة إن زاده سعة فى الرزق عرف الله تعالى فضله وشكر له نعمته ، فى عطف على مسكين ، وإغاثة ملهوف وإعانة مكروب — الإنسان الكامل هو المخلص فى المعاملة إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أوتى أدى وإذا ولى عدل هو الذى يوقن أن الدنيا مزرعة الآخرة يغرس فيها أصول الخير ليبنى ثماره فى الدار الباقية جنة ونعيا وملكا كبيراً كريماً .

ومعلوم أن كل شئ أوجد لغاية فلم تحصل عنه تلك الغاية كان فى حكم المعلوم ولذا كثيراً ما يسلب عن الشئ اسمه إذا وجد نفعه أو فعله ناقصاً ، كقولهم للفرس الردى . هذا ليس بفرس ، وللإنسان البذى . هذا ليس بإنسان ، ويقال : فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل نفع عينه وأذنه ، وإن كان شبيهماً باقياً . وعلى هذا قوله تعالى : « صم بكم عى » . فبمن لم ينتفع بهذه الأعضاء . فالإنسان يحصل من الإنسانية بقدر ما يكون منه من المعانى التى لأجلها خلق ، فمن قام بها حق القيام فقد استكمل الإنسانية ، ومن رفضها فقد انسلخ منها وصار حيواناً أو دون الحيوان كما قال تعالى فى وصف الكفار : « إن هم إلا كالإنعام بل هم أضل سبيلاً » وقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . فلم يرض عز وعلا أن يجعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل من الأنعام وأشر من الدواب . وإنما كانوا أضل سبيلاً من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدوها وتحبه ، وتميز من يحسن إليها بمن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها . وتنفر مما يضرها . وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه

من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون رضاه وهو أعظم المنافع . ولا يتقون غضبه وهو أشد المضار . ولأن الأنعام إن لم تعتقد حقاً ، ولم تكسب خيراً لم تعتقد باطلاً ، ولم تكسب شراً . بخلاف هؤلاء . ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذنب لها ، وهؤلاء مقصرون مستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم . ولأن جهالتها لا تضر بأحد ، وجهالة هؤلاء تفضي إلى إثارة الفتن ، وصد الناس عن الحق وكانوا شر الدواب لإبطائهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من نعمة العقل والتمييز .

لا يقال : فعلى هذا لا يصح أن يقال للكافر إنسان مع أن الله تعالى سماهم بذلك في عامة القرآن — لأننا لم نقل لا يسمى به عرفاً ، بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضي أن لا يسمى به إلا مجازاً ما لم يكن فيه العقل المختص به — أما إذا سمي به في عرف العامة ؛ فليس ذلك بمنكر — فكثير من الأسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع أن ليس على ما استعملوه ، كالغنى فإنهم استعملوه في كثرة المال ، وبين الشرع أنه ليس به ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الغنى عن كثرة العراض ولكن الغنى غنى النفس » . رواه البخارى من حديث أبي هريرة ، ولكن مشدداً ومخففاً — وإنما كان الغنى الحقيقي غنى النفس لأن من ملكه الطمع ، واستولى عليه الجشع بعيد أن يكون في راحة ؛ فهو في كل وقت مفتقر للمزيد ، كلما حصل على مرغوب تطلعت نفسه لسواه ، فلا يهنأ بما جمع ، ولا يكف عن طلب المزيد مما فيه عناؤه وبلاؤه — وجملة الأمر أن الحكيم إذا أطلق اسماً على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » . وقوله تعالى « ورفعنا لك ذكرك » . وإن كان الذكر يقال للمدوح والمذموم .

وما أحسن قول بعضهم في هذا المقام : الإنسان هو الناطق الخى الميت . فإنه كلام صحيح وليس معناه ما يبدو منه من أنه من الحياة الحيوانية ؛ والموت الحيوانى والنطق الذى هو فى الإنسان بالقوة ؛ وإنما المراد بالخى من كانت له الحياة المذكورة فى قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » . وبالنطق البيان المذكور فى قوله : « علمه البيان » وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين لسلطان الشرع ،

كما قال الإمام على رضى الله عنه : « من أemat نفسه فى الدنيا فقد أحيها فى الآخرة » .
فعنى الآية الكريمة : « لينذر » القرآن أو الرسول من كان مؤمناً مهذباً ، فإن
الحياة الحقيقية إنما هى بالإيمان الصادق الذى وقر فى النفس وصدقه العمل الصالح
الذى تقوم به أخلاقه وتهذب به نفسه « ويحق القول » وتجب كلمة العذاب :
« على الكافرين » . وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وعدم
تأملهم أموات بالحقيقة . وبالله تعالى التوفيق .

المحاضرة الرابعة عشرة

عبرة خلقية من سيرة النبى صلوات الله وسلامه عليه "

وهى المحاضرة الحكيمة القيمة الناطقة بالحق التى ألقاها بدار جمعية مكارم
الأخلاق حضرة صاحب الفضيلة والأدب الأستاذ العظيم الشيخ عبد الوهاب خلاف
بك مدير عموم المساجد بوزارة الأوقاف سابقاً ، فاسترعت الأسماع وأخذت بمجامع
القلوب — جعلناها ختام المحاضرات لنفاستها وعظيم نفعها فى الدعوة إلى الله تعالى
وحث الأمة على التعلق بهذه الرحمة المهداة والتأسى به فى أفعاله وأخلاقه — وإن
الناظر إليها يرى منها مبلغ رقة شعوره ، وسلامة ذوقه . فى جزالة معانيها . ورصف
مبانيها ، ومقدار توحيه الحق فى ذكر سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتحريره
فى نشر شمائله ما أقره الشرع وصدقه الحس . قال أحياء الله حياة طيبة للعلم والفضيلة
بهذا العنوان السابق .

أحمد الله الذى أتاح لى هذه الفرصة ، ووفقنى أن أقوم فى اليوم التالى ليوم
ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم أذكر مثلاً من مكارم أخلاقه ، ومحاسن شمائله وما
أحوجنا — وقد أصبحت حالنا الخلقية من أشد أمراضنا الاجتماعية — أن نرجع إلى
إلى سيرة العظماء من الرجال نتعرف أخلاقهم التى كونت عظمتهم ، وشمائلهم التى
يرجع إليها نجاحهم ، أولئك الذين هدام الله وهدى بهم ، وأولئك الذين يجب أن
يكون لنا فيهم أسوة حسنة وعبرة بالغة — وإن فى سيرة الصادق الأمين صلى الله

عليه وسلم من آيات الأخلاق الكريمة والفضائل النفسية ما فيه عظة وذكري -
ونحن موجزون القول في أمثلة من هذه الخلال الحميدة ليكون لنا في رسول الله أحسن
أسوة . وإن الذكري تنفع المؤمنين .

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة : قضى منها أربعين قبل
أن يُبعث رسولا ، وقضى الباقيات نبياً ورسولا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .
وهذا العمر المبارك لم يبلغ سن المعمرين ولكنه كان أطول الأعمار أثراً باقياً وحركة
مباركة ، وأعمار الرجال لا تقاس بعدد السنين . وإنما تقاس بما تشر من جليل الأعمال
وحيد الآثار . ورب ابن أربعين كان في نظر التاريخ أطول عمراً من كثير من
المعمرين . وقد كانت هذه الحياة في كل أطوارها عامرة بالخير والهدى . وكان
الرسول في كل سنيه مثلاً حسناً للفضائل والكمالات . وكان في حربه وسلمه وفي
دعوته وعبادته وفي أسرته وبين صحابته . وفي فصله الخصومات وقسمته الفتنان وفي
كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله فيه : « وإنا لك لعلى خلق عظيم » ولقوله
صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقوله : « أدبني ربي
فأحسن تأديبي » .

رحمة كله حزم وعزم ووقار وعصمة وحياء

لا نخل البأساء منه عرى الصبر ولا نستخفه السراء

كرمت نفسه فما يخطر السوء على قلبه ولا الفحشاء

مثل من أخلاقه قبل البعثة : ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من
أول نشأته آيات الخلال الحميدة والشمائل الطيبة ، وكذلك كل ناشئ كتب الله أن
يترقبه المستقبل السعيد تلمح في نشأته دلائل سعادته وتقرأ في مقدمة حياته ما ينم عن
نتائجه . وكان أظهر شمائل الرسول قبل البعثة ثلاث خصال تحلت بها نفسه الكريمة
وجملته خير أهل لأن يكون مهبط وحى ربه ، ورسولا بينه وبين خلقه « فأولى »
تلك الخصال تباعده من أول نشأته عن الأوثان وقرايينها وحفلاتها ، وكل ملاهى

السوء التي كان أهل الجاهلية يلهون بها . قال صلى الله عليه وسلم : « لما نشأت
بغضت إلى الأوثان وبغضت إلى الشعر ، وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية
يعملون به غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك . ثم ما هممت
بسوء حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لفلان كان يرعى معي : « لو أبصرت
لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى إذا
جئت أول دار من مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست أنظر ،
فضرب على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم عراني
مرة أخرى مثل ذلك . ثم لم أهتم بعد ذلك بسوء . وكما بغضت إلى الأوثان والشعر
وملاهمى أهل الجاهلية حجب إلى الخلوة والوحدة والنظر والتفكير » وكذلك الإنسان
الكامل ، إذا نشأ في بيئة ورأى الناس يولون وجوههم قبلة لا يرضاها ولا سبيل له
إلى تحويلهم يربأ بنفسه عن مجتمعاتهم ويؤثر الوحدة على مجالستهم ، لأن كمال النفس
ينأى بها عن مظان السوء وجلسائه .

ألف النسك والعبادة والخلاوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

الخلاصة الثانية : صدقه صلى الله عليه وسلم : شهد له بالصدق أعداؤه وأحباؤه .
ففي البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هرقل ملك الروم سأل عنه أباسفيان
ابن حرب قبل أن يسلم أبوسفيان : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول
ما قال ؟ قال لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،
ولقى رجل أباجهلاً ألد أعداء الرسول فسأله : يا أباجهلاً ! ليس هنا غيرى وغيرك
يسمع كلامنا . فخبرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبوجهل : والله إن محمداً لصادق
وما كذب محمد قط . وفي هذا يقول الله تعالى لرسوله : « فإيهام لا يكذبونك ولكن
الظالمين بآيات الله يمحذون » ، وقال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم
غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم
في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به . قلتم ساحر والله ما هو بساحر .

الخصلة الثالثة : أمانته صلى الله عليه وسلم . كان آخيه في الجاهلية الأمين وكانوا يستحفظونه أماناتهم ويودعونه ودائعهم . قال ابن إسحاق : ما كان بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عند محمد صلى الله عليه وسلم لما يعلم من صدقه وأمانته . ولما اختلفت قریش في الجاهلية عند بناء الكعبة في من يضع الحجر الأسود اتفقت كلمتهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم ، فإذا محمد أول داخل ، فقالوا : هذا محمد هذا الأمين . قد رضينا حكاماً . وكانوا لما عرفوه من صدقه وأمانته ، يتحاشون إليه في الجاهلية يفصل في خصوماتهم ويحسم منازعاتهم ، ويرضون بحكمه وعدله ، ومن هذا يتجلى أن الصادق الأمين كان من أول نشأته على استعداد خلقى لأن يكرمه الله برسالته . وكانت نفسه الطاهرة بما طبعت عليه من الكرم والفضائل ، أفضل منبت طيب لنمو الفضائل والكمالات . ولذلك صادف منه التأديب الإلهي نفساً كريمة تكلمت بما أدبها الله به من الأدب الحسن . فقال صلى الله عليه وسلم من كمال الخلق وشرف الفضيلة ، حتى رأى الناس من حلمه وعفوه وتواضعه وصبره ما جمع قلوبهم حوله ، واستحق ثناء الله عليه في كتابه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

مثل من أخلاقه في الدعوة : لما بعث صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو الناس إلى التوحيد ، تجلت أخلاقه الكريمة ونفسه الفاضلة فيما احتمله في سبيل الدعوة من الشدائد ، وما عامل به المدعوين من صبر على أذى وإحسان في مقابلة إساءاتهم مما كان طريقاً لهداهم وعلاجاً لقوتهم . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قام في مكة — وهي حصن الأصنام ومهد الوثنيين — يدعو إلى عبادة الله وحده وتنكيس الأوثان . قام وهو يتيم لا يعتمد في دعوته على جاه أو عصبية ، وهو فقير لا يستعين بمال ولا ثروة ، وهو وحيد يحذله أدنى الأفرين إليه ، وليس له من دون الله ناصر ولا معين . قام يدعو قوماً أشداء أخذتهم العزة بالإثم ، وأنفوا ما وجدوا عليه آباءهم واستعزوا بما لهم من حول وسلطان . فوضعوا في سبيله كل عقبة ، وسدوا في وجه دعوته كل طريق ، وآذوه ومن تبعه بكل ضروب الإيذاء ، كل هذا ورسول الله

لا يزداد إلا ثباتاً على إيمانه وتمسكاً بدعوته ولا يتمرب اليأس إلى قلبه ، ولا الفتور إلى عزيمته . حتى غلب الحقُّ الباطل وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وأبدل وحدته أمة قوية ، ويتمه أفضل عصبية .

قام هذا النبي يدعو إلى الله — وفي الكفر مجدة وإباء
أما أشربت قلوبهم الكفر ر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا وإذا الحق جاء زال المرء
رب إن الهدى هداك وآيا تلك نور تهدي بها من تشاء

ولنا في هذا الفجاء عبرتان (الأولى) أن الرسول صلى الله عليه وسلم احتمل في دعوته إلى الحق كثيراً من الشدائد ، وصنوفاً من الأذى . وما كان شيء من ذلك يضعف من عزيمته ، أو يسبغه عن دعوته . وكذلك الداعي إلى الحق يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكارِه ، ويواصل السير في سبيله ، مهما لاقى من صعاب ونال من أذى : استهزؤوا بالرسول فكان إذا مر عليهم يقولون — سخريه منه — هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء . هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء . وكان عمه أبو لهب جاراً له ويتمم رمى القدر على بابه ، فكان رسول الله يلقى القدر ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ وعقبة بن أبي معيط أخذ من فضلات الإبل وألقاها على رسول الله وهو في صلاته ساجداً ، ولم يقدر أحد من المسلمين أن يرميها عنه حتى جاءت بنته فاطمة فألقت الفضلات من على ظهره . وبينما كان يصلي في الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ووضع ثوبه في عنقه واشتد في خنقه حتى جاء أبو بكر فدفعه عنه وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ وما زالوا يبتلونهم ومن تبعه بضروب الكيد والخن حتى انتصروا على قتله ، واضطرُّ فراراً بدينه ودعوته أن يخرج من داره ومولده . ولم تزل هذه الشدائد من إيمانه ولم ترده إلا ثباتاً على دعوته . وهكذا ما قام إلى الحق داع إلا وجد من أنصار الباطل من يخذله ويصدّه عن سبيله ، ويحاول إطفاء نور الحق الذي يدعو إليه . ولكن الإيمان القوى واليقين الثابت والغاية السامية تهون الصعاب وتحجب إلى النفس المكارِه . والفوز للحق والعاقبة

للمحققين « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

المعبرة الثانية : من نجاح رسول الله في دعوته أن الفضل الأكبر في هذا النجاح يرجع إلى أخلاقه وشمائله لأنه أقام من صفاته براهين عدة على صدقه وأن ما يدعوه إليه حق ، وكان أعداؤه كلما زين لهم مطعن فيه وجدوا من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفي طعنهم ويرد كيدهم * ولما اجتمعوا في دار ندوتهم يتشاورون فيما يرمون به محمداً في موسم الحج ليقطعوا عليه طريق الدعوة ، وينفروا منه القبائل ويحولوا بينهم وبينه ، كانوا كلما افترى كبير لهم على محمد فرية ردوا عليه هم أنفسهم بما عرفوه من خلال الرسول التي تفضح مفترياته وتنتج نقيض قصده . وهذا هو قل لما قال له أبو سفيان : إنا لم نتهم محمداً بالكذب قط . قل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وكثيراً ما كان حمله عند الغضب وعفوه عند القدرة وإحسانه إلى المسيء سبباً في الإيمان به ، وإجابة دعوته ، واجتماع القلوب حوله : جاء يهودى اسمه زيد إلى رسول الله يتقاضاه ديناً فغذب الرسول من ثوبه وأغلظ في القول وقال : يا بنى عبد المطلب أنتم قوم مطل . فهم عمر بالانتقام منه ومقابلة الغلظة بالغلظة ، فابتسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال لعمر « إنا وهو كنا أحوج منك إلى خير من هذا يا عمر : تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء » . ثم قضى للدائن دينه وطيب خاطره على ما روعه عمر . وكان هذا سبباً في إسلام اليهودى . ولما جاء نصر الله والفتح ودخل رسول الله المسجد الحرام جاءه أشراف قريش وسادتهم بعد أن أظهره الله عليهم وحكمه فيهم فقال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قلوا : خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم . قال أقول لكم ما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

جهلت قومه فأغضى عليهم وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وكان عمر يبكى رسول الله بعد وفاته ويقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذرعلى الأرض من الكافرين دياراً »

ولو دعوت علينا لهلكنا ، ولقد وُطئ ظهرك وشج وجهك وكسرت رباعيتك فما زدت على أن قلت : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وهكذا كان رسول الله داعياً بأخلاقه وأعماله ، كما كان داعياً بأقواله . وكذلك فليكن الدعاة فإن القول لن يبلغ في تأثيره مبلغ العمل ، والداعى إذا لم يكن عمله برهاناً على قوله لا يستجيب الناس لدعوته ، ويرتابون في صدق مقالته . وكانوا قديماً يقولون :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى
ولكن أثبت التجارب أن هذا سبيل للإرشاد غير قويم ، وأن المدعو لا يمكنه أن يفض النظر عما عليه الداعى ، والمريض إذا وجد الطبيب عيلاً بذات مرضه يشك في نفع علاجه . ولهذا ترى القدوة الحسنة أبلغ في التذكير من أى مقال . قال شعيب لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » .

عبرة من الهجرة

لما أسرفت قريش في محاربة الدعوة إلى الإسلام . والكيد للداعى ، واستحجرت قلوبهم وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » أراد صلى الله عليه وسلم أن يولى وجهه بليلاً غير مكة وقوماً غير قريش ، عله يجد أرضاً خصبة صالحة لنمو دعوته ، وقلوباً سليمة تتقبل الحق وتعمل على نصرته ، فأخذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم ، يكلم كبارهم ويقول : لا أكره أحداً منكم على شئ ، وإنما أريد أن تمنعوا عني من يؤذيني حتى أبلغ رسالات ربي ، وما كان يجاب من هؤلاء إلا بالرفض ، وأقبح أنواع الرد ، ولكن الله جعل من العسر يسراً ، ومن الشدة فرجاً : فعرض نفسه على نفر من الخزرج أتوا من يثرب لزيارة البيت الحرام فأسمعهم كلام الله ودعاهم إلى عبادته وحده ، فاستجابوا لدعوته ، واستشارهم فى أن يهاجر إليهم حتى يفتح طريقاً

(٢٥)

للدعوة ويؤدى رسالة ربه . فقالوا : يا رسول الله دعنا حتى نرجع إلى عشائرنَا ندعوم
إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمعهم عليك ، فإذا اجتمعت كلمتهم عليك ،
واتبعوك فلا أحد أعز منك ، وموعدك الموسم القابل : وأراد الله أن يظهر دين الحق
على الدين كله ، فبايعه في الموسم من العام التالى نفر من أهل المدينة ، وخرج من
أهله وداره ، ومن بين عشيرته وأهله . فخرج خفية يسير فى طريق وعر مخوف ليس
معه إلا صاحبه أبو بكر والله ثالثهما ، ينتابه الحزن على فراق وطنه ؛ والخوف من
هؤلاء الأعداء المجدين فى طلبه ، وما هو إلا أن فرج الله كربه ، وشد بالأنصار
والمهاجرين أزره . وأشرق نور الحق على القلوب ، وفتحت السبل للدعوة « يريدون
أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .
والعبرة من هذه الهجرة فى مظاهر عديدة أبلغها أن الدعوة إذا كانت للحق
وبالحق فإن اضطهادها يكون فى الغالب من وسائل نشرها وإعلاء شأنها ، لأن
الداعى ما دام موقفاً أنه على الحق لا يرجع عن دعوته ، واضطهاده يحمله على إمعان
النظر وتقليب وجهه فى كل جهة ، وهذا قد يوجد لنجاح الدعوة أسباباً ووسائل
ما كانت تفسر لولا الشدة فى محاربه والإسراف فى إيذائه . (وثانيها) : أن
الداعى كالغارس يتخير أطيّب الأرض لنمو غرسه وإذا صادفته صخرة لا يمنعه ذلك
أن يتطلب الأرض الخصبة ، لأنه موقن بجودة غرسه وطيب بذره ، وأنه إذا وجد
المنبت الطيب نما وآتى أكله كل حين بإذن ربه . فالدعوة إلى الحق إذا صادفت
قلوباً غلفاً وآذاناً صماء لا يمنع ذلك الداعى أن يتلمس قلوباً غير هذه القلوب ، وآذاناً
غير هذه الآذان . والحق لابد أن يظهر والخير لا يعدم نصيراً . وجملة القول أن الرسول
قبل مبعته وفى دعوته وفى هجرته أظهر آيات بينات من كرم النفس وأسمى الفضائل
وكان من أظهر شمائله صلى الله عليه وسلم اليسر والقصد والاعتدال فى كل شىء .
قالت عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من
مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شىء ، فإذا انتهك من محارم الله شىء
كان أشده فى ذلك غضباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً »

« ودخل على عائشة فوجد عندها امرأة فقال : من هذه ؟ قالت : فلانة تقوم الليل ما تنام . فقال عليه السلام : عليكم من العمل بما تطيقون » . وقال لمن قام الليل حتى غارت عيناه : « فأوغل فيه برفق وان يشاد الدين أحد إلا غلبه » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله وصحابته متواضعاً لين الجانب يقدر آراءهم ولا يستبد بالأمر دونهم ، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم . وبهذا لانت له القلوب . ونوه الله بشأنه فقال عز من قائل : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وإن في سيرة الرسول لعلبة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

نماذج من أشهر مواعظ السلف

وفاء بما وعدناك أول الكتاب نسمعك شيئاً من مواعظ السلف الصالح فاستمع لما قالوا فإن فيه الخير الكثير فاغتنمه فقد قال الفضيل : نعمة الهداية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يلقها إلى أخيه . وقال حكيم : اجعل ما في الكتب بيت مال وما في قلبك للنفقة . وقال آخر : يكتب الرجل أحسن ما سمع ويحفظ أحسن ما كتب .

فمن المأثور أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال : طوبى لك يا طائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ، يا ليتني كنت مثلك ، والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فرى على أمير فأخذنى فلا كنى ثم ازدردنى ثم أخرجنى بهراً ولم أك بشراً * وقدم عليه وفد من أهل اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال أبو بكر : هكذا كنا حتى قست القلوب . ثم قال : طوبى لمن مات في نأنة الإسلام — أى في بدئه حين كان ضعيفاً قبل أن تكثر أنصاره والداخلون فيه ، تقول نأنة عن الأمر نأنة إذا ضعفت عنه وعجزت . وقال الخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة : احرص على الموت توهب لك الحياة . وهى من بدائع الحكم وجوامع الكلم . عمل عليها المجاهدون في سبيل الله فظفروا بحياة سعيدة ليس وراءها حياة . وقال : إياكم والعمل بالمعاصي

وكفرَ النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزم وسلط عليهم عدوهم — وروى الحسن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الناس طالبان طالب يطلب الدنيا فافضوها في محره ، فأنه ربما أدرك الذى طلب منها فهلك بما أصاب منها ، وربما فاته الذى طلب منها فهلك بما فاته منها . وطالب يطلب الآخرة فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافسوه . وعنه أيضاً أنه قال : أيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإننا كنا نعرفكم إذا الوحي ينزل وإذا النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرفكم بما أقول لكم ، ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثميننا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه . اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلعة وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقیل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً . اقدعوا : امنعوا . يقال قدع نفسه إذا قمعها وقهرها . وطُلعة . كهَمْزة كثيرة التطلع إلى الأمور . ومرىء محمود العاقبة . والوبىء المهلك . وعالج الشىء حاوله — وقال يوماً لرجل : لا يهلك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يصير إليك دونهم ، ولا تقطع الهار سادراً فإنه محفوظ عليك ما عملت ، وإذا أسأت فأحسن فإنى لم أر شيئاً أشد طلباً ولا أسرع دركاً من حسنة حديثة للذنوب قديم — سادراً لاهياً ، والسادر أيضاً المتحير ، والذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع — وقال ابن عمر : لما حضرت الوفاة عمر غشى عليه فأخذت رأسه فوضعتها في حجرى فقال : ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى . فمسح خديه بالتراب وقال : ويل لعمر إن لم يغفر له . فقلت : وهل فخذى والأرض إلا سواء يا أبتاه ، فقال : ضع رأسى بالأرض لأمر لك كما أمرك ، فإذا قضيت فأسرعوا بى في حفرتى ، وإنما هو خير تقدمونى إليه أو شر تضعونه عن رقابكم . ثم بكى فقبل له : ما يبكيك ؟ قال خير

السما لا أدري إلى جنة ينطلق بي أو إلى نار — وكتب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص : يا سعد سعد بنى وهيب إن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه فاعتبر منزلة من الله بمنزلة من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل الذى الله عندك . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول : إن لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله — يعنى المصحف — وكان رضى الله عنه حافظاً وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف ف قيل له فى ذلك ، فقال : إنه مبارك جاء به مبارك . ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المقابر فقال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت . فهذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذى نفسى بيده لو أذن لهم فى الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى — ومن كلامه : ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم ، وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم وولاه من قلوبهم ، لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد — والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد — ولما ضرب به ابن ملجم دخل منزله فاعتزته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقال : أوصيكما بتقوى الله ، والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شئ فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما والمظلوم عوناً ، ثم دعا محمداً وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال بلى . قال فإنى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيراً فإنه أخوكا وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحياه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعدو ، والعدل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء : يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية : يا بنى من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ، ومن رضى بقسم الله لم يحزن على ما فاتته ، ومن سل سيف البنى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيه ، ومن هتك

حجاب أخيه انكشفت عورات بنيه ، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئته غيره ،
ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن
خالط الأندال احتقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم
ومن يصحب صاحباً صالحاً يغتم ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن لا يملك
نفسه ندم ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر
كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن
قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . — يا بني الأدب خير ميراث ،
وحسن الخلق خير قرين . يا بني العافية عشرة أجزاء : سعة منها في الصمت إلا عن
ذكر الله تعالى ، والواحدة في ترك مجالسة السفهاء . يا بني لا شرف أعلى من الإسلام
ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أجمع من التوبة
لا لباس أجمل من العافية — الحرص مفتاح التعب ، ومطية النصب . التدبير قبل
العمل يؤمنك من الندم . بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، فطوبى لمن أخلص
لله علمه وعمله ، وحبه وبغضه ، وأخذه وتركه ، وكلامه وصمته ، وقوله وفعله .

وقال الحسن البصري : يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تريحهما جميعاً ، ولا تبع
آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا ابن آدم إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم
فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغتبطهم فيه . الثواء ههنا قليل ، والبقاء هناك طويل ،
أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنظرون ؟ المعاينة
فكان قد ، هيئات هيئات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق
بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة — أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم
ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم .
وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً
ورائحاً لم يضع لبنه على لبنه ، ولا قصبة على قصبة . رفع له علم فشم إليه ، فالوحاء الوحاء
والنجاء النجاء . علام تمرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل
يوم تنظرون . إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه السلام على علم منه ، اختاره

لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ورسوله إلى عباده ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض وآتاه منها قوتاً وبلغه . ثم قال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . فرغب أقوام عن عيشه وسخطوا ما رضى له ربه فأبعدهم الله وسحقهم — يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فلانها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل في هدم عرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر ففكر ، وتفكر فاعتبر فأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام ولم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم اذكر قوله : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » . عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك ، خذوا صفاء الدنيا وادروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدراً ، ولا الكدر ما عاد صفواً . دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وغفت السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدور . ولقد رأيت أقواماً كانوا لحسناتهم أشفق من أن ترد عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها . مالي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً ؟ ذهب الناس ، وبقي الناس . لو تكاشفتهم ما تدافتم ، تهاديتهم الأطباق ولم تهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : « رحم الله امرءاً أهدي إلينا مساويفاً » . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكنه أخذ عن ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتقى ، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل . وكان إذا قرأ : « ألهاكم التكاثر » قال : عم ألهاكم ؟ عن دار الخلود وجنة لا تبید ؟ هذا والله فضح القوم وهتك الستر وأبدى العوار ، تنفق دينارك في شهواتك سرفاً ، وتمنع في حق الله درهماً ، ستعلم يا أكم أن الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق ، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف وقومه ذكر

العرض . وأما الكافر فقد قمع السيف ، وشرده الخوف ، فأذعن بالجزية وسمح بالضريبة . وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة . ويهلك قتلته عليه ثم تمنى عليه جنته . وكان يقول : رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه أعتب وأتاب ورجع من قريب رحم الله رجلا وعظ أخاه وأهله فقال : يا أهلي صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم جيرانكم جيرانكم ، إخوانكم إخوانكم ، مساكينكم مساكينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » يا ابن آدم كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك وكيف تكون مؤمنا ولم يأمنك الناس . وكان يقول : لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره . وإني ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره فلا تحقرن شيئا من الخير وإن صغر ، فإنك إن رأيت مراك مكانه ، ولا تحقرن شيئا من الشر وإن صغر فإنك إن رأيت ساءك مكانه — وكان يقول : رحم الله عبداً كسب طيباً وأنفق قصداً ، وقدم فضلا . وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويؤثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا . فأياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار . أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفتشون خدودهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكك رقابهم . إذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم — يا ابن آدم ان كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ههنا نبي يغنيك ، وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك . يا ابن آدم لا تعمل شيئا من الحق رياء ولا تتركه حياء .

وكان يقول : إن العلماء كانوا قد استغنوا بعلمهم عن أهل الدنيا وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضى أهل الدنيا بدنياتهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دينيهم لأهل العلم رغبة في علمهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دينيهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياتهم عنهم وزهدوا في علمهم لما رأوه من سوء موضعه عندهم — وكان يقول : لا أذهب إلى من يوارى عنى غناه ويبدى لى فقره ويغلق دونى بابه ، ويمتنعنى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويبدى لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده . وكان يقول : يا ابن آدم لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مهتم وعليج أغتم ، وأعرابى لا فقه له ، ومنافق مكذب ، ودنياوى مترف . نطق بهم ناعق فاتبعوه ، فراش نار وذباب طمع . والذي نفس الحسن بيده ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله . الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بلاء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه — أى قوم إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه . وقال فى يوم فطر — وقد رأى الناس وهيئاتهم — إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف آخرون فحسروا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون . أما والله أن لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيء بإساءته عن ترجيل شعر أو تجديد ثوب — وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه — ودخل يوماً على رجل يعود فقل : كيف تجددك ؟ قال : أفرق من الموت . قال : فمن أصبت الخير كله ؟ قال من الله . قال : فلم تفرق ممن لم تصب الخير كله إلا منه ؟ — وكان يقول : أبغض الناس إلى أن أظلمه من لا يستعين على بأحد إلا بالله — وكان يقول : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا ينال ما عنده إلا بتركها

وعظ العلماء للأمرء

لا ينبغي للمرشد أن يتهاون مع ذوى السلطان فيما يخالف الدين ويضاد الحق ، موافقة لأربهم ومتابعة لهوامهم ، فربما زلت أقدام المتزلفين فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة ، وقبح الأحداث . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ، ولم يترك صلاحها فجارها ، ولم يمار أخيارها أشرارها ، فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبارتهم فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفقر والفاقة ، وملأ قلوبهم رعبا » . علم هذا علماء السلف وأردفوا العلم بالعمل ، فكان لهم مع الأمراء وذوى السلطان مواقف مشرفة ، خلدت لهم أحسن الذكري وأجل الآثار ، أعانهم على ذلك ما امتلأت به قلوبهم من الثقة بالله مع ما يعلمونه من سلطان الدين على نفوس الأمراء وذوى السلطان . وإليك شيئا من آثارهم فى ذلك ينفعك فى حياتك ومهمتك .

قال الزهرى : ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين اسمع منى أربع كلمات فيهن صلاح دينك ومليكك وآخرتك ودنياك . قال لا تعد أحدا عدا وأنت لا تريد إنجازها ، ولا يغرنك مرتقى سهل إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن الأعمال جزاء فاحذر العواقب ، والدهر تارات فكن على حذر — وروى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصرى والشعبي ، وجعل يحادثهم فذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال منه ، وجاراه من معه تقر بآله ، وأمنا من شره ، إلا الحسن البصرى فصمت على مضض وعض على إبهامه إذ غلى رجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال : يا أبا سعيد مالى أراك ساكتا ؟ قال : ما عصيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى عن رأيك فى أبى تراب . قال : سمعت الله حل ذكره يقول : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى

الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختمه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله ، إن نستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها ، وأقول : إن كانت أعلى هنات فالله حسبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مضطرباً فدخل بيتاً خلفه ، وخرج الجمع . فقال عامر الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره . فقال : إليك عني يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت أو سكت فسلمت . قال الشعبي : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك ، وأشد في التبعة . وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذي تقول : قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الديار والدرهم ؟ قال : نعم . قال : ما حملك على هذا ؟ قال : ما أخذته الله على العلماء من الموائيق « لِيُبَيِّنَنَّهٗ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ » ، قال : يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره ، فأفرق بين رأسك وجسدك — هكذا تكون قوة الإيمان ، وهكذا تكون الثقة بالله وهكذا تكون الشجاعة في نصرة الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودخل ابن السماك يوماً على أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فوافق أن وجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تنتظر به قليلاً . فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى لو أنك منعت هذه الشربة من الماء فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . قال : اشرب هناك الله ، فلما شرب قال : أستحلفك بالله تعالى يا أمير المؤمنين لو أنك منعت خروجها من جوفك بعد هذا فبكم كنت تشتريها ؟ قال بملكى كله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن ملكاً تربو عليه شربة ماء لخليق ألا ينافس فيه ، فبكى هارون حتى ابتلت لحيته . فقال الفضل ابن الربيع — وكان واقفاً بين يدي الأمير — مهلاً يا ابن السماك فأمر المؤمنين أحق من رجا العاقبة عند الله بعدله في ملكه وحسن قيامه بحق ربه . فقال ابن السماك : يا أمير المؤمنين والله إن هذا ليس معك في قبرك غداً ، فانظر انفسك فأنت بها أخير

وعليها أبصر ، وأما أنت يا فضل فمن حق أمير المؤمنين عليك في تقريبه إليك وبره بك ، أن تكون يوم القيامة من حسناته لا من سيئاته ، فذلك أكفاً ما تؤدي به حقه عليك والسلام — وقدم هشام بن عبد الملك حاجاً أيام خلافته فقال : إيتوني برجل من الصحابة . فقيل قد تفتنوا . قال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعله بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ، بل قال : السلام عليك . ولم يكنه ، وجلس بإزائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضباً شديداً وقال يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقال : وما صنعت ؟ فازداد غضباً وقال : خلعت نعلك بحاشية بساطي ، ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ، ولم تكنني وجلست بإزائي . فقال طاووس : أما خلعت نعلي بحاشية بساطك فأني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يغضب علي لذلك ، وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكهرت أن أكذب ، وأما قولك لم تكنني فإن الله تعالى سمى أوليائه فقال : يا داود يا يحيى ، يا عيسى . وكنى أعداءه فقال : « ثبت يدا أبي لهب وتب » . وأما قولك جلست بإزائي فأني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظمي . فقال طاووس : سمعت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن في جهنم حيات كالتلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ، ثم قام عنه وانصرف .

حلم أمير وثبات امرأة

في العقد الفريد عن سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال : حج معاوية رضي الله عنه فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجاء بها فقال : ما جاء بك يا بنت حام ؟ فقالت : لست لحام إن عبتني ، أنا امرأة من

كفانة . قال : صدقت ، أتدريين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني ، وواليتي وعاديتيني ؟ قالت : أو تعفيني ؟ قال : لا . قالت : أما وقد أبيت فإني أحببت علياً على عدله ، في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك في القضاء ؛ وحكمتك بالهوى . قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ، قالت : بهند أمك والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي . قال معاوية . يا هذه أربعي على نفسك ، فإننا لا نغني إلا خيراً ، أنه إذا انتفخ بطن المرأة فقد تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها . فسكتت وسكت . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله قال فكيف رأيته ؟ قالت . رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يحلو القلوب من المعنى كما يحلو الزيت صدأ الطسوت . قال : صدقت . فهل لك حاجة ؟ قالت : أفأت قاضياً ؟ قال : نعم قالت : أريد منك مائة ناقة حمراء ، فيها فحلها وراعيها . قال : ماذا تصنعين بها ؟ قالت : أغدوا بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قل فإن أعطيتك إياها فهل أحل عندك محل علي ؟ قالت : سبحان الله أو دونه ؟ فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذي بعدى يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان علي ثانياً ما أعطاك منها شيئاً . قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من بيت مال المسلمين . فقال أعطوها ما سألت ، وردوها إلى أهلها مكرمة . وقال القطبي في تاريخ مكة المكرمة : إنه لما حج المنصور كان يخرج من

دار الندوة — وكانت خلف المسكان الذي أعد لصلاة الإمام الحنفى ، وكان ينزل فيها الخلفاء والملوك — إلى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلى ، ولا يعلم به أحد ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة فيجىء المؤذنون ، ويسلمون عليه ويؤذنون للفجر و يقيمون الصلاة ، فيخرج يصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة فى السَّحَر ، وشرع يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور فى مشيته حتى ملأ سامعيه من كلامه ثم خرج من الطواف إلى ناحية المسجد ، ثم أرسل إلى ذلك الرجل يطلبه ، فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور ، فقال له المنصور : ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى وأشغل خاطرى . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن آمنتى على نفسى وأصغيت إلى بأذن واعية أنباتك بالأمر بأصلها ، والا احتجبت بقدرة الله تعالى فلا تصل إلى ، واقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاعل عن غيرى . فقال : أنت آمن على نفسك فقل فإنى أتى إليك السمع وأنا شهيد بالقلب . فقال : إن الذى داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ، ومنع من إصلاح ما ظهر من الفساد والبغى فى الأرض هو أنت . فقال : أيها الرجل ، كيف يداخلنى الطمع والصفراء والبيضاء بيدي ، والحلو والحامض فى قبضتى ؟ ومن يحول بينى وما أريد من ذلك ؟ فقال : هل داخل الطمع أحداً من الناس ما داخلك ؟ يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأنفسهم وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الحجر والطين ، وأبواباً من الخشب والحديد ، وحجاباً معهم السلاح ، واتخذت وزراء فجرة ، وأعواناً ظلمة ، إذا نسيت لا يذكرونك ، وإذا أحسنت لا يمينونك ، وقويتهم على ظلم الناس بالسلاح والأموال والرجال ، وأمرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ، ولم تأمر بإيصال المظلوم إليك ، ومنعت من إدخال الملهوف عليك ، وحجبت الفقير والجائع والحماج عنك ، وما أحد منهم

إلا وله حق في هذا المال ، فما زال هؤلاء الفجر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيّتك وأمرتهم أن لا يُحجبوا عنك يقولون في أنفسهم : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه فاتفقوا ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوه ، ولا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه عنك وأبعدوه ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهاجمهم وأكرمهم وهاذؤهم ، وكان أول من دارهم عمالك بالأموال والهدايا والرشا ، فتقووا بها على ظلم رعيّتك ، وتبعهم من كان ذا قدرة وثروة من رعيّتك ليظلموا من دونهم ، فامتألت بلاد الله تعالى بالظلم والغش ، وزاد بغيتهم وطمعهم ، وكثر فسادهم وإفسادهم ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل ، فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول إليك ، وإن أراد رفع قصته إليك وصرخ بين يديك ضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك ، فإن سألتهم عنة قالوا : أساء الأدب فأدبناه ، أو جهل مقامك فضربناه ، فما بقاء الإسلام على ظهور هذه المظالم والآثام ، وإني سافرت إلى أرض الصين فقدِمْتُها ، وقد أصابت ملكهم آفة أذهبت سمعه فجعل يبكي ، فقال له وزراؤه : مالك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : إني لا أبكي على فقد سمعي ، ولكن أبكي على المظلوم يصرخ يبايى يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته ، وحيث ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، فننادوا في الناس أن لا يلبس أحمر إلا مظلوم لأميزه بالنظر فأعِينَنِي ، وكان يركب كل يوم ليرى المظلومين ، ويستدنيهم ويرفع ظلمهم . أنظر يامسكين ، هذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشرّكين على رأفتك بالمسلمين . أنت مؤمن بالله وابن عم نبيه صلى الله عليه وسلم وإن الأموال لا تجمع إلا لواحد من ثلاثة أمور : فإن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبداً في الطفل يخرج من بطن أمه عرياناً ما له على وجه الأرض مال ولا مال إلا دونه يدشحيحة به تحويه وتصونه عن كل أحد ، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى يسوق إليه ما قدره له من المال ، فسيملكه ويحويه كما حواه غيره ، ولست الذي يعطى ، بل الله يعطى من يشاء ؛ لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع — وإن قلت أجمع المال

ليشتد به سلطاني فقد أراك الله عبداً فيمن كان قبلك ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما ضرك ما كنت فيه أنت وولد أبيك من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أعلى مما أنت فيه ؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك إلا بالعمل الصالح — واعلم أنك لا تعاقب أحداً من رعيته إذا عصاك بأعظم من القتل ، وإن الله يعاقب بالخلود في العذاب الأليم : « والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . فكيف يكون وقوفك غداً بين يدي الله وقد نزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ، فهل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً ؟ قال : فبكي المنصور بكاء شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال : كيف إحساني فيما خوئْتُ ولم أر من الناس إلا خائناً ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام الراشدين قال : ومن هم قال العلماء العاملون . قال : فإنهم فروا مني . قال : نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك ، فإذا فتحت الأبواب وسهلت الحجاب ، ونصرت المظلوم ، ومنعت الظالم ، وظهرت بالعدل ، ونشرت الفضل ، فأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك . وجاء المؤذنون وسلموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا مقام المنصور وصلى بالناس ، وإذا بالرجل غاب من بين أيديهم .

وروى أن الخليفة المنصور العباسي كان شديد الهيبة يخشاه الناس جميعاً ، وأن الأوزاعي دخل عليه يوماً فقال له : عظمي . فقال : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله . يا أمير المؤمنين إن الملك لا يدوم لخلق ، وإنما الملك لله وحده ، ولو كان يدوم لأحد لما وصل إليك . يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه دعا للقصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً وهو غير متعمد ؛ فقال الأعرابي : بأبي وأمي قد أحللك ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً . يا أمير المؤمنين إن خير الكرم عند الله التقوى ، ومن طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبها بمعصية الله وضعه وأذلّه . فلما انتهى من عظاته أمر له المنصور أن فاعتذر واستغنى من قبوله وقال يا مولاي ما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا

فأحرم ثوابها ، وأقلل من نفعها ، ومادام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل فنحن في خير
الله ثم في خيره . — هكذا كان العلماء لا يخافون في الله لومة لائم ، ويرون أن الدنيا
مزرعة الآخرة وسبيل إليها ، فلم يجعلوها أكبر همهم ، وجل مقصودهم ، فقالوا
الحق ولو كان مرأً ، فقبله منهم السكبير والصغير ، والأمير والحفير ، وكيفما تكونوا
يول عليكم .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : اعلم يا أمير المؤمنين
أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ،
وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفرج كل ملهوف . والإمام العادل
يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، يرتاد لها أطيب المرعى ،
ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويحميها من أذى البرد والحر .
والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسمى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً
يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم
الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً تسهر بسمه ،
وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغم بشكايته . والإمام
العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده .
والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله
ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريههم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين
فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرذ العيال ،
فأفقر أهله وبدد ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث
والفواحش ، فكيف إذا أتاه من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف
إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياءك عنده
وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك
منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه . يطول فيه ثوابك ، ويفارقك عنده أحباؤك ،
يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
(٢٦)

وصاحبته وبنيه . واذكريا أمير المؤمنين إذا بعث مافي القبور وحُصِّل ما في الصدور
فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن
يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لا تحكم
يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط
المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فتنوء بأوزارك
وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يفرك الذين يتنعمون
بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . لا تنظر
إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ،
وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه
للحي القيوم . إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولوا النهى من قبل
فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأزل كتابي إليك كداوى حبيبته يسقيه الأدوية الكريهة
لما يرجوه في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليكم ورحمة الله .

وعظ الفضيل بن عياض لهارون الرشيد

قال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد فبينما أنا نائم إذ سمعت قرع الباب
فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فإذا أنا به
أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك . فقال : ويحك ،
قد حالك في نفسى شيء لا يخرجك إلا عالم ، انظر لى رجلا أسأله . فقلت : ها هنا
الفضيل بن عياض . فقال : امض بنا إليه . فأتيناه وإذا هو قائم يصلى في غرفته ،
يتلو آية من كتاب الله ويردها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب
أمير المؤمنين . فقال : مالى ولأمر المؤمنين . فقلت : سبحان الله أما عليك طاعته ؟
فقال : أوليس قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس المؤمن
أن يذل نفسه » . ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ
إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى

إليه . فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى . قال : فقلت في نفسي : أيسكلمنه الليلة بكلام تقى من قلب تقى . فقال : جدّ لنا ما جئنا له ، يرحمك الله . قال : وفيهم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصاً من ذنب ما فعلوا ، ولكن أشدهم حباً لك أشدهم هرباً منك . ثم قال : إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي . فعد الخلافة بلاء وعدتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولداً . فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكرهه لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإني لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا . فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه . فقلت أرفق بأمر المؤمنين . فقال : يا بن أم الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق فقال : زدني . فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال : يا رسول الله أمرني على إمارة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عباس عم النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » . فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال : زدني يرحمك الله . قال : يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتسمى وفي قلبك غش لرعييتك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح لم يغمض لم يرح رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ثم قال : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي لم يحاسبني

عليه ، فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى إنما أعنى دين العباد قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا وأمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . فقال له : هذه ألف دينار فأنفقها على عيالك وتقويها على عبادة ربك . فقال نرسبحان الله أنا أدلك على النجاة وتكافئنى بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت . فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال هارون الرشيد : هذا سيد المسلمين اليوم .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس فى مجلس وأخذ الصبيان يؤذونه ، حتى إذا أقبلت هودج هارون فكف الصبيان عن العبث به ، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين . فكشف هارون السجاف — الستر — بيده وقال : لبيك يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أين بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامرى قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يمضى على جمل وتحته رحل رث » فلم يكن ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك . وتواضعك فى سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك . فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض وقال : زدنا يا بهلول يرحمك الله . فقال بهلول :

هب أنك قد ملكت الأرض طراً وأن لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبر ويحشو التراب هذا ثم هذا

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول هل غيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف فى جماله كُتب فى خالص ديوان الله من الأبرار . فقال هارون له : أحسنت يا بهلول . ثم أمر له بجائزة فقال بهلول : أرددُ الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لى فيها . قال : يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله ؛ واقض دين نفسك يا أمير المؤمنين بنفسك ، قال : يا بهلول فتجربى عليك مايكفيك

فرفع بهلول رأسه إلى السماء وقال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فبحال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى إلى شأنه — والمقصود من هذا بيان استماع هارون لعظة العلماء وقبوله الحق ، لطهارة قلبه وعلو همته ؛ وقلب كهذا لا يخرج منه إلا الأخلاق الكريمة ؛ شأن القلوب الحية والنفوس الطيبة وقال سفيان الثوري : لما حج المهدي قال : لا بد لي من سفيان ، فوضعوا لي الرصد حول البيت فأخذوني بالليل ، فلما مثلت بين يديه أدناني ثم قال : لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا ، فما أمرتنا من شيء صرنا إليه ، وما نهيتنا عن شيء اتهمنا عنه ؟ فقلت له : كم أنفقت في سفرك هذا ؟ قال : لا أدري ، لي أمناء ووكلاء قلت : فما عذرک غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك ؟ اكن عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما حج قال لعلامة : كم أنفقت في سفرنا هذا ؟ قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً . قال : ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين — ولما دخل ابن السماك على هارون الرشيد قال له : عظمي . قال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يرض خلافته في عباده غيرك ، فلا ترض لنفسك من نفسك إلا بما رضى الله به ، فإنك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليفاً أن يُعتق نفسه . يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها يركون منه إليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم إلى جنة عرضها السموات والأرض وقد دعيت إليها وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين إنك تموت وحدك وتحاسب وحدك وأنت لا تُقدم إلا على نادم مشغول ، ولا تحلف إلا مفتونا مغروراً ، وإنك وإبانا في دار سفر وجيران ظعن .

ولما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال له : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتتك يا أمير المؤمنين ؟ قال : في الخروج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا بحقها ، ولا تضعها إلا في أهلها قال : ومن

يقوى على ذلك ؟ قال من قلده الله من الأمر ما قلذك . قال : عظمى يا أبا حازم .
قال : يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو
خارج عنك بمثل ما صار إليك . ثم قال : يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن
أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . قال : يا أبا حازم أشر على . قال :
يا أمير المؤمنين إنا أنت سوق فما نَقَى عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاعتبر
لنفسك أيهما شئت . قال : فمالك لا تأتينا ؟ قال . وما أصنع بأتيانك ؟ إن أدنيتني
فتنتني ، وإن أقصيتني أحزنتني ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك
له . قال : فارفع إلينا حوائجك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضيت . يقول الله تعالى : « نحن قسمنا
بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله
ويزيد في قليل ما قسم الله ؟ . فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال رجل من جلسائه :
أسأت إلى أمير المؤمنين قال أبو حازم : أسكت فإن الله تعالى أخذ ميثاق العلماء
« ليعيننّه للناس ولا يكتمونه » ثم خرج من عنده فلما وصل إلى منزله بعث إليه بمال
فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسى ؟ .
ودخل عمرو بن عبيد على المنصور فقرأ « والفجر وليال عشر » حتى بلغ « إن ربك
لبالرصاد » لمن فعل مثل فعلهم ، فأتى الله يا أمير المؤمنين فإن بيا بك نيرانا تأجج ، لا يعمل
فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين
عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم إلا بفساد آخرتك ، أما والله لو علم عمالك أنه
لا يرضيك منهم إلا العدل اتقرب به إليك من لا يريد ، فقال له سلمان بن مجالد :
اسكت فقد غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : ويلك يا ابن مجالد ! أما كفاك أنك
خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه ؟
أتق الله أمير المؤمنين فإن هؤلاء قد اتخذوك سلماً إلى شهواتهم ، فأنت كالملك
بالقرون وغيرك يملأ وإن هؤلاء لن يُفَنِّوا عنك من الله شيئاً . وروى أن الحسن
ابن محمد بن الحسين رضى الله عنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا عمر ثلاث

من كن فيه فقد استكمل الإيمان . فقال له عمر : إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وجئنا على ركبتيه ، فقال الحسن : من إذا رضى لم يدخله رضاه في باطل ، ومن إذا غضب لم يخرج به غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له . ولما ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام — وكان حديث السن — فقال له عمر : لينطق من هو أسن منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لساناً لا فظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام . وعرف فضله من سمع خطابه . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال : صدقت قل ما بدالك . فقال الغلام : أصلح الله الأمير نحن وفد تهنئة لا وفد مرزاة ، وقد أتيناك لِمَنَّ الله الذي منَّ علينا بك ، ولم يُقدِّمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك . فقال له عمر عظمى يا غلام . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار ، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحى هذه الأمة . ثم سكت . فسأل عمر الغلام عن سنه فإذا هو ابن إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . فتمثل عمر عند ذلك فقال : تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل وفي مثل هذا قيل للعتابي — وكان لا يبالي ما لبس — مالك لا تجيد اللبوس ؟ فقال : إنما يرفع الرجل أدبه وعقله لا حليته وحلته ، الحى الله أمراً يرضى أن ترفعه هيئته وجماله . لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ، ويعلو به أكبراه همته ولبه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : أما بعد ، فلو كان لك عمر نوح وملك سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، فإن أمامك هول الموت

ومن ورائه داران إن أخطأتك هذه صرت إلى هذه — ودخل عليه محمد بن كعب القرظي وهو مكتئب حزين ، فأقبل عليه وقال : عظمي . فقال : يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من خلقه فوقك ، فلا ترض لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع له منك ، واجعل الناس أصنافاً ثلاثة : الكبير بمنزلة الأب ، والأوسط بمنزلة الأخ ، والصغير بمنزلة الولد ، فبر أباك وصل أخاك واعطف على ولدك ، واعلم أنك أول خليفة يموت — ومن شجاعة عمر بن عبد العزيز في قول الحق عند الخلفاء قبله : أن الوليد بن عبد الملك راوده على أن يخلع سليمان فقال : يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ — ودخل على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه وهو يومئذ ولي عهده ، وقد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئاً . فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله وأين كتاب الله ؟ فقال : يا غلام اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك . فقال له عمر : لكانك أرسلت إلى المصحف ؟ قال أيوب والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه . فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا . فقال سليمان لأيوب : مه ، لأبي حفص تقول هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حملنا عنه — ومن كلامه : ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه — ولما حج هارون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رضى الله عنه بكيس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه ودخل المدينة بعث إلى مالك : إن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام . فقال للرسول : قل له إن الكيس بخاتمه . وقال : الرسول عليه الصلاة والسلام والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون — ودخل محمد بن صبيح بن السماك البغدادي الواعظ على هارون الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن امرأ

أنه الله جمالا في خلقته وموضعاً في حسبه ، وبسط له في ذات يده فعف في جماله ،
وواسى في ماله ، وتواضع في حسبه ، كتب في ديوان الله من خالص عباد الله . فدعا
هارون بدواة وقرطاس وكتب له بيده — وروى صاحب الحلية قصة أخرى لابن
السماك مع الرشيد تشبهها . قال : بعث هارون الرشيد إلى ابن السمك فدخل وعنده
يحيى بن خالد البرمكي فقال يحيى : إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح
عذك في نفسك ، وكثرة ذكر منك لربك عز وجل ، ودعائك للعامة . فقال بن
السمك : أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عفا في أنفسنا ، فذلك بستر الله علينا ،
فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قاب لنا على مودة ، ولا جرى لسان
لنا بمدح ، وإنى لأخاف أن أكون بالستر معروفا ، وبمدح الناس مفتونا وإنى
لأخاف أن أهلك بها وبقلة الشكر عليها . فدعا بدواة وقرطاس فكتبه الرشيد
— ولما دخل محمد بن واسع سيد العبّاد في زمانه على بلال بن أبي بردة أمير
البصرة — وكان ثوبه إلى نصف ساقه — فقال بلال : ما هذه الشهرة يا بن
واسع ؟ فقال له بن واسع : أنتم شهّرتونا . هكذا كان لباس من مضى ، وأنتم
طولتم ذيوالكم فصارت السنة بينكم بدعة وشهرة ، وأما أنا فلما دخلت على ملك
مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فرد
السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرم إكراماً جزيلاً ، وأمرني بدخول مجلسه
وأمرني بالجلوس فيه . فقلت : أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً
شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملّكك طائفة من ملكه ، وأشركك في
حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى
بالشكر منك . وإن الله تعالى قد ألزم الوري طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله
منك ، وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال
والإحسان . قال الله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) واعلم أن هذا الملك الذي
أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ما صار
إليك . فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن النقيير والقطمير

والفتيل . قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى « وإن كان مثقل حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الأنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها . ولا حسبها كرامة كما حسبتموها : بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر » فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا للملوك وأمانا للخائف .

ما يجب أن يراعى في وضع خطب المنابر

لما كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الهدى ودين الحق وإحياء الفضيلة وإماتة الرذيلة وإصلاح فساد القلوب وتطهيرها من الأمراض ، كانت الخطب الجملة لا تفيد الجمهور شيئا ، لأنها لم تلمس مواضع الداء ولم تهتد إلى الدواء — فنزل من يقول إن المعاصي تزيل النعم ، وإن التعلق بالدنيا مبعث من الله تعالى وقد استحق الناس العذاب لظهور الفساد في البر والبحر ، ولو استقمنا ما انتقمنا ، مال المساجد خربت وبيوت اللهو والفسوق عمرت . مال القلوب قست . مال العيون لا تبكي ، مال النفوس لا تتألم . قد انتهكت الحرمات وتعديت الحدود ، وأغضبتم الجبار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما إلى ذلك من مجمل القول ، مثل الطبيب الذي يخطب الجمهور في قواعد الصحة العامة وفيهم المسلول والمحموم والمجذوم والمبطون ، وذو الرمد الصديدي والبول الدموي ، والمصاب بالسيلان أو الزهري ، وما شاكل ذلك من الأمراض الخبيثة المعدية ، التي تحتاج إلى دواء خاص وعلاج خاص ، وحماية خاصة ، ويقول : نظفوا غرف النوم ، قتلوا من الغذاء . احترسوا من الرطوبة ، لاتأكلوا المغلظات . لا تبصقوا في أماكن الاجتماع . وما أشبه ذلك أيضا من السكليات العامة التي تصلح للسليم كما تصلح

للمريض . فهم لا يلتفتون إليها لأنها أصبحت لديهم في حكم المعلوم بالضرورة ،
لا تؤثر فيهم أدنى تأثير ، لأنها لم تلمس موضع الألم فيحس المريض ، ولم تصف دواء
فيعلق عليه الأمل وينشط في العمل — لذلك يجب على الخطيب الديني أن يتكلم
على الموضوع الخاص ويحلله تحليلًا دينيًا خلقيًا اجتماعيًا ، فيتكلم مثلاً على قتل
النفس ظلمًا ، مبيّنًا مافيه من الأضرار المادية والاجتماعية كتولد الأحقاد
والضعائن ، وبقائها بين الأسر ، وتربص الدوائر من كل منها بالأخرى ، وانتقال
ذلك الشر من الأصول إلى الفروع . وكالاختلال بالأمن والراحة : هذا إلى مافي
هذه الجناية الشنيعة الأثيمة من تعريض النفس للاعدام ، والأموال للاتلاف ،
والأولاد للضياع ، فضلا عن غضب الله ومقته . ذاكرًا الآيات والأحاديث الواردة
في التحذير من جناية القتل . ويقبح أيضًا جريمة الانتحار مبيّنًا أنه نتيجة السفه
وقلة الإيمان ، وعدم الثقة بالله تعالى والرضا عنه في قضائه وقدره . وأن المنتحر
قد باء بآئمه ولقى الله وهو عليه غضبان ، تاركًا وراءه الخزي والعار وسوء
الذكرى وقبيح الأحداث — ثم يأتي بما يناسب المقام محذرًا من هذه البدعة
السيئة غاية التحذير .

ومن يحظ في الزنا يذكر أضراره البدنية والخلقية والمالية والاجتماعية ،
من اختلاط الأنساب وتمزيق الوحدة ، وأن زوج الزانية يضع ماله على أولاد
الأجانب . وأن الزانية والزاني قد هتكا حرمة الزوج ، واعتديا على حقه الشرعي
وهتكا حرمة الأسرة ، وسجلا عليها عارًا لا يمحي ، وخزيًا لا يزول ، وتشبهًا
بالحيوان الأعجم الذي ينزو ذكره على أنثاه بلا قيد ولا شرط ، وأن من اجترأ
على الله بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء يجترىء في سبيل شهوته على ضرر العباد ،
والسعى في الأرض بالفساد ، فضلا عما في الزنا من التعرض لغضب الله ومقته . ثم
يأتي بآيات وأحاديث الزنا وفظاعة عقوبته حيث كان فاحشة وساء سبيلا — وينفر
الناس من الزاني والزانية بأنهما وباء على المجتمع لأن من استحكم فيه مرض بود
أن يكون الناس مثله ، والتنفير باب عام ينبغى دخوله في كل المهلكات . ومثل

الزنا اللواطية ، وقريب من الزنا السفور وتبرج النساء في الأسواق والطرقات ، واختلاط الجنسين — ومن يخطب في التحذير من الربا يذكر مافيه من الأضرار المالية والاقتصادية والأدبية ، وأنه ما انتشر في أمة إلا ذلت بعد عزها ، وافتقرت بعد غناها ، وفقدت قوتها واستقلالها ، ووقعت في قبضة الاستعباد . هذا إلى مافى الربا من الحق وذهاب البركة ، ومحاربة الله والتعرض لغضبه وعقوبته في العاجل والآجل . ويستدل على هذا كله بالأدلة العقلية والمشاهدات الحسية — وإذا خطب في التحذير من تناول المسكرات وتعاطى المخدرات ذكر مافيه من الأضرار المالية والصحية والخلقية والاجتماعية ، وأردف ذلك بمآجاء فيها من الوعيد الشديد — وبالجملة إذا تكلم في المنكرات يحلها على هذا النحو مبتدئاً بأشدّها خطراً وأكثرها وقوعاً في الأمة التي يخطب فيها . وإذا خطب في باب الأوامر والآلهية والفضائل النفسية عمد إلى شعب الإيمان شعبة شعبة ، وتكلم على كل شعبة منها على حدة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والصدق والوفاء والأمانة والحياء ، مبيناً حكمة مشروعيتها وآثارها التي تعود على صاحبها وعلى الجمعية البشرية ، ومافى تركها والانصاف بأضرارها من الخسارة عليه وعلى الحياة الاجتماعية ، مشفوعاً بذلك بالأدلة العقلية والعلمية والحسية ، مراعيّاً أيضاً أكبرها خطراً وأكثرها شيوعاً في الناس . ويخطب في المواسم الشرعية بما يناسب الحال فيتكلم في رمضان مثلاً على وجوب الصوم حتى على الأم السابقة ، مبيناً سر مشروعيتها من ضبط النفس وإضعاف شهوتها ، وكيفية وسيلة إلى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها على الإرادة ، فإنها إذا انتقلت للامتناع عما لاغنى لها عنه من الغذاء ، فأولى أن تنقاد للامتناع عما لا حاجة لها فيه من الحرام . فكان سبباً في قوة العزيمة واتقاء المحارم ، وأنه يبعث في الإنسان فضيلة الرحمة بالضعفاء والعطف على البائسين ، وأنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية ، وما إلى ذلك من المزايا الصحية والخلقية والاجتماعية . ثم يبين ما للصائم عند الله من عظيم المثوبة على هذا الجهاد العظيم ، ذاكر ما ورد في الصوم من أحاديث الترغيب . ويتكلم في العيدين على الأعمال المطلوبة شرعاً من صدقة

وأضحية وتهليل وتسكبير وصلة رحم . وعطف على بئس وأرملة وإكرام يتيم ،
مرغبا في العفو عن الهفوات والصفح عن الزلات ، وترك الخصومات ، وإصلاح
ذات البين — ويحذر الناس من العادات المحرمة والبدع السيئة التي تقع في العيدين —
وينبغي أن يتكلم على صدقة الفطر في الجمعة التي قبل العيد ليحسن الناس أداءها
في الوقت الأفضل على الوجه المطلوب . ويتكلم في ربيع الأول على سيرة رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه بذكر نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته ، وأخبار
مولده وتربيته وصفة معيشته في نفسه ، وزواجه وسيرته في أهله ، تمهيداً لبيان
المقصد الأعظم وهو نبأ بعثته التي كانت رحمة للعالمين ، مبينا ما كان عليه من
الأخلاق الكريمة ، والآداب العالية ، وما تم على يديه من الإصلاح وجلال
الأعمال ، وما قاساه من الأهوال والمتاعب الشديدة في سبيل الدعوة إلى الله
تعالى ، مستمداً ذلك كله من الكتاب المبين ، وصحيح السنة ، وما تمس الحاجة
إليه مما أثبتته ثقات المؤرخين ، محتنباً كل مالم تثبت صحته مما يتعلق بسيرته
الشريفة ، مبينا أن الفائدة المقصودة من ذلك هي تذكير الناس بخلاصة تاريخ
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ليتذكر المسلمون منة الله تعالى عليهم
ببعثته ، وتتغذى أرواحهم بزيادة الإيمان به وكمال محبته ، ويزداد تعلقهم بهذا
الرسول العظيم ، ويحرصوا على اتباعه والافتداء به وإحياء سنته والتحلي بآدابه
— ولا يكفي ذكر نسبه الشريف مجردا عن ذكر مآثر آبائه ، ولا ذكر أوصافه
الجسمية كما يفعله بعض خطباء اليوم فذلك لا يفي بالغاية المقصودة من ذكر حياته
الشريفة . وإذا تكلم على وفاته فلا يذكرها مجردة عن بيان ما فيها من العبر ،
وإنما يتكلم عما لاقاه من الشدائد في مرض الموت وسكراته مع الصبر والرضا ،
وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذا كان قد لقي مثل تلك الأهوال وهو
المغفور له والمعصوم ، فكيف بنا ونحن المذنبون المقصرون ؟ ولا ندري ما يفعل
بنا — ثم ينبه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته وتعظيمه ومحبته ، والعمل على إحياء
سنته ، وإطعام الطعام شكراً لله على نعمة وجوده العظمى ، ويحث الناس على

الإكثار من الصلاة والسلام عليه ، لتكون قلوبهم دائماً معمورة بمحبته . ويبين لهم أن الحبة دائماً تقتضى الجري على ما يهوى الحبوب ، وأن العاصي كاذب في دعواه حب الله ورسوله . ويبين أيضاً حقه على أمته ، وأن هذا الخير العظيم وتلك السعادة التي فيها العالم كانت كلهما على يديه صلوات الله وسلامه عليه ، ولذلك شرعت الصلاة والسلام عليه قياماً له ببعض حقه على الناس . وهكذا يتكلم في كل وقت بما يناسبه مراعيًا حال السامعين وأمراضهم واستعدادهم ، ويتكلم على القرآن الحكيم مبيناً شيئاً من هدايته وفضائله . وأنه رحمة وشفاء ، وما يجب على التالى والسامع له ، وأن القارئ نائب عن الله تعالى في إسماع الناس ما شرع لهم فيه ، وأن من أعرض عن القارئ فقد أعرض عن الله ، وأن من أخل بالأدب عند سماعه فقد أخل بالأدب بين يدي ملك الملوك ورب الأرباب . وإجمالاً يذكر للناس ما في القرآن من المقاصد وأنواع الهداية التي تكفل لمن سلكها سعادة الدين والدنيا ، وأن تلاوته عبادة وسماعه عبادة ، عندها تنزل الرحمات ، وأن الخضوع عند سماعه والتأثر به خضوع لله ولجلاله ، وآية الفلاح والهداية . ويحض الناس على احترام مجلس القرآن^(١) وتدبره لتتسع عقولهم وتستنير بصائرهم ، فإن من فتح قلبه لهدايته وكان على استعداد تام للتأثر به كفاه في الرجوع إلى الله تعالى استماعه له بسلامة ذوقه وفطرته ، فسلم الفطرة والذوق يكفيه أقل منه إذا عرضت له الغفلة ، شأن الإنسان الخى فكيف بأعظم هاد وأكبر مؤثر « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وصفوة القول أن أفضل الخطب الدينية ما كان مطابقاً لمقتضى الحال ، ملائماً لما تدعو إليه حاجة السامعين . وقد جرت عادة الخطباء بالتزام صورة واحدة في الخطبة الثانية للجمعة سموها « خطبة النعت » وتلك عادة غير معروفة عن السلف الصالح ، فهي محدثة وغير لائقة بهذا الموقف العظيم الأسبوعي ، بل اللائق به العناية بالخطبة الثانية كالأولى ، وباب الإرشاد واسع وميدانه فسيح ، وللناس حاجة إلى الإصلاح من وجوه شتى ، فلا يصعب

(١) راجع كتاب الابداع ص ٢٤٠ من الطبعة الرابعة .

على الخطيب أن يستحضر للخطبة الثانية كل أسبوع من الآيات أو الأحاديث أو الآثار أو الحكم البالغة ما يناسب موضوع الخطبة الأولى كما سترى ذلك في أكثر النماذج الآتية إن شاء الله تعالى . هذا ما يجب أن يراعى في وضع الخطب المنبرية ، وقد سبقت الإشارة إليه إجمالاً أول الفصل الثاني عشر ، وهذا داؤها ودواؤها ، كما هدتنا إليه التجربة وكثرة المران والممارسة ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — وإليك نماذج تطبيقية من الخطب العصرية لتكون لك نبراساً تهتدى به ، ومثالاً حسناً تنسج على منواله . والله الهادي إلى سواء السبيل .

نماذج من الخطب المنبرية بروح عصرية

في أهم حوادث الوقت الحاضر

أدى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول حفظه الله فريضة الجمعة في الجامع الأزهر يومى ١١ شوال سنة ١٣٥٥ و ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ فخطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيهما خطبة الجمعة فكانت خطبته الأولى في ورائة الأرض بالعمل الصالح ، وخطبته الأخرى في الحكم الصالح . ولما تضمنته الخطبتان من عظات قيمة وإرشاد حكيم ، رأينا تسجيلهما في هذا الكتاب ليكونا نبراساً تهتدى به الطلبة فيما يضمنونه من الخطب المنبرية .

خطبة يوم ١١ شوال سنة ١٣٥٥ بالجامع الأزهر الشريف

أحمد اللهم حمد من أخلص النية لوجهك الكريم ، وأشكرك شكر من أطاعك لذاتك ، وابتغاء رضوانك العميم . وأشهد أن لا إله إلا الله تفرد بالعزة والسلطان ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله بعثه الله رحمة للإنسان . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار ، وصحبه الطيبين الأخيار . قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

ولم يكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . هذا وعد الله الصادق ، ولن يخلف الله وعده . أمور ثلاثة أيها المؤمنون هي أسمى ما يتصوره الإنسان ، جعلها الله جزاء العمل الصالح المنبعث عن الإيمان : استخلاف العاملين في الأرض ، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم ، وتبديلهم بعد الخوف أمنا وطمأنينة — والاستخلاف في الأرض خلافة عن الله في عمارة الكون ، وتوزيع العدل والإحسان بين عباده ، وهو يعتمد على القوة وشمول السلطان ونفاذ الكلمة ، وهو مطلب تتفانى الأمم في سبيله ، وتضحي بأبنائها وأموالها ابتغاء الوصول إليه . وما استقامت عقيدة ولا استقر سلطان ، ولا وُجد مجد وسُودد ، ولا شَمرت أمة بالعزة إلا إذا حتمتها القوة وبسطت عليها أجنحتها ، وهذه المثل قائمة ، وشواهد الماضي حاضرة في الذهن ماثلة . وتمكين الدين والعقيدة نعمة عظيمة ، ومقصد رفيع ، يتبعه استقرار النفوس ، وراحة الضمائر ، والشعور بالعزة والكرامة ، ليس أشبهى إلى النفس ، ولا أمتع للقلب ، ولا أهنأ للروح ، من أن يرى الإنسان أن عقيدته صاحبة السلطان والنفوذ في نفوس الناس أجمعين . والأمن بعد الخوف أعز مطلب للفرد والجماعة ، وللخوف آثار تفسد العقل ، وتذهب بالفكر ، وتجعل العيش مريرا ، والحياة مضطربة . وما أحلى الأمن يستقر بعد الفرق ، وما أعذب يتدفق بعد القلق ! عندئذ يندفع الإنسان نحو العمل صافي القلب متجهاً إلى الله ملتصقاً بالخير والنفع للعباد . وليس الإيمان أيها المؤمنون تصورات تتخيلها العقول وتجري عباراتها على اللسان ، وإنما هو عقيدة تملأ القلب وتتبعها آثارها . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » . ومن آثار العقيدة الدفاع عنها بالنفس ، والاستهانة في سبيل نشرها بالمال . ومن آثارها العمل الصالح . وليس العمل الصالح مجرد صلاة تؤدي بالحركات ، أو صيام يؤدي بالحرمان من اللذات ، أو ذكر يجري على اللسان ألقاظاً ميتة خالية من الحشية والرهبة . إنما العمل الصالح ما اشتمل على روح الإسعاد : من إخلاص لله ، ومحبة لخير الفرد

والجماعة ، وأداء للحقوق كاملة لله ولعباد الله . « وما أسروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . إن أعلى العمل الصالح منزلة عند الله فضائل الأخلاق : من الوفاء بالعهد ، والصدق في القول ، والشجاعة في الحق ، والصبر على احتمال المكروه ، والعدل مع الأفراد ، بأداء حقوقهم ، وحب السعادة لهم ، وإرشادهم إلى الخير ومعاوتهم فيه ، ومن العمل الصالح إطاعة الفرد لما تفرضه الجماعة ، وما يفرضه الحاكم ، مما ليس فيه معصية للخالق ، ومن العمل الصالح للحاكم توفيره الخير للرعية ، والدأب والسهر على مصالحها وحياطتها من الانزلاق في الشرور والتهاون في الدين ، وإن قوام العمل الصالح مهما تعددت شعبه ، العدل ، وهو مطلوب عن الحكام ، ومطلوب من الرعية ، والعدل هو اتباع السنن الإلهية ، والأوامر الدينية ، والنواميس الوضعية التي لا تتنافى والدين إن الأمة الصالحة التي تستحق الخلافة أيها المؤمنون كما يجب أن تقوم على العدل يجب أيضاً أن تؤدي للأرض حقها من عمران ، وأن تستخرج ما فيها وما حولها من قوى ومنافع ، لتحقيق الإرادة الإلهية من خلق تلك القوى وتسخيرها لمنفعة الإنسان « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . عباد الله : لا تسعد أمة تفترق أهواؤها وتصبح شيعاً وأحزاباً ، رائدها الهوى وقائدها المصالح الخاصة ، لا تسعد أمة لا تعتصم بحبل الله المتين ، ولا تعتبر بسير الداهيين الأولين ، لا تسعد أمة تحتكم إلى الشهوات ، وتتعالم عن الآيات ، وتدع النذر ، وتعمى عن العبر ، لا تسعد أمة تنبذ تعاليم الدين وراءها ظهرياً ، وتزدرى بالأخلاق الفاضلة حباً في الاستمتاع بالشهوات ، وما في الحياة من لذات ، لا تسعد أمة ينغمس أمراؤها وأغنيائها في الترف ، ويستعذبون الراحة ، ويأنفون العمل ، « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أيها المؤمنون ، نحن بين أمرين . إما أن نستضيء بنور

العقل ونهتدى بهدى الشرع فنصير فى الدنيا إلى عزة نعلوبها فى أجواز الفضاء ، ونخترق بها أطباق الأرض ، ثم فى الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إلى مغفرة الله ورضوانه ، وإما أن نعمى عن هدى الله ، ونعمض عما حل بالأمم السابقة أعيننا ، ونغلى مراحل الشهوات فيما بيننا ، فتأكل نيران الأحقاد قلوبنا ، فنصير فى الدنيا إلى ذلة وضعة ، ثم فى الآخرة إلى نار وقودها الناس والحجارة ، إلى خزى من الله وخذلان . « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . وقانا الله عذاب النار وسوء المصير ؛ وقادنا إلى الخير وحسن العاقبة ، وهدانا إلى ما يرضيه ويقربنا من عفوه ورحمته . روى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

خطبة يوم ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ بالجامع الأزهر الشريف

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهر ، الحكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا ينسى ، سبحانه هو الكبير المتعال ، نحمده حمداً به نستأهل غفرانه ؛ ونستمنح عطفه ورضوانه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله توحيد بالربوبية المطلقة ، وتفرد بالجلال والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدم بإحسانه ورعايته ؛ ونصلى أفضل الصلوات وأنمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ؛ الذين حملوا من بعده علم الهداية ، فدانت لهم الأمم ، وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيماً ؛ أما بعد فيقول الله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ويقول الله تعالى

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . على هذا الأساس شب الإسلام عزيزاً لا يعرف الذل كريماً لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة ، رفعوا لواء عزه وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به في الآفاق نافذ السلطان ، رفيع المكان . ثم خلف من بعدهم خلف فتتوا بعرض الحياة الأدنى واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمر مغاير تقسم ، وأسلاًباً توزع ، ودنيا مملوءة باللذات فيها دعة وسكون ، وترف ومجون وطال عليهم الأمد في ذلك فقتست قلوبهم ، وصرفتهم الأهواء عن الهدى الإلهي ، فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا إليه . تحللوا من أصول الإسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحكام تهذب النفوس ، وقوانين تنظم الحياة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يتمسك بها الرجل المتمدين الذي عرف معنى الحياة وما فيها من لذة وممتعة سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الحر والميسر والاسترسال في الشهوات والانغماس في الإباحية نوع من الحرية ، خاصة من خواص المدنية . سول لهم أن التدين عار فتركوا دينهم ، ونبذوا كتابهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح والخلق الفاضل فصاروا نهياً للأمم ومثلاً للذلة ، توالى عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابع أممهم العبر فلم يعتبروا فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . بهذا أصبح الإسلام في ناحية والمسلمون في ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : « إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرديلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والحر ، ولأهله في ذلك قوانين تنظمها ، وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور والرشوة والفجور ، والفوضى في النظام ، والجور في الأحكام . دين يتفنى

فى الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والإلحاد .
بهذا ونحوه من الآثام والردائل التى صارت بين المسلمين معروفة مألوفة — وهى عند
العقلاء وفى دين الإسلام منكرة ممقوتة — يصور الإسلام أخذاً من حالة جمهور
يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام . أليس هذا أيها المسلمون
جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضاً لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ؟
ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟ « إن هى إلا فتنتك
تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين » . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق ،
ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم
وكثير منهم فاسقون » أيها المسلمون ، اسمعوا فى دينكم قول الله الحق وقول رسوله
الكريم . يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم
ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » ويقول : « وإذا قيل
لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »
يقرر القرآن نفي الإيمان عن من لم يرض بأحكام الله ، رضا يزيل الحرج عن صدره ،
ويعمل قلبه استسلاماً وطمانينة ، ويصف بالنفاق من يصد عن الداعى إلى الله
ورسول الله . ويقول فى آية أخرى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده
والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة .
كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها
وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون » . إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه ،
وتأول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الإلحاد ، ولا هذه
الإباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد ، وإنما يحتمل مدنية
فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة
الله وما هياً لعباده من طيبات : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات

ويحرم عليهم الخبائث . هذا هو الإسلام أيها المؤمنون ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة ، واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام . خطوا للفضيلة طريقاً واضحاً ، وضعوا لها نهجاً مستقيماً ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان . إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . أيها المسلمون إن الله وضع قواعد الحكم الصالح في هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » والأمانة ما تجب المحافظة عليه فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالم أمانة ، وقول الحق في الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمانة والعدل في الأحكام والأفعال والأقوال أمانة . كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصاً في الكتاب ولا في السنة قانون ، والرد عند التنازع إلى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون ، وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم في محكم كتابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . أيها المسلمون ؛ اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمتته « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع » ، — الهالع : الحزن ، والخالع الذي يخلع القلب من الخوف — « إن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ومن كتم شهادة دعى إليها كان . كمن شهد الزور ، الدين النصيحة ، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله والكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى ههنا » — يشير إلى صدره — « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى لا يدخله النار . اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم . وإياكم والخيانة فإنها بثت البطانة . من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس . اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وفقى الله وإياكم إلى التمسك بدينه والعمل على مرضاته والتخلق بأخلاق نبيه الكريم .

الدين وأثره في تهذيب النفس

الحمد لله شرع الدين هداية للمؤمنين ، ووفق من شاء للتمسك به والتحلي بأدابه ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله كتب رحمته للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله — أما بعد فقد قال الله تعالى : « وما أُمِرُوا إِلَّا ليعبدوا اللَّهَ مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » أيها الناس — الدين يأمرنا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة والخضوع له ، واعتقاد أن واجب الوجود إله واحد قادر مريد عليم حكيم ، سميع بصير ، متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص أبدع الكائنات بقدرته ، ودبرها بحكمته وعلمه ، فهو الذي يحيى ويميت ، والذي يعطى ويمنع ، والذي يضر وينفع ؛ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . هذا هو الاعتقاد الحق الذي يُخرج النفس من ظلمة الجهل ، ويرفعها من وهدة الشرك ، ويطهرها من دنس الخرافات والأوهام ، فلا تنحط إلى عبادة جماد أو إنسان أو حيوان ، ولا تخضع إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام : الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين : والدين بعد ذلك قد فرض على الناس عبادات كلها ذو أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب

النفوس : فرض الصلاة خمساً في اليوم واليلة ، وجعل مفتاحها طهارة البدن والثوب
 والمكان فيقف العبد فيها فارغاً من الشواغل ، موجّهاً قلبه إلى مولاه نظيف
 الظاهر طاهر الباطن ، يُناجي ربّه ويُثني عليه بما هو أهله ، خائفاً من عذابه
 طامعاً في رحمته ، طالباً منه العون والهداية ، فيؤثّر في نفسه ، ويعودّه مراقبة الله
 وخشيته ، فيجتنب ما يُغضب مولاه ، ويمتنع عما حرم الله عليه : إن الصلاة تنهى
 عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ، وفرض الزكاة
 في أموال الأغنياء سداً لحاجة الفقراء ، وتفريجاً لكربة الغارمين وتيسيراً لأبناء
 السبيل ، وعوناً على المصالح العامة ، كذلك تغرس في المؤمن فضيلة السخاء ، وتطهر
 نفسه من رذيلة الشح ، وتخرج الأضغان من قلوب البائسين ، وحقدّم على الأغنياء
 المترفين ، وتملأ قلوبهم بحببتهم ، وتمنعهم من الإساءة إليهم ، وبذلك يسود الأمن ،
 وبذلك تكون الألفة والأخاء . قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
 وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » وفرض الصيام
 ليُربّي في الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والصبر عند الشدائد وقوة الإرادة وضبط
 النفس عند هيجان الشهوة والعفة والتقناعة والأمانة والعطف على الجائعين ، ويعرّفه
 مقدار النعمة ليُشكر مولاه على التفضل بها « وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ
 عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » . وأما الحج فالفاس فيه أشبه بالملوث يفارقون
 أموالهم وعيالهم ، وينتقلون إلى غير ديارهم مُتجردين عن زينة الحياة الدنيا ،
 ليس على الواحد منهم إلا إزارٌ ورداء ، والكل خاضع لعظمة الله ، خاشعٌ لجلاله ،
 لا فرق بين صغير وكبير ، وغنى وفقير ، هنالك تتطامن النفوس وتعلم أن زخرف
 الحياة باطل ، وهناك تشعر بالتواضع والمساواة ، وأنه لا يليق الاستعلاء والاستكبار
 بحاج ولا مال ، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب « إن أكرمكم عند الله أتقاكم
 إن الله عليم خبير » . كذلك الدين حرم ما يُفرض بالناس إلى الفناء ، ويوقع بينهم
 العداوة والبغضاء ، أو يفسد العقل ويحط من كرامة المرء ويذهب بحياته وماله :
 كالقتل والزنا والقذف ، وشرب الخمر والمقامرة ، والربا والرشا وأكل أموال الناس

بالباطل ، والغيبة والنميمة والحيانة والغدر ، والضعفينة والحسد ، وكل ما فيه إيذاء للناس . قال صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه »
أيها الناس — الاعتصام بالدين يهذب النفس ويطهرها من الرذيلة وسوء الخلق ، ويظهر أثر ذلك في المعاشرة والمعاملة ، فمن كان متمسكاً بدينه واقفاً عند حدوده حسنت معاشرته ، واعتدلت معاملته ، فببر بالديه وأقاربه ، ويواسي إخوانه ، ويقوم بحقوق أهله ، ويربي أولاده ، ينقف عقولهم ، ويهذب أخلاقهم ، لا يؤذى جاراً ولا أحداً في نفس أو عرض أو مال ، ولا يكون لعاناً ولا سبباً ، ولا غمماً ولا مفتاباً ، ولا حقوداً ولا حسوداً — والمسلم المتدين لا يغش إذا باع أو اشترى ، ولا ينقص مكيالاً ولا ميزاناً ، ولا يكذب إذا حدث ، ولا يخلف إذا وعد ، ولا يخون إذا أومن ، ولا يكون مختالاً ولا فخوراً ، ولا جباراً ولا عنيداً ، ولا يماطل في حقوق الناس — والمسلم المتدين إذا وُكل إليه عمل أتقنه وأداه على الوجه الأكمل من غير تسويف ولا تأخير ، وإذا وُلي على الناس عدل فيهم ونظر في مصالحهم ، ليس لغير الحق سلطان على نفسه فلا يحابي قوياً ، ولا يضيع حق ضعيف ، فهو ملك كريم في صورة إنسان رحيم » والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » . روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة امرى ، واصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، واصلح لى آخرتى التى إلیها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .
ويقول فى الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس اعلموا أنه لا ينفعنا فى دنيانا وآخرتنا إلا الاستقامة وصالح العمل مع صدق الإيمان . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون » وفى الحديث القدسى عن رب العزة : ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحتى على من بخل بطاعتي » فالذين يهملون طاعة الله تعالى انسكالاً على كرمه وسعة رحمته قد لعب الشيطان بعقولهم

وغيرهم بالله . نعم إنه كريم واسع الرحمة ، ولكنّه حكيم جعل كرمه ورحمته لمن امتثل الأوامر واجتنب النواهي . قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » الآية .

أهملنا ديننا فساعت حالنا

الحمد لله كتب العزة والكرامة لمن أطاعه ، وقضى بالذلة والهوان على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أنعم علينا بالكتاب المبين والرسول الصادق الأمين « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » فهذب بالكتاب أخلاقنا ، وأصلح به أعمالنا ، وهدانا إلى وسائل الرقي والسعادة في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، والداعي إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، ووقفوا عند حدوده فخفضت لهم رقاب الجبابرة ، وأسقطوا عروش الأكاسرة ، وكانوا هم السادة الفائزين المنصورين . أما بعد : فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أيها الناس : لقد كانت الأمة الإسلامية فيما مضى متمسكة بكتاب الله ، عاملة بسنة نبيها ، صحيحة في عقائدها ، سالحة في أعمالها ، حسنة في معاملاتها وعاداتها ، كريمة في أخلاقها ، بصيرة في دينها ودنياها ، راقية في آدابها وعلومها ، فكانت عزيزة الجانب ، قوية الشوكة ، جليلة المهبة ، صاحبة السلطان والصولة على من عداها . واليوم تغير أمرها ، وتبدل حالها ، اختلت عقائدها ، فسدت أعمالها ، ساءت معاملاتها وعاداتها ، تدهورت أخلاقها ، جهلت أمر دينها ودنياها ، تأخرت في علومها وصنائعها ، فصارت ذليلة الجانب ، ضعيفة الشوكة ، ساقطة الكرامة ، فاقدة المهبة ، مغلوبة على أمرها ، متأخرة في مرافق حياتها ،

تتخبط في ظلمات الجهل ، وتنقاد للخرافات والأوهام » وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وما ذلك إلا لأنها خالفت كتابها ، وانحرفت عن طريق الهدى نبيها ، وسارت وراء هواها ، وفُتنت بزخارف الحضارة المزيفة ، والمدنية الكاذبة ، وظنت الإباحية حرية ، والخلاعة رقياً ، فتعدت حدود العقل والدين ، وأغضبت خالق الأرض والسماء ، فسأمت حالها ، وسلط عليها عدوها « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » أيها الناس : لقد ذقت الأمة وبال أمرها ، وعوقبت بشر أعمالها ، وتجرعت مرارة الذلة والهوان ، والفرق والاحلال . كل ذلك نتيجة لازمة لعدم استقامتنا وانحرافنا عن الصراط المستقيم « صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » كل ذلك نازل بنا وواقع علينا ونحن لا نفيق من سكرتنا ، ولا ننتبه من غفلتنا ، ولا ننزجر بالحن والبلايا ، ولا نعتبر بحوادث الأيام ، لو كان لنا نفوس حية وقلوب يقظة . لو كان لنا شعور حي وإحساس قوى ، لنهتئنا بالبلايا ، وأيقظتنا المؤلمات . أيها المسلم : الدين عقيدة صحيحة ، وعبادات قويم ، ومعاملات حسنة عادلة ، وأخلاق كريمة . فهل أنت صحيح العقيدة ، قويم العبادة ، حسن المعاملة ، كريم الأخلاق ؟ هل أنت سائر في كل أعمالك وأحوالك في طريق الدين ؟ أم أنت تسير منحرفاً عن الطريق القويم ؟ هل ما نحن عليه اليوم من سوء المعاملة وتهتك النساء وفساد الأخلاق من تعاليم الدين ؟ هل من الدين أن يكون المرء كاذباً محتالاً ، أو مرأثياً محتالاً ، أو مداهناً منافقاً ؟ هل من الدين أن يكون المرء غشياً أو مفتاباً ؟ أو لاعاناً أو سباباً ، أو غاشياً أو خائناً ؟ هل من الدين أن يكون المرء ناقضاً للعهد ، مخلفاً للوعد ، متكبراً جباراً عنيداً ، معاطلاً في حقوق الناس ؟ هل من الدين أن يكون مهملاً لأولاده ، عاقاً لوالديه ، قاطعاً للرحم ، مسيئاً لزوجته ، مؤذياً لجيرانه ؟ هل من الدين أن يكون قاسى القلب : لا يرحم مسكيناً ، ولا يكرم يتيماً ، ولا يعطف على ذى عاهة أو أرملة ؟ كلا . أين هذا من قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآية . كلا ! أين هذا من قول رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أيها الناس : ما هذا الفساد في أمة شعارها الإسلام ، وأساس دينها القرآن ؟ ما هذا التدهور الخلقى في أمة رسولها سيد ولد عدنان ؟ أتحمكت الشهوات في النفوس فأفسدتها ؟ أم تسلطت الأهواء على العقول فنبذت الفضيلة واعتنقت الرذيلة ؟ « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » رأيتم أن دينكم لا ينهض بكم إلى مراتب الرقي والسعادة . فاتبعتم ديناً غيره ينهض بكم ويُسعدكم ؟ كلا والله ، لا رقى إلا به ، ولا سعادة إلا به ، ولا فلاح إلا به ، ولا خلاص للناس من مخاطر الشقاء في الدنيا والآخرة إلا به « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » قال صلوات الله وسلامه عليه : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً . وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » رواه أبو داود — واثرح في الخطبة الثانية قوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشيه » ثم تحتّمها بقولك : أيها الناس لا خلاص للأمة من هذا الشقاء ، ولا نجاة لها من هذه البلايا ، إلا بإصلاح القلوب واستقامة الأعمال ، وذلك بالرجوع إلى العمل بأوامر الدين وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى ، كتاب الله وسنة رسوله »

بدعة خروج النساء إلى المقابر في المواسم

الحمد لله الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الطريق القويم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله ، وصحبه ومن تمسك بالدين ووقف عند حدوده . (أما بعد) فيأيها المسلمون إن الله تعالى قد جعل علامة محبة العبد له اتباع نبيه الكريم ، وطاعة رسوله الصادق الأمين حيث قال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم »

ذنوبكم والله غفور رحيم» . فمن لم يتبع الرسول فيما جاء به وادعى أنه يحب الله تعالى فهو كذاب ، وكتاب الله يكذبه ، إذ لو كان صادقاً في دعوى محبته لأطاع رسوله ، فإن طاعة الرسول طاعة لمولاه ، وعصيانه عصيان لله : « من بطع الرسول فقد أطياع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » . وإن الله تعالى جعل محبته ورضاه ورحمته وإحسانه في اتباع نبيه والاهتداء بهديه . فالخير كله والهدى في الاتباع ، والشر والضلالة في المخالفة والابتداع ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وإن من البدع القبيحة والعادات السيئة زيارة النساء للقبور في المواسم والأعياد على الحال المعروفة : من تهتك النساء واختلاطن بالرجال ، مع فساد الأخلاق وانتشار الفساد في هذا الزمان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل — وأى بدعة أكبر قبحاً وأعظم وزراً من بدعة جمعت مفسدات وشروراً كثيرة ؛ من انتهاك الحرمات وابتذال الأعراض ، وإضاعة الأموال ، وإيذاء الموتى ، وغضب الله المنتقم الجبار . أيها الناس : لقد أصبحت نساء اليوم من أشد الأمراض الاجتماعية التي أعيت الأطباء الناصحين ، وكلت منها السنة الخطباء المرشدين ، وصرن أكبر عون للشيطان على تنفيذ كل ما يأمرهن به من عادات الجاهلية ؛ في النذب والنياحة وشق الجيوب وإطعم الحدود وصبغ الوجوه والأيدى بالسواد ، ورسول الله صلوات الله عليه يقول : « ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . يحىء رجب أو عيد الفطر أو الأضحى فتصبح النساء ولا همّ لهن إلا ما يُعدّونه للقرافة من ألوان الأطعمة والفواكه المتنوعة ، فالغنى ينفق عن سعة والفقير يضيع ما فيه حاجة عياله ، وقد يقترض لذلك أو يرهن متاع بيته لدى المرابين . ويكثر النزاع ويشتد الخلاف بين المرء وزجه ، وقد يؤدي الأمر إلى الفراق ، أو دوام النكد والشقاق ، وإذا جاءوا إلى المقابر رفعت النساء أصواتهن بالبكاء ، وأظهرن الحزن والجزع ، ووقعن في كلمات الكفر بالتسخط على القدر ، والاعتراض على الله تعالى في حكمه وقضائه ، وهو الفاعل

المختار ، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . هذا : وبعد قليل توضع المواثد فوق المقابر ، وعلى رؤوس الموتى ، ومنها يأكلون وبها يتنعمون ، ناسين الموت وسكراته غافلين عن الموتى وما هم فيه من ظلمة ووحشة وكروب وأهوال . فإذا طعموا انتشروا في الصحراء يتبادلون الزيارات كأنهم في منازل الأحياء لا في مقابر الأموات أما كن الخشية والاعتبار : « ذلك هو الضلال البعيد » . أيها الناس ! أعن هذا يرضى الرب أبهذا ترحم الموتى ؟ أبهذا تؤدى سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ هل جاء في كتاب الله أو في سنة رسول الله أن أول جمعة من رجب أو أيام الفطر والأضحى جعلت لزيارة المقابر ؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة أو الأئمة الأربعة كان يخرج هو أو نساؤه في هذه المواسم لزيارة الموتى ؟ نعم ! كان السلف الصالح يفتسلون ويتطيبون يوم الجمعة ويطعمون الطعام في رمضان ، ويكثرزون من الصدقات في أيام الأعياد . أما زيارة الموتى فلم يكن لها في عهدهم جمعة أولى من جمعة ، ولا يوم أفضل من يوم — ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخرج مع الصحابة إلى الصحراء لصلاة العيد ، وكان يذهب من طريق ويرجع من طريق أخرى ، ولم يثبت أنه زار قبراً في ذهابه أو إيابيه ، مع وقوع المقابر في طريقه ، بل قال في عيد الأضحى : « أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، من فعل ذلك فقد أصاب سنتنا » . أما حمل الأطعمة إلى المقابر فلم يعرف عن رسول الله ، ولا عن أحد من الصحابة ، بل هو شاغل عن العبرة والاتعاظ ، مبطل لثواب الصدقة ، لما فيه من الرياء وإيذاء الفقراء ، وإهانة القرآن . ولو صدقتم بها في البيوت على المعزة والمصابين والأرامل واليتامى لكان أرجى للقبول ، وأقرب إلى الوصول ، ولكفيتهم حملها وحمل أوزارها معها : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فقلو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والشُرُج » . رواه أبو داود والترمذي وحسنه . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يجلس أحدكم على جرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس

على قبر . رواه مسلم — وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس إن رفع الصوت بالبكاء والنياحة يضر بالأحياء ويؤذى الأموات ، روى البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول : واجبله واكدا واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لى : كنت كذا ؟ فلما مات لم تبك عليه . وهذا توبيخ شديد ، وإيذاء عظيم ، فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم في قبورهم ، توبوا إليه وسلوه لهم الرحمة والعافية عسى ربكم أن يتقبل منكم ويرحمهم : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

سبب الشقاء مخالفة الدين

الحمد لله الذى جعل السعادة للسالكين سبل الهداية ، وقضى بالذلة والشقاء على من مال عن طريق الرشاد إلى الغواية . لا إله إلا هو سبحانه لا يصالح عمل المفسدين وأشهد ألا إله إلا الله نبيه بالقرآن كل غافل ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أظهر الحق من الباطل . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أى لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية ، إلى نقمة وبلاء ، حتى يغيروا ما بأنفسهم : من طاعة وشكران ، إلى عصيان وكفران . تلك سنة الله فى خلقه ، وإن تجد لسنة الله تبديلاً . أيها المسلم ، تراكت عليك الكروب من الذنوب ، وأنت فى غيك تسرح وتمرح . أحاطت بك البلايا من كل جانب . ولست لإصلاح نفسك تجتنب ، كلما أوضح لك المرشدون طرق الهداية تعاميت وفى جسم الإسلام بالخنازى تجرح . فلا أنت بالكروب معتبر ، ولا من البلايا منزجر . أما سمعت قوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين » قلب نظرك فى نفسك هل تجدها عاملة بمقتضى الدين ؟ . فأنش قلبك هل تجد فيه حياة من الله بيقين ؟ تأمل فى الناس هل تجد إخلاصاً بين اثنين من إخوانك المسلمين . إذا قلت أن رابطة الإسلام لا تجد إلا متفرقين مختلفين ، وهل تصلح حال الأمة

والعالم بينهم عن غير الطلاق ورؤيا المنام لا يسأل ؟ وهل ترقى الأمة والشرير عن شروعه لا يتحول . والتاجر والصانع عن غير جمع المال لا يسأل ، والغيور على الدين متألم مسكين ؟ نحن في مستقبل أمرنا لا نتدبر . نحن في تأخرنا وتقدم أسلافنا لا نتفكر . نحن من ضياع حاصلاتنا وسوء أحوالنا لا نتأثر . نحن في اللذات والشهوات أصبحنا هائمين . نحن من غيبة مسلم إلى احتقار فقير ، إلى ظلم أجير ، إلى مخالفة القرآن . نحن من موضع لهو إلى حانة خمر إلى بيت فاحشة إلى إهمال دين الديان . نحن من تهتك نساء إلى تطرف شبان إلى فساد أخلاق إلى ضياع حق الإيمان . نحن من نقص ميزان ومكيال إلى نصب واحتيال . إلى مكر وخداع . إلى تجسس على عورات المسلمين . نحن تنفك في المجالس بحسد زبد وانتقاد على عمرو . ونسعى بين بعضنا بالأذى والفساد وتعامل بالغش والخيانة والعدو . الغنى فينا جبار شحيح . والفقير منا متكبر قبيح . حتى عم البلاء وزاد الشقاء وفسد الأمر . نحن إذا انفقنا افترقنا في أقرب حين . شهدنا الزور بلا خجل . أكلنا الربا بلا مبالاة . في الأسراف والتبذير أضعنا الأموال * الحق أضعفناه ، الباطل قويناه ، الصدق تركناه ، الكذب روجناه ، لا يخطر لنا الحساب على بال . خاصمنا القريب ، وهجرنا البعيد ، كل منا على الآخر شديد ، قلوبنا أصلب من الحديد ، ولسنا بعيوبنا عن عيوب غيرنا مشتغلين . أضعنا الصلاة بلا خشية ، منعنا الزكاة بلا رحمة ، أسأنا الجوار بلا حياء ، لسنا من بطش الجبار خائفين . وإذا نهى عن المنكر غيور سمعناه وخالفناه ، وإذا عاهدنا عهداً نبذناه ، وإذا جاء المسلم خير حسدناه ، وإذا حلفنا يميناً كنا كاذبين . أهكذا تكون أمة يتلى بينها القرآن ، أهكذا تكون أمة رسولها المصطفى سيد ولد عدنان ، أهكذا تفعل أمة سيحاسبها الملك الديان ، أهكذا الدين ، أهكذا العقل ، أهكذا المروءة ، أهكذا يكون عمل المسلمين ؟ فأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، اتقوا الله وتمسكوا بالكتاب والسنة ، فلا حياة لكم إلا بالرجوع إلى كتاب الله ، ولا سعادة إلا بإحياء سنة رسول الله ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ

المبين * عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله عليه » — ومعناه ينتقم من عصاه — متفق عليه ، وعنه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى . قيل : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » رواه البخارى .

التحذير من الربا

الحمد لله أعز من أطاعه ، وأذل من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله شديد البطش بالظالمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهىهم عنه فعاثوا أعزة أقوياء (أما بعد) : فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أيها الناس ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم بين لهم النافع والضار ، والحلال والحرام ، فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، وأباح لهم التوسع فى كسب المال من طريق حلال ، وحرم عليهم الربا لأنه من أكبر أسباب الفقر والدمار ، وأقوى عوامل الذل والاستعباد للأمم والشعوب ، لهذا شدد الله الوعيد عليه ، وجعله من أخش الخبائث ، وأكبر الكبائر ، ونفراً للناس من تعاطيه بأبلغ الزواجر . فقال تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » وأى زاجر أبلغ من جعل المرابى محارباً من الله ورسوله ، لأنه شوه وجه المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله بغير حق ، وقطع يد التعاون الذى أمر الله به فى قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فوا عجيباً كيف يُقدم المرء على معاملة من يُصيرُهُ عرضة للفقر والخراب والذل والهوان ، حيث يسلب ماله شيئاً فشيئاً حتى ينزع منه جميع أملاكه ، ويُصبح

ذليلاً محزوناً ، ملوماً محسوراً . فيأيها المقرض بالربا ! أما تدري أنك أوقعت نفسك في يد ذلك الكفار الأثيم ، الظالم الذي لا يرحم ، الذي يأكل مالك وهو مادة حياتك ، وقوام عيشك ، فإن كنت تظن أنه بالإعطاء قضى حاجتك ، وفرج كربتك ، فقد أوقعك في ضيق شديد تسوء مغيبته ولا تحمد عقباه ، قل لى بربك أى ضرورة تدعوك إلى الاقتراض بهذه الزيادة المشثومة ، والرزق عند الله مضمون ، وأبوابه كثيرة ؛ وما دام الإنسان حياً لا يعدم قوته — أيها الناس : إن ذل السؤال أهون من أخذ المال بالربا . فذل الربا أشنع عند تعذر القضاء ومحجى الدائن مطالباً أيها المقرض بالربا ، إن كنت ممن يرضى بما قسم الله له كفأك في دنياك ما يدفع عنك ضرورة الحياة ، وإن كنت تحب المظاهر الكاذبة والتفاخر بكثير المال ، فاعلم أن الربا يوقعك في دين ثقيل ، وهم دائم ، وذل مهين ، وعذاب عظيم ، وفقر أليم . قال لقمان لابنه : يا بنى إياك والدين فإنه ثم بالليل وذل بالنهار . أترضى لنفسك أن تشقى في جمع مالك ، وتنصب في تحصيل ثمرات أرضك وعقارك ، ويفوز به المرابي وهو هادى البال مستريح الضمير ، بين أهله وعشيرته ، وتعينه على أكل الربا فتشاركه في اللعنة وتعرض نفسك لمقت الله وغضبه . « فليحذر الذين يخافون عن أمره أن تصيبهم فينة أو يصيبهم عذاب أليم » . يا هذا : السعيد من انعط بغيره واعتبر بمحادث الأيام ، وإن كثيراً من أمثالك تعاملوا بالربا فعاد عليهم بالضرر والوبال ، وعماً قليل قد أحاط بهم الخطر وصاروا فقراء أدلاء ساقطين ، لا يعطف عليهم قريب ؛ ولا يواسيهم بعيد ، وتقطعت بهم الأسباب ، وأصبحوا حملاً ثقيلاً على كاهل الأمة ، هذا يحقرهم ، وذاك يتألم منهم ، وآخر يشمت فيهم ، ويرميهم بالسفه وسوء التصرف « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فاتقوا الله أيها المسلمون في أنفسكم وأولادكم وأموالكم وأمتكم ، خافوا الله وتباعدوا عن الربا إن كنتم مؤمنين « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكتبه وشاهديه وقال هم سواء »

رواه مسلم وغيره — وآكله هو الآخذ للزيادة ؛ وموكله هو الدافع لها ، وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس — إن المال خير عون لصاحبه ، وأقوى عامل على رقي الأمم والشعوب ؛ به تكون الأمة عزيزة قوية ، جليلة مهيبة ، محترمة في نظر الأمم فإذا خالطه الربا ذهب من يدها فصارت ضعيفة ذليلة فاقدة الهيبة ، ساقطة الكرامة وأصبحت فريسة الأقوياء ، وعرضة لطمع الطامعين وجشع المستعمرين . وذلك جزاء الظالمين ، ومآل المسرفين الذين يتعرضون لحرب الله ورسوله . يا قوم يكفي لقبح الربا والتنفير منه أن الله تعالى يجعل من علامات المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون من قبورهم على هيئة المصروعين المجانين ، الذين تسلط عليهم الشيطان فضرهم في عقولهم . قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . المس الجنون . نسأله تعالى السلامة من جميع المكازر والعافية من كل بلية ، إن ربى لسميع الدعاء ، قريب مجيب .

المحافظة على الصلوات والخشوع فيها

الحمد لله الذي أنزل الشريعة هدى للناس ورحمة . وجعلها طريقاً واضحاً إلى سعادة الدارين . والشكر لله تعالى هدانا للإسلام وفضلنا على جميع الأمم . وأشهد ألا إله إلا الله أعز الطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل المصلين وإمام الخاشعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحفاظين لحدود الله (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » . عباد الله : إن الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام . من حافظ عليها فهو السعيد الرابع ومن أضاعها فذلك الخاسر الشقي . وإن الخشوع فيها مع الإخلاص لله آية الإيمان وسبيل الفلاح ، وأمان من وساوس الشيطان الرجيم ، فإن العبد إذا اعتاد الوقوف بين يدي مولاه في اليوم والليلة خمس مرات خاشعاً متواضعاً فارغ القلب من الشواغل ، متدبراً ما يتلوه من آيات الله . انغرس في نفسه خشية مولاه في جميع أعماله ، وحضرته هيبة خالقهِ في عموم أحواله . فإذا سولت له نفسه أمراً ، أوزين

له الشيطان سوءاً تبرأ منهما قائلًا : إني أخاف الله رب العالمين . فكن في صلاتك خاشعاً ، وفي مناجاة ربك صادقا . فلا تقل الله أكبر وأنت تظن أن هناك من يساويه أو يدانيه في عظمته . لا تقل الحمد لله رب العالمين وأنت بالحلل لا تقنع . ومن الحرام لا تشيع . لا تقل الرحمن الرحيم وأنت شديد البطش قاسي القلب على الضعفاء والمساكين . لا تقل مالك يوم الدين وأنت لا تذكر الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين . لا تقل إياك نعبد وأنت تعبد هواك ودنياك . لا تقل وإياك نستعين . وأنت تلتجئ في الشدائد إلى الخلق وتترك باب مولاك . لا تقل اهدنا الصراط المستقيم وأنت منحرف عن طريق المهتدين . لا تقل صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وأنت سى الأخلاق حقودٌ حسود ، نمامٌ مغتاب ، غشاش كذاب واقع فيما يغضب الله والملائكة والناس أجمعين . لا تقل ولا الضالين . وأنت فاسد الاعتقاد شر في الأعمال ، تدبر الأذى وتكيد لإخوانك المسلمين — يا هذا — إن من حافظ على الصلوات في الأوقات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، وأداها بخشوع وخضوع ، استنار قلبه ، وتهذبت نفسه ، وحسنت مع الله والناس معاملته ، وحيل بينه وبين المحرمات ، وكان على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحيماً ، وأفلح في دينه ودنياه ، وكان من المحبوبين لدى الله والناس أجمعين . النفس أمارة بالسوء ، والشيطان أيضاً يأمر بالفحشاء والمنكر ، ليضل المرء عن سواء السبيل ، ويقذف به في مهاوى الشقاء والخسران . والسيوف القاطع ، والدواء النافع ، الذي جعله الله تعالى لوقاية الإنسان من شر النفس والشيطان إنما هو الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » . أيها الناس الله تعالى يقول : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » أولئك هم الذين خلت صلاتهم من التذلل والخضوع ، فتراهم يسرعون في أدائها وهم عنها غافلون . لا يعرفون لها معنى ، ولا يعقلون لها سراً ، ولم تشعر قلوبهم بحلاوة الطاعة ، ولذة المناجاة . نعم لهم الويل . ملكتهم الوسواس ، وامتلات قلوبهم بشواغل الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له

شيطانياً فهو له قرين . ومن الناس من عميت بصائرهم وتحجرت ضمائرهم ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وأهملوا أوامر الله ، وغفلوا عن واجب شكره ، ولم يخافوا سطوة جبروته ، ولا سوء الحساب ، ولا نار العذاب . « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » فيأيها المسلمون اتقوا الله ربكم وحافظوا على صلواتكم ، وقوموا لله خاضعين خاشعين لتفوزوا برضوان الله ، وتكونوا من المفلحين الذين شملهم الله بإحسانه ، وغمرهم في بحار رحمته . « أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » في الحديث القدسي عن رب العزة — « ما أقلّ حياءَ من يطعم في جنتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من يخل بطاعتي » . وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحسن الرجل الصلاة فأنتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة حفظك الله كما حفظني فترفع ، وإذا أساء الرجل الصلاة فلم يُتم ركوعها وسجودها قالت الصلاة ضيعك الله كما ضيعتني . فقلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه » .

الحث على تأليف الجمعيات التعاونية والزراعية

الحمد لله الذي أمر بالتضامن والتعاون ، ونهى عن التفرق والتخاذل ، وهو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا إلى سبل السعادة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله بين لنا وسائل الرقي والسيادة . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين صفت نفوسهم ، واتحدت كلمتهم . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » أيها المسلمون إن التعاون على طرق الخير ، والتآزر في الأعمال النافعة ، أساس الرقي ، وأصل الفلاح والنجاح . فما من أمة جعلت التعاون شعارها ، والتآزر عنوانها ، إلا عمها الخصب والرخاء ، وشملها اليسر والهناء . ففي التعاون والتضامن التقدم والرقي ، وفي التخاذل والتفرق اللاحطاط والتأخر . لهذا أمر جل وعلا عباده المؤمنين

بالتعاون والتضامن ، وحذّرهم أن يكونوا كالذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، فأذاقهم في الدنيا ذلاً وهواناً ، وفي الآخرة أنكالاً وجحماً ذا غصة وعذاباً أليماً . قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وهامى مضار التفرق بيننا حتى أصبحت جلية ، وآثاره السيئة فينا صارت بيّنة واضحة . فما تأخّرنا بعد تقدمنا ، وضعفنا بعد قوتنا ، وذللنا بعد عزنا إلا من تفرقنا وتخاذلنا — حتى تحكم الأجنبي في موارد حياتنا ، وأساس ثروتنا . فاشتري محصولاتنا بأبخس الأثمان ، وباع لنا بضاعة بلاده بأفحش الأسعار — فأصبحنا كما تعلمون لا مالا جمعنا ، ولا ديناً اتبعنا : التاجر منا مُهدّد بالإفلاس ، والصانع فينا خائف من بوار صناعته ، والزارع أمسى في ضيق مُستحكم ، ونسكد مستمر — وصرنا إلى حال سيئة تذوب منها الأفئدة ، وتتفطر لها القلوب : كل ذلك من سوء تصرفنا ، وعدم التعاون والتضامن في أعمالنا ، فجَلَبَنَّا على أنفسنا البلاء ، وأغضبنا بتفرقنا ربّ الأرض والسماء فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أيها الناس — إن الأجانب قد أدركوا مزايا التعاون الذي أمر به ديننا فتمسكوا به ، واتخذوه أساساً لهم في سائر الأعمال الحيوية النافعة ، فسمّدوا وسعدت بهم بلادهم — ونحن أهملنا نصائح ديننا ، وتخاذلنا في شئون حياتنا ، فشقينا وشقيت بنا بلادنا ، وأصبحنا وراء الأمم قوة ومدنية — عباد الله أنظنون أن تنالوا السعادة والرقى بغير التعاون والتضامن في الأعمال النافعة للأمة ؟ إن كنتم تظنون ذلك فاعلموا أنكم تبغون محالاً ، وتطلبون بعيداً — انظروا إلى ذلك الزارع المسكين وما يعانيه في حياته من ضروب الشقاء ، وما يقاسيه من أنواع الشدائد والمتاعب ، حتى يظهر زرعه . انظروا إليه وهو يمد يده إلى المرابين للإيفاق على أرضه وعياله ، فلا يُقرضونه إلا بالربا الفاحش ، فإذا ظهرت الثمرة أتاه الدائنون من كل مكان ، واستولوا على محصول تعب فيه طول العام ، وكأنه لم يشق إلا لسعادة هؤلاء المرابين ، ولم يتعب إلا لراحة أولئك الفجرة الآمين . وباليتمهم يتركونه يبيع حاصلاته عند تحسين الأسعار . بل يأخذونه أخذ القوى الجبار . وإذا لم يف

المحصولُ المطلوب باعوا منقولاته ، وحيواناته ، وعقاره ، فيُصبح في ضيق شديد وذل أليم . وعند ذلك ينظر إلى الأغنياء نظر الحقود الحسود ، ويصير وبالاً على نفسه وبلاء على أمته . فياقوم أرايتم لو أن كبار الزارعين رحموا ذلك الزارع الصغير فألفوا جمعيات تعاونية وزراعية تضمه وتضم أمثاله ، ويكون مقصود تلك الجمعيات مدد يد المساعدة للمحتاج من الزارعين — أرايتم لو تم هذا أما كان يستطيع الزارع حفظ محصوله إلى الوقت المناسب فيبيعه ويسدد ما عليه من ديون ، وينفق ما فضل له بقية عامه ، ويُنقذ من هم الدين وذل المرابين ، ويعيش في سعة ورخاء ، بعد أن كان في ضنك وبلاء . فيأيها المسلمون اتقوا الله في أمتكم ، وبادروا إلى ما فيه عزكم ورقيتكم ، وألفوا الجمعيات التعاونية والزراعية تسعدوا وترتقوا ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

مواساة البؤساء

الحمد لله الذي أمر بالإحسان ونهى عن الامتنان ، الكريم الذي جازى الإحسان بالإحسان ، لا إله إلا هو أرحم الراحمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ذو فضل على العالمين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الحسين وملجأ البائسين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الرحماء المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » . أيها الأغنياء . إذا كان الله تعالى قد تفضل عليكم ورزقكم من الطيبات ، وأغناكم عن الحاجة ، وصان وجوهكم عن مذلة السؤال ، فقد وجب عليكم أن تشكروه تعالى على ما منحكم وأولاكم ، وأعزكم وأغناكم ، وبذلك يحفظ عليكم نعمتكم ، ويتفضل عليكم بالمزيد منها ، والبركة فيها « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم

إن عذابي شديد » وليس الشكر قولاً باللسان ، وإنما الشكر امتثال أوامر الله بالطاعة والإحسان إلى البؤساء الذين أصابتهم شدة ، والفقراء المحتاجين من أرباب العيال . ومن القسوة أن تمنعوا المعونة ، وتقبضوا أيديكم شحاً وبخلًا ، (والشدائد) تميم البائسين ، والضيق يقتل إخوانكم المحتاجين . أمِنَ الرحمة أن تكونوا في رغد من العيش ، وسعة من الرزق ، ومن أخنى عليهم الزمان في شدة من الضيق ، وألم من الإعسار ؟ أمِنَ المروءة أن تتمتعوا بأصناف الغذاء وأخوكم المسلم يتألم من الجوع في الصباح والمساء ؟ أمِنَ المروءة أن تتمتعوا بملبس الزينة وأخوكم في الإنسانية يُحرِّقه الصيف ، ويقرُصُه برد الشتاء ؟ اللهم إن الغني الذي لا يُحس بأن عليه للبؤساء والفقراء حقوقاً وواجبات ، لقاسى القلب ، خال من الشفقة ، بعيد من رحمة الله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أيها الناس ! إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، قد وعد من أنفق شيئاً في سبيل الله أن يخلفه عوضاً ، إما عاجلاً وإما آجلاً ، فقال جل شأنه « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » ، وهو خير الرازقين « فليس البخل والإمساك بعد هذا الوعد الكريم إلا من ضعف الإيمان ، أو سوء الظن بالله الغني الحميد . إذا كان الله تعالى قد مدح الأنصار من الصحابة بأنهم كانوا يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، ولو كانوا هم في أشد الحاجة ، حيث قال عز وجل : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . فإن لم تقدموا الغير على أنفسكم ، فاعطفوا على البائسين والمحتاجين ببعض ما يزيد عن حاجتكم ، وإن هذا لهين على من عنده أدنى رافة ورحمة منكم ، إن هذا لهين يسير على من حفظه الله من رذيلة الشح : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » أيها الناس . صنائع المعروف من علامة الإيمان وعلو الهمة ، وعنوان الشهامة والمروءة ، وإنها تقي صاحبها مصارع السوء ، وتحفظه من المحن والبلايا ، وتجلب رضا الله وإحسانه . لا تكلفكم الإنسانية من الإحسان إلا اليسير ، ولا تطالبكم المروءة إلا بالشيء القليل ، فاصنعوا المعروف في أهله ما استطعتم ، وافعلوا الخير لعلكم

تفلقون ، وإن ما يُضيِّعه الواحد منكم في الكاليات لكثير ، ولقد يُنفق الغنى منكم في جلسة قصيرة ما يكفي البائس الفقير زمنا طويلا ، فأدخلوا السرور على المساكين بالبر والإحسان ، لعل الله يرحمنا ويكشف عنا ما نحن فيه من ضيق وشدة وذل وبلاء . اسألوا عن المحتاجين في بيوتهم ، وعن المصابين في أماناتهم ، ادخلوا عليهم وهونوا عليهم الشدائد والآلام ، وخففوا عنهم ما هم فيه من الأسقام والأحزان ، وتصوروا أنكم مثلهم فماذا كنتم تحبون أن يُصنع بكم ؟ اتقوا الله وأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم وجعلكم نوابا عنه ، ووكلاء فيه ، يعطكم أجراً عظيما ، وثوابا جزيلا « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » أعطوهم بعض ما يفضل عنكم ، فبذلك تملكون قلوبهم ، وتكتسبون محبتهم ، وبذلك تتمجد القلوب ، وتكون الألفة والإخاء ، فتتصرون على أعدائكم ، وتبلغون غايتكم ، وتعيشون في بلادكم آمنين مطمئنين ، ويعلمكم الله برحمته ، ويشملكم بإحسانه « وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » في الحديث القدسي عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « انفق يا بن آدم يُنفق عليك » متفق عليه من حديث أبي هريرة — وروى مسلم عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » . وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس — فينا من لا يثنى لمثألم ، ولا يتوجع لمستصرخ ، ولا يحزن لبائس . فتجردوا من العاطفة الانسانية ، وحنان الأخاء الإسلامي ، وفقدوا الرابطة الدينية . وقد قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله » رواه مسلم . فينا من يقع أمامه من الحوادث ما يؤلم القلب ويديم العيون ، فلا يتأثر ولا يلين ، بل تجده كالصخرة الصماء : كالحجارة أو أشدَّ

قسوة... والذي نشاهده من أمثال هؤلاء قساة القلوب غلاظ الأكباد ، دليل واضح على انحطاط نفوسهم ، وخبث أرواحهم . المال مال الله ، والفقراء عيال الله ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومالك الملك وخالق الخلق قادر على أن ينزع عن الغنى لباس غناه ، ويعطى البائس الفقير كل ما يرضيه من متاع الحياة « قل اللهم مالك الملك... » الآية . فاللهم أصلح أحوالنا . وهبنا قلوباً رحيمة ونفوساً عالية وأرواحاً طاهرة يارحمنا .

المحافظة على الصلاة وآثارها في الفرد والمجتمع

الحمد لله الذي جعل رضاه ورحمته لمن أطاعه ، وغضبه وعذابه لمن عصاه ، وهو الغنى القوى الكبير المتعال . وأشهد ألا إله إلا الله فرض على المؤمنين خمس صلوات في اليوم والليلة ، وجعلها في خمسة أوقات رافةً بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل العابدين ، وإمام الخالصين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الراكعين الساجدين . الخاشعين الصادقين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » أيها الناس : أمرنا الله تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، والقيام فيها خاشعين لجلاله ، خاضعين لعظمته ، وجعلها طريق الفوز والسعادة في العاجل والآجل بقوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » ذلك أن الصلاة الكاملة تنير القلب ، وتهذب النفس ، وتعلم العبد آداب العبودية ، وواجبات الربوبية ، بما تفرسه في قلبه من جلال الله وعظمته ، والتحلى بمكارم الأخلاق : كالصدق والأمانة ، والقناعة والوفاء والحلم والتواضع ، والعدل والإحسان ، وتوجهه إلى مولاه : فتكثر له مراقبته وخشيته ، حتى تعملوا بذلك همته ، وتزكو نفسه ، فيبتعد عن الكذب والخيانة ، والشره والفدر ، والغضب والكبر ، ويترفع عن البغى والعدوان ، ودناءة الفسوق والعصيان « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون » بالمحافظة على الصلاة تقوى النفس على احتمال الشدائد ، وتثبت عند نزول البلياء

والحنن ، ويسهل عليها البذل حالة الغنى واليسار « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (أيها الناس) ماذا كان من آثار ترك الصلاة في المدن والقرى ؟ كان من آثاره في المدن انتشار الفواحش والمنكرات : ترى حانات الخمر والميسر ، وبيوت الدعارة والبغاء ، ودور الملاهي والخلاعة ، مملوءة بمخاضة الناس وعامتهم ، حتى في ليالي رمضان ، شهر الطاعة والقرآن . عبد الناس المال فلا يبالون من حلال أكلوا ، أم من حرام أكلوا ، وشغلوا بنعم الله عن الله . وهو تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » قل فيهم الصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، فقلت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض ، فلا يكاد المسلم يثق إلا بالأجنبي ، وانحلت الروابط الدينية ، والوحدة الإسلامية ، فزال منهم التضامن في المصالح الاجتماعية ، والتعاون على المشروعات الاقتصادية التي تحفظ وحدة الأمة واستقلالها ، وتضمن رقيها وعزتها « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وأما آثار ترك الصلاة في القرى فاستباحة أهلها لإتلاف المزروعات والآلات ، وسرقة الحاصلات والبهائم ، ونقل الحدود ، وإساءة الجوار ، بل انتهاك الأعراض وإزهاق الأرواح . حتى كثرت بينهم القضايا والمنازعات . ولو أن المسلمين حافظوا على الصلوات في الأوقات ، وأقاموها على وجهها كما أمر الله ، لانتهوا عن الفحشاء والمنكر ، واستراحوا من هذا البلاء والشقاء ، وعاشوا آمنين مطمئنين « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تدينا ، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » المحافظ على الصلاة لا يكون زانيا ولا مراهبا ، ولا حقودا ولا حسودا ، ولا ماطلا في حقوق الناس . المحافظ على الصلاة لا يضيع حقوق أهله وعياله ، وأقاربه وجيرانه ، ولا يقهر اليتيم ، ولا يقسو على المسكين . ولا يمنع الماعون عن إخوانه ، الذي يقيم الصلاة على وجهها يحب الحق وأهله ، ويكره الباطل وحزبه . ولا يرضى بالذلة

والهوان لنفسه وأمنته ، ولا يركن لأهل البغى والعدوان ، ولا يطغى عند النعمة ، ولا ييأس عند النعمة ، ولا تعبت به الخرافات والأوهام ، فهذا هو الإنسان الكامل الذى يؤمن شره ، ويرجى فى الناس خيره . فاتقوا الله أيها المسلمون واشكروا نعمه عليكم بالطاعة والاستقامة . حافظوا على الصلاة فى الأوقات تحفظوا من بلايا الدنيا ، وتأمينوا من فزع الآخرة . وأحسنوا أداءها يحسن الله حالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم . قال تعالى : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « يا ابن آدم خلقتك يدي ، وربيتك بنعمتي ، وأنت تخالفني وتعصيني ، وإن رجعت إلى تبت عليك ، فمن أين تجدد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم » ؟ وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم . وتقول فى الثانية : أيها الناس . الصلاة رياضة بدنية ، وصلة بين العبد وربّه ، وإقامتها من أكبر علامات الإيمان ، وأعظم شعائر الدين ، وأجلى مظاهر العبودية لله ، وأظهر آيات الشكر له على نعمه التى لا تحصى . فأضاعتم انقطاعاً عن الله تعالى وحرماناً من رحمته ، وإهمالاً من ضعف الإيمان وهدم الدين ، وتكبر على الله وكفران بنعمته . وقد قال تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الصلاة الصحيحة هى الدواء الشافى من أمراض القلوب ، وفساد النفوس ، والنور المزيل لظلمات الذنوب والآثام . فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . متفق عليه — اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا أرحم الراحمين .

الاعتبار بالموت والاستعداد له

الحمد لله المبدى المعيد . المحيى المميت . الفعال لما يريد . القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . وأشهد ألا إله إلا الله سبق بالآجال علمه ، ونفذت فيها إرادته ، « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كانت حياته المثل الأعلى فى مكارم الأخلاق ، وجلال الأعمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين أيقنوا بالموت فعملوا ، وخافوا الحسابَ فأمنوا العذاب (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » أيها الناس — إن أكبر واعظ هو الموت الذى قدره الله على خلقه : وكتبه على عباده ، وانفرد جل شأنه بالبقاء والدوام ، فما من مخلوق مهما امتد أجله ، وطال عمره ، إلا وهو نازل به ، وخاضع لسلطانه . « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » ولو جعل الله الخلود لأحد من خلقه لكان ذلك لأنبيائه المطهرين ، ورسوله المقربين ، وكان أولاهم بذلك صفوة أصفياه . وخيرته من خلقه ، سيد ولد آدم على الإطلاق ، محمد صلوات الله وسلامه عليه — كيف وقد نعاه إلى نفسه ، وأخبره بأنه سيموت كسائر الناس ، فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فالموت حتم لا محيص عنه ، ولا مفر منه ، يصل إلينا فى بطون الأودية ، وعلى رؤوس الجبال ، وفوق الهواء ، وتحت الماء ، وبين القلاع المنيعه . والحصون المتينة « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ولو نجا أحد من الموت لبسطة فى جسمه ، وقوة فى بدنه ، أو وفرة فى ماله ، أو سعة فى سلطانه وملكه . لنجا من الموت كثير من الناس . وإلا فأين عاد ونمود وفرعون ذوالأوتاد؟ أين الأكاسرة والقيصرة ، أين الجبابرة والصناديد الأبطال .. فالموت لا يخشى أحداً

ولا يُبْقَى على أحد : ينتزع الطفل من حضن أمه . ويهجم على الشاب الفتي ،
والفارس القوى ، ويأخذ الشيخ الهرم ، والشيخة الغانية . أيها الناس : الموت على
وضوح شأنه ، وظهور آثاره ، سر من الأسرار التي حيرت الألباب ، وأذهلت
العقول ، وتركت الفلاسفة مبهوتين ، والأطباء مدهوشين ، فهو يتعلق بالروح التي
قد استأثر الله بعلمه » ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً » ترى الشاب الممتلئ صحة وعافية ، والشجاع الذي يصارع الأبطال ،
في لحظة يسيرة قد استحال جثة هامدة ، وصار جسماً لا حراك به . فذهب ذلك
الشباب ، وتلاشت تلك القوة ، وتعطلت حواسه : تعطل سمعه وبصره وشمه ،
وخرس لسانه . وقد يكون عالماً ضليعاً . أو أديباً بليغاً ، أو طبيباً ماهراً ، أو مخترعاً
بارعاً . ولكن هيهات أن يمنع ذلك قبض أرواحنا ، إذا انقضت الأعمار وحضرت
الآجال : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ما أقرب الموت !
ما أقرب الموت . . كل يوم يدنو منا ونحن ندنو منه ، وليس بيننا وبينه إلا أن يبلغ
الكتاب أجله ، فإذا نحن في عداد الموتى . فما الأعمار في الحقيقة إلا أرهار تنفتح
ثم تذبل . أو مصباح ينير ثم يطفأ . أو شهاب يضيئ ثم يصير رماداً . . . أيها
الناس . الموت كلمة ترتج لها القلوب ، وتقشعر منها الجلود ، ما ذكر في قوم إلا
ملكتهم الخشية ، وأخذتهم العبرة ، وأحسوا بالتفريط ، وشعروا بالتقصير .
فندموا على ماضى ، وأنبأوا إلى ربهم : « ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم
يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » . فنسيان الموت ضلال مبين ، وبلاء عظيم ،
مانسيه أحد إلا طمئى . وما غفل عنه إنسان إلا غوى . وإن لنا في السلف الصالح
أسوة حسنة ، وقدوة طيبة . فقد كانوا يُكثرون من ذكر الموت حتى في أوقات
الصفاء ، وأيام السرور . وكان ذلك يبعثهم دائماً على الجد في طاعة الله ، والبعد عن
مساخط الله ، استعداداً للموت وما بعد الموت . وإذا كنت موقناً بأنك ستموت
وتلقى مولاك . فسكن على تمام الاستعداد له ، فإنك لا تدري متى ينزل بك ، ولا
تعلم في أى ساعة تُقبض ، حتى تتفرغ للعمل قبله ولو مدة قصيرة : « ولو كنت أعلم

الغيب لاستكثر من الخير وما مسنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»
ولكن الغفلة قد استحوذت علينا، واشتغلنا بحطام الدنيا، حتى نسينا الموت
وأهوال يوم القيامة، وغرنا بالله الغرور. والله تعالى يقول: «يا أيها الناس اتقوا
ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً؛
إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور» وليس أدلّ
على الغفلة وقصر النظر من أن الانسان يحدّ وينهمك في جمع المال، من حلال
أو حرام، ليتمتع به أياماً معدودة، لاهياً بذلك عن الحياة الباقية، والنعيم الأبدي:
«في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء
والضراء والكاهمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» ولو أنا إذا
متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي، ولكننا إذا متنا بعثنا. ونسأل بعد ذا عن
كل شيء، لم يخلق الناس في هذه الدنيا هملاً، ولم تنزل الشرائع وتبعث الرسل إلا
لحكمة: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» وجدنا في هذه
الحياة انتزود منها، ثم نموت لنستأنف حياة ثانية هي أعلى من هذه الحياة: «وإن
الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون»؛ فاتقوا الله ربكم واعلموا أن الدنيا
غرارة غرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ ما عليها، كما حكم عليها ربها بقوله: «كل من
عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»؛ اعملوا للحياة الباقية، واخلدوا
الأبد. واعلموا أنكم ميتون، وأنكم على رب العزة ستعرضون: «ليجزى الذين
أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى»؛ في الحديث القدسي عن رب
العزة يقول الله تبارك وتعالى: «وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدى خوفين
ولا أجمع له أمنين. إن أمننى في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى في الدنيا
أمنت يوم القيامة». رواه الحاكم وغيره. وروى الطبراني عن ابن عمر رضى الله عنهما
قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار
من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: أكثرهم ذكرًا للموت
وأشدهم استعداداً له.. أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة».

وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس ، إن السعادة والشقاء في الآخرة منوطان بأعمال المرء في الحياة الدنيا — وإن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وكل ما عمل المرء مسطور في صحيفته . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : يومئذ تحدث أخبارها ، ثم قال : أتدرون ما أخبرها ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

التحذير من التبرج

الحمد لله جعل السعادة لمن أطاعه ، والذلة والشقاء على من عصاه ، وهو العزيز الحكيم ، وأشهد ألا إله إلا الله أرشدنا بالإسلام إلى طرق الأدب والكمال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من ظلمات البدع والضلالات ، وينقذهم من سيئ الأخلاق ، وقبائح العادات . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » أمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقرار في البيوت ، ونهاهن عن التبرج وإظهار الزينة للرجال الأجانب ، كتبرج النساء في جاهلية الكفر قبل الإسلام — أمرهن بلزوم البيوت ، ونهاهن عن ذلك التبرج ، ليزيل عنهن ما يدنس العرض ، ويطهرهن من أدران الخزي والعار ، صوناً للشرف ، ومحافظة على العفاف والكرامة . وإذا كان ذلك في أمهات المؤمنين — وهن على ما تعلمون من العفاف والصيانة والتقوى والاستقامة — ففساد المسلمين بهذا أحق وأولى . أيها الناس : من أقبح المنكرات وأكبر الإيلاء تبرج المرأة وإظهار زينتها للرجال الأجانب ، في الطرقات والأسواق ، وبيوت التجارة وأما كن اللهو والفسوق . فبإرها الكبير والصغير ،

والفقير والغنى ، والمسلم والنصراني ، لا دين يردعها ، ولا حياء يمنعها ، ولا قانون يقمها عند حدها . . . فهي كل يوم تزداد في تبرجها ، تنفق في أشكال ملابسها ، حتى خشي أهل الدين سوء المغيبة ، وخاف العقلاء وخامة العاقبة . إن تهتك المرأة وإظهارها مواضع الزينة منها واختلاط الشبان بالفتيات لعن السيئات الممقوتة ، والبذع القبيحة . التي لا يصح التغاضي عنها ، ولا يجوز السكوت عليها ، بعد ما بين رجال الدين سوء عاقبتها ، وأدرك ذوو العقول السليمة خطر التهاون فيها ، وضرر التساهل في مقاومتها . فإن الساكت على الجريمة شريك الجاني . وإذا نزل العقاب أصاب الصالح والطالح ، وعم البريء والمسيء ، قال الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » أيها الناس : إن صفائر المعاصي تجر إلى كبائرها ، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، فمعصية التبرج واختلاط تؤدي إلى افتتان الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وتجري إلى الزنا والأذى واختلاط الأنساب ، وانتشار الفاحشة في أفراد الأمة ، وكل هذا وبال علينا وشر في العاجل والآجل » إن الذين يحبون أن تسمع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . فلا يليق بمسلم يغار على الآداب والأعراض أن يستصغر هذه المعصية ، ويتهاون بتلك البدعة ، فيترك النهي عنها ، وينام عن القضاء عليها ، وزجر المفتونين والمفتونات بها ، بعد أن علم ما فيها من المفسد الجمة ، ورأى ما يترتب عليها من الشرور الكثيرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » بهذا التبرج الذميم قد خرجت المرأة المسلمة من السنن الإسلامية ، والآداب الدينية ، ودخات في عادات الكافرين ، وبذع المتفريجين ، وأتقت بنفسها في وهدة التهلكة والخلاعة ، وطرحت عنها ثياب الحشمة والصيانة ، وخلعت عن وجهها برقع الحياء ، وصارت لا تراعى حرمة الآداب ولا تبالى بهتك الحجاب ، وأصبحت حال المرأة اليوم أسوأ من حالها أيام الجاهلية ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل . أيها الناس : كل هذا كان من تقليد المرأة الشرقية
المرأة العربية ، واستحسان عاداتها ، والافتتان بزيتها ، والتشبه بالأجانب في عاداتهم
القبيلة ، من غير عقل ولا روية . وبذلك ضاعت الأموال ، وبذلك فسدت
الأخلاق ، وبذلك ساءت الظنون ، وبذلك انعدمت ثقة الشبان بعفاف الفتيات ،
فأعرضوا عن الزواج الشرعي ، وأقبلوا على بيوت البغاء والدعارة ، وأوقعوا أنفسهم
في الأذى وغضب الله المنتقم الجبار . نعم قلدت المرأة المسلمة المرأة الكافرة في تلك
العادات القبيحة ، والبدع السيئة ، فحسرت نفسها ، وأضاعت كرامتها ، ولوثت
سمعتها ، وأزالت الثقة منها ، وصارت حملاً ثقيلاً ، وعاراً على أهلها وذويها ، وكانت
من أقوى العاملين على رواج البضائع الأجنبية ، وإماتة المصنوعات الوطنية وبذلك
صارت شراً على البلاد ، ووبالاً على العباد . وأنتم يا معشر الرجال المسئولون أمام الله
عز وجل عن فساد المرأة ، وأن العذاب واقع على من قدّر على منعها ، وتهاون
في زجرها وردعها ، أو قصر في تربيتها وتهذيبها « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل
على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون
عن منكر فعله ، لبئس ما كانوا يفعلون » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : (ما تركت بعدى فتنة أضّر على الرجال من النساء) وروى مسلم
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من
أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء
كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن
الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) ، وتقول
في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الناس . كأن القوم في هذا الزمان فقدوا الآباء
والشعم ، والحمة والفيرة . ترى الرجل على ما به من الوجاهة وجمال المظهر يتقهقر
ضعفاً وجبناً في مثل هذه المواقف التي تتطلب رجولة وثباتاً ، فليس فينا من يغار
على الآداب والأعراض ، ليس فينا من يتألم لسير النساء والفتيات في الشوارع
والطرق : كاسيات عاريات متبرجات متهتكات ، فلا أب تحرّكه نحوه الرجولة

فيهذب زوجته أو ابنته ويراقبها ، ولا أخ يهتم لصون عفاف أخته ، وحفظ شرف أسرته ، ولا زوج تدفعه الغيرة فيكبح جماح امرأته . حتى عم الفساد وساء الحال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

التحذير من تقليد الأجانب في عاداتهم السيئة

الحمد لله أمر بالتجلى بالفضائل ، ونهى عن الوقوع في مهابى النقائص والردائل لا إله إلا هو الحكيم العليم . نشكره تعالى ميز لنا القبيح من الحسن . ونلجأ إليه سبحانه مما نزل بنا من البلايا والفتن . ونعوذ بالله من التقليد في سيئ الأخلاق وقبائح البدع والعادات . وأشهد ألا إله إلا الله هدانا بالإسلام إلى خير وسائل السعادة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله فتح لنا بسنته أبواب الرقي والسيادة ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين تأدبوا بآداب الدين فبلغوا ذروة العزة والكمال (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » المعنى : دين الإسلام هو طريقى الذى أسلكه فأسلكوه مثلى ، ولا تسلكوا الطرق المخالفة له ، وهى طرق البدع والضلالات ، فإنها تبعدكم عن الدين القيم الذى اختاره الله طريقاً لسعادة الدنيا والآخرة أيها الناس : أماننا طريق السعادة مفتوح فلماذا لا نسلكه ؟ أماننا سبيل الرقي والفلاح واضح ، فلماذا نعدل عنه ونتركه ، ونسلك طريق التأخر والشقاء والخسران . أرايتم أن دينكم قصر فى إرشادكم إلى سبيل الفلاح فعدائتم عنه ؟ أم قرأنتم فى تعاليمه ما يصدكم عن جلائل الأعمال ومكارم الأخلاق فهجرتموه ؟ كلا إنه دين الله الذى يبقى طريقاً للسعادة والرقي إلى يوم تبعثون : إذ ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا حذر من قبورها وبين سوء عاقبتها . فما لنا نسير على غير هدى ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين ، ولا يتفق مع آداب المسلمين . أيها المسلمون . لقد جلب علينا تقليدنا للأجانب شرّاً وبليلاً ، فقد أهمل كثير من كبرائنا أمر الدين ، واستهانوا بحقوقه ، وعَبَثُوا بواجباته ، بل صار الكثير من الشبان إباحياً لا دين له ، جريئاً

على انتهاك حرمت الله ، لا يُبَالِي بارتكاب مالا يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبايح . سائراً كلُّ واحد منهم وراء شهوته وهواه « ومن أضلِّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ويا ليتنا قلدنا الأجانب فيما يفيد وينفع من الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة . كالصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والاقتصاد وعدم الإسراف ، وكلِّ ما يرقى شئوننا من القنون والصنائع ، ولكننا قلدناهم فيما يضر ولا ينفع : قلدناهم في الربا ولعب القمار ، ولم نبال بما ياحقنا من المضار المالية . قلدناهم في تناول المسكرات والمخدرات ، ولم نبال بمضارها البدنية والعقلية ، قلدناهم في التبرج والتهتك وقلنا حرية . أخذنا عنهم أنواع اللهو والخلاعة وقلنا إننا بذلك نكون متمدين : ربينا بناتنا على عاداتهم فنشأن عاريات من الفضائل . جاهلات بأمور الدين . طرحن ثياب الحشمة ، وخلعن برقع الحياء ، وبرزن في الشوارع بالأزياء الأفرنجية . فإذا رأيت المسلة رأيت منها امرأة أفرنجية في ملابسها وحركاتها وسكناتها ، وهي ابنة أو زوجة من بعدة نفسه من جماعة المسلمين وأصبح من هذا أن يذهب المسلم بأهله وأولاده إلى أما كن اللهو ، وبيوت الخلاعة والفجور ، وبذل أن ينفق أمواله في الأعمال النافعة يضيعها في النقائص والردائل . والله يعلم أن هذه الأما كن ما أقيمت إلا لسلب ماله ، وإفساد أخلاقه ، والقضاء على البقية الباقية من دينه . وبذلك يجنى على نفسه ، وعلى أولاده وعلى أمته . ويكون لبناء الدين والفضيلة من الهادمين . أيها الناس : إن لكل أمة محاسن وقبايح يعرفها الأعمى والبصير ، وإن لنا ديناً قويمًا كله آداب وفضائل . فمن العار بل من الحرام أن نترك محاسن ديننا ، ونقلد الأجانب فيما ينهى عنه الدين . ويفض بعلينا الله رب العالمين . أتدرون ما عاقبة تقليدنا الأجانب في بدعهم السيئة ، وعاداتهم القبيحة ؟ تالله إنها لعاقبة وخيمة : فإننا بهذا التقليد نندمج في غيرنا ، ونهدم بناء ديننا . إننا بهذا التقليد نقضى على آدابنا وقوميتنا وعاداتنا ، ونمحو معالم حياتنا ، ونصبح بين الأمم ضائعين أذلاء مستضعفين . كفى هذا التقليد قبحاً أنه يسلب صاحبه فضيلة الإنسان ، كفاه ذماً أنه يقطع الصلة بيننا وبين الخلفاء الراشدين ،

يقطع الصلة بيننا وبين الأئمة الأربعة المجتهدين . أولئك الذين سادوا العالم ونشروا لواء العلم والدين . أيها المسلمون : إن الأجانب أنفسهم عرفوا ضرر كثير من عاداتهم كالخمر والميسر والزنا ، فنبهوا شعوبهم وأثمهم فأقلعوا عنها . وإن دينكم والحمد لله ما ترك التنبيه على ضررها . واطلما حذر من شرها وخطرها ، فارجعوا إلى دينكم وكونوا بهديه متمسكين . اتقوا الله يا قوم واحذروا هذا التقليد الأعمى ، فإنه يضر ولا ينفع ، وأمامكم كتاب الله وسنة رسوله ففيهما كل خير وسعادة « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتهم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جِجَرَ ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهُمْ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ فَمَنْ غَيْرُهُمْ ؟ » . وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس : مما ابتلى به المسلمون وفشا بين الخاصة والعامة في هذا الزمان تقليد الأجانب في كثير من عاداتهم ، من غير تمييز بين النافع منها والضار . وسبب هذا ما يروونه من قوة الأجنبي وضعفهم ، وتلك سنة الله تعالى في أمة أنهلت أمر دينها ، واتبعت أهواءها حتى ذهبت ريحها وضعفت قوتها ، فذلت واستكانت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره موافقة الأجانب في كل أحوالهم حتى قالت اليهود إن محمدا يريد ألا يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه وكان يقول : « من تشبه بقوم فهو منهم » رواه أبو داود من حديث ابن عمر . وكان أيضاً يقول : « ليس منا من تشبه بغيرنا » رواه الترمذي . ويا ويل من تبرأ منه الحبيب المصطفى وذلك لا شك يفيد حرمة تقليد المسلمين الأجانب فيما هو من خصائصهم . ولذا كان عمر رضي الله عنه يوصي قواده الفاتحين لبلاد الأعاجم وعماله فيها بالمحافظة على عادات العرب وزيتها ، وينهاهم عن التشبه بالأعاجم في عاداتهم وملابسهم ، لتبقى الأمة العربية متميزة عن الأجانب بعاداتها وأزيائها ، وكل ما يحفظ قوميتها . وفق الله الأمة الإسلامية إلى ما فيه الخير والسعادة إنه الجواد الكريم الرحيم الرحمن .

أثر الدين في سعادة الفرد والمجموع

الحمد لله شرع الدين هدى للناس ورحمة . وجعل العزة والسعادة لمن تمسك به . وتحلى بأدابه . وأشهد ألا إله إلا الله العزيز الحكيم ، الديان الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه . أولئك هم المفلحون . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أيها الناس — إن لدين الإسلام أثراً عظيماً في حياة الفرد وحياة الأمم ، بما يأمر به من صالح الأعمال والفضائل ، وما ينهى عنه من الآثام والردائل . فإذا تمسك كل فرد بدينه ، وتحلى بأدابه ، فإنه يحيا حياة طيبة ، حياة سعادة وهناءة . فيعيش صحيح الجسم ، سليم العقل ، مصون العرض ، موفور الكرامة ، غير كليل على الناس . يسعى في طلب الرزق من طريقه الحلال « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » يعيش المتمسك بدينه صادقا في قوله وعمله ، وفيا بعهده ووعدده ، أميناً فيما يؤتمن عليه من الأسرار والأموال ، وما يوكل إليه من الوظائف والأعمال . متوسطاً في الانفاق على نفسه وعياله . فلا يسرف ولا يقتصر شاكراً عند الرخاء ، صابراً على البلاء ، راضياً بالقضاء ، شريف النفس ، على الهمة ، شجاعاً في الحق ، لا يبالي ما يصيبه في سبيله ، ولا يخاف إلا الله . قال أبوذر الغفارى صاحب رسول الله : « أوصانى خليلي بحصل من الخير : أوصانى ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرأى » يعيش المتدين براً بوالديه وأقاربه ، قائماً بحقوق زوجته وأولاده ، حسن الجوار ، عطوفاً على المرضى ، رحماً بالضعفاء لا جباراً ولا عنيداً ، ولا مختالاً ولا فخوراً ، ولا حقوداً ولا حسوداً ، ولا مماطلاً في حقوق الناس . يرضى الله ويغضب الله ، وينفق ماله فيما ينفع نفسه وعياله ويفيد أمته . — هكذا يكون أثر

الدين في نفوس المتمسكين به ، وهكذا تكون حياة المؤمنين المخلصين — أيها الناس : هذا أثر الدين في سعادة الفرد وجميلة إنساناً كاملاً مهذباً . وإن أثره في سعادة المجتمع لظاهر جلي إذ من الفرد تكون الأسرة . وقد أوجب الدين على كل فرد منها حقوقاً للآخر : أوجب على الزوج احترام الزوجة والرفق بها . والاتفاق عليها بحسب حاله غنى وقراً . وحمايتها من الاعتداء عليها ، وإجمالاً معاشرتها بالمعروف كما قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تسكرهوا شيئاً ويعمل الله فيه خيراً كثيراً » وأوجب عليها أن تحترمه ، وأن تطيعه إذا أمر ، وأن تصون عرضها ، وتحفظ ماله في غيبته ، وأن تقوم بتدبير المنزل . وعليهما أن يعتنيا بتربية الأولاد تربية حسنة لينشؤا على الصحة والكمال . وعلى الأولاد أن يحسنوا بالوالدين . فإذا أدى كل فرد من الأسرة ما عليه الآخر اجتمع شملها ، وانتظم أمرها ، وحسن حالها ، وعاشت عيشة راضية . والدين كما أوجب على فرد حقوقاً لأهله وعشيرته ، أوجب عليه أن يحترم أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم : فلا ينتهك حرمة عرض ، ولا ينال أحداً بأذى في نفسه ، ولا يتعدى على ماله . كذلك الدين أمر بالتعاطف والتراحم : فجعل للفقراء والضعفاء ، حقاً في مال الأغنياء ، وجاه الأقوياء . قال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ولا ريب أنه إذا قام كل إنسان بواجبه نحو أخيه وكانت الأفراد والأمم مستقيمة هذبة تكون من ذلك مجموع صالح راقٍ مهذب هو الأمة . وكان النضل في تهذيبها ورقبها لهذا الدين القويم . فلا يكون بين أبنائها تباغض ولا تحاسد ، ولا تفرق ، ولا تنازع ، وحل بينهم الوثام محل الخصام ، والاتحاد مكان التفرق ، والتعاون على الخير محل التخاذل . فارتقت وقويت ، وعزت وسادت ، وكانت أمة جديرة بالبقاء . فيأيتها المسلمون اتقوا الله في دينكم : تمسكوا به ، واعتصموا بحبله ، وتحلو بأدابه . ليعود للإسلام عزه والمسلمين مجدهم . « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : « قل آمنت بالله . ثم استقم » .

رواه مسلم . وتقول في الخطبة الثانية . أيها الناس : إن حال العرب قبل الإسلام وما وصلوا إليه بعده أصدق شاهد على ما قلنا من تهذيب الدين للنفوس ، وإصلاحه حال الفرد والجماعات ، فقد كانوا قبائل تعبد الأصنام ، وكانوا في خصام دائم وتنازع مستمر ، فلما جاء الإسلام وجه قلوبهم إلى عبادة الله خالق الخلق ومدير الكائنات ونزع مافي صدورهم من العداوة والبغضاء ، وصاروا بفضل الإسلام إخواناً متحابين متحدين . قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » — اللهم وفق الأمة للتمسك بالدين ، والتحلي بأدابه يا رحمن يا رحيم .

التحذير من المسكرات والمخدرات

الحمد لله حبب الإيمان إلى نفوس الموقنين ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم . وأشهد ألا إله إلا الله جمل السعادة في الطاعة ، والذل والشقاء في العصيان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين خافوا فأمنوا ، وأحسنوا ففازوا — أما بعد — فقد قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » — أيها الناس : إن الدين الإسلامي لم يدع سبيلاً إلى الخير إلا أرشد إليه ، ولم يترك طريقاً إلى الشر إلا حذر منه ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « ما تركتُ شيئاً يُقَرِّبُكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا شيئاً يبعدكم عن الله تعالى إلا وقد نهيتكم عنه » ؛ وبذلك قد وضح الأمر ، وتبين الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ولم يبق بعد ذلك حاجة لطالب الرشد ؛ ولا عذر لمن وقع في الغواية ، ولكن فريقاً من الناس قد أعرضوا عن هدى الدين ، واتخذوه وراءهم ظهرياً ؛ ووضعوا عقولهم تحت أقدامهم ؛ واتبعوا الشهوات فعميت بصائرهم وأسقطوا أنفسهم من درجة الكمال الذي أعدهم الله له وأنزلوا أرواحهم إلى مرتبة الحيوان ،

فكانوا بذلك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، ذلك بأنهم رضوا بأن يكونوا معاول في هدم بنيان الفضيلة ، ويدأ عاملة في إقامة الشر والرديلة ، وهؤلاء التعساء قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . نعم ! قد لعب الشيطان بعقولهم : زين لهم تناول المسكرات ، وتعاطى الخدرات ، وأوقعهم في وهدة الذل والدمار ، ولبئس ما كانوا يصنعون فقد أضعفت هذه الخدرات أبدانهم ، وأفسدت تلك السموم عقولهم ، وأضاعت عليهم أموالهم ، وعيالمهم في أشد الحاجة إليها ، وأقعدتهم عن العمل في مرافق الحياة والسعى في وسائل العيش . وبذلك قضوا على حياتهم وعقولهم ، وجنوا على أولادهم وأهلهم ، وبذلك أوقعوا أنفسهم في الذلة والمهانة ، وعار التسول وجريمة السرقة . وبذلك كانوا وبالا على أنفسهم ، وشرأ على ذويهم ؛ وعالة على كاهل الأمة « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » . أيها الناس : عجبا أن يبيع الإنسان حياته وماله ، ويضيع شرفه وكرامته ، ليربح موته وفقره ، واختقاره وإهانتة . عجبا لعاقل يسعى في جنونه ، وقوى يعمل على إضعاف جسمه ، والقضاء على حياته . وذى مال يعمل على إضاعته وموت عياله . كل ذلك بمحض اختياره ورضاه ، بلا فكر ولا روية ، ولاشفقة ولا رحمة . عجبا لمن يضع الأغلال في عنقه بيده ، وينقل ثروة بلاده إلى جيوب الأعداء ، فيستعبد أمته التي يغني بغناها ، ويقوى بقوتها ، ويسعد بسعادتها . ولكن « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » أما يدري ذلك السفیه الأحمق أنه بعمله هذا قد جنى على ذريته ، وأساء إلى نفسه وإلى أمته ، فهو بضعف جسمه وفساد عقله وأخلاقه لا يعقب إلا ذرية ضعافا ، جبناء فاسدى العقول سيئ الأخلاق ، عالة على المجتمع ، وعارا على الأمة . « قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » ألا فلْيَخْشَ الله هؤلاء في أنفسهم وذريتهم ، وأزواجهم وأمتهم ، وليُقَارنوا بين حالهم قبل تناول هذه السموم وحالهم بعد الوقوع في خطرهما ، عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويعودوا إلى عزمهم . فقد كانوا

في قوة وعافية ، وبسار ورخاء ، وشرف وكرامة ، وهناء وسعادة . فأصبحوا في ضعف وبلية ، وضيق وشدة ، وضعة وإهانة ، وكدر وشقاء « وما كان الله ليظلمهم وليكن كانوا أنفسهم يظلمون » أيها الناس — إن الأمة هي جماعة تتكون من الأفراد ، فإذا تكونت أمة من الأقوياء الأصحاء ، سليمى العقول ، مهذبى الأخلاق كانوا خيراً لأنفسهم ، وسعادة لأمتهم . كانوا أساس عزها ومجدها ، وأركان رقيها ونهوضها — أما إذا تكونت أمة من أمثال هؤلاء السفهاء المرضى ، ضعاف العقول ، فاسدى الأخلاق ، كانوا شراً على أنفسهم ، وشقاء على أمتهم . كانوا سبب ذلها ومهانتها وعلّة تأخرها وانحطاطها « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وبغفو عن كثير » روى أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مُسكرٍ ومُفترٍ : والمفتر كل شراب يورث الفتور والضعف في الأعضاء — وتقول في الخطبة الثانية بعد الأركان : أيها الظالم لنفسه ، المسىء إلى عشيرته وأمته ، إن كانت بلايا الدنيا وعقوباتها هيئةً في نظرك لا ترَدُّكَ عن ضلالك وغيك . فاعلم أن الله تعالى محاسبك على عملك ، وسائلك عن عُمرِكَ فيم أفنيته ، وعن شبابك فيم أضعته ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته . فإذا يكون الجواب وأنت في كل ذلك قد أسأت ، وفي كل ذلك قد أسرفت ، ماذا يكون الحال والحساب عسير ، واللسان معقود ، والموقف رهيب ، يوم بعض الظالم على يديه نادماً على ما جناه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

التحذير من خروج النساء إلى المقابر وخلف الجنائز

الحمد لله الذى جعل لحفظ الشريعة أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ووفق أوليائه للتمسك بالدين ، وإحياء سنة سيد الأنبياء والمرسلين ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى طريق الصواب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أمر بالتمسك بالسنة

والكتاب . اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تأدبوا بآداب الدين ، فكانوا هم الفائزين الغالبين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أيها الناس : إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وإن من أطاع نفسه في شهواتها ذل ، ومن اتبع هواه في أعماله ضل « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » فمن لم يزن عمله بميزان الشرع وسار فيه على مقتضى العادات ، وجعلها عذراً لهفواته وزلاته ، فقد خدع نفسه ، وتقرب إلى الله بما يبعده عن الله ، وحاول أن يتخلص من سخط مولاه بالباطل ، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » أيها الناس : ما عذركم في التماذى على عادات سيئة ، وبدع ممقوتة ياباها العقل السليم ، ويحرمها الدين الحنيف . أنسيتم أن من راقب الله صانه الله وهابته العيون ، ومن ارتكب البدع وترك السنن سُلط عليه من لا يعرف الله ، ووقع في الذل وعذاب الهون ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه لابن عمه العباس : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده مُجَاهَك » خلق الله لكم العقول لتمييزوا بين النافع والضار ، وتكونوا على بصيرة من أعمالكم ، وأرسل الرسل لئلا يكون للناس على الله حجة ، فمطلتم العقل ، وخالفتم أمر الدين ، ونبذتم الفضيلة ، وتمسكتم بالذيلة ، حتى ساءت الحال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم — ألم تعلموا أن الشارع الحكيم قد حرم على النساء زيارة القبور والخروج خلف الجنائز ؟ إذ قال صلوات الله وسلامه عليه : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وقال لنساء خرجن في جنازة « أَتَحْمِلُنَّه فِيمَنْ يَحْمِلُهُ ؟ قلن : لا . قال : أَفَتُزِلُّنَّه قَبْرَهُ فِيمَنْ يُزِلُّهُ ؟ قلن : لا . قال : أَفَتُحَرِّثِينَ عَلَيْهِ التُّرَابَ فِيمَنْ يَحْيِي ؟ قلن : لا . قال : فارجعن مأزورات غير مأجورات » وهذا منع للنساء الصحابة فما ظنكم بزيارة نساء اليوم التي اشتملت على التبرج والتهتك وأنواع المفاسد والمنكرات ؟ ألم تعلموا أن دينكم ينهى عن اختلاط النساء بالرجال ، فكيف استبحتم من دينكم

وأعراضكم أن تُحشِر النساء مع الرجال الأجانب في صعيد واحد ، وقد أرزخى عليهم الليل سُدُوْلَهُ ، وسترهم بظلامه ، وليس بين النساء والفساق من الحوائل ما يمنع من الوقوع في الفحشاء . « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : إن الشرع لم يُبيح زيارة القبور إلا للعة والاعتبار به ، رتد كرموت وشدة ، والقبور ووحشته ، فتخشم القلوب ، وترجع عن غيرها النفوس ، قال صلوات الله وسلامه عليه : « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » فكيف جعلتم مواضع العبرة والخشية مكانا للهو واللعب ، وارتكب البدع والمنكرات . فاتقوا الله أيها المسلمون وارجعوا عما أنتم عليه ، واعلموا أن الشارع الحكيم أجاز للرجال فقط زيارة القبور ، وحرمها على النساء . وأن السنة في زيارة الموتى أن يقول الزائر : « السلام عليكم يا أهل الديار من المسلمين والمؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ويستغفر لهم ، ويسأل الله تعالى أن يرحمهم ويفرج كرب المكروبين منهم ، ويُسْعِرَ قلبه بأنه عما قريب يكون في عدادهم ، ويذهب عنه أهله وماله وولده ، ويبقى وحيدا فريدا ليس معه سوى عمله ، وهو الآن يُسأل فماذا يجيب ، وماذا يكون حاله ، ويملا قلبه بهذا الاعتبار ، ويتعلق بمولاه في الخلاص من هذه الأمور الخطيرة ، التي لا يُخلص منها إلا الاستقامة مع إحسان الله ورحمته . هذه سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في زيارة الموتى وما عداها فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار — في الحديث القدسي عن رب العزة : « من لم يرض بقضائي ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر لنعمائي فليطلب له ربا سواي » — وعن رسول صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث : « اعلم . قال أعلم يا رسول الله . قال اعلم يا بلال : قال أعلم يا رسول الله . قال : من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل من عمل بها لا ينقص ذلك من آثام

الناس شيئا» رواه الترمذى وحسنه . وتقول فى الثانية : أيها الناس : الله تعالى يقول « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ومحبة العبد لمولاه رغبته فى طاعته ، واختصاصه بالعبادة دون سواه ، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ، ويحسن إليهم . فعنى الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للناس : إن كنتم تريدون طاعة الله تعالى وعبادته حقا ، فاتبعونى فيما جئت به ، حتى يصح ما ندعونه من محبتكم له تعالى ؛ وحينئذ يرضى عنكم ويحسن إليكم ويتجاوز لكم عما فرط منكم ، والله كثير الغفران ، واسع الرحمة لمن يتجنب إليه بطاعته ، ويتقرب إليه باتباع نبيه ، نسأله سبحانه التوفيق والهداية بمنه وكرمه .

ذم الكبر والتحذير منه

الحمد لله الذى خضع لعظمته كل شيء ، وهو الكبير المتعال . أحمد حمد من عرف نفسه فتواضع لله فرفعه . وأشهد ألا إله إلا الله تفرد بالكبرياء والعظمة وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى كان فى تواضعه خير مثال . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين تهذب نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، ففازوا بحملى العقبى وحسن المآل . أما بعد : فقد قال الله تعالى : ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . عباد الله . إن الكبر داء منشؤه جهل المرء بنفسه ، وحكمة الله فى أمره ، والكفر بنعمة ربه — فما عرف فرعون حينما قال : أنا ربكم الأعلى قدر نفسه . وما عقل إبليس اللعين حينما قال : أنا خير منه سرّاً حكمته ، وما أدى قارون حينما قال : إنما أوتيته على علم عندى ، شكر نعمته . فيا من يتقلب فى ظلماته ، ويرتع فى شهواته ؛ إن الكبرياء لمن فطر السموات والساطان الأعظم لمدير الكائنات ، من شاركه فيه غلبه ، ومن نازعه فيه قصمه ، فإن كنت ملكاً فسلطانك لا يعاير سلطان ربك ، وإن كنت ذا مال فإنما هو من مواهب مولاك ، أغرك من ربك أيها التكبر أن خوّلك ملكاً تجول فيه ؟

أو غرّك منه أن منحك مالاّ تصول به ؟ أو الذى حملك على بغيك هذا نبأ
المستكبرين . تالله ما جاء نبؤهم إلاّ بسطان الله ، فطرد إبليس من رحمته ،
وأهلك فرعون على جرأته ، وخسف الأرض بقارون لكفره بنعمته ، فباءوا
بالنكال وبئس مثوى المتكبرين — ابن آدم . مالك والكبر وأنى يكون لك .
ألم تقم بك مراسم العبودية ؟ ألم تقم بك مبادئ الطفولية ؟ أم أنت فى غشيتك
وسكرتك لا تقيق . انظر بقلبك قبل بصرك ، إذ أنت لم تدرك حكمة خلقك ،
فهل أبصرت عيوب نفسك التى بين جنبيك ، وهلاّ شممت نفن إبليك .
أولاّ تزيل بيدل خبث فرجيك ، فما أجهلك بنفسك وما أظلمك . والله لا يجب
كل كفار أثيم ، أنضع أيها المتكبر ولا ترتفع ، فما أنت إلاّ عبد أخرجك ربك
من العدم ، ورعاك فى ظلمات الأرحام وقومك فى أحسن الصور ، والنظفة المذرة
بدايتك ، والجيفة القذرة نهايتك ، وأنت بينهما مورد الأدران ، وجمع الأقدار ،
يجاورك الطيب فيستحيل خبثا ، فما أقدر من أحكمك ، والله على كل شىء قدير .
عجبا لك أيها المتكبر ، ما أنت بنافع الحِكم اهتديت ، ولا بمراسم العبودية
اقتديت ، وفى جهلك وظلمك تماديت ، فما أفلح الظالمون وخاب كل جبار عنيد —
فيا من يجر ذيل الكبرياء وأنخيلاء ، ويكفر بنعمة الله ويزدرى الضعفاء ،
قد وضع أمرك ، وتمّ نُصْحُكَ ، فمالك لا تبالى بمهاوى الوبال ، ولا ترجع
عن سيئات الأعمال وأنت على نفسك بصير . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
لا يريدون علواّ فى الأرض ولا فساداّ والعاقبة للمتقين » — روى مسلم عن ابن مسعود
رضى الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه
منقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله
حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » .
بطر الحق رده على قائله ، وغمط الناس احتقارهم — وروى أيضا عن أبى هريرة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزّ وجل : العزّ إزارى ، والكبرياء
ردائى ، فمن ينازعنى فى واحدٍ منهما فقد عذّبته » .

مضار شهادة الزور

الحمد لله العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، السميع البصير الذي يطلع على ما تكنه النفوس وتخفى الصدور : لا إله إلا هو أعز الصادقين ، وأذل الكاذبين . وأشهد ألا إله إلا الله أوجب الحق وحرم الكذب والضلال . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الصدق والاخلاص في الأقوال والأعمال : اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه القويم (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » أيها الناس : إن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد اختار لكم الاسلام ديناً ، ووعدكم سعادة الدنيا والآخرة إذا اعتصمتم بحبله المتين ، واهتديتم بنوره المبين . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياه طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . أما إن أهملتم دينكم القويم ولم تسمعوا نصائح الغالية ، وإرشاداته الحكيمه ، واتبعتم أهواءكم ، ولم تراقبوا الله تعالى في أقوالكم وأعمالكم ، ولم تخافوا شدة غضبه ، وأليم عذابه ، منع عنكم معونته ، وسأطَ عليكم من لا يرحمكم وخسرتم الدنيا والآخرة : « وما ربك بظلام للعبيد » وإن الله تعالى جل شأنه قد حرّم في هذا الدين قول الكذب وشهادة الزور ، وأمر باجتنابها والبعد عنها وقرنها بعبادة الأوثان ، لينبه الناس إلى فظاعة الزور وشدة قبحه . قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » والرجس : النجس القذر . والأوثان : الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله سبحانه . وعبادة الأصنام شرك ، وقول الزور معه من أكبر الكبائر — أيها الناس : أيدري شاهد الزور إلى من أساء ، أساء إلى نفسه ، أسقط مروءته ، أضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عاراً لا يزول ، وخزياً لا يمحي ، وألقى بنفسه في نار حرها شديد ، وعذابها أليم : « ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله

يفعل ما يشاء . وأساء ؛ إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه . وقطع صلة الإخاء التي تجب بين المسلم والمسلم . وظلمه وخذله ، وخالف فيه قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وأساء إلى من شهد له وأضر به ، حيث يريد أن ينفعه . أعانه على الظلم ، وأوقعه في الحرام ، وعرضه لمقت الله وغضبه ، وصيره ذليلاً بين يدي المنتقم الجبار ، الحكيم العادل ، الذي يأخذ من القوى للضعيف ، وينصر المظلوم من ظلمه ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، يوم الفرع الأكبر والهول الأعظم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « يوم ترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » وأساء إلى القاضي : أتعبه وأضاع عليه وقته ، وطمس عليه معالم الحق ، ولو صدقه لأراحه وأراح الناس أجمعين . بل أساء إلى الأمة كلها : لوث سمعتها ، وأضاع الثقة بها . وكل أمة فشا فيها الزور والكذب سقطت من عيون الأمم ، وأصبحت في عداد الهالكين . أيها الناس : ما الذي يحمل شاهد الزور على هذا الوصف الذميم ، وذلك الموقف الحجل المريب . إن كان مالا يأخذه ممن شهد له فهو سحت لا بركة فيه ، بل هو وبال عليه في الدنيا ، وعذاب له في الآخرة ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به — وإن كان الحامل له على الزور صحبته للمشهود له أو طاب رضاه ، فبئست هذه الصحبة التي تؤدي إلى سقوطه وخسرانه ، وتوقعه في سخط الله وغضبه . قالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكفه الله إلى الناس » وشاهد الزور قد أَرْضَى صاحبه وأغضب مولاه ، فخذله وقطع عنه رحمته وإحسانه — وإن كان الباعث له عليها خوف ضرر يناله إذا قال الصدق وشهد بالحق ، فالصدق ينجيهِ ، وتقوى الله تحميه : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . قالت عائشة رضي الله عنها لمعاذ : « اتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفأك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً . فاتق الله أيها المسلم في نفسك وفي أمتك .

اتق الله واجتنب قول الزور والزم الصدق ، وانصر الحق ، واشهد بما رأيت ، بلا فرق بين القريب والبعيد والصديق والعدو : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » — عن أبي بكره رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ، قلنا بلى يا رسول الله ! قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس — فقال : ألا وقول وقول الزور ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » متفق عليه .

وتقول فى الثانية : أيها الناس : واجب المسلم أن يعدل فى كل شىء ، وأن ينصر الحق أينما كان . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » الآية . أى كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور ، مجتهدين فى إقامته ، لا يصرفكم عنه صارف ، شاهدين بالحق لله : بأن تقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى ، لا لغرض دنيوى ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على والديكم وأقاربكم لأن الشهادة بيان الحق سواء كان عليه أو على غيره ، إن يكن كل من المشهود له أو عليه غنياً يرجى خيره ويخشى ضره ، أو فقيراً يترحم ويحنى عليه ، فلا تحوروا فيها ميلاً أو ترحماً ، ولا تشهدوا للغنى طلباً لرضاه ، ولا تمتنعوا من الشهادة عليه خوفاً منه ، أو على الفقير شفقة عليه ، فإن الله تعالى أولى بالغنى والفقير وبالنظر لهما منكم ، فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما مصلحة لما شرعها . فراعوا أمر الله تعالى فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

التحذير من إيذاء المسلمين

الحمد لله العليم بما كان وما يكون ؛ المدبر الحكيم فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . واشهد ألا إله إلا الله الكبير المتعال ؛ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله صفوة الخلق وعين الكمال . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيل الهدى إلى يوم يبعث الله فيه الخلائق ليجزى الذين أساءوا بما عملوا

ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (أما بعد) فقد قال الله تعالى . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » أيها الناس . اقتضت حكمة الله عز وجل أن يخلق هذا العالم على أكمل نظام وأبدع إحكام ، واختار من بينه هذا النوع الإنساني للخلافة في الأرض ، والقيام بالعدل ، ليكمل العمران ويتم النظام — خلق الإنسان فسواه وعدله وأبدع خلقه ، وصوره فأحسن صورته ، ونفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين . — أودع فيه العقل ليميز بين النافع والضار ، ويفرق بين الحق والباطل ، والقبيح والحسن ، وركب فيه من القوى والحواس ما يستعين به على أمور دينه ودنياه ، ونصب له من دلائل وحدانيته ، وآيات علمه وقدرته ما يخضعه لعظيم سلطانه وجلال ربوبيته ، وأسمع عليه نعمه ظاهرة وباطنة ليقوم بشكر نعمته ، ويمتلى قلبه بمحبته ، وسخر العوالم كلها لمنافعه وخدمته « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فمن امتاز بهذا التكريم العظيم يجد ربه أن يكون مصدر الخير ، ومثال الكمال ، وعنوان الرحمة . من خص بهذا الفضل العظيم يجب عليه أن يكون كالملائكة في طهارة النفس ، والوقوف عند حدود الله ، والبعد عن مساخط الله . والتجلى بمحاسن الصفات ومكارم الأخلاق ، يجب عليه أن يتباعد عن مظاهر الجبروت والكبرياء ، والانتقام والاعتداء ، والشر والفساد ، والأضرار بالناس . اللائق بمن عامله الله بعدله ورحمته ، ووسعه بكرمه وحلمه ، أن يكون في معاملة الناس عادلاً رحيماً ، وحكيماً حليماً ، ومتسامحاً كريماً : فبعدله يكبح جماح الظالمين ، وتطمئن قلوب المستضعفين ، وبرحمته وشفقته تقل ويلات الأراذل واليتامى ، وتخف آلام البؤساء والمساكين . وبحكمته وحزمه يدبر أمر نفسه ونظام عشيرته وأمته . وبحلمه وتسامحه يملك القلوب وتخضع له النفوس ، وبه

وبأمثاله يعيش الناس آمنين مطمئنين . أيها الناس : إن من تخلق بهذه الأخلاق الكريمة وتجمل بهذه السمائل السامية ، وسلك سبيل الهدى والاستقامة ، وسلكت الناس من يده ولسانه ، كان عند الله وجيهاً ، وصار ملكاً كريماً في صورة إنسان رحيم — أما من خبئت نفسه ، وتجرد من الأخلاق الفاضلة وعثا في الأرض فساداً وكان مصدراً للأذى والشر ، وداعية للتفرق والتنازع ، فهو لاشك شيطان رجيم ، وبلاء عظيم . فما أنعمه في الدنيا وما أشقاه في الآخرة : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » فيما خبيث النفس أى حظ لك في أن تكون كالأفعى لا تنفث إلا السموم ، ويا مؤذياً لعباد الله ماذا تجنى من الإيذاء لخلق الله ، وما حظك في أن تكون شيطاناً رجيماً ، وقد خلقت إنساناً كريماً . ويا من لا يخاف الله ولا يخشى غضبه وانتقامه ما أشقى الناس بك ، إنك على الأمة بلاء وأى بلاء ، ويا من اغتر بالدنيا وزينتها واعتمد على قوته وعشيرته ، اتق الله واجعل حظك من الدنيا نيل مرضاة الله ، وقدم لنفسك خيراً تجده عند الله ، فإنك إن عشت تعيش عزيزاً سعيداً ، وإذا مت لم يمت ذكرك وكنت عند الله والناس محموداً ، ولقيت من الله خير الجزاء بما قدمت من صالح الأعمال : « إنه من يأتربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأتبه مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى » — أيها الإنسان — سبيل الهدى واضح فاسلكه ، وطريق الفلاح بين فلا تعدل عنه ، فإنك إن سلكت سبيل الهدى فأنت الراجح السعيد ، وإن عدلت عن طريق الفلاح كنت الخاسر الشقي ، فما أسعد الموفقين الفائزين ، وما أشقى الخذولين المحرومين : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون » . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه الترمذى وقال حسن صحيح — وروى مسلم من حديث النعمان بن بشير أنه صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإذا اشتكى

رأسه اشتكى كله . وتقول في الخطبة الثانية الحديث الآتي : روى الإمام المقدسي عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه قال : « أوصاني خليلي بأربع كلمات هن إلى أحب من الدنيا وما فيها . قال لى : يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثوود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

الدين والاجتماع

الحمد لله الذى رضى الإسلام ديناً لعباده وجعل السعادة فى التمسك به ، والتحلّى بآدابه . وأشهد ألا إله إلا الله الملك الديان . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة . وعلى آله وصحبه ومن تمسك بالدين ، واهتدى بهديه (أما بعد) ؛ فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . عباد الله : إن لدين الإسلام محاسن كثيرة ، وفضائل جمة ، تحمل ذوى القلوب السليمة ، والعقول الصحيحة ، على التمسك به ، والتحلّى بآدابه . وكلما كان المرء سليم العقل نير البصيرة اشتد تعلقه به ، لما فيه من جميل المحاسن ، وجليل الفضائل . فإنه دين قرر من عقائد التوحيد ما اتفقت العقول على صحته ، واستعدت الفطر السليمة لقبوله . فأثبت الخالق العالم أنه إله واحد ، قادر عليم ، عزيز حكيم ، جواد كريم : « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . وشرع من العبادات ما يهذب النفوس ، ويبعث فيها روح الألفة والأخاء . ففرض الصلاة خمساً فى اليوم والليلة ، وطلب منا أن نؤديها فى جماعة ليكثر تلاقينا ، فتنأكد بيننا روابط المحبة ، وأوجب الزكاة لتطهر النفوس من رذيلة الشح ، وتتحلّى بفضيلة السخاء ، وتكون المحبة بين الأغنياء والفقراء ، وسمى الصدقة قرصاً يردّه بأضعاف كثيرة : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . كتب الصيام ليزدق المرء ألم الجوع فيعطف على الضعفاء والجائعين ، وتتعود النفوس قوة الإرادة ، وتحمل الشدائد وكبح

جماها ، إذا حاجت عليها شهوة من شهواتها الرديئة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . أوجب الحج ليجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في صعيد واحد ، فيتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا على إصلاح شئونهم ، وتدبير أمورهم ، ويظهر خضوع العبد لأوامر مولاه ، وشكره لنعمائه . قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . وشرع من المعاملات ما يضمن سعادة المجتمع الإنساني ، ويحفظ نظام العالم من الفوضى والاضطراب . فأحل البيع والشراء ، والشركة والإجارة ، والقرض والحوالة ، والرهن والعارية . تيسيراً لتبادل المنافع ، وتسهيلاً لقضاء الحاجات على أحسن وجه وأكمله . كتب القصاص ، وفرض العقوبات على الجنايات والاعتداءات ، لئلا تفسد النفوس عن ارتكاب الجرائم ، وردعها عن الشرور والآثام . فحكم بقتل القاتل ، وقطع يد السارق ، محافظة على الأرواح والأموال ، ليعيش الناس آمنين مطمئنين : « ولستم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله والله عزيز حكيم » . أحل النكاح وحرّم الزنا ومقدماته كالخلوة بالأجنبية والنظر إليها ، وحكم بجلد العزب مائة جلدة ونفيه سنة عن وطنه الذي فسق فيه . وقضى برجم الزاني المتزوج بالحجارة حتى يموت ميتة الكلاب ، حفظاً للأنسب وصوناً للأمة عن الفناء « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . حافظاً على العقول والأعراض فحرّم الخمر والقذف ، وحكم على من يتناول جرعة من المسكر أو يطمئن في عرض أخيه ثمانين جلدة وسقوطه عن درجة الإنسان . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » . أيها الناس — ذلكم هو دين الإسلام الذي أخرج من العرب الأميين المتوحشين

أمة شديدة البأس ، عظيمة القوة ، واسعة السلطان ، فأبدلهم بالخوف أمناً ، وبالجهل علماً ، وبالعداوة محبة ، وبالتفرق واحة وبالضعف قوة ، وبالذل عزاً ، وبجفاء الطباع وغلاظ الألباب رافة ورحمة ، وبالتوحش والهمجية مدنية وحضارة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » دين أنجب من العلماء والمطاء ما لم ينجمه دين من الأديان . أنجب مثل أبي بكر في وقاره وحلمه ، وعمر في عدله وغيروته ، وعثمان في نسكه وإخلاصه ، وعلي في شجاعته وحكمته ، دين يكيده له حساده من يوم ظهر وهو كما ترى لم يطفأ له نور ولم يضمف له برهان « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . محاسن الدين كثيرة ، وما سمعته قطرة من بحر ، وقليل من كثير — وكفاه فضلاً أنه ما من فضيلة إلا حث على التخلق بها ، وما من رذيلة إلا نهر من قبها وبين سوء عاقبتها . فاتق الله أيها المسلم واعتصم بحبله المتين ، واحرص على العمل بأحكامه والتحلي بآدابه ، تصل إلى ما وصل إليه السلف الصالح ، من عزة وقوة ، ونصر وفلاح ، ورق وسعادة . روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة » .

حقوق الأبناء على الآباء

الحمد لله الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وهو الخلاق العليم ، القادر العظيم . وأشهد ألا إله إلا الله المدبر الحكيم ، الحنان المنان الرحمن الرحيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، وأثنى عليه بقوله : « وإنا لك لعلى خلق عظيم » وعلى آله وصحبه ومن عمل بسنته واهتدى بهديه (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » قال ابن عباس رضي الله عنهما ما تفسيرها : اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله ،

ومروا أولادكم بامتنال الأوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لكم ولهم من النار ، وقال سيدنا علي رضي الله عنه : علموا أنفسكم وأهلكم الخير وأدبواهم . أيها الناس : من شبَّ على شيء شاب عليه ، ومن أدب ولده صغيراً سرَّ به كبيراً ، ومن لم يتدبر العواقب كان لا شك من النادمين . ينشأ الإنسان في أول أمره وأيام طفولته ، على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة . فإذا وجد في هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والكمال . شبَّ حسن الأخلاق ، طيب النفس ، متعلقاً بأهداب الفضيلة ، مستمسكاً بمجل الهدى والرشد . فيحيا حياة طيبة ، يكون بها سعيداً في نفسه ونافعا في أمته . أما إذا أهمل أمره فلم يفلح في حفظه من التربية والتأديب ، ولم يأخذ نصيبه من الإرشاد والتهذيب . نشأ سيئ الأخلاق ، خبيث النفس ، قاعد الهمة ، ساقط المروءة ، محباً للشر ، كارهاً للخير ، كلاً على أهله وعشيرته . وكان شقاءً على نفسه وبلاء على الناس أجمعين — وكان على ولي أمره كفل عظيم من تبعات شروره وجرائمه . لإهماله في تربيته وتأديبه ، وتهاونه في إرشاده وتهذيبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . أيها الناس : إن تربية الأولاد في صغرهم على مبادئ الدين الحنيف ، وتعويدهم على مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التي يجب على الآباء أن يتنبهوا لها ، والمصلحين أن يُعَنِّوا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة في مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها في مدارج الرفعة والكمال . فما الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة ، وإنكم لو تأملتم في جميع ما نشكوا منه اليوم من فساد الأخلاق ، وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وزيف في العقائد ، وتهاون في تنفيذ أوامر الدين ، وتهتك النساء في الطرقات والأسواق — لو تأملتم لوجدتم أن السبب في هذا كله هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب في وقته . الولد قطعة من أبيه ، وأمانة في عنقه ، فاتفقوا

الله يا قوم في ثمرات قلوبكم ، وأفلاذاً كبادكم . ولا تُلْقُوا بأيديكم في نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة . يا قوم اتقوا الله في أبنائكم وذريبتكم ، والأطفال الذين ألقيت إليكم مقاليد أمورهم ، وصارت رعاية شئونهم في أيديكم . هذبوا أخلاقهم . ثقفوا عقولهم . علموهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم . اغرسوا في قلوبهم حب الدين وآدابه ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، مُرُوهم بأداء الصلوات في الأوقات ، وشهود الجمعة والجماعات ، وعودوهم الأخلاق الحسنة ، وجنبوهم الأخلاق السيئة ، وباعدوا بينهم وبين قرناء السوء وفاسدى الأخلاق . قال صلوات الله وسلامه عليه : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » أدبوهم بالرفق واللين ، وإياكم والعنف والشدة . ففي صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » . أيها الناس : إنكم إن فعلتم ذلك بأولادكم والأولاد اليتامى منكم . فقد قتم بما وجب عليكم من الحق لهم ، فإن أحسنوا بعد ذلك أحسنوا لأنفسهم . وإن أساءوا أساءوا على أنفسهم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » : روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع ومسئول عن رعيته » — وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وشرح في الخطبة الثانية قول الإمام على رضى الله عنه : ثلاثة هي أفضل ما يورثه الآباء الأبناء : الثناء الحسن ، والأدب الصالح ، والأخوان الثقات ، وحديث إلزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم .

حقوق الآباء على الأبناء

الحمد لله على حلمه وكرمه ، والشكر له تعالى على فضله وإنعامه . وأشهد ألا إله إلا الله أمر بالإحسان إلى الوالدين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله حذر من العقوق وجعله من أكبر الكبائر ، وأعظم الآثام . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، الرحماء البررة . الهداة الراشدين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . أى أمر أمراً مبرماً ، وحكم حكماً لا مرد له ، بأن تخصوه بالعبادة ، لأن العبادة غاية التعظيم ، فلا تحقق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام . وذلك هو الله وحده « وبالوالدين إحساناً » أى وبأن تحسنوا إليهما إحساناً جميلاً ، لما لهما من فضل وإحسان على الولد . (أيها المسلم) كما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان ، فمن يزرع المعروف يحصد الشكر ، ومن يزرع الشر يحصد الندامة ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهل عاقبة الاساءة إلا الخسران ؟ . أيها الإنسان : إن والديك أحق الناس بحسن معاشرتك وجميل برك وإحسانك ، لعظيم فضلهم عليك ، وكثرة إحسانهما إليك ، وشدة عنايتهما بك في الصغر ، وحرصهما دائماً على راحتك وسعادتك في جميع أطوار حياتك بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود ، وبفضل رعايتهما قوى عضدك ، واشتد ساعدك ، حتى صرت إنساناً كاملاً ، ورجلاً نافعاً ، قوياً على الجهاد في معترك الحياة جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ (أى صحبتي) قال . « أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » . فن أولى بالبر والطاعة والمعروف والإحسان ، من أمك الشفيقة البرة الرفيقة ؟ هى التى ذاقَت أنواع الآلام مدة حملك . وقاست من الشدائد ما قاست وقت معالجة وضعك ، ثم أضعفت قوتها بإرضاعك حولين كاملين ، وأضعت راحتها بحملك تارة على الصدر وأخرى على اليدين ، كم لوئتها بالأوساخ والأقذار ، وكم أزالتهما عنك بلا ملل منها ولا ضجر —

وإذا مرضت باتت ليلاً ساهرة جائعة ، حزينة باكية ، متألماً لأمالك ، خائفة عليك مما ألم بك ، تسأل الله الكريم أن يمن عليها بشفائك ، ويكشف عنك ما نزل بك ، ويسرها بتمام صحتك ، ودوام عافيتك ، ويمتدحها بطول عمرك في هناء وصفاء — فكيف بعد هذا تؤثر غيرها عليها في البر ، وتقدم عليها سواها في الخير ، والإحسان ؟ وهي التي نعتت كثيراً في تربيتك . وبإخلاص خدمتك زمناً طويلاً ولم تطلب على الخدمة جزاء ولا أجراً ، سوى أن تقر عينها بك ، وينشرح صدرها لرؤيتك ، هذا شأن الأم ، وهذا حالها مع الولد . ثم من أحق بالحنان والعطف ، والرحمة والإحسان ، من أهلك العطف الرحيم ، الذي أحسن إليك في ضعفك ، ومن نفّس أمواله أنفق عليك ورباك ، وأرشدك إلى ما ينفعك في دينك ودنياك أيها الناس — إن عقوق الوالدين من أخش السيئات . وأكبر الذنوب التي يعجل الله عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة ، فهو نكران للجميل وكفران بالنعمة ؛ ومقابلة الإحسان بالإساءة . قال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات » . وإن البر بالوالدين لمن أوجب الحقوق وأقدس الواجبات وطاعتها من أفضل الطاعات . لهذا قرن الله حقهما بحقه ، وشكرهما بشكره ، فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » . فمن حقوقهما عليك أن تسكرهما ، وتحسن إليهما ، وتبذل نفسك ومالك في سبيل مصلحتهما ، وتسعى جهدك في كسب رضاها ، وإن بلغا عندك الكبر فلاطفهما ، واحتمل أذاهما ، ولا تضجر من حوائجهما ، وأحسن إليهما في حال الضعف والكبر ، كما أحسنا إليك في حال العجز ، والصغر ، وكن بهما رءوفاً رحيماً ، وعليهما عطوفاً حليماً ، قال تعالى : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » واعلم أنك مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما ، فلست قائماً بواجبهما ولا موفياً حقوقهما ، فسل الله تعالى أن يكافئهما عنك بواسع الرحمة ، وجزيل

الرضوان . قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » . فاتقوا الله أيها الأبناء واحرصوا على رضا الوالدين ، فإن رضا الوالدين سعادة في العاجل والآجل ، واحذروا غضب الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاء في الدنيا ووبال في الآخرة . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « رضا الله في رضا الوالد ، وسخط الله في سخط الوالد » أخرجه الترمذى . والمراد بالوالد : الأب والأم . وروى الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما بأستاد حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبهروكم أبناؤكم . وعفوا عنكم نساؤكم » . وتقول في الخطبة الثانية : روى أن ولداً اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا . فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنى ، ويبخل علىَّ بماله . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك » مرتين . وشكى إليه آخر سوء خاق أمه ، فقال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك نسمة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت ليلها وأظلمات نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حَجَجْتُ بها على عاتق — قال : ما جزيتها ولو طلقةً » .

إرشاد الصائم

الحمد لله الذى أذاق الطائعين حلاوة الطاعة ، وعلّق قلوب الموقنين بالمساجد والجماعة . لا إله إلا الله جعل السعادة للصائمين القائمين الخاشعين — وأشهد ألا إله إلا الله وفق من شاء للتجارة معه فكانوا هم الراجحين . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الصائمين الصابرين المتواضعين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله

وأصحابه الذين صابوا صيامهم عن اللغو والكذب فكانوا هم الفائزين . أما بعد :
فقد قال الله تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم
سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور
شكور » أيها الصائمون : إن التجار ينتظرون للمواسم لعظيم الرواج فيها ،
فإذا جاءت تلك المواسم شمروا عن ساعد الجد في أعمال التجارة ، واستحضروا
من الأصناف أجودها وأعلاها ، واختاروا من الألوان أجملها وأحسنها ، يسوقهم
إلى هذا رجاء الربح ، وقد تحملهم شدة الحرص عليه إلى تضحية راحتهم ، ومفارقة
أهلهم وأوطانهم ، ويركبون البحار ويتمرضون للأخطار والخواف ، ويقطعون
وعر المفاوز ، وليس فيها إلا سبع مفترس ، أو قاطع طريق أو لص محتل ،
يرتكبون ذلك غير مباليين بما يغالهم من مشقة وعناء ، بل يستسهلون في سبيل الربح
جميع الصعاب ، مواصلين في ذلك الأيام والليالي . ولا عجب في تحمل التجار هذه
المشاق ، فإن من ذاق لذة الربح هانت لديه جميع الشدائد ، وسهلت عليه
كل المتاعب . هذه يا قوم حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحاً غير مضمون .
فقد يكون ، وقد لا يكون — وعلى فرض أنهم ربحوا الدنيا بأسرها فالفناء مآلهم ،
والزوال مصير ما يربحون ، وكما أن للدنيا تجاراً مُجِدِّين منهمكين ، فإن للآخرة تجاراً
أمناء صادقين ، أوفياء رحماء مخلصين « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله
أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .
فلا هم بتجارة الدنيا يفتنون ، ولا هم عليها وحدها يعوّلون ، وإنما عولوا
على التجارة بخالص الأعمال مع الغنى الكريم ، الجواد الرحيم الذي لا غش
في التجارة معه ولا خسارة ولا كساد . بل هي تجارة مأمونة رابحة رائجة
لن تبور . أيها الناس : هل سمعتم أو رأيتم أن المشتري يعطى التاجر أكثر من الثمن ؟
لا ، ولكن الله الغنى الكريم البر الرحيم يأخذ عمل العبد ويعطيه على الحسنة
عشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا يحصىه عدّاد « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع

عليهم . ومن واسع كرمه أنه يكافئ من انتقاءه في التجارة معه ، وأحسن المعاملة مع خلقه ، بدار لا يفنى نعيمها ، ولا ينقص عيشها ، بجنة « عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ومن رحمته أن حفظ أهل الاستقامة في التجارة معه من خطر السقوط والخسارة . وكتب لهم الأمن من كل الخواف ، والسلامة من جميع المكار ، في هذه الحياة وفي تلك الحياة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فاتق الله أيها الصائم ولا تنهك في تجارة الدنيا وتقتصر في تجارة الآخرة فما عندكم ينفد وما عند الله باق . اتق الله ولا تضع العظيم الباقي بالحقير الفاني « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . واعلم أيها الصائم أنك الآن في موسم ربح عظيم ، لا يقيسر لتجار الآخرة في العام إلا مرة واحدة . موسم من اتجر فيه مع مولاه الكريم كان ربحه أن يعتق رقبة من النار ، ويفقر له ما تقدم من ذنبه — موسم من تقرب فيه من ربه بالبر والطاعات ، وواظب على الجمعة والجماعات ، فاز بعظيم الخير وعميم الرحمة . موسم من صدقت فيه نيته ، وطابت فيه سريرته ، وصان عن اللغو والفحش صيامه ، وكف عن الحرام عينيه وأذنيه ولسانه ، وتهذبت بالصيام نفسه فكان صابراً متواضعاً تقياً ، صادقاً أميناً وفيّاً ، على البؤساء عطوفاً ، وبالضعفاء رحماً ، نال من الله جزيل الاحسان وجميل الرضوان ، وكان من المحبوبين لدى الله والملائكة والناس أجمعين . فشمّر في هذا الموسم عن ساعد الجد واجعل صالح الأعمال بضاعتك ، والتواضع شعارك ، والحلم واللين شيمتك ، والرافة والرحمة حليتك فالسعيد المرحوم من اتجر فيه بمروضة المنان والشقى المحروم من خرج منه بالخبيثة والخسران . « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » متفق عليه أي أن الصيام سر بين العبد

وربه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . رواه البخاري — أى فلا ثواب له .

سر مشروعية الصوم

الحمد لله أعظم المنة على عباده بما دفع عنهم من غوائل النفس والشیطان . جعل الصيام حصناً للمخلصين وجنة . وفتح المتواضعين فيه أبواب الجنة . وأشهد ألا إله إلا الله عرّف الطائعين أن الشهوات وسيلة الشيطان إلى القلوب . وبقومها تطمئن النفس وتقوى على قهر الشيطان الرجيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله قائد الخلق إلى الحق ، والهادى إلى طريق السعادة . اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وذوى البصائر الثاقبة ، والعقول الراجحة (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات » أيها الناس : إن الله تعالى فرض الصيام في شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، لما له من آثار حسنة ، ومنافع جمة ، وفوائد عظيمة في الدنيا والآخرة . فهو يضبط النفس ويطفىء شهواتها ، فإنها إذا شبت تمردت وسعت وراء شهواتها ، وإذا جاءت خضعت وامتنت عما تهوى . قال صلوات الله وسلامه عليه : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ذلك أنه يكثر من شهوة الشباب حتى لا تطفى عليه الشهوة ، فيصير إلى العنت والفاحشة . فكان الصوم ذريعة إلى كف النفس عن المعاصي ، فسبحانه من إله عليم حكيم ، وإن الصيام وسيلة إلى إصلاح النفوس وتهذيبها : يربى في الإنسان فضيلة الصدق والوفاء ، والإخلاص والأمانة ، والصبر عند الشدائد ، لأنها إذا انتقادت للامتناع عن الحلال من الغذاء الذى لا غنى لها عنه طلباً لمرضاة الله تعالى ، وخوفاً من أليم عذابه ، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام الغنيمة عنه . فلا يكذب الصائم ولا يغدر ، ولا ينقض عهداً ولا يخلف وعداً ، ولا يكون

مراثياً ولا خائناً . فكان الصومُ سبباً في اتِّقاء المحارم ، وقوة العزيمة ، والتخلّي بالفضائل ، والتخلّي عن الرذائل ، وإلى هذا أشار جل وعلا بقوله : « لعلكم تتقون » أيها الصائم : الصوم يدعو العبد إلى شكر النعمة : إذ هو كف النفس عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، وكل هذا من جلائل نعم الله على خلقه . والامتناع عن هذه النعم من أول اليوم إلى آخره يُعرِّف الإنسان قدرها ، إذ لا يُعرف فضلُ النعمة إلا بعد فقدائها . فَيُبْعَثُ ذلك على القيام بشكرها ، وشكر النعمة واجب . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « ولتكمّلوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » وإن الصيام يبعثُ في الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء ، والعطف على البائسين . فإن الإنسان إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ، تذكر من هو جائع في جميع الأوقات . فيسارعُ إلى رحمته والإحسان إليه . قيل ليويسف عليه السلام — وكان كثير الجوع — لم تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ فقال : « إني أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » أيها الصائم : الصوم ينقي الجسم من الفضلات الرديئة ورطوبات الأمعاء ، ويشفي كثيراً من الأمراض ، وفيه من المزايا الصحية ما شهد به العدو قبل الصديق . فسبحانه من إله عليم حكيم ، وبخلقه رءوف رحيم . وعلى الجملة فإن إمساك الإنسان عن الطعام والشراب ، وكف نفسه عن شهواتها ، ومخالفة لعاداته في ذلك يوماً كاملاً مع صَوْن الجوارح عن اللغو ومساخط الله ، فيه كسرٌ لغائلة شهواته النفسية ، وتذليلٌ لجاحها عن ميلها إلى غاياتها البهيمية ، والقربُ بها إلى أفقها الأعلى ، والأخذ بزمامها إلى سُموّها ورفعتها ، والبعْدُ بها عن طبيعتها الأرضية إلى عالم الملائكة . وإن جسم الإنسان عُرضة للنمو والزيادة ، فكان في حاجة إلى تخفيف شيء منه في كل سنة حتى يقوى وَيَنْشَطُ وَيَسْلَمَ من الأذى ، ولا يكون ذلك إلا بمنع الغذاء عنه جزءاً من الزمن . والصوم بإجماع الأطباء جَمِيَّةٌ منظمَةٌ ، والطبيبُ الحاذق يأمرُ المريضَ بالاحتماء لتُصَفَّى عروقه ، وتنفع فيه الأدوية . كذلك الصوم تُصَفَّى فيه عروقُ الإنسان من المعصية فتُنفَعُ فيها الرحمة .

فسبحانه من إله عليم بخلقهِ ، حكيم في شرعه وصنعه . قال صلوات الله وسلامه عليه عن رب العزة : يقول الله تعالى : « كلُّ حسنة بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وتقول في الخطبة الثانية : أيها الناس : إن الله تعالى قد رفع منزلة الصيام وميَّزه على سائر العبادات بالانتساب إليه . وعدم تحديد ثواب الصائمين حيث قال : « إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » وحسبك في الإيمان بفضله قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده نُخلِّفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل : إنما يَذَرُ شهوته وطعامه وشرابه لأجلى فالصوم لي وأنا أجزي به » . فيأيها المسلمون هذا شهر الإخلاص والصبر ، والصبر ثوابه الجنة . شهر التوبة والإجابة ورجوع العبد الآبق إلى مولاه . فتوبوا إلى الله وكنفوا جوارحكم عن المعاصي تفوزوا برضوان الله « فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

سر مشروعية الصلاة والجماعة فيها

الحمد لله فرض الصلاة وجعلها أفضل الطاعات وأعظم القربات ، وأشهد ألا إله إلا الله العلي الكبير ، اللطيف الخبير ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله إمام الطائعين وأفضل الخاشعين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والذين هم على صلواتهم يحافظون (أما بعد) فقد قال الله تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » أيها الناس الصلاة عماد الدين ، وأعظم أركان الإسلام ، ومدار السعادتين ، وأساس الفوز في الدارين « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » فرضها الله على عباده المؤمنين لتكون صلةً بحضرته ، وتذكيراً بعظمته وجلاله ، وشكراً له على جلائل نعمائه . ومن رحمته بعباده جعلها في خمسة أوقات تيسيراً عليهم ، وتذكيراً لمن ينسى ، وتزكية لمن يخشى . تُقَوِّى ما ضعف منهم ، وتزيدُ المستيقنَ يقينا ، والمؤمنَ إيمانا ، فسبحانه من إله حكيم عليم ، رهوف رحيم . تعلّم المرء بما فيها من الركوع والسجود ، والثناء والتعظيم ، كيف يتواضع لخلق الله ، وكيف يشكر من أحسن إليه ، ويكفى من أسدى إليه معروفا ، تورثه

من الرحمة والقناعة ما يجعله رحيماً بالضعفاء ، راضياً عن الله في الشدة والرخاء .
وتفرس في نفسه من هيبة الله وخشيته ما يحول بينه وبين ما يغضب مولاه من الذنوب
والآثام ، وكيف لا يقنع بما قسم الله ، أو يقسو على بئس ، أو يكسب إنما ، بعد ما قال
في كل ركعات الصلاة : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ؟ كيف
يعبد دنياه أو يسأل غير مولاه بعد ما قال وهو بين يديه : إياك نعبد وإياك نستعين ؟
كيف يطلب منه أن يهديه الصراط المستقيم من يسعى في الأرض فساداً أو يكيد
لأخوانه المسلمين ؟ كيف يجترأ على ارتكاب ما يغضب الله من امتلاء قلبه خوفاً
أن يكون من المغضوب عليهم المطرودين أو من الضالين الخاسرين ؟ (أيها الناس) :
إن من أقام الصلاة في وقتها واستنار بها قلبه وتأثرت نفسه بما فيها من جلال وكمال ،
سارع إلى الخيرات ، وصبر في البأساء والضراء ، وتباعد عن كبائر السيئات وصغائر
الحرمات ، وكان برّاً نقياً ، متواضعاً تقياً « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » أيها الناس : عليكم بتأديتها في جماعة فإنها
تزيد عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كل درجة منها لا يعلم قدرها إلا علام
الغيوب . قال صلوات الله وسلامه عليه : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد
بسبع وعشرين درجة » . فبالاجتماع فيها تذهب الضغائن وتزول الأحقاد ، وتتآلف
القلوب وتتحد الكلمة ، وتظهر عظمة ملك الملوك ورب الأرباب ، ويعم الفيض
وتنزل الرحمة — نادى منادى الصلاة ودعا داعي الفلاح ، فأجابه الفقير والغني ،
والكبير والصغير ، والأمير والحقير . فإذا اجتمعوا في صعيد واحد وراء إمام واحد ،
إلى قبلة واحدة ، يعبدون رباً واحداً خاشعين خاضعين ، خائفين من عذابه ، طامعين
في رحمته . فلا جرم أن تنزل عليهم البركات ، وتحيط بهم الرحمت « وادعوه خوفاً
وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين » فاتقوا الله أيها المسلمون وبادروا إلى الصلاة
في أوقاتها تكونوا من المفلحين ، وفرغوا قلوبكم من الشواغل فيها تصيروا من
الفائزين . « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » في الحديث

القدسي عن رب العزة « عبدى أخذك الشيطان منى لا اعجزى ولكن لضعفك أنت » وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » . وتقول فى الثانية : أيها الناس : يقول الله جل وعلا : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » فهو تعالى غنى عن العبد وعن عمله ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية . وإنما العبد هو المحتاج إليه تعالى فى جميع أحواله . أليس هو الفائز بالأجر إذا أحسن الصلاة ، أليس هو الظافر بالقبول إذا أخلص فيها لمولاه — ماعذر تارك الصلاة إلا الكسل أو التكبر على طاعة الله ، والتشبه بالكافرين الهالكين ، والله تعالى يقول : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » تارك الصلاة يحق الله البركة من عمره ورزقه ، وماله وولده ، ويذهب نور وجهه ، ويحرم من نعمة التوفيق للخيرات ، ويحترىء على جميع الحرمات . هذا فى الدنيا ، ويوم القيامة لا يجيب الله له سؤالا ، ولا يتقبل منه أعمالا ، وتغلق فى وجهه جميع أبواب الرحمة ، ويذوق أنواع الذل والهوان — اللهم إنا نعوذ بك من غضبك وعذابك ، ونسألك رضاك ورحمتك ، بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين .

وداع رمضان

الحمد لله الدائم فلا يزول ، الباقي فلا يتغير ، وأشهد ألا إله إلا الله أجزل الخير للطائعين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أفضل الصائمين الراكعين الساجدين ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين المخلصين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » الذين اتقوا هم الذين عظموا أمر الله بامتنال الأوامر واجتناب النواهي ، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته ، والذين هم محسنون هم أهل الشفقة على خلق الله : باحترام الحقوق وحسن المعاملة . ومعنى أنه سبحانه مع هؤلاء أنه يتولاهم بالحماية والرعاية ،

(٣١)

والإحسان والهداية . ومن كان الله معه فقد ربح كل شيء . ومن طرده الله من معيَّته فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

أيها الصائم — ها هو رمضان قد مضى ولم يبق منه إلا القليل ، فهل اتقيت الله فيه وقت بحقوقه ، وحافظت على آدابه ؟ هل أحسنت فيه المعاملة مع خلق الله ، واحترمت حقوقهم ؟ الصيام يُنور القلب ، ويهذب النفس ، ويقوى العزيمة ، ويُعرفُ العبد مقدار النعمة ، ويملأ قلبه رحمة بالضعفاء . فهل استنار قلبك في رمضان بمد ظلمة العصيان ؟ هل تهذبت بالصيام نفسك وقويت عزيمتك ؟ هل عرفت مقدار النعمة بفقدائها فشكرت عليها مولاك ؟ هل امتلأ قلبك رحمة فعظمت على الأراذل واليتامى ؟ تالله لو كان قد استنار قلبك وتهذبت نفسك ، لظهر ذلك في أقوالك وأفعالك ومعاملاتك للناس أجمعين — وكيف يتهذب إنسان كانت نفسه وقت الصيام في ملل وسامة ، وهذا شأن من لم يذق حلاوة الطاعة ، ولم يخلص في العمل لمولاه . أما كان البعض منا ينتظر انقضاء الشهر باليوم والساعة ، وذلك من علامات الغافلين ؟ وكيف يرجو أجر الصيام من يضجر منه لطول اليوم أم كيف يطمع في الإعتاق من النار من يستكثر عليه صيام شهر في السنة ؟ كيف يفوز بالعتق والغفران من كان فظا بذىء اللسان غليظ القلب قاسياً ، لم يرأف بالضعفاء والبائسين ؟ يا هذا كيف تستطيل أيامه وهو يصلح القلب ويهذب النفس كيف تستثقل ضيامه وهو يصحح الأبدان ، ويحببُ الغفران والرضوان ، أم كيف تسأم من شهر أنزل فيه القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين — أيها الصائم : انقضى شهر العبادة فهل أحييته بالعبادة ؟ انقضى شهر القرآن فهل اشتغلت فيه بتلاوته ؟ انقضى شهر البر والإحسان فهل أكرمت فيه يتيماً أو أرملة أو سائلاً محروماً ؟ انقضى شهر صلة الأرحام فهل وصلت فيه قريباً أو جبرت بعيداً ؟ انقضى شهر العفو والصفح ، فهل عفوت فيه عن ظلمك أو صفحت عن أساء إليك ؟ انقضى شهر التوبة والقبول فهل صرت من التائبين المقبولين ؟ وكيف يُحسب من المقبولين من أطلق لسانه بالكذب والغيبة والنميمة ولم يستح من خالق الأرض والسماء ؟ كيف يُحسب من

المرحومين من إذا جن عليه الليل اشتغل باللعب عن الطاعة واستماع القرآن ، أو أمضاه في بيوت اللهو وأما كن الفسوق ؟ وكيف يرجو القبول من ساءت أخلاقه في الصيام ولم يكن من الخاضعين المتواضعين . أيها الصائم : هذا يوم الوداع فبأى شيء تودعه وأنت لم تحسن إليه مدة الإقامة ؟ وبأى وجه تقول الوداع ، وأنت تودعه بالكرهية والسآمة ، وكيف تفرح بالرحيل وهو عليك من الشاهدين بين يدي أحكم الحاكمين — فيا أيها الصائمون : اتقوا الله وتداركوا ما فرط منكم بالتوبة وصالح العمل ، وصلوا الأرحام وواسوا الأرامل واليتامى « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » وأحيوا ليلة القدر بالطاعة والعطف على البائسين والضعفاء ، وأخرجوا صدقة الفطر فإن الله أوجبها عليكم جبراً لخاطر المساكين ، وكفأ لهم عن السؤال والذل في هذه الأيام ، ووسيلة لقبول الصيام ، واسمعوا في إصلاح ذات البين ، وليستحل كل منكم من ظلمه ، ويستعطف من أساء إليه ، وطهروا قلوبكم من الغل والحسد ، « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » — وتقول في الخطبة الثانية — « أيها الناس » إن عزة الأمم وسعادتها منوطان بأخلاقها وآدابها ، واعتناقها للفضيلة ، وابتعادها عن الرذيلة ، فالأخلاق الفاضلة روح الأمم والشعوب لا حياة لها إلا بها ، ولا رقي لها إلا معها ، وعلى مقدار اعتناء الأمة بالتربية الصحيحة ، وتمسكها بالأدب والفضيلة يكون رقيها وفلاحها ، وهناؤها وصفاء عيشها ، « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله — الله أكبر
(تسعاً) الله أكبر وهو الكبير الذى عَزَّتْ الوجوه لكبريائه وعظمته . الله
أكبر وهو الحى القيوم الذى دبر الكائنات بحكمته . الله أكبر وهو القادر الذى
أبدع الموجودات وعمها بإحسانه ورحمته . الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ،
وسبحان الله على الدوام . وأشهد ألا إله إلا الله جعل فى تعاقب الأعياد عبرة
لأولى الألباب . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعى إلى الهدى والصواب .
اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والحافظين لحدود الله ، العاملين
بأحكام الدين « أما بعد فيا أيها المسلمون » إن يومكم هذا يوم سرور لمن صحت
نيتته ، وقبل صيامه وقيامه . يوم فرح وتهانٍ لمن طابت سريرته وحَسُنَ فى رمضان
خلقه وكلامه . يوم عفو وإحسان لمن عفا عن هفا وأحسن إلى من أسا وأصلح
بين الأنام . هذا يوم عيد ولكن العيد فى الحقيقة لمن تمسك بالدين . هذا يوم
الفلاح والنجاح لو كان المسلمون فيه مؤتلفين متحدين . هذا يوم سعيد لو كنا
لمستقبلنا عاملين . فى هذا اليوم المبارك يتجلى المولى على المخلصين بمزيد الإناعام .
ينظر فيه إلى أهل الصدق والوفاء والمودة والمحبة . ينظر فيه إلى من تاب وراقب فى السر
والعلانية ربه . ينظر فيه إلى من تغافل عن عيوب الناس ولعيوب نفسه تنبه . يعز
فيه من طهر قلبه من الحقد والحسد وتأدب بأداب الإسلام . فليس العيد لمن تمتع
بالشهوات ولبس الثوب الجديد . ليس العيد لمن عقى والدته فحرم الرضا فى هذا اليوم
المبارك السعيد . ليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم مولاهم من فضله العميم
المزيد . ليس العيد لخائن غشاش كذاب يسعى بالأذى والفساد بين الأنام . وكيف
يسعد بالعيد من تجمل بالجديد وقلبه على أخيه المسلم أسود . كيف يهنا بالعيد من
استقام فى رمضان وبعده عدل عن الطريق القويم الأحمق . كيف يفرح بالعيد من
أضاع أمواله فى الملامى وبيوت الفسوق والفجور ، ويمنع حق الفقراء والضعفاء ولا
يخاف يوم البعث والنشور . هيهات هيهات أن يحظى بالفلاح والقبول من أصر

على العداوة والخصام . إنما العيد لمن خاف يوم التناد . إنما العيد لمن اتقى مظالم العباد
إنما العيد لمن فاز بالقبول وحسن الختام . أيها الناس : كم أموال في هذه الأيام تضيع
على الملاهي والملاعب . كم تتعدى فيها أهل الغرور حدود الأدب بأفعال الهمج
وتقليد الأجانب . كم تخرج فيها أهل البدع عن الشرع القويم فيكونون في جانب
والدين في جانب . كم تتبرج فيها أبناء الشهوات بما اكتسبوه من الشبه والحرام
أين من كان لا يفرح بعيد ولا يسواه إلا بما قدمه من الخير أمامه ، أين من كان
يزجر نفسه عن اللذات خوفا من ألم العتاب والملامة . أين من كانت عيناه تفيض
عند ذكر أهوال يوم القيامة . أين أهل الشفقة والرحمة على الأرامل واليتامى في هذه
الأيام . أولئك قوم كانت قلوبهم مملوءة بالتقوى عامرة بالهدى ، أخلاقهم كريمة ،
وقلوبهم سليمة ، قانعون صابرون لا يجزعون لحال من الأحوال . تعرفهم بسيماهم .
وأثنى عليهم مولاهم بقوله « من المؤمنين رجال » . علموا أن الدنيا وزخرفها ظل
زائل كأنها أضغاث أحلام . فاتقوا الله أيها المسلمون وتباعدوا عن النفاق والشقاق
فإنه يوقع في الوبال والبلاء . وطهروا قلوبكم من الحقد والحسد وكونوا عباد الله إخوانا
في صفاء . وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، واعطفوا على الأرامل واليتامى ، تناولوا
غاية القبول والإكرام . في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن
ينظر إلى قلوبكم » . وروى مسلم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من
صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

في التحذير من العودة إلى المعاصي بعد رمضان

الحمد لله الدائم الباقي فلا يزول ولا يتغير . الحكيم الذي جعل في انقضاء
الشهور وتقلب الليل والنهار عبرة لمن تفكر . لا إله إلا هو جعل الفلاح لمن عمل
بأحكام الدين . وأشهد ألا إله إلا الله فتح أبواب رحمته لمن داوم على طاعته .
وحجب أنوار هدايته عن انقاد لشهوته . وانغمس في حماة رذيلته . وأشهد أن

سيدنا محمداً رسول الله إمام المتقين . وسيد الأنبياء والمرسلين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تمسك بالدين واهتدى بهديه « أما بعد فيأيها المسلمون) إن كان رمضان قد مضى كأنه طيف خيال . وعزمتهم على العود إلى التفريط والتقصير في شوال . فالله حي أبدي سرمدي لا يدركه زوال . ولا يفنيه تداول الأوقات ونعاقب الأهلة هلالاً بعد هلال . فلا تقولوا الآن ذهب رمضان وتستهلوا شوالاً بالفسوق والعصيان . فإن الله تعالى يرضى عن أطاعه في أى شهر كان . ويغضب على من عصاه في كل وقت وأوان . أيها المسلم : عهدناك في شهر رمضان منيباً إلى ربك ، تائباً من ذنبك ، راغباً في رحمته وثوابه ، خائفاً من نقمته وعذابه . عهدناك في رمضان محافظاً على أداء الصلوات في الأوقات . حريصاً على شهود الجمعة والجماعات . مقبلاً على مجالس العلم ومستعداً لقبول النصائح والعظات . عهدناك في رمضان مهذباً نقياً ، متواضعاً تقياً . فعلى أى شيء عزمت بعد انقضاء شهر الصيام . أنراك بعد ما ذقت حلاوة الطاعة تعود إلى مرارة العصيان ؟ أنراك بعد ما صرت من حزب الرحمن تنقلب على عقبيك فتنضم إلى حزب الشيطان ؟ أنراك بعد ما حُسبت في عداد المصلين تترك الصلاة وهي عماد الدين وشعار الإيمان ؟ وهل يليق بك بعد ما كتبت في جملة الطائعين المرحومين ، أن تصير في زمرة العاصين المحرومين ؟ أليق بك بعد ما كنت في رمضان براً نقياً ، أن تصير في الإفطار جباراً شقياً ؟ أليق بك بعد ما كنت في رمضان ملكاً كريماً ، أن تصير بعده شيطاناً رجياً ؟ « كلا » ما هكذا تكون المؤمنون . بل ما هكذا تكون العقلاء المتبصرون ، ولا السعداء الموفقون . أيها الناس : الصلاة نور للقلب ، وشكر للنعمة ، وصلة بين العبد وربّه ، فما الذي يستفيده ذلك الشقي من ترك الصلاة سوى ظلمة القلب ، وكفران النعمة ، وقطع الصلة بينه وبين مولاه . بل ما الذي يجنيه العاصي من وراء معصيته غير إتلاف ماله والإضرار بعقله وصحته ، وضياع شرفه وسقوط كرامته ، وإغضاب ربّه واستحقاق مقتته وعقوبته ؟ « تالله » إن المعاصي لشهوة قصيرة عاجلة ، تعقبها حسرة طويلة

دائمة وشقوة ملازمة ونار حامية . وذل شديد . وعذاب أليم في الدنيا والآخرة .
 فيأيتها المسلم : اعلم هداك الله أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن الدنيا عمل ولا حساب ،
 والآخرة حساب ولا عمل . فاتق الله وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك
 لموتك ، ومن صحتك لمرضك ، ومن غناك لفقرك . وتزود لسفر طويل ، واستعد
 لحساب عسير ، وهول عظيم . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . يوم يعرض الظالم
 على يديه نادماً على ما جنه . « يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات
 وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد سرايبهم
 من قطران وتغشى وجوههم النار ، ايجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع
 الحساب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر
 أولوا الألباب » — في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحب
 الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » وروى الحاكم عن ابن عباس . قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ،
 وصحتك قبل سقمك . وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك . وغناك قبل
 فقرك » . الهرم كبير السن . وبابه طرب .

الحث عَلَى الاتحاد والتعاون والتحذير من التفرق والتنازع

الحمد لله الذى جعل الدين رباطاً متيناً بين قلوب المؤمنين . وأمر بالاتحاد
 والتعاون ، ونهى عن التفرق والتنازع فى كتابه المبين . لا إله إلا الله الحكيم العليم
 وأشهد ألا إله إلا الله القوى المتين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ذو القاب
 الرحيم ، والخلق الكريم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الذين طابت
 نفوسهم وصفت قلوبهم فكانوا هم السادة الغالبين ؛ (أما بعد) فقد قال الله تعالى :
 « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف
 بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . أيها المسلمون : إن دين الإسلام هو حبل الله
 المتين ، والحق المبين ، من وقف عند حدوده نجى ، ومن نحلى بأدابه لاعد ، ومن

تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإن الله عزت قدرته وجلت حكمته ، قد أوجب عليكم فيه أمراً عظيماً ، إن أنتم أطعتم الله فيه نلتهم من الخير ما تحبون ، وبلغتم من الفلاح والرفق الغاية التي تطلبون ، ذلكم هو أن تتحد قلوبكم ، وتتألف نفوسكم ، وتعاونوا على الخير فيما بينكم . فإن الاتحاد والتعاون أساس كل خير وسعادة وعماد كل تقدم ورق ، فما نالت أمة من الأمم نصيبها من رغد العيش ، ولا فاز شعب من الشعوب بحظه من التقدم والرفق ، إلا باتحاد القلوب واجتماع الكلمة ، والتعاون على الأمور النافعة ، والتضامن في تنفيذ كل عمل مفيد ، وشعور كل فرد بأنه عضو من جسم أمة ، عليه واجب يؤديه ، وله وظيفة يقوم بها لخير المجموع بأمانة وإخلاص . أيها الناس — إن التفرق والشقاق والتنازع والاختلاف لمن الجنايات العامة والجرائم الكبرى ، التي تهدم بنيان الأمم وتضعف قوتها ؛ حتى لا تقوى على الثبات أمام أعدائها ، وتغلق في وجهها أبواب كل خير ، وتنذرها بوخامة العقوبة وسوء المصير.. لهذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التنازع والاختلاف ، وحذرهم من عواقبه السيئة ونتائجها المؤلمة . قال تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا في تحكيم وتذهب رايكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . تفشلوا : تجبنوا — تذهب رايكم : تضعف قوتكم ولا تنصروا على أعدائكم — إننا إذا قلنا لكم إن الاتحاد والتعاون يثمران كل خير وسعادة ، فلا نسشهد على هذا إلا بما كان للسلف الصالح والخلفاء الراشدين من الشرف الرفيع ، والعز المنيع ، والقوة التي قهرت بها الجبابرة ، وأسقطوا عروش الظلم والاستعباد ، ونشروا لواء العدل والمساواة بين الناس في كل مكان ، والله يعلم أنهم ما نالوا ذلك بكثرة عددهم ، ولا بتوفر عددهم . ولكنهم نالوه بفضل الاتحاد والتعاون والصدق والوفاء ، والإخلاص والإخاء . قال تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » . أيها الناس : إن في حوادث الأيام لعبراً جمة ، وعظات كثيرة ، يستفيد منها الرجل الرشيد أكثر مما يستفيد من خطب الوعاظ ونصائح المرشدين — وهما هي الحوادث تمر بنا في كل يوم فهل آن لنا أن نعتبر ونتعظ . هل آن لنا أن نفيق

من سكرتنا وتنبيه من غفلتنا ، ونعلم أن فلاحنا موقوف على اتحادنا وتعاوننا ، وصفاء قلوبنا وإخلاص بعضها لبعض ؟ أم نحن سنظل في التفرق والتخاذل والشقاق والنفاق والغل والحسد والضلال القديم ؟ أيها الناس : اتقوا ربكم وتمسكوا بدينكم ، واعملوا بهدى نبيكم ، واقعدوا بأسلافكم الصالحين ، تفلحوا كأفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وتعاونوا على الخير وخير العمل ، يشملكم الله برحمته ويعمكم بإحسانه ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . رواه البخارى .

أخرى في الاتحاد وأثره في نجاح السلف

الحمد لله الذى ألّف بالإسلام بين قلوب المؤمنين . وأوجب الاتحاد وحرّم التفرق فى كتابه المبين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير داع إلى الطريق القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تهذب نفوسهم واتحدت قلوبهم ، فكانوا السادة المنصورين (أما بعد فيا أيها المسلمون) لا ريب أن أقوى عامل على رفع منار الأمم ، وأفضل معين على نهوضها ونيلها منتهى المجد والشرف . هو اجتماع القلوب ، واتحاد الكلمة فما تمسكت به أمة إلا ظهر سلطانها ، وقويت شوكتها ، ودامت دولتها ، وبلغت فى الرقى ورغد العيش أقصى الغايات ، وأرفع الدرجات . وما تفرقت أمة واختلت كلمتها ، وتنازعت فى أمرها إلا اضمحل سلطانها ، وضعفت قوتها ، ودالت دولتها وتبدل عزّها ذلاً ، ورفعتها ضمة وانحطاطاً . وكان من نصيبها الفشل والخسران المبين لهذا أمر الله بالائتلاف والاتحاد ، ونهى عن التفرق والتنازع . قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وقال تعالى . « ولا تنازعوا فتفشلوا ،

وتذهب ريجكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . أيها الناس : إن العاقل من غيره
اتعظ . وإن التاريخ لعبرة وعظة ، أنظروا إلى ما كانت عليه الأمة العربية أيام
الجاهلية ، تروها كانت على أسوأ حال : حرب متواصل ، وتفرق دائم ، وعداء
مستحكم ، وهمجية ممقوتة . يعتدى بعضهم على بعض ، ويبطش القوى بالضعيف ،
لا دين يمنعه ، ولا قانون يردعه ، ولا إنسانية تحجزه ، ولا منصف يقفه عند حده ،
إلى أن سطع نور الإسلام فأضاء بلاد العرب ، واستنارت به أرجاء نجد وتهامة ،
وارتجت لأجله بلاد فارس والروم . ولكن أبي الله إلا أن يتم نوره على يدي
هذا الرسول الكريم ، والسيد الصادق الأمين ، فانضم إليه العقلاء ، والتف حوله
السمداء ، فنزع الله من قلوبهم داء العداوة والبغضاء ، وطهرها بدواء الإخلاص ،
والحبة ، وألف بينهم فصاروا روحاً واحدة في جسم واحد ، ففازوا بريح جسيم ،
وظفروا بخير عميم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله
لكم آياته لعلكم تهتدون » . وكان لدولة الإسلام العز الذي لا يداني ، والسلطان
الذي لا يضاهي . فقهروا الجبابرة ، ودوخوا الأكاسرة ، وملكوا مشارق الأرض
ومغاربها ، وأدركوا باتحادهم على قلة عددهم ، وضعف عددهم ، ما لم تدركه الجيوش
على كثرتها وقوة عدتها ، فلقد التف الناس حول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
واتحدت كلمتهم ، وخلصت نيتهم . فقهروا دولة الفرس والرومان ، وفتحوا الشام
ومصر ، وانتصروا في كل الوقائع ، ولم تنكس لهم راية ، ولم ينهزم لهم جيش ، وكان
كل واحد منهم يعمل بإخلاص لإعلاء الدين ورفع شأنه ، ناسياً حظ نفسه وكل
مأرب شخصي . لما بويع عمر بالخلافة بادر بعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش .
فعل ذلك عمر لأمر أدركه ، ومصلحة رآها . فحينما بلغ خالد أمر العزل سلم عن طيب
نفس قيادة الجيش إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، ولم يجد في نفسه حرجاً مما رآه
أمير المؤمنين ، ودخل في صفوف المجاهدين كجندى عادى ، وأصبح مرءوساً بعد أن
كان رئيساً . وكل ذلك لم ينن من عزيمته ، ولم يصرفه عن الإقبال على العمل .

بصدق وإخلاص (هذا) وقد أصبح كل منا يعمل لحظ نفسه ، ويسعى وراء مصلحته ، ولو كان في ذلك مضرة لأخيه . حتى وقع السكل في قبضة الذل والهوان وعم الجميع طوفان البلاء . ولو أنهم ثابوا إلى رشدهم ، وعملوا بتعاليم دينهم ، واتحدوا وكانوا على قلب رجل واحد ، لرجعوا إلى مجدهم ، وعادوا إلى عزمهم ، ولكن لله في خلقه شئون ، وللشقاء قوم وللسمادة قوم آخرون . روى الجماعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » .

في التحذير من الغش في المعاملات وسوء عاقبته

الحمد لله الذي كرّم الإنسان وأمره بالصدق والنصيحة والأمانة ، ونهاه عن الكذب والغش والخيانة ، لا إله إلا هو الحكيم العليم ، وأشهد ألا إله إلا الله الشديد البطش بالخائفين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله تبرا من الغش وحذر منه جماعة المسلمين . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والخافئين لحدود الله . أما بعد فيا أيها المسلمون : إن الأرزاق لا تكون بالخداع ولا بالمقدرة ، وإنما هي كالأجال مقررة عند الله ومقدرة ، فلا يفوت العاجز رزقه ، ولا يُحصّل فوق ما قُسم له القادر القوى ، فيا أيها الغاشُّ هل يأتيك الغش برزق غير المقسوم ؟ ويا أيها الخالف بالآيمان الكاذبة هل يأتيك الخلف المكذوب بشيء سوى ما أراده لك الحى القيوم ؟ « كلا » والله لا يصيبك في الدنيا إلا ما قضاه الله عليك ، ولا ينالك منها إلا ما قسمه الله لك . فما هذا التدليس الذى لا يكسبك إلا شكاً في قضاء الله تعالى ، وما ذاك الغش الذى لا يفيدك إلا الوزر والحزى والعار ، وما عاقبة ذلك كله إلا ضياع الثقة وغمّ المصائب وهمّ الخسائر — فوالله ما تقدم عامل خان في عمله ، ولا نجح صانع دلس في صناعته ، ولا ربح تاجر غش في تجارته ، وما هي إلا أيام معدودة ثم تنصرف الناس عنه وتغلق في وجهه أبواب الربح ، وتذهب البركة من عمل يديه ، وربما دارت عليه أو على ذريته الدوائر

أيها الناس : إن الغش لذنب كبير ، ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية ، وإن الأيمان الكاذبة لا تصدر إلا عن قلوب مظلمة قاسية . وكلاهما تغريز بالناس وتلاعب بالدين ، وخسران مبین . لقد أغضبت ربك أيها الخالف كذباً لترويج الصنعة أو البيع والشراء ، وأما أنت أيها الغاش فقد تبرأ منك الحبيب المصطفى لأكل أموال الناس بالباطل ، وإهمالك لدينه ، وخروجك على ملته . برعت في ضروب النصب والاحتيال ، وتفننت في أنواع الغش والخداع ، لا تراعى مخلوقاً ولا تخشى خالقاً . فلا حول ولا قوة إلا بالله — يدخل الإنسان على الصانع ، أو يقف المشتري أمام البائع ، فيسمع من الأيمان الكاذبة ما يخدعه به ، ويوهمه أن هذا الشيء لا نظير له ، وأنه أجود من صناعة أو بضاعة فلان وفلان ، وأرخص مما يباع في جميع الحوانيت ، والله يعلم إنه لكاذب » ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون » ولقد صار الغش في كل شيء حتى اللبن في ضرع الحيوان ، ولو أمكنهم أن يبيعوا التراب ذهباً لفعلوا بلا مبالاة ولا حياء . ألا فليعلم الغاش أن كسبه سحت وحرام ، وأن كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وليعلم الخالف كذباً أن حقوق الذي خدعه محفوظة يستوفونها من حسناته في يوم لا درهم فيه ولا دينار . أيها الناس : إن الصناعات والتجار من أكثر الناس اعتماداً على الله ، يفتحون محلاتهم كل يوم يبتغون من فضل الله ، لا يعتمدون على وظيفة ولا مرتب ، فما أحسنهم إذا كانوا أمناء صادقين . قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وما أسعدهم إذا هم قاموا بواجبهم نحو الله والناس ، ولم تشغلهم أعمالهم عن الله « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » فيا أيها المسلم اتق الله وارض بما قسم الله لك ، واحفظ نفسك من الإفلاس في الدنيا ومن خزي يوم القيامة ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » . في الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحمت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركضُ فيها ركضَ الوحش في البرية ، ولا يفلأك منها إلا ما قسمته لك وكنت عندى مذموماً » . وفي صحيح مسلم « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ! ! من غشنا فليس منا » . وفيه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنفق ثم يُمَحَق » . أى يروج السلعة ثم يُذهب البركة من كسب البائع .

في مضار الزنا — مسجوعة

الحمد لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . الحكيم الذى أعز من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى والفجور . لا إله إلا هو له الملك وإليه مرجع الخلق أجمعين . وأشهد ألا إله إلا الله هدى من شاء إلى الصراط المستقيم . وأشهد أن محمداً رسول الله جاء بالحق الواضح والشرع القويم . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » (ابن آدم) عمرك في الدنيا وإن طال فأيامه قصيرة . لذاتك مهما حلت لك في الحال فستورثك في المال حسرات كثيرة . ارتكابك للزنا بلا حياء دليلٌ منك على انطماس البصيرة إذ لو كنت من الراشدين ماسكك مسالك الزناة الفاجرين . وكيف تقرب الزنا وقد أباح الله لك أربعاً من النساء ؟ كيف تتسبب لنفسك في الذل والمرض وأنواع البلاء . مالك تُنفقُ مالك فيما يغضب ربك ويرضى الشيطان وهولك عدو مبين . الشيطان يُزين لك الفحشاء ويجرك إلى الأذى والفساد . والله يدعوك إلى الفلاح والهدى والرشاد . فلماذا تركت الرشاد إلى الفساد . وهجرت الهدى إلى الضلال المبين . أيليق بك أن تطيع من يدعوك إلى مافيه ضياع المال وخيبة الآمال ، وتعصى من يأمرك بما فيه لك العز في الحال

والسعادة في المال ؟ أما تستحي ممن يراك وأنت لاتراه قبل أن تصبح من النادمين .
يا هذا : كيف تُمزقُ العفاف وتكشف عن عورة أختك المسلمة ، وكيف تحون
أخاك وتعصى مولاك بهذه الجريمة الشنيعة المحرمة ؟ وبلك أيها الزاني فقد تجرأت
على هتك الأعراض وكنت من الفاسقين . ألم تعلم أن الزنا يعود عليك في الدنيا
بالفقر والوبال . ويوقعك في الحسرة والندامة يوم لا ينفع أهل ولا مال . ويورث
العداوة والبغضاء والتفرق بين المسلمين . أما تدري أن الله مطلع عليك وأنت على
هذه الحالة الشنعاء . أما تخشى أن تنزل عليك وأنت تزني صاعقة من السماء .
أما سمعت قوله تعالى : « وأملئ لهم إن كيدى متين » فالزنا ياقوم عين الهلاك ورأس
كل فساد . ومَضِيعة الأموال والأعراض والأولاد . ونخل بالشرف والمروءة ومؤد
إلى المرض والخزى والعذاب المهيئ . فهلا زجرك عنه الحياء إن لم يزجرك عنه باعث
الدين . هلا منعك منه شرفك الذي تدعيه إن لم يمنعك الخوف من رب العالمين .
أم رضيت أن تكون في الدنيا من الفاسقين وفي الآخرة من الخاسرين . فالخليفة
كل الخلية لمن استعبده شهوته لامرأة زانية . والندامة كل الندامة لمن أضاع نصيبه
من الجنة واستبدل به ناراً حامية . والذل كل الذل لمن جاء يوم القيامة والصديد
يسيل من فرجه كما ورد عن سيد المرسلين . فيا أيها المؤمنون اتقوا الله وغضوا
أبصاركم واحفظوا فروجكم . راقبوا الله ولا تضيعوا بالزنا أولادكم وأنسابكم . وتوبوا
إلى الله واستغفروه إن ربكم كريم يقبل التائبين . في الصحيحين عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها
وهو مؤمن » . (وفي رواية) : « فإذا فعل ذلك خلع ربة الإسلام من عنقه . فإن
تاب تاب الله عليه » . وروى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من زنى أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمان كما يخلع الرجل قميصه من رأسه » .

التحذير من الزنا وعواقبه الوخيمة — رسالة

الحمد لله الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد ألا إله إلا الله جعل الإحسان للطائعين والذل للمعاقب للفاسقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى الخير والصلاح وحذر من الشر والفساد ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين غضوا أبصارهم عن الحرام ، وحفظوا فروجهم عن الفحشاء ، فعاشوا فى صفاء وماتوا سعداء .

(أما بعد) فقد قال الله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » أيها الناس : نهانا الله العليم الحكيم عن الاقتراب من الزنا وما يدعو إليه من النظر واللمس ، والاختلاط والخلوة بالأجنبية ، لأنها تؤدي إلى الزنا ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإذا كان الله تعالى قد حذرنا من مقدمات الزنا ودواعيه فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد . لم يحرم الله علينا الزنا عبثاً ، ولم ينهنا عنه إلا لحكمة وفائدة تعود علينا ، فإن الزنا من أخش الفواحش ، وأكبر القبائح ، وأعظمها خطراً على المجتمع الإنسانى : يبدد الأموال ، ويهتك الأعراض ويقتل الذرية ، ويؤدي إلى اختلاط الأنساب ، ويُفضى بالآمة إلى الفناء . والزنا يُفسد الأخلاق ويدعو إلى الشقاق والفساد ، ويوقع فى البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة ، وما الزهرى (التثويش) والسيلان والسل الرئوى إلا من آثاره السيئة ، وعواقبه الوخيمة « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . عجباً للزاني يتفضل عليه مولاه بالمال الحلال ، فيضيعة فى مبارزته بالتمرد والعصيان ، فكان مثله مع سيده مثل من أنعم عليه السلطان بسيف فخار به . وهذا لؤم لا وفاء ، ودناءة لا مروءة ، وكفران لا شكران . أما كان ينبغي أن يُنفقه على أهله وعياله ؟ أما كان الأولى أن يبذله فيما يرقى أمته التى يميز بعزها ويسعد بسعادتها ؟ أيها الناس : يستتر الزاني عن الأعين عند ارتكابه هذه الفاحشة ، ويخاف أن يراه الناس على تلك الجريمة الشنيعة ، أفلا يخاف الله المنتقم

لجبار ؟ أولا يَسْتَحْي من علام الغيوب » يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً » يا هذا أنرضي أن يعقدي أحدًا على حرمة أمك أو ابنتك ، أو اختك أو زوجتك ؟ إذا كنت لا ترضى ذلك لنفسك فكيف ترضاه لأخيك المسلم ، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فهل انحلت الروابط الاجتماعية بين الناس ؟ هل انقطعت الصلة الدينية بين جماعة المسلمين حتى صار المسلم لا يشعر بألم أخيه ، ولا يبالي بحقه وحرمة ؟ « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » أيها الناس : لقد جاب الزاني الأذى لنفسه ، وحنى على أبنائه وبناته وزوجه ، فقد سن لهم سنة سيئة ، وجرائم على الفاحشة ، فسرت عدواهم إليهم ، وكان عليهم وبالا وشرأ مستطيرا ، ألا فليتيق الله الزناة وليعلموا أن من زنى زنى به ، ومن هتك أعراض الناس لا بد من هتك عرضه ، ألا فليتقوا الله وليعلموا أن الزنا وبال عليهم في هذه الحياة وفي تلك الحياة ، وبال على أسرهم ، وبال على أمتهم . وأن الزاني مطرود من رحمة الله ، ممقوت لدى الله والناس أجمعين « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه » . وتشرح في الثانية ما يأتي : روى البخاري عن سهل ابن سعد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ تَضَمَّنْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم ولم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائل مستكبر » والعائل : الفقير . رواه مسلم .

خطبة عيد النحر

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير . الله أكبر (تسعاً) الله أكبر ما لاحت إمارات الفلاح على من

قصد بيته الحرام . الله أكبر ما تجلّت عليهم أنوار الهداية لإقامة شعائر الإسلام .
الله أكبر ما ساروا في البر والبحر تحرّسهم عناية الملك العلام . الله أكبر
ما فارقوا أموالهم وعبادهم لينالوا الرضوان الأكبر . الله أكبر (ثلاثاً)
الله أكبر ما جدّوا في المسير حتى شاهدوا الكعبة البهية . الله أكبر ما علت
أصواتهم بالتلبية إجابة لنداء الخليل في البرية . الله أكبر ما صلّوا في مقام
إبراهيم ونالوا المواهب السنية . الله أكبر ما طافوا وسعوا وشربوا من ماء زمزم
المطهر . الله أكبر (ثلاثاً) الله أكبر ما هامت بهم مطايا الأشواق إلى عرفات .
الله أكبر ما ابتهلوا فيه إلى الله وغفرت لهم جميع السيئات . الله أكبر ما وقفوا
بالشعر الحرام شاكرين الله على ما هداهم إلى معالم السعادات . الله أكبر ما وصلوا
منى ونحروا هداياهم وخلق كلّ أو قصر . الله أكبر (ثلاثاً) سبحان من أغدق
عليهم سبحانه الرحمة والغفران ، سبحان من منّهم بزيارة الحبيب سيد ولد عدنان ،
سبحان من أسعدهم بالسلام على المختار وصاحبيه وأجزل لهم الإحسان ، سبحان
من هنّأهم بنيل المأمول ، وبلوغ المقصود وتمّم لهم الحظ الأوفر . الله أكبر (ثلاثاً)
سبحان الله والحمد لله وهو أهل التنزيه والثناء . سبحان الله والشكر لله ، وهو
ذو الفضل العظيم واسع الكرم والعطاء . لا إله إلا الله لا رب غيره ولا معبود سواه
وأشهد ألا إله إلا الله جعل الأعياد مواسم الإحسان والرضوان . وأشهد أن سيدنا
محمداً رسول الله المبعوث بصفوة الأديان ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه
الصادقين المخلصين (أما بعد فيأيها الناس) هذا يوم العيد الأكبر لمن وقف بالأمس
بعرفات فحيت سيئاته وغفرت ذنوبه . هذا يوم السعد وبلوغ القصد لمن كرمته
سجايه وحسنت نواياه . هذا يوم الفرح لمن تملّى بأنوار حبيب الله وخاتم أنبياء .
هذا يوم الهنا لمن بلغ المنى وصلى بالروضة بين القبر الشريف والمنبر . كان هذا يوم
الوفاء وصدق الاخاء بين جماعة المسلمين ، كان يوم تلاقى الإخوان بنفوس صافية
وقلوب سليمة . كان يوم صلة الأرحام والسعى في إصلاح ذات البين . لكننا جعلناه
يوم لهو ولعب وإسراف في اللذات والشهوات ، وإضاعة الأوقات في كل عمل غير

مفيد ولا حميد . تركنا فيه محاسن الآداب إلى بدع وعادات لا يقرها دين ولا يقبلها عقل سليم . لو كان لنا قلوب لذابت أسفاً على حال المسلمين من بين العباد . لو كان لنا شعور حي لتألمنا لما حل بالإسلام من إذلال واضطهاد واستعباد . والله لو استقمنا كما أمرنا ما نزلت بنا المصائب ولا تحكمت فينا يد الأجانب . لو تمسكنا بديننا لنصرنا على أعدائنا وعاد لنا عزنا ، لو تحلينا بالصدق والوفاء والإخلاص والأمانة لتقدمنا على جميع الأمم « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . ما أجل هذا اليوم لو كان المسلمون فيه متحدين ، ما أحسنه لو كانوا فيه أوفياء أمناء صادقين . ما أسعده لو كانوا إلى إصلاح القلوب ملتفتين . ما أهناه لو كانوا فيما يرق الأمة متضامنين متعاونين . فائق الله أيها المفتون واسرع إلى حسن المسآب ، اتق الله أيها المغرور ولا تفرح بزينة الظاهر والباطن من الحياء خراب : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . في الحديث القدسي : يا ابن آدم خلقتك بيدي وريبتك بنعمتي وأنت تعصيني وإن رجعت إلىّ تبت عليك ، فمن أين تجد لك رباً مثلي وأنا الغفور الرحيم ؟ . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا زاتم منصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتي فإن خرجتم عن سنتي سلط الله عليكم من أعدائكم من يخيفكم ، فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتي) .

وفي الخطبة الثانية بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله والتكبير سبعاً تقول : في هذا اليوم تذبح الضحايا فمن الذي يطعم منها المساكين ويهدي أرحامه وجيرانه ؟ في هذا اليوم يكثر الخير فمن الذي يمنح المحتاجين بعض ما تشتهي أنفسهم وعيالهم ؟ من الذي يعطف على الأرمال واليتامى بقليل من مال الله الذي عنده ؟ من الذي اعتبر بمحوادث الأيام وتقلبات الزمان ؟ من الذي أيقن بالموت وفي وحشة القبر وأهوال القيامة تفكر . فاتقوا الله وتقرّبوا إليه بالضحايا ، وتوددوا إلى بعضكم بالهدايا ، واسمعوا في إصلاح ذات البين ، وليصفح كل منكم عن أساء إليه ، وصلوا الأرحام وأكرموا الأيتام ، ومن جاء من طريق فليرجع من آخر لتكثر لكم

الشهادات ، وكبروا الله أيام التشريق عقب الصلوات « واذكروه كما هداكم ولذكروا الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » . روى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ضحى طيبةً بها نفسه محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار) .

في الاقتصاد والتحذير من الإسراف والتبذير

الحمد لله الذي دبر شئون خلقه وأرشدنا إلى ما فيه الخير والسعادة ، وأشهد ألا إله إلا الله الرحيم بعباده ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الفضيلة ، الناهي عن الرذيلة ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن سلك طريق الحزم والكمال . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » . أيها الناس : مالنا يأمرنا الله بالتوسط في أمورنا ، والاعتدال في قضاء مآربنا ، ونحن عن ذلك معرضون ، وفي الإسراف والتبذير واقعون ، وإلى الفقر والذلة صائرون ، مالنا يرشدنا الدين إلى السعادة فلا نهتدي بهديه ، وينصح لنا فلا نعمل بنصحه ، مالنا أخطأنا الصواب وضللنا سبل النجاح ، فأصبحنا من الإفراط في صرف الأموال والتماضي في رهن المتاع والمقار على شفا جُرْفِ هار ، قانهار بنا في نار الفقر وعذاب الهون . تركنا ديننا فجعلنا نظام حياتنا وتدبير شئوننا والروية في أعمالنا . فلا يعرف أحدنا لنفسه ميزاناً يزن به عمله ، ولا حساباً يضبط به موارده ومصرفه ، كي يتسنى له أن يقتصد بمض ماله ، ليسد به عوزه إذا ألت به ملة ، أو نزلت به نازلة . فهل فينا من تنبه لذلك وتدبر عواقب الإسراف ؟ هل فينا من سلك طريق الاقتصاد فنفع نفسه وأمته ؟ هل منا من اعتبر بمن أوقعهم سوء التصرف في ذل الدين ، وساقهم التبذير إلى هوة الفقر فأصبحوا نادمين ، وعلى ما جنت أيديهم ملومين محسورين ؟ أيها العامل أو الموظف المسرف ! ويا أيها الزارع المبذر ، ماذا تصنع إذا استندت اعتماداً على عملك أو وظيفتك ، أو حاصلاتك ، فاقطعت عن العمل ، أو نزلت جيوش الماهات والآفات بالحاصلات فأهلكتها ؟ قل لي ماذا تصنع ؟ أترهن متاعك

ولباسك ، أم تتبع عقارك ودارك ، أم تماطل دائتك ؟ أم تعلن بين الناس إفلاسك ؟ كل هذا شر عليك في العاجل والآجل ، ووبال عليك في الدنيا والآخرة ، فاتمظ بفيرك أيها العاقل ، واعتبر بحوادث الأيام . فالسعيد من بغيره اتمظ ، والشقي من كان عبرة للناس . أيها المسلمون : قبيح بنا أن نتقاد لهوانا ، ونركن إلى الطيش ، والغرور فنستدين لنتطاول في البنيان ، ونتفاخر بتشديد الدور . وقبيح بنا أن نضيع أموالنا في حانات الخمر وبيوت الملاهي والفجور ، وحرام علينا والله أن نمد أيدينا إلى المصارف الأجنبية ، ونحمل أنفسنا ملا طاقة لها به ، ونوقعها في ذل وهم لا خلاص لها منه ، ولا نبالي بحرمة الربا وعواقبه الوخيمة . ونتأججه السيئة . قبيح بنا أن تكون أعمالنا كعاول الهدم ننقض بها ما بنى الآباء والأجداد من الثروة ، وجمعوا لنا من الأموال . لم يكفنا جهلنا بوسائل الثروة ، بل أضعنا ما في أيدينا ، ومكنا المرابين من أساس حياتنا وموارد أرزاقنا ، وجعلنا الأجانب يداً علينا ، كل هذا من إسرافنا وسوء تصرفنا ، « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . هذه أفراحنا ، هل وقفنا فيها عند حدود الشريعة الغراء ، وكلها حكمة ورحمة ؟ هل وقفنا فيها عندما يرضاه العقل السليم والرأي السديد ! هل تركنا فيها الإسراف والتبذير رياء وافتخاراً ! هل تركنا نصب السراقات وتعليق الرايات ، والمصاييح وإحضار المغنين والمغنيات والمطربين والمطربات ؟ وتلك مآتنا هل اتبعنا فيها سنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وسنة السلف الصالحين بعده ؟ . هل متعنا منها نوح النائمات ونذب النادبات ، « كلا » بل ضللنا سواء السبيل ، وتجاوزنا حد الاعتدال في جميع أمورنا ، واستحوذ الشيطان من ضعفنا على عقولنا ، وكل هذا وبال علينا ، وعلة ضعفنا ، وسبب تأخرنا « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » . فلا تستسلموا يا قوم لهواكم . ولا تنقادوا لشهواتكم فتضيعوا الأموال فيما لا يجدي نفعاً ؛ ولا يجلب خيراً ؛ وأمامكم المشروعات النافعة ، والأعمال المفيدة فذلك خير لأمتكم ، وأبقى لذكراكم . اتقوا الله واحذروا الإسراف والتبذير فإنه شر عليكم في دنياكم ، ووبال عليكم في آخرتكم . اتقوا الله والزموا التوسط المأمور به

في كتابكم ، وسيروا في أعمالكم سيرة سلفكم ، تفلحوا كما أفلحوا ، وتسعدوا كما سعدوا « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال « رواه مسلم . ويقول في الثانية . روى البيهقي والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الاقتصاد نصف المعيشة » . ومعنى كونه نصف المعيشة أنها لا تقوم إلا بأمرين : الكسب والاعتدال في الانفاق فإذا انعدم أحد الزكزين انهدمت المعيشة وساء حالها . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والدين فإنه همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار .

الدين ضروري للحياة الاجتماعية

الحمد لله الذي ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، ورفع قدر من تمسك بآدابه ، ووقف عند حدوده . وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين تحلوا بآداب الدين فكانوا هم الفائزين . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » عباد الله : إن الإنسان مهما وتى من قوة ليس في استطاعته أن يستقل بجميع حاجاته ، ولوازم حياته ، فهو إلى غيره محتاج . وإنه مسوق بحكم الضرورة إلى مخالطة الناس لتبادل المنافع التي لا بد منها . إذن فاجتماع أفراد الإنسان ضروري لا بد منه لسعادتهم ورفاهيتهم في هذه الحياة . ولكن محال أن تكمل لهم سعادة أو ينظم لهم أمر أو يسود بينهم أمن إلا إذا كان فيهم قانون محكم عادل ، يردع الظالم عن ظلمه ، وينصف المظلوم من ظالمه ، ويقف الجميع عند حد الاعتدال في جميع شئون الحياة ومرافقها . هذا القانون الذي يقمع النفوس عن الشر ، ويكفها

عن العدوان ، هو الدين لا سواء — الدين هو الذى يقومُ الطباعُ ويهذبُ النفوسَ ويظهرُها من أدران النقائص والذائل . فيحرّم عليها الحقد والحسد ، والنش والنفاق ، والتقاطع والبغى والإضرار بالناس ويوجب العدل والمساواة ، والصدق والأمانة ، والإخلاص والوفاء . وينهض بالمتمسكين به ، والمهتدين بهديه ، إلى منازل الرفعة والكمال . وإذا كانت الأديان السماوية قد اتفقت على الدعوة إلى الله تعالى ، والحثُّ على التحلى بالآداب العالية والخلال الحسنة ، فإن الدين الحنيف قد اختص من بين سائر الأديان بأنه أكملها معنى وأجلها صورة ، وأوضحها بياناً ، وأقواها حجة وبرهاناً ، وأوفاهها بمصالح البشر الدنيوية والأخروية . بل هو الصراط السوى والمنهج القويم . من سلكه فقد اهتدى ، ومن انحرف عنه ضلَّ وغوى « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . دين يخاطب العقول ويألف الأفهام ويمتزج بالآرواح ويتغلغل في أعماق القلوب حتى يأخذ له منها مقراً ، ولا نجد مما أراده منها مفراً — دين يبهز العقول بآيات لا تشبهه بأعمال الساحرين ، وحيل الماكرين ، ولكنه الحق اللامع ، والنور الساطع ، والذهب الإبريز ، جميل له منه عليه شواهد — دين أساسه التوحيد ، وروحه الإخلاص والمحبة ، وشعاره العدل والمساواة ، والتسامح والإحسان ، والطهارة والرحمة . فلا عبادة فيه إلا ما يظهر النفوس من ظلمة الرجس والمعصيان ، ويغرس فيها روح التعاون والاجتماع ، ولا معاملة فيه إلا ما يحفظ نظام العالم من القوضى والاضطراب ، ويكفل راحة المجتمع في تبادل المنافع الحيوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد إلا بالتقوى ومكارم الأخلاق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أيها الناس : هذا قبس من أنوار دينكم القويم ، ونبذة من أخلاقه الكريمة ، وآدابه الراقية ، ذكرناكم بها لتعملوا عليها ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين . فاتقوا الله ربكم وتمسكوا بدينكم وجذّوا في إمارة الجهل والابتداع ، وعليكم بكتاب الله وسنة رسول الله . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . « فإن توليتم فاعلوا

أما على رسولنا البلاغ المبين » . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى .

فى وجوب الاعتصام بالدين

الحمد لله الذى ارتضى لعباده الإسلام ديناً ، وأعز من تمسك بآدابه ووقف عند حدوده ، وأشهد ألا إله إلا الله السميع البصير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله البشير النذير . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين امتثلوا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا ما نهىهم عنه . فأورثهم مشارق الأرض ومغاربها . وما عند الله خير للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . قال الله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . (عباد الله) إن الله تعالى قد وهب للناس عقولاً ، وأكرمهم بتكليف شرعى ، وقانون محكم سماوى . ينفقون لأحكامه فلا تختلف بهم الآراء ، ويخضعون لأوامره فلا تلعب بهم الأهواء ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . فإن العقول البشرية وحدها لا تهتدى إلى كل ما فيه صلاحها فى العاجل فضلاً عن الآجل . فالجتمع الإنسانى لا بد له من الدين ، وإلا كان الناس كاسباع الحيوانات والوحوش البرية — وقد كان المسلمون سادة أقوياء ، أعزاء أصفياء . يوم كانوا متمسكين بدينهم ، مهتدين بهديه واقفين عند حدوده . وقد تبدلت قوتهم ضعفاً ، وانقلب عزم ذل من يوم تركوا العمل به ، وأعرضوا عن هديه ونصائحه . يا قوم إن فلاح الأمة وسعادتها فى العاجل والآجل موقوف على شيء واحد ، ألا وهو التمسك بالدين الذى أمرت أن تدين به ، وتقف عند حدوده ، وتمثل أوامره وتجتنب نواهيه . فإن الدين

ما شرع إلا اتهديب النفوس ، ومنعها من الشهوات الرديئة ، وحفظ النظام من الفوضى والاضطراب . فلا صلاح للناس إلا به . ولا سلامة لهم من مخاطر الشقاء إلا به . الدين أكبر زاجر للضائر ، وأعظم مصلح للسرائر . رقيب في الخلوات ، نضوخ في الملمات . الدين أحكم قانون لإصلاح الحياة واستقامتها ، وأنفع وسيلة لانتظامها وسلامتها . بما أرشد إليه من سعادة الدنيا والآخرة ، وما كان به سعادة الدنيا والآخرة فحق العاقل أن يكون به متمسكا ، وعليه محافظاً . وإجمالا ! إن الدين الحنيف أساس العمران ، والسبيل الوحيد إلى سعادة الدارين ، وما بلغت الأمة الإسلامية في إبان نشأتها تلك الدرجة العليا : من العز والقوة ، إلا بالوقوف عند حدود الدين . فكانت عاملة بوصاياه ، محافظة على نصابه ؛ ناشرة للفضيلة ؛ محاربة للنقيصة ، حاكمة بالعدل في الصديق والعدو ، صادقة في الأقوال والأفعال ، مخلصه في جميع الأحوال . ففتحت في أقل من ثمانين سنة أكثر مما فتحه أكبر دولة في عدة قرون . فيا أيها المسلمون : اتقوا الله وخافوا عواقب ما أنتم عليه من التهاون بأمور الدين ، فإنه لاحياة إلا بالدين ، ولا سعادة في الآخرة والأولى إلا بالدين . يا قوم راقبوا الله وتمسكوا بدينكم وأحيوا سنة نبيكم تفلحوا وتنصروا : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله وسنة رسوله » .

الإنسان - مآله ومصيره

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار كسب وعمل ، والآخرة دار ثواب وعقاب . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، وأشهد ألا إله إلا الله الدائم الباقي بعد فناء خلقه . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الداعي إلى الله بإذنه . اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين جاهدوا في الله حق جهاده ف عاشوا أعزة وماتوا سعداء . (أما بعد) فقد قال الله تعالى : « كل شيء هالك

إلا وجهه له الحسك وإليه ترجعون » . أيها الناس — كل مدة في الدنيا إلى انتهاء
وكل حى فيها صائر إلى الفناء . وكل شىء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل
« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فبينما الإنسان يجرى
في ثياب صحته ، متمتعاً بنعمة العافية ، فرحاً بقوته وشبابه ، لا يخطر له الضعف
على قلب ، ولا الموت على بال . إذ هجم عليه المرض ، وجاءه الضعف بعد القوة ،
وحل الهم من نفسه محل الفرج ، والكدر مكان الصفاء ، ولم يعد يؤنسه جليس ،
ولا يريحه حديث . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قد سئم ما كان يرغبه
في أيام صحته ، وصار لا يشتهي الغذاء ، ويكره تناول الدواء ، على بقاء في لبه ، وصحة
في عقله . يفكر في عمر أفناه ، وشباب أضاعه ، ويتذكر أموالاً جمعها ، ودوراً بناها
وقصوراً شيدها ، وضياعاً جده وكده في حيازتها . ويتألم لدنيا يفارقها ، ويترك ذرية
ضعافاً يخاف عليهم الضياع من بعده ، مع اشتغال نفسه بمرضه وآلامه ، وتعلق قلبه
بما يعجل شفاؤه . ولكن ما الحيلة إذا استفحل الداء ولم يفد الدواء ، وحرار الطبيب
ويئس الحبيب : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » . عند
هذا يستشعر الندم على ما مضى ، ويحس بعواقب التفريط والإهمال ، وقد تغير لونه ،
وغارت عيناه ، ومال عنقه وأنفه ، وذهب حسنه وجهه ، وخرس لسانه ، وصار بين
أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل ، ويسمع ولا ينطق . يقلب بصره فيمن حوله
من أولاده وأهله ، وإخوته وأقاربه ، وأحبابه وجيرانه : ينظرون ما يقاسيه من كرب
وشدة . ولكنهم عن إنقاذه أو تخفيف كربهم عاجزون . وبعد أن كانوا يحبون حياته
وبقاءه صاروا يتمنون موته وراحته . وهو يعلم أنه عما قليل مأخوذ من بينهم ؛ حيث
لا يقدر على منعه ، ولا يستطيعون رد روحه إلى بدنه : « فلولا إذا بلغت الحلقوم
وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم
غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » . ثم لا يزال يعالج سكرات الموت ويشتد به
الزعر وقد تتابع نفسه واختل نبضه ، وتعطل سمعه وبصره ، كما تعطل قبل ذلك لسانه
حتى إذا جاء الأجل ونفذ القضاء ، وفاضت روحه إلى السماء . صار جثة هامدة ،

وجيفة بين أهله وعشيرته ، قد استوحشوا من جانبه ، وتباعدا من قرب به ، ومات اسمه الذى كانوا يعرفونه ، كما مات شخصه الذى كانوا يأنسون به ، وأصبحوا يقولون (الميت) بعد أن كانوا ينادونه باسمه حياً إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أخذه الغاسل فجرده من ثيابه ، وصار يقلبه بين يديه عرياناً ، ويضع يده فى سوءته وعورته وقد كان يستحى من ذلك ويخجل منه حال حياته . ثم أدرج فى أكفانه كما يدرج المتاع فى لفافته ، وبعد الصلاة عليه يحملونه إلى حفرة عميقة ضيقة . مظلمة موحشة . وتركوه فيها وحيداً فريداً ، لا أنيس له ولا رفيق سوى عمله ورحمة مولاه ، فيضمه القبر وتحضره الملائكة ، يسألونه عن اعتقاده فى الله ورسوله وكتابه ، وعن طاعته وعبادته ، وكيف كانت معاملته للناس . أما المؤمن الطائع فلهم موفق مكرم مرحوم وأما المنافق العاصى فمضطرب مخذول مهان معذب . والقبر بعد ذلك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار . فيا عباد الله كفى بالموت واعظاً فأكثرُوا من تذكره ، وأطيلوا التفكير فيما بعده من مخاوف القبر وأهوال يوم القيامة . فإن تذكر الموت يحمل على الاستعداد له ، ويكف المرء عن الشرور والغواية ، ويهون عليه كثيراً من هموم الدنيا ، والدنيا كلها متاع وهموم ، والآخرة راحة وصفاء : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . فى الحديث القدسى عن رب العزة يقول الله تبارك وتعالى : « من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين . ومن لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر لنعمائى ، فليطلب له رباً سواى » . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك . وتقول فى الخطبة الثانية : (أيها الناس) الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل . والناس فيها أقسام ثلاثة ، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، والسابقون المقربون ، ولكل قسم منها جزاء مناسب لعمله ، فإن كان المرء من السابقين .

المقربين فله بعد الموت راحة ورحمة ، وإحسان عظيم ، ورزق كريم ، ونعيم يفوق الوصف . وإن كان من أصحاب اليمين فله أنس وتحيات من إخوانه أصحاب اليمين ، مع تكريم الملائكة له : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وإن كان من أصحاب الشمال فله ماء شديد الحرارة ، يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، يتناوله بعد أن يأكل من الزقوم طعام الأثيم ؛ يغلى في البطون كغليان الماء على النار . قال الله تعالى في هذه الأقسام الثلاثة إجمالاً بعد الموت : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ، إن هذا هو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » . وأما العاصي الذي مات على غير توبة فيعاقب على جريمته ، ثم يتفضل الله عليه بدخول الجنة آخر الناس . فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتوبوا إلى الله قبل ألا تتوبوا .

في فضل بناء المساجد

الحمد لله الذي أضاف المساجد لنفسه تشريفاً لقدرها فقال تعالى : « وأن المساجد لله » وحث على عمارتها تسهيلاً للعبادة وعناية بأمرها . وأثنى على من أحيها ببناء أو عبادة ، وجعلها موضع التجلي والتجلي . لا إله غيره ، ولا معبود سواه . وأشهد ألا إله إلا الله يسجد له من في السموات والأرض . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام الأنبياء والشفيع يوم العرض . اللهم صل وسلم على هذا النبي البهي ، أول من أسس المساجد في الإسلام . وعلى آله وصحبه الذين أثنى الله عليهم بقوله : « رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » عباد الله : المساجد بيوت الله ، فيها يعبد ، وفيها يذكر اسمه . حقاً إنها بيوت الله ، وإن من شأن الكريم أن يكرم من زاره في بيته ، وأن المساجد في الأرض مزار الملائكة في السماء . منها تصعد الأعمال ،

وإليها تنزل الرحمة — وإذا كانت العلماء حماة الدين ، ومصاييح الهدى . فالله أجد
حصون الأمان لمن تعلق بها قلبه وأخلص لله في عمله . يَعْمُرُ المساجد أهل الغيرة
على الدين . والحب للإسلام ، والصدق في الإيمان . تَبْنِي المساجد لإقامة الشعائر
وإظهار أعلام الدين ، لا لنوم فلان ولا للتحدث مع فلان ، تبنى المساجد فيفرح
بينائها أهل السماء والأرض ، ويجعلها الله مهبط الرحمة والرضوان . تبنى فتُدعى بيوت
الله . فطوبى لمن شيدها ، وطوبى لمن فيها تعبد . المساجد فيها تقام شريعة المصطفى
ومنها تصدر فضائل الأمة — أيها الناس : إن المساجد تشهد يوم القيامة لمن بناها
أو أحيها بالذكر والطاعة . وإن المساجد من أعلام الدين إذا بُنيت ، ومن علامات
النصر والخير إذا عرف حقها المؤمنون . عَرَفَ هذا أهل الخير قبلكم : فبنوا المساجد
مثلكم ، ولم يتركوها عرضة للضياع ، بل وقفوها من الغلات ما يصون حياتها ،
ويضمن بقاءها ، وقد فرحوا بها يوم افتتاحها ، وفرح معهم بها أهل الأرض والسماء .
وقد فارقوا الدنيا وتركوا آثارهم ومساجدهم شاهدة لهم بصدق الإيمان وقوة العزيمة .
وإن إقامة هذا المسجد العظيم للسان ناطق ، وشاهد صادق ، على حب من أقامه
للخير ، وغيرته على شعائر الدين . فلئن دعونا للأولين السابقين ، وشكرنا لهم حسن
صنيعهم ، فلن يفوتنا أن نضرع إلى الله الكريم أن يتقبل أعمالكم ، ويمجزكم
أحسن الجزاء وأعظم الأجر . ففي الحديث القدسي : « عبادي إذا لم تشكروا من
أجريت الخير على يديه لم تشكروني » . اللهم كما أكرمت المساجد في البلاد أكرمت
للمساجد من أهل الغيرة والإصلاح ، وأكرمت المساجد من أهل الهدى والاستقامة ،
حتى يبقى الدين وتبقى الشعائر يارب العالمين . في الحديث القدسي عن رب العزة :
« إن بيوتى في الأرض المساجد ، وإن زوّارى فيها عمارها ، فطوبى لمن تطهر في
بيته وزارنى في بيتي ، وحقّ على المزور أن يكرم زائره » . وفي الصحيحين « من
بنى لله مسجداً بنى الله له كهيئته في الجنة » — وفي رواية : بنى الله له بيتاً في الجنة .

عظات متنوعة

يذكرها المرشد في المناسبات ، من الحكم والأحاديث النبوية والقدسية ،
وآثار السلف ، وملح تاريخية ، وفكاهات أدبية ، في الشؤون الاجتماعية — فمن
الحكم المأثورة : إذا عمل العالم بعلمه استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من
بقلبه مرض ستمع الأذن لا ينفع مع غفلة القلب . شيثان لا يعرف فضلهما إلا من فقدهما
الشباب والعافية . حلاوة الظفر تمحو مرارة الصبر . ومن الحكم قول الحارث
ابن كلدة طيب العرب : المعدة بيت الداء ، والحُمى رأس الدواء ، وعودوا كل جسم
ما اعتاد . غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه . في الدنيا عمل ولا حساب ، وفي الآخرة
حساب ولا عمل . للشدائد تدخر الرجال . وقال الإمام علي رضي الله عنه : عاتب
أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه . من وضع نفسه مواضع التهمة
فلا يلومن من أساء به الظن . لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستفيد يوماً
من عمره إلا بفراق آخر من أجله . السكوت عن الأحق جوابه . إن لم تكن ملجأ
تصلح ، فلا تكن ذباباً تفسد . من غر بل الناس تخلوه . خير الأعمال أحلاها
عاقبة ، وخير مالك ما نفعك . لا تعد نفسك من الناس مادام الغضب غالباً عليك .
من أطاع غضبه أضاع أدبه . من عُرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عُرف بالكذب
لم يحز صدقه . آفة المروءة خلف الوعد . من اتكل على زاد غيره طال جوعه . إذا
ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك . وقال عيسى عليه السلام : ألا أخبركم
بمخيركم بمجالسة ؟ قالوا بلى قال : من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في عملكم منطقه ،
ويشوقكم إلى الجنة عمله . وقال للحواريين : عجبا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها
بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل . وفي الحديث القدسي عن
رب العزة : يا ابن آدم لا تخف من سلطان مادام سلطانى باقياً ، وسلطانى لا ينفد أبداً .
يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك ، فإنك إن طلبتني وجدتني ، وإن أنست بغيري
فُتِّك وفاتك الخير كله ، يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب ؛ وقسمت لك رزقك

فلا تتعب . إن كثرت فلا تفرح ، وإن قل فلا تجزع . وفيه : عبدى إن رضيت بما قسمته لك أرحت نفسك وبدنك ، وكنت عندى محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك سلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك ، وكنت عندى مذموماً . وفيه أحب ثلاثاً وحبى ثلاث أشد : أحب أهل السخاء وحبى للفقير السخى أشد ، وأحب المتواضعين وحبى للغنى المتواضع أشد ، وأحب الثائمين وحبى للشاب الثائب أشد — وأبغض ثلاثاً وبغضى ثلاث أشد : أبغض البخلاء وبغضى للغنى البخيل أشد ، وأبغض المتكبرين وبغضى للفقير المتكبر أشد ، وأبغض الفساق ، وبغضى للشيخ الفاسق أشد . وفيه : عبدى أخذك الشيطان منى لا لعجزى ولكن لضعفك أنت . وفيه : عبدى كم أتحب إليك بالنعم وتتبعض إلى بالمعاصى . خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد . وفيه يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطلبك بعمله ، فإنى لم أنس من عصاى فكيف من أطاعنى . وفيه يقول الله تعالى : من استسلم لقضائى وصبر على بلائى ، وشكر لنعمائى ، كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر لنعمائى ، فليخرج من تحت سمائى وليطلب له ربا سواى وفيه يا ابن آدم خلقتك بيدى وربيتك بنعمتى ، وأنت تخالفنى وتعصينى ، وإن رجعت إلىّ تبت عليك ، فمن أين تجد لك ربا مثلى ، وأنا الغفور الرحيم ؟ . وفيه : ما أقل حياء من يطعم فى جنتى بغير عمل ، كيف أجود برحمتى على من يحل بطاعتى . وفيه : إني أهم بمذاب عبادى ، فانظر إلى عمار المساجد وجلساء القرآن ، وولدان الإسلام ، فيسكن غضبى . وفيه : لو يعلم المديرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم لأقبلوا ، هذا بالمديرين عنى ، فكيف بالمقبلين علىّ وفيه : وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا آمنت يوم القيامة . آمنت بالمد جعلت له الأمان . رواه ابن حبان فى صحيحه . وفيه يا عبادى إني أوجدتكم من العدم بقدرتى ورزقتكم من الطيبات ، وأتممت عليكم نعمتى ، وأرسلت لكم الرسل الكرام لتعرفوا

أحكام شريعتي ، فلماذا تعرضون عني وأنا الغني الكريم ؟ فوعزتي وجلالي لئن
أطعتموني لنصرتكم على أعدائكم ، وإن سألتوني كنت قريباً منكم ومجيباً لدعائكم
ولكن عصيتموني فوقعتم في الذل والعذاب المهين ، ومن كلام ابن مسعود رضي الله
عنه : إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة ، وأعمال محفوظة ، والموت يأتي
بغتة ، فمن زرع خيراً يوشك أن يزرع رغبة ، ومن زرع شراً يوشك أن يحصد ندامة
ولكل زارع مثل ما زرع ما قل وكفى خير مما أكثر وألهي ، خير الغني غني النفس
وخير الزاد التقوى . والخمر جماع الإثم ، والنساء حبايل الشيطان . والشباب شعبة
من الجنون ، والنوح من عمل الجاهلية . إني لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس في شيء
من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة . من لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم
يزدد بها من الله إلا بعداً ، أطلب قلبك في ثلاث مواطن : عند سماع القرآن ، وفي
مجالس الذكر ، وفي أوقات الخلوة . فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن
عليك بقلب ، فإنه لا قلب لك ، قيل لبعض الحكماء : أي شيء أنفع للإنسان ؟
قال : عقل يولد به ، قيل فإن فاته ذلك ؟ قال كرم يستمره — قيل فإن فاته ذلك ؟
قال أدب يقوم به . قيل فإن فاته ذلك ؟ قال صمت يلزمه . قيل فإن فاته ذلك ؟
قال قبر يحويه . وقال بعض الحكماء : اعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمِلْ للآخرة
بقدر مقامك فيها ، واعمِلْ لله بقدر حاجتك إليه ، واعمِلْ للنار بقدر صبرك عليها .
ثلاثة يضيع المعروف عندهم : اللثيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والشرير فإنه يرى
الذي أسديت إليه مخافة شره ، والأحمق فإنه لا يدري مقدار ما صنعت إليه . ثلاثة
يستأنس بهم ، الصديق المصافي : والولد البار ، والزوجة الصالحة ، جليس الخير
غنيمة ، وجليس الشر شيطان ، جليس السوء كالقَيْنِ إن لم يحرق ثوبك دخنه ،
خير المال ما أخذ من الحلال وصرف في النوازل ، وشر المال ما أخذ من الحرام
وصرف في الآثام . وجه تشبيه الدنيا بالماء (١) أن الماء جار بالطبع ، يجري ولا يستقر
كذلك الدنيا لا تستقر (٢) قليل الماء يكفى وكثيره يهلك (٣) الماء إذا طال حبسه
تغير وفسد واستحال في حق متناوله سقماً ، كذلك الدنيا لمسكها أذى وبلاء .

من الحكم : إذا لم يكن من الموت بد ، فمن العجز أن تكون جباناً ،
وإذا كان بيتك من زجاج ، فلا ترم الناس بالحجارة . قيل للعباس بن مرداس
في الجاهلية : ألا تشرب الخمر ؟ . فقال : ما أنا بأخذ جهلى بيدي فأدخله جوفى ،
ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وأمسى سفيهم . وقال : ألا إن شارب الخمر
عدو عقله ، ومن عادى عقله فقد عادى نفسه ، ومن عادى نفسه فهو عدو الناس
أجمعين ، شبه الشيء منجذب إليه ، روى أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء ،
وكان بالمدينة أخرى فنزلت للسكية على المدنية ؛ فدخلت على عائشة رضى الله عنها
فأضحكتها فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبتهما ، فقالت : صدق الله ورسوله
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجنونة ، فما تعارفت منها
اختلف وما تناكر منها اختلف » . رواه الحسن بن سفيان في مسنده ، وهو عند
البخارى تعليق مختصر . ودخل عبد الله بن جعفر مكة ومعه أصحابه فلما أصبح قام في
أهل مكة خطيباً فقال : يا أهل مكة عرفناكم في ليلة واحدة . قالوا : وكيف ذلك ؟
قال : جئنا وفينا أختيارنا وأشرارنا فنزل أختيارنا على أختياركم وأشرارنا على أشراركم
فلذا عرفناكم في ليلة واحدة ، ولو أن مجلساً فيه تسعة وتسعون مؤمناً ومناق واحد
جلس المناق على مثله وبالعكس ، فشبه الشيء منجذب إليه : والطيور على أشكالها
تقع . كان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف
من الآخر يناسبه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الطباع
والأوصاف فلا بد أن يفترقا « راجع الإبداع الطبعة الرابعة صفحة ٤٣٣ » * وقال
بعض الحكماء يعدد مرافق الدنيا : تطلب الدنيا ثلاث : للغنى والعزة والراحة ،
فمن قنع استغنى ، ومن زهد فيها عز ، ومن قل سعيه استراح . وقال المأمون في
تقسيم الإخوان : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة
كالدواء يحتاج إليه أحياناً ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أداً . وقال الإمام على
رضى الله عنه : الناس ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل .
فأما الرجل فذو رأى والشورى ، وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور .
وأما الذى ليس برجل فالذى لا رأى له ولا يشاور .

الدين والمدنية الحاضرة

دل البحث على أن المدنية الحاضرة قامت على العلم والمال والنظام والقوة .
فما عظم سلطان أمة وسادت العالم لأنها تلبس زيا خاصاً ، أو لأن المرأة فيها
متهتكة ، أو لأن أبناءها تمردوا على دينهم ، وفسقوا عن أمر ربهم ، وخرجوا
على تعاليمهم ورفضوا العمل بوصاياهم . فبالعلم اكتشف النافع واختراع المفيد ،
والوقوف على أسرار الطبيعة ، واستخدامها في اقتصاديات المراء وفي شئون الحياة ،
ليتمكن من نشر نفوذه على الأمم ، ومد سلطانه على الشعوب . وليس يكون شيء
من ذلك بتهتك المرأة ولبس القبعة . ولولا المال ما انتصر في حروبه ، واستقام له
الأمر في داخلية ، وتم له تحقيق رغباته . ولو تجرد من النظام لما تهيأت له تلك
المشروعات والشركات والجمعيات والمجالس والحكومات ، وما إلى ذلك مما يضمن
السعادة والعظمة في شئونه الداخلية والخارجية . وبالقوة تنشر الدولة نفوذها وتخضع
الشعوب لأمرها ، ولو تجردت منها ولبس شخص منها ألف قبعة وقبعة لما تم له امتلاك
شعب أو إخضاع أمة أو مد سلطان أو نشر نفوذ . وإجمالاً إذا تجردت أمة من العلم
والمال والنظام والقوة ثم وجد فيها مائة ألف مليون من فاسدى الأخلاق والمتمردين
على الله تعالى ما تم لها سعادة ولا كان لها رقى تفاخر به — للأمم أن يقلد بعضها
بعضاً في وسائل القوة وأسباب النظام في المناهج الاقتصادية والوجوه الحيوية والأدبية .
لأن المعارف البشرية مشاعة بين الأمم ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها
الأمم الحاضرة بعضها بعضاً ، ولا عار في ذلك ، فتلك سنة الله في خلقه ؛ من سماحة
الدين أنه لو أتلف مسلم خمر الذمى أو خنزيره يضمنها بالقيمة . ويحكى أن نصرانياً مرَّ
بفرس له على عائير عمر رضى الله عنه فعشَّره . ثم مر به ثانياً فهمَّ أن يعشَّره فقال
النصرانى . كلما مررت بك عشَّرتنى إذا يذهب فرسى كله . فتركه عنده وذهب
إلى عمر رضى الله عنه . فلما دخل المدينة أتى المسجد فوضع يده على عتبة الباب فقال :
يا أمير المؤمنين أنا الشيخ النصرانى . فقال أمير المؤمنين : أنا الشيخ الحنفي ؛ فقص

النصراني القصة . فقال عمر رضى الله عنه : أتاك الغوث . فنكس رأسه ورجع إلى ما كان عليه . فظن النصراني أنه استخف بظلامته فرجع كالحائب . فلما انتهى إلى فرسه وجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبقه : إنك إن أخذت العشر مرة فلا تأخذ مرة أخرى . فقال النصراني : إن ديناً يكون العدل فيه بهذه الصفة لحقيق أن يكون حقاً فأسلم . وعشره بعشره بالضم أخذ منه العشر ، ومنه العاشر . وقفت أعرابية على جماعة فقالت لهم : ما الكرم يرحمكم الله ؟ قالوا : بذل المعروف والإيثار على النفس . قالت : هذا في الدنيا . فما هو في الدين ؟ قالوا : طاعة الله سبحانه وبذل الجهود في العبادة واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده . قالت : أفتريدون بذلك جزاء ؟ قالوا : نعم . قالت : ولم ؟ قالوا : لأن الله وعد بالحسنة عشر أمثالها . فقالت : سبحانه الله ! ! فإذا أعطيتم واحدة على أنكم تأخذون عشرأ ؛ فأين الكرم ؟ قالوا : فما هو يرحمك الله . قالت أن يُعبد الله حق عبادته لا يراد على ذلك جزاء يفعل بكم مولاكم ما شاء ، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم أنكم تريدون شيئاً بشيء .

إذا اشتد الكرب هان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله ؛ فقال : أستم تذهبون فراغاً وترجعون مشاغيل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة . فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجمين ، فشكوا ذلك إلى إبليس . فقال : أستم تستريحون بالليل ؟ قالوا : بلى . قال : ففي هذا راحة لكم نصف دهركم . فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار ، فشكوا ذلك إلى اللعين فقال : الآن جاءكم الفرج . فما لبثوا أن أصيب سليمان ميتاً على عصاه فإذا كان هذا في نبي من الأنبياء لا يعمل إلا بأمر الله تعالى ويقف عند حده فكيف بما جرت به الأقدار من يد عادية هل تكون مع التناهي إلا متقرضة وعند بلوغ الغاية إلا منحسرة ؟

السن بالسن

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن عمته أم الربيع اطمت جارية فكسرت
ثنيتهما . فطلبوا إليهم العفو فأبوا ، والأرش فأبوا إلا القصاص ، فاختصموا إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص . فقال أنس بن النضر : أنكسر ثنية أم الربيع
قال : والذي بعثك بالحق نبياً لا تكسر ثنيتهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« يا أنس كتاب الله القصاص » . فرضى القوم فعمفوا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . متفق عليه . روى أن رجلاً
سراً بأبى الدرداء وهو يغرس شجر الجوز ، فقال : أغرس هذا وأنت شيخ كبير وهو
لا يطعم إلا في كذا وكذا عاماً ؟ فقال : ما على أن يكون لى أجره ويأكل منه
غيرى . ومرة أنوشروان على رجل يغرس شجر الزيتون فقال : ليس هذا أو أن غرسك
الزيتون ، وهو شجر بطيء الإثمار . فأجابه : غرس من قبلنا فأكلنا ونغرس لئلا كل
من بعدنا . فقال أنوشروان : زه : أى أحسنت . وكان إذا قال زه يعطى من فيلت
له أربعة آلاف درهم . فقال : أيها الملك كيف تعجب من شجرى وإبطاء ثمره
فما أسرع ما أثمر . فقال : زه ؛ فزيد أربعة آلاف أخرى . فقال الرجل . كل شجر
يشمر فى العام مرة وقد أثمر شجرى فى ساعة مرتين . فقال : زه ؛ فزيد مثلاً . فمضى
أنوشروان فقال : إن وقفنا عليه لم يكفه ما فى خزانتنا . روى أن عيسى عليه السلام
كان مع صاحب له بسميحان فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية ، فقال لصاحبه :
انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية . وقام عيسى يصلى ، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة .
فأبطأ عليه انصراف عيسى ؛ فأكل رغيفاً ، فانصرف عيسى فقال : أين الرغيف
الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا رغيفين ، فمرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى . فدعا
عيسى عليه السلام ظبياً منها فذكاه فأكل منه ، ثم قال عيسى للظبي : قم بإذن الله
فإذا هو يشتد ، فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية من
صاحب الرغيف ؟ قال : ما كانا إلا اثنين . فضميا فمرا بنهر عظيم فأخذ عيسى بيده
فمضى به على الماء حتى جاوزا الماء . فقال الرجل : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى

أراك هذه الآية من صاحب الرغيف ؟ قال ما كانا إلا اثنين ، فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ابنٌ ثلاث من ذهب ، فقال عليه السلام : واحدة لى وواحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال : أنا صاحب الرغيف ، فقال عليه السلام : هى لك كلها . وفارقه ، فأقام عليها ليس معه ما يحملها عليه ، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللب . فقال اثنان منهم لواحد : انطلق إلى القرية فأتنا بطعام ، فذهب فقال أحد الباقيين : نقتل هذا إذا جاء ونقسم هذا بيننا . قال الآخر : نعم . وقال الذى ذهب يشتري الطعام أجعلُ فى الطعام سما فأقتلها وأخذ اللب ، ففعل . فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذى جاء به فماتا . فمر بهم عيسى وهم حولها صرعى ، فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها * وقال أزدشير لابنه : يا بنى إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس والملك حارس . وما لم يكن له حارس فضائع . يا بنى اجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد وبشرك لأهل الدين . وسرك لمن عناء ما عناك ، ولتكن من أهل العقل ، وكان يقال الدين والسلطان توأمان . وقال بُزْرجَمَهْر : سُوَسُوا أحرار الناس بمحض المودة . والعامة بالرغبة والرغبة والسفلة بالتهديد والخافة * وقال معاوية رضى الله عنه : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني لساني ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها . ونحوه قول الشعبي : كان معاوية كالجل الطب . — وهو الخاذق بالشئ — لا يضع يده إلا حيث تبصر عينه * قال ابن المقفع * إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدب أو علم أو دين * من حسن السياسة : أمر عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعري أن يعزل زياداً عن ولايته ، فقال زياد : أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك * وقال لقمان لابنه : يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة . لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه * من دعاء عيسى عليه السلام : اللهم لا تُشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى

صديقي ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى . ومن دعاء عائشة رضى الله عنها : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تجعل عاقبة أمرى رشداً رحمتك يا أرحم الراحمين * كان خالد بن الوليد رضى الله عنه مثلاً أعلى فى شجاعته وطاعته وإخلاصه : روى أنه قال عند موته : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء * قال حكيم : موت الجبان فى حياته وحياة الشجاع فى موته فموتوا لتعيشوا فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

البغى ونقص العهد : فى الحديث « أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لذلك الباغى . وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والمكر والنكث قال الله تعالى : « إنما بغىكم على أنفسكم » ، « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » ، « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » * حكى أن سائلاً قال لبعض العلماء : أين تجد فى كتاب الله معنى قولهم : الجار قبل الدار ؟ قال فى قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنى لى عندك بيتاً فى الجنة » فطلبت الجار قبل الدار . وروى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتى على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك . فقرأ عليه « ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى » فعمسى ابن بنته . فسكت * عن محمد بن كعب القرظى قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى مرضه الذى مات فيه فجعلت أحدى النظر إليه ، فقال لى : يا ابن كعب مالك تُحدِّد النظر إلى ؟ قلت : لما نخل من جسمك وتغير من لونك . قال فكيف لو رأيتنى بعد ثلاثة فى قبرى وقد سالت حذقتاى على وجنتى ، وابتدر فى وأنفى صديداً ودوداً ، كنت لى أشد نكرة . أعد

على حديثاً كنتَ حدثتنيهِ عن ابن عباس . قلتُ سمعت ابن عباس يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لكل شيء شرفاً وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، ومن أحب أن يكون أعز الناس فليتنق الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، ثم قال ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من نزل وحده ومنع رِفده ، وجلد عبده ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من يُبغض الناس ويُبغضونه * إن عيسى بن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، ولا تكافئوا ظالماً فيبطل فضلكم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر مختلف فيه فإلى الله ردوه * إبراهيم عليه السلام — يدعى أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده ، وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأولى إسحاق ومنه جميع أنبياء بني إسرائيل ، وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى عليهما السلام ودين موسى يسمى باليهودية : نسبة إلى يهود أحد أسباط إسرائيل ، أو هو السبط الأكبر الذي كان منه جلة ملوك بني إسرائيل ، ودين المسيح يسمى النصرانية نسبة إلى الناصرة ، وهي أول قرية علم بها المسيح ، فقال العرب : ناصري وناصري . وكان هو يدعى الناصري . والفرع الثاني كان منه إسماعيل وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم ، ثم كان منه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة إبراهيم . مر إبراهيم بن آدم بسوق البصرة فاجتمع الناس عليه وقالوا : يا أبا اسحاق مالنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء (١) عرفتم الله فلم تؤدوا حقوقه (٢) زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته (٣) قرأتم القرآن فلم تعملوا به (٤) أكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها (٥) قلمتم

إن الشيطان عدوك ولم تخالفوه (٦) قلم إن الجنة حق ولم تعملوا لها (٧) قلم إن النار حق ولم تهربوا منها (٨) قلم إن الموت حق ولم تستعدوا له (٩) انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم غيوبكم (١٠) دفنتم موتاكم ولم تعقبوا بهم .

حكى عن بعض الصوفية أنه قال لتلميذه : مات صنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فان عاد ؟ قال أجاهده . قال هذا يطول ، ولكن أرأيت لو صررت بغم فنبحك كلها ومنعك من العبور مات صنع ؟ قال : أكابده وأرد عليه جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغم يكفه عنك .

والمستعاذ منه الشيطان وأعداؤه والنفس والهوى والدنيا . كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول هذه الآية « واتقوا النار التي أعدت للكافرين » أخوف آية في القرآن حيث أوعده الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه . من حفظ الله لرسوله ماروى الكلبي عن أبي صالح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محارباً وبنى أمار فزلوا ولا يرون من العدو واحداً ، فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له ، وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش ، فحال الوادي بينه وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث بن الحارث المحاربي فقال : قتلتني الله إن لم أقتلك . ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده ، فقال يا محمد من بعصمك مني الآن ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله عز وجل . ثم قال : اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت ثم هوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب على وجهه من زلخة زلخها بين كتفيه ، فبدر سيفه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال : يا غورث من يمنعك مني الآن ؟ قال : لا أحد . قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيت سيفك ؟ قال لا ، ولكني أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا أعين عليك أحدا . فاعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث . والله لأنت خير مني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا

أحق بذلك منك . فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فأمن بعضهم . قال : وسكن الوادي فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر « متفق عليه زأخه بالرمح يزأخه زجه وطعنه . بنى عامل للرشيد قصرأ حذاء قصره فبنى به ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته ، فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك على فأعجبه كلامه . في التحذير من الدين : عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتى بجنازة فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ . قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنائير فصلى عليه » . لعله صلوات الله وسلامه عليه علم أنها تفي بدينه . « ثم أتى بالثالثة فقالوا صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنائير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلى دينه . فصلى عليه « متفق عليه ، من آداب الإسلام عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا : مالنا بد منها إنما هي مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر » رواه البخارى .

الإسلام دين المساواة

في صحيح البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمتهم المرأة الخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اتشفع في حد من حدود الله ثم قام فخطب قال أيها الناس : إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت

محمد سرقت لقطع محمد يدها . وقال أهل التحقيق طيب العيش يكون بأمر أربعة :
 (١) عبادة المنعم سبحانه مع أكل الحلال (٢) الرزق الحلال الطيب (٣) القناعة في
 الدنيا والرضا منها باليسير كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : في دعائه اللهم قنني
 بما رزقتني (٤) رزق يوم بيوم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم
 كان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً : والقناعة وحدها تكفي لهذا ، لأنه
 ألا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحريص فإنه أبداً في كد
 وعناء ، وعيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه . (١) لعله أنه تعالى
 مدبر حكيم فكان راضياً بكل ما قدره وقضاه ، أما الجاهل فلا ، فكان أبداً في
 عناء وشقاء (٢) إن البلى هينة عليه لكونها فعل الإله ، فأما الجاهل فهي شديدة
 عليه عظيمة التأثير في نفسه (٣) المؤمن يعلم خمسة لذائد الدنيا وسرعة زوالها فلا يغم
 لقواتها بخلاف الجاهل فلا يعرف سعادة تغايرها فلا جرم يعظم حرصه بوجدانها ،
 ونغمه بفقدانها . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ،
 ولا الفاحش ولا البذيء » . رواه الترمذي بإسناد صحيح . والطعان هو الوقاع في
 أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة ، واللعان الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة
 الله تعالى والفاحش ذو الفحش في كلامه وأفعاله والبذيء الفاحش في منطقته وإن
 كان الكلام صدقاً . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم
 حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب
 السماء ويقول الرب وعزتي وجلالي لا نصرنك ولو بعد حين » رواه الترمذي بإسناد
 حسن من حديث أبي هريرة . وقال صلوات الله وسلامه عليه : « يوشك أن تداعى
 عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ قال :
 بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم
 المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب
 الدنيا وكرهية الموت^(١) تداعي يدعو بعضها بعضاً للاجتماع على اذلالكم وسلب مافي

(١) رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة مرفوعاً .

أيديكم — والأكلة جمع آكل ككاتب وكتبة — وغناء السيل هو ما يحمله من الزبد والأشياء الطافية على وجه الماء مما لا قيمة له ولا نفع فيه . ضربه مثلاً للمسلمين إذ أذهبت ريمحتهم وتفرقت كلمتهم — والحديث من أعلام النبوة ، وقد تحقق في هذه الأيام فلقد صار المسلمون اليوم لشدة تنازع الدول القوية عليهم بمثابة القصاع اجتمع عليهم الأكلة الجياع .

فضيلة الإحسان

حكى أن امرأة جاءت إلى حسان بن سنان فسألته شيئاً ، فجعل ينظر إليها فإذا هي امرأة جميلة ، فقال : يا غلام ، أعطها أربعمائة درهم ، فقيل له : إنها تسألك درهما . فقال : لما نظرت إلى جمالها خشيت أن تقع في معصية ، فأحببت أن أغنيها عسى أن يرغب فيها أحد فيتزوجها . وقال الإمام الثوري : الإحسان أن تحسن إلى المسيء ، فإن الإحسان إلى الحسن متاجرة .

في الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . ويروى أن رجلاً سب الأحنف بن قيس وهو يمشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال : يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله بهنا ، فإني أخاف إن سمعتك فتيان الحى أن يؤذوك . وقال رجل لأبي ذر رضى الله عنه : أنت الذى نفاك معاوية من الشام ؟ لو كان فيك خير ما نفاك ، فقال : يا ابن أخى إن ورأى عقبة كؤوداً ، إن نجوت منها لم يضرني ما قلت ، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت . وقال رجل لأبي بكر رضى الله عنه : والله لأسببنك سباً يدخل القبر معك ، قال : معك يدخل لا معي . وقال رجل لعمر بن العاص : والله لأتفرغن لك ، قال : هناك وقعت في الشغل ، قال : كأنك تهددنى ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرأ ، قال : وأنت والله لئن قلت لى

عشرًا لم أقل لك واحدة . وشم رجل الشعبي فقال له : إن كنت صادقًا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك . وشم رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فقال : يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا ، فإننا لا نكافي من عصي الله فيما بدأ أكثر من أن نطيع الله فيه . وصر المسيح عليه السلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شرًا فقال خيرًا ، فقيل له : إنهم يقولون شرًا وتقول لهم خيرًا ، فقال : كل واحد ينفق مما عنده . قيل للأحنف بن قيس : من أحلم ؟ أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهل منكم ؛ إن معاوية يقدر فيحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس به أو أدانيه . وقيل لقيس ابن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وقالوا : ما قرين شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة . وقال الحسن : المؤمن حلیم لا يجهل وإن جهل عليه ، وتلا قوله تعالى : وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا . وقال يزيد بن أبي حبيب : إنما كان غضبي في نعلي ، فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت . وقال الإمام علي رضي الله عنه : من لانت كلمته وجبت محبته ، وحلمك على السفية يكثر أنصارك عليه . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فقال : لا عليك ، إنما أردت أن يستغفرني الشيطان بعزة السلطان ، فأنا لمنك اليوم ما تناله مني غدًا ، انصرف إذا شئت . وقال الأحنف بن قيس : آفة الحلم الذل ، ولا حلم لمن لا سفية له ، وما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولما أنشد هذا البيت للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يفضض الله فاك » .
فعاش مائة وثلاثين لم تنفض له ثديّة .

في الغيرة على الوطن

خرج أحد الملوك ذات يوم يتفقد جيشه ، وبينما هو بجوس خلال صفوفهم رأى جنديًا تتألق على صدره سلسلة ذهبية ، وقد ربط في نهايتها رصاصة بدل

الساعة ، فأراد الملك أن يعرف السبب ، فسأله باسمًا : كم ساعتك ؟ فأجابه الجندي :
إن ساعتى يا مولاي لا تعين الزمن ، ولكنها تذكرنى دائماً بواجب الذود
عن الوطن ، فسر الملك من إجابته ، ووهب له ساعته الخاصة مكافأة له .

فى ثبات الفقير وغرور الغنى

فى صحيح البخارى عن خبّاب رضى الله عنه قال : كنت قيناً فى الجاهلية ،
وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أنقاضه فقال : لا أعطيك حتى تكفر
بمحمد ، فقلت : لا أ كفر حتى يميّتك الله ثم يبعثك ، قال : دعنى حتى أموت وأبعث ،
فستونى مالاً وولداً ، فأقضيتك ، فنزلت : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين
مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ، كلا سنكتب ما يقول ،
ونمد له من العذاب مداً ، ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » . القين : الحداد .
فى صحيح البخارى من حديث جابر بن عبد الله يقول : « جاءت ملائكة إلى النبى
صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين
نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن اصحابكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً ، فقال بعضهم :
إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى
داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المائدة ،
ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة ، فقالوا : أوّلوها له يفقهها .
فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ،
والداعى محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله ،
ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس » .
* روى الإمام المقدسى عن أبى ذر الغفارى قال : أوصانى خليلى بأربع كلمات هن
إلى أحب من الدنيا وما فيها ، قال لى : « يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق ،
واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثوود ، واخلص العمل
فإن الناقد بصير » . * وروى أن سفانة بنت حاتم الطائى فى غزوة الطائف حين

وقعت في الأسر قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد اغتنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة » ترجو بذلك أن يمن عليها بإطلاق سراحها . فقال : « يا على جهزها على جملين وردها إلى أهلها مكرمة » ففعل ذلك على رضى الله عنه وكرم الله وجهه *
 قيل للحكيم : ما السرور ؟ فقال : عقل يقيمك ، وعلم يزينك ، وولد يسرك ، ومال يسعك ، وأمن يريحك ، وعافية تجمع لك المسرات * وقالت عائشة رضى الله عنها : من شقوتنا أن الله تعالى قدمنا حين ذكرت الشهوات : إشارة إلى قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » هذه الستة أنواع هي المشتبهات التي يحبها الناس وحبها مزين لهم ، وله مكانة من نفوسهم (أولها) النساء وحبهن لا يعلوه حب لشيء آخر من متاع الحياة ، فهن مطمح النظر وموضع الرغبة ، وسكن النفس ومنتهى الأناس ، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال في كدهم وكدحهم ، فكلم افتقر في حبهن غنى ، وكلم ذل بعشقهن عزيز . (الثانى) حب البنين فاكتمى بذكر ما كان حبه أقوى والفتنة به أعظم . (الثالث) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، أى كثرة المال وهو مما أودع في الفرائز — ولفظ القنطار معناه العقدة المحكمة من المال وهو ما يعبر عنه التجار الآن بالصر أو الصرة — وقنطار مقنطر مكمّل على المبالغة . (الرابع) الخيل المسومة وهى الراعية ، وقيل المطهمة الحسان ، وقيل المعلقة — وكل من الراعية التي تقتنى للتجارة ، والمطهمة التي يقتنيها الأغنياء للمفاخرة من متاع الدنيا الذى يتنافس فيها . (الخامس) الأنعام وهى الأبل والبقر والغنم . (السادس) الحرث : الزرع والنبات وهو قوام حياة الإنسان والحيوان (ذلك) ما يستمتع به الناس في حياتهم الأولى ، والله تعالى عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة ، فلا ينبغي أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد للعظيم الباقي . من كلام عيسى عليه السلام : الدنيا مزرعة إبليس وأهلها حرثون له فيها .

ذكاء صبي وشجاعته

مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً بصبيبة ياعبون بينهم عبد الله بن الزبير ، فلما رأوه فروا إلا عبد الله ، فقال له عمر : لم لم تفر مع أصحابك ؟ فقال : لم أكن مذنباً فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقه فأوسع لك * قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة ، وقالوا : لا نطوف فى ثياب أصبنا فيها الذنوب ، ومنهم من يقول : نفعل ذلك تفاؤلاً حتى نتعزى من الذنوب كما تعزينا من الثياب ، وكانت المرأة منهم تتخذ ستراً تعلقه على حقوبها لتستر به عن المجلس وهم قريش ، فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك ، وكانوا يصلون فى ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً . فقال المسلمون : يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك . فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أى البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا — وهذا من بدع الجاهلية : التى هدمها الإسلام * قدر الإمام على رضى الله عنه الدنيا بثلاثة أيام يوم مضى قد عرفت ما فيه : ويوم أنت فيه فأنت فيه إن كنت من أهله ، ويوم يأتيك فلا تدري أنت من أهله أو أنت من الراحلين * من الحكم الماثورة : إطاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال على رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين : اتباع الهوى وطول الأمل ، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبي : إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه — أى فى الدنيا إلى كل داهية وفى الآخرة إلى الهاوية . وقال بعض الحكماء : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال غيره : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع والصاحب رفعة فى الثوب فلينظر أحدكم بم يرفع ثوبه . وقال : إذا حاجبت فلا تغضب فإن الغضب يقطع عنك الحجة ويظهر خصمك عليك . فى حسن الاستشفاع : قال ابن

المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل فقلت : يا أمير المؤمنين إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله تعالى : من كانت له عند الله يد فليتقدم فلا يتقدم إليه إلا من عفا عن مذهب . فأمر بإطلاقه . وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين إن الله قد فعل ما تحب من الظفر فافعل ما يحبه من العفو ، وأمر المهدي بضرب عنق رجل فقام إليه الناسك العظيم والواعظ الحكيم ابن السماك فقال له : إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق قال أمير المؤمنين : فما يجب عليه ؟ قال ابن السماك أن تعفو عنه ، فإن كان من أجر كان لك دوى ، وإن كان من وزر كان علىّ دونك . فحلى سبيله — وروى الأصمعي قال : عزم عبد الله بن علي على قتل بنى أمية بالحجاز فقال له عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب : إذا شرعت بالقتل في أكفائك فمَنْ تباهى بساطنك فاعف الله عنك . من الأمثال السائرة « إنما أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض » وأصله أن ثلاثة ثيران أحدها أبيض والثاني أحمر والثالث أسود تمردت على صاحبها وفرت إلى البادية فالتقت ببعض الوحوش فطعم فيها ، ورأى أن لا قبل له بها وجهها لوجه ، فعمد إلى الحيلة ، فعمد معها صداقة بحجة أنها تأكل العُشب وهو يأكل اللحم فلا زحام بينه وبينها ، فليكن الجميع على تعاون : هو يرشدها إلى العُشب وهي ترشده إلى اللحم « صغار الصيد » فلما قدم جاء إلى الثورين : الأسود والأحمر ، وقال : إن لوني ولونكما متقارب وغير ظاهر ، ولكن الثور الأبيض مكشوف اللون يرشد الناس إلى اقتناصنا فهلا أعنتاني عليه ليخلص لكما العُشب ونأمن كشف الناس لنا بسببه ؟ فأجاباه فافترسه . ثم بعد حين جاء إلى الأسود بمثل ذلك فأحسن الضعف فأجاباه فافترس الأحمر . فلما انفرد بالأسود جاء ليفترسه فغيبين له خطأ ما ارتكب أولا وثانيا وقال هذا المثل : وصار مثالا لمن يتخاذل عن نصرة إخوانه طمعاً في النجاة من مثل مصيرهم فيعجل لنفسه في اللحاق بهم .

في حسن الجوار

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه . أى من علامة كمال الإيمان أن يحسن المسلم جوار أخيه

بالبشر وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وتحمل الجفا وما إلى ذلك من حسن المعاشرة . وكان من دعاء داود عليه السلام : اللهم إني أسألك أربعة وأعوذ بك من أربعة . أسألك لساناً ذا كراً ، وقلباً خاشعاً ، وبدناً صابراً ، وزوجة تعينني في دنياي وآخرتي . وأعوذ بك من ولد يكون عليّ سيّداً ، ومن امرأة تُشيبني قبل وقت المشيب ، ومن مال يكون نعيماً لغيري ووبالاً عليّ ، ومن جار سوء إن رأى مني حسنة كتمها ، وإن رأى مني سيئة أفشاها . وكان لأبي حنيفة رحمه الله جار إسكافي بالكوفة يعمل نهاره كله ، فإذا جن الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك وخمر فيطبخ اللحم ويشوي السمك ويأكل ويشرب ، فإذا دب فيه السكر أنشد

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم لا يزال يهذى ويردد البيت ويصيح إلى أن يغلبه السكر وينام . وكان الإمام أبو حنيفة يقوم الليل كله في عبادة ربه ، ويسمع صياح الرجل وإنشاده . ففقد صوته في بعض الليالي فسأل عنه فقيل أخذه العسس « رجال الشرطة » منذ ثلاثة أيام وهو محبوس في سجن الأمير . فصرخ الإمام الفجر وركب بغلته وسار إلى أن استأذن على الأمير فقال : ائذنوا له وأقبلوا به راكباً حتى يطاء بساطي هذا بحافر بغلته . فلما دخل أجلسه الأمير مكانه وقال : ما حاجة الإمام؟ فقال له : لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر باطلاقه . فقال : نعم وكل من أخذه من تلك الليلة إلى يومنا هذا إكراماً لجار الإمام . ثم أمر بتخليته وتحليلتهم أجمعين . فركب الإمام وتبعه جاره الاسكافي ، فلما وصل إلى داره قال له الإمام : أترانا قد أضعناك؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت ، جازاك الله خيراً عن حسن الجوار ورعايته ، والله على ألا أشرب بعدها خمراً . فتأب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه * ومن وزع عمر بن عبدالعزيز ما حدث ابن السماك قال : كان عمر بن العزيز يقسم تفاحاً بين المسلمين فجاء ابن له فأخذ تفاحة من ذلك التفاح ، فوثب إليه وفك يده وأخذ تلك التفاحة وطرحها في التفاح ، فذهب إلى أمه مستعبراً (باكياً) فقالت له : مالك أي بني ؟ فأخبرها ، فأرسلت بدرهمين فاشتريت له تفاحاً وأطعمته ورفعت منه لعمر ، فلما فرغ مما بين يديه دخل إليها فأخرجت له طبقاً من التفاح . فقال : من أين هذا ؟ فأخبرته

فقال رحمك الله والله إن كنت لأشتهيه . وأتى بماء قد سخن في فخم الأمانة فكرهه ولم يتوضأ منه . وقال يوماً أسخنوا لي ماء أغتسل به للجمعة ، فقيل له : يا أمير المؤمنين والله ما عندنا عود حطب نوقده به ، فذهبوا بالقمم إلى مطبخ المسلمين ثم جاؤا بالقمم فقالوا : هذا القمم يا أمير المؤمنين وهو يفور ، فقال : ألم تخبروني أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ، قالوا : نعم . قال : ادعوا لي صاحب المطبخ ، فلما جاءه قال له : قيل لك هذا قمم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً وإن هو إلا جمر لو تركته نلحمه حتى يصير رماداً ، قال : بكم أخذت الحطب ؟ قال : بكذا ، قال أدوا إليه ثمنه * في تربية الأولاد : روى أن عتبة بن أبي سفيان أوصى مؤدب ولده فقال : ليكن أول إصلاحك بنى إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسن عندهم ما فعلت ، والقبیح ما تركت . وعلمهم كتاب الله ، ولا تعلمهم فيتركوا ، ولا تدعهم فيهجروا ، وروهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة الفهم ، وهددم بي ، وأدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء . وامنعهم من محادثة النساء ، واشغلهم بسير الحكماء ، واستزدني بأدبهم أزدك . ولا تتكلن على عذر مني فقد انكلت على كفاية منك * أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إذا كنت وحدك فاحفظ قلبك ، وإذا كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، وإذا كنت على الطعام فاحفظ بطنك . فهذه توريثك السلامة والصحة * بالتمسك بالدين انتصروا على أعدائهم * قدمت الروم على هرقل منهزمة وهو بانطاكية فدعا رجالاً من عظمائهم فقال : ويحكم أخبروني ماهؤلاء الذين تقانلونهم ، أليسوا بشرا مثلكم ؟ — يعني العرب — قالوا بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : ويلكم فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقال شيخ منهم : أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون . قال : إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا صدقوا ، ونحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فبالكم كما تصفون ، وهم كما تزعمون ؟ قال الشيخ : ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له من أين هو ؟ قال : لأن القوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدا ، ويتناصفون بينهم . ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ، وتركب الحرام ، ونفرض العهد ، ونغضب ونظلم ، ونأمر بما يسخط الله ، وننهي عما يرضى الله ، ونفسد في الأرض . قال : صدقتني ، والله لأخرجن من هذه القرية ، فإلى في صحبتكم خير وأنتم هكذا * في بر الوالدين . جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن لي أما بلغ بها من الكبر أنها لا تقضى حاجتها (البول والغائط) إلا وظهرى لها مطية ، فهل قضيتها ؟ أى حقها ، قال ، لا ، لأنها كانت تفعل معك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تفعل معها ذلك وأنت تتمنى موتها . أى فرق بين من يصنع الجليل عن رضا وإخلاص ، ومن يصنعه على خلاف هذا * ظاهرة كريمة . روى أنه حصلت مجاعة في زمن أبي بكر وكان عثمان رضي الله عنه كثير المال ، وقد جاءه ألف راحلة من الشام تحمل قمحا وأرضا وزيتا وزيتا . فجاءه تجار المدينة وسأموه في شرائه ، فقال : كم تربحونني ؟ فقالوا : الدرهم بدرهمين . فقال : قد أعطيت زيادة ؟ قالوا : بخمسة . قال : زادوني فقال التجار : ليس في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليه أحد في المساومة . قال : إن الله قد أعطاني بكل درهم عشرة دراهم ، فهل عندكم زيادة ؟ قالوا لا . قال فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . وتصدق بالأحمال جميعها إيماننا واحتسابا لوجه الله . فما بقي من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه وأهله . هكذا أدبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأداب الإسلام السمح ، وعودهم على أخلاقه الكريمة (٢) ومن محبتهم للرسول : أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد أنحب أن محمدا الآن عندنا مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك ! فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأنى جالس في أهلي . فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب

أصحاب محمد محمد . وكذلك قال خبيب بن عدى صاحبه وأنشد :

وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت عيناى فى غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
إقامة العدل ورد المظالم . قال ابن حميد : إني لواقف على رأس المأمون يوما
وقد جلس للمظالم فكان آخر من تقدم إليه (وقد هم بالقيام) امرأة عليها هيئة السفر
وعليها ثياب رثة ، فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فنظر
المأمون إلى يحيى بن أكرم فقال لها يحيى وعليك السلام ورحمة الله يا أمة الله تكلمى
فى حاجتك فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدا عليها فلم يترك لها سبدا
وابترأ منى ضياعى بعد منعتها ظلما وفرق منى الأهل والولد
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد عنى وأفرح منى القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرف وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والجلس السبت إن يقض الجلوس لنا نُنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت
السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال وعليك السلام ورحمة الله . أين الخصم ؟
فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومات إلى العباس ابنه . فقال
يا أحمد بن خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصومة ، فجعل كلامها يعلو كلام
العباس ، فقال لها أحمد بن خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك
تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد فإن الحق
أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وعاقب العباس بظلمه لها وأمر
بالكتابة لها إلى العامل ببلدها أن يؤجر لها ضيعتها ويحسن معاوتها وأمر لها
بنفقة . وعن الربيع أنه قال : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أربط جأشا من رجل

رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني بإحضاره فأحضرتة ودخلت به إليه فقال له المنصور : قد رفع إلينا خبرُ الدائع التي عنك لبني أمية فأخرج لنا منها . فقال : يا أمير المؤمنين أوارث أنتَ ابني أمية ؟ . قال لا . قال : فوصي أنتَ ابني أمية ؟ قال لا . قال فما سؤالك عن ما في يدي من ذلك ؟ قال : فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين في حقهم ، فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم . فقال : يا أمير المؤمنين نحتاج في ذلك إلى إقامة البينة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين ، فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فأطرق المنصور رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : صدق الرجل ياربيع ، ما وجب عليه عندنا شيء ، ثم بش في وجهه ثم قال : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! حاجتي أن تُنفذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم إشخاصي لديك ، وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين . قال : ما هي ؟ قال : أن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك ، فوالله ما لبني أمية عندي ، ولا في يدي وديعة ، ولكنني لما مثلت بين يديك ، وسألتني رأيت ما قلته أقرب إلى الخلاص والنجاة . فقال : ياربيع اجمع بينه وبين من سعى به إلينا ، فجمعت بينهما فقال : يا أمير المؤمنين هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق ، فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره وكذب عليه خوفاً من الوقوع في يده ، فقال المنصور للرجل : نسألك أن تصفح عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه ، وأبرأته من المال ، وأعطيته ثلاثة آلاف أخرى ، فقال المنصور : ما على ما فعلت من مزيد في الكرم * السعادة في ترك الكذب والتزام الصدق * ورد أن أعرابياً أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : إني أريد أن أتبعك غير أنى علمتُ أنك تنهى عن الزنا والسرقة وشرب الخمر ، ولا طاقة لي بترك جميعها ، فإن قنيت منى بواحدة منها اتبعتك ، فعاهده صلى الله عليه وسلم على ترك الكذب ، فصار

كلما هم بزنا أو سرقة أو شرب الخمر : قال : كيف أصنع إن سألتني النبي صلى الله عليه وسلم فإن صدقته حدثني وإن كذبتني فقد عاهدته على ترك الكذب ، فكان ذلك سبباً لترك الفواحش كلها ، وتاب وحسنت توبته ، فقال لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسن ما داويتني فجزاك الله ما جزى نبياً عن أمته - أو كما ورد ، وقال بعض الصوفية لأحد المريدين : إذا حدثتك نفسك بمعصية الله فاعصه حيث لا يراك ، أو كل رزق غيره أو اخرج من داره ، ولا ريب أن أى واحد من هذه الثلاثة محال لذاته .

شهادات الأجانب للإسلام

لسنا نريد من ذكر شهادات الأجانب لذلك الدين القويم إقامة البراهين على أنه الدين الحق دين الرقي والمدنية فذلك واضح لا يحتاج إلى دليل . وقد برهن على نفسه بنفسه . وإنما نريد بهذا أن نذكر للناس أن عقلاء الأمم الأجنبية الذين نظروا إليه بالعيون الصحيحة ، والعقول السليمة المطلقة من قيود الهوى والتعصب الممقوت علموا أن القرآن الحكيم هو منبع الرقي والسعادة وأن الإسلام أساس المدنية والحضارة في كل مكان وزمان . ولو استقصينا كل شهاداتهم لطال بنا الكلام لا سيما أن فريقاً عظيماً منهم تصدى للدفاع عن دين الإسلام وألقوا في ذلك المؤلفات القيمة الناطقة بالحق . وقد انتشرت في بلاد الشرق والغرب ، فلذلك نكتفي ببعض شهادات أشهر علماءهم وفلاسفتهم قال : « دوديانوس الوزير الفرنسي » : جاء الإسلام مخالفاً لكثير من الأديان التي ضاعت حقيقتها ولكنه جاء منزهاً عما لا يقبل من الخرافات والأباطيل .

ومن عجيب أمره والدليل على صدقه أنه كرم المسيح وعظمه وإن خالف المسيحيين في تقرير أن المسيح بشر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله . والإسلام مكمل للإنسانية لا غموض فيه ، وهو يقرر الوحدةانية . فلم من التناقض والمعارضة العقائدية .

الإسلام أمر بالمساواة والاشتغال بالعمل ، وتنزه الإسلام عن الرهبانية . أما تأخر أهله فنشأ من أنهم انحرفوا عن أصوله وتوجهوا لغير مرامه . وقال الفيلسوف (كارلايل) الإنجليزى فى كتابه « الأبطال وديانة الأبطال » أى دليل تريد على صحة قول من يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبنى لك بيتاً كبيراً يسع الملايين ، من المتانة بحيث يبقى مئات السنين ، كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من أن يأتى للناس بدين يهديهم به ويدفعهم فى طريق الحياة الفاضلة ، وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثنى عشر قرناً ، ألا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف يمر من يد ويدين ثم يَضْبَطُ ويعرف أنه زائف ، فلا يرفع به أحد رأساً ، ولكن الإسلام هدى العقول كل هذه الأجيال وأهله أشد اعتداداً وتمسكاً به من أية أمة بدينها فى الأرض . وقال جوستاف لبون فى كتابه « حضارة العرب » : إن التعاليم الأخلاقية التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة . فقد حض على الصدق والإحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا إلى الاستمسك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهود ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ورعى الأرامل والقيام على اليتامى ، ووصى فى عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة تلك هى الآداب السامية التى دعا إليها القرآن وهى أسمى بكثير من آداب الإنجيل . وإنها لشهادة رجل عرف الحق من طريق النظر الصحيح فأثبت عليه مروءته أن يكتمه . وقال الفيلسوف الانجليزى « برناردشو » لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس . لا مشاحة فى أن العالم يعلق قيمة كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً ؛ وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم . وقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب القديم ، ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصماً

للمسيح . ولقد درستُه باعتباره رجلاً مدهشاً فرأيتُه بعيداً عن خاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية . وإني لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال كارلايل وجوت وجيبون القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن في موقف أوروبا من الإسلام ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السبيل كثيراً ، فبدأت تعشق عقيدة محمد . وفي القرن التالي ربما ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فنعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشكلاتها فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي . وفي الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد حتى ليكن أن يقال : إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ . ومما يلفت نظر الباحث في حديث هذا الفيلسوف المنصف قوله : إن أوروبا ربما اعترفت بالعقيدة الإسلامية طلباً لحل مشكلاتها . وقوله قبل ذلك : إنه لو تولى رجل على مثل صفات محمد صل الله عليه وسلم دكتاتورية العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إليه السلام والسعادة الذين هو في أشد الحاجة إليهما . فهذه الأقوال لا تصدر إلا من رجل عرف حقيقة الإسلام وأدرك كيف يؤثر بحاله في القلوب ، ويتسلط بجلاله على النفوس : وليس برناردشو أول من أدرك هذا فقد سبقه كثيرون وعلى رأسهم جوت الفيلسوف الألماني المتوفى سنة (١٨٣٢ م) وهو يعتبر من أكبر رجال الألمان علماً وعقلاً . يؤثر عنه أنه نظر في الإسلام وأعجبه فقال : إذا كان هذا هو الإسلام فنحن إذاً فيه . وقال الفيلسوف (كيزو) الفرنسي صاحب تاريخ التمدن الأوربي : إن الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريب المعقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيه الخاطئين في عشواء العمياء ، والقصدح في سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلما خاطب الخاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم إلى العقل ، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء

والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة ، ويرفع أركان
الحجة لأصول من العقائد ، كل منها ينفع العامة ، ويفيد الخاصة ، وكلما جاء بحكم
شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الأغلب . وفى القرآن من ذلك ما لا يحصى كثرة ،
وقلما يوجد من الأديان ، ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية ، وأظن غير المسلمين
يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه
على أصل الكثرة فى الواحد ، أو الوحدة فى الكثير ، وأن الواحد يكون أكثر
والكثير يكون واحداً ، مما تنبذه بداهة العقل ، فلما أنكر العقل أصله هذا أجمع
أهل الدين على أنه فوق نظر العقل ، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ،
ولا يهتدى لدليل عليه ، ولا مرشد إليه . يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل
ونبذ أحكامه ، حتى يمكن الإيمان بهذا الأصل ، مع أن العقل مشرق الإيمان ،
فن تحول عنه فقد دابر الإيمان ، وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه لكنه
يعرفه بأثره ، وبين ما يحكم العقل باستحالته ، فالأول معروف عند العقل يقر بوجوده
وأما الثانى فمطروح من نظره ، ساقط من اعتباره ، لا يتعلق به عقد من عقوده ،
فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه ، وقال الحكيم جوستاف لوبون : ما عرف
التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب فللدين أثر كبير فى تهذيب الأمم وتربية
مشاعرها ووجدانها وترفية عواطفها . فإذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة وعلمت
ما كانت عليه اعتقدت أن للشريعة السمحة فى تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر ،
إذ ما كاد يتصل بالأمّة العربية ذلك الإصلاح الروحى المدنى حتى انتشر العدل ،
وزال النفاق والرياء والظلم والعدوان ، وأطلقت العقول من قيودها التى ظلت أدهاراً
ترسف فيها ، وتبدلت حال الأمّة العربية بحال خير منها . ا هـ .

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وكان الفراغ من تأليفه صباح اليوم التاسع من ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف
من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم .

على محفوظ

طبع هذا الكتاب طبق خطة الدراسة ومنهجها لقسم لإجازة الدعوة
والإرشاد على نظام القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦

دليل كتاب هداية المرشدين

المطلب	صفحة
مقدمة الكتاب ومقدمة الطبعة الخامسة	٢ - ٤
ترجمة المؤلف ونشاطه	٧ - ١٢
الفصل الأول : التعريف بالدعوة - معناها - أنواعها - الحاجة إليها - وجوب تبليغها - حكم من لم تبليغه الدعوة .	١٣ - ٢٤
الفصل الثاني : السنن العامة في دعوة الرسل - هدى سيدنا محمد في نشر الدعوة - أصول الدعوة : الحجج البالغة .	٢٥ - ٤٨
الأساليب الحكيمة - الآداب السامية - السياسة الحكيمة - هدية في تربية أصحابه ، أثره فيها كُتبه ورسله إلى الملوك والأمم - كتابه إلى ملك الروم - حديث أبي سفيان - كتابه إلى النجاشي - كتابه إلى كسرى - كتابه إلى المقوقس - كتابه إلى ملك البحرين - كتابه إلى ملك اليمامة - كتابه إلى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق	٤٩ - ٥٨
الفصل الثالث : أشهر الدعاة من عهد الرسول وهدىهم في الدعوة . واجب العلماء	٥٩ - ٧٠
الفصل الرابع : في الوعظ والإرشاد - أثره في تهذيب النفوس .	٧١
الفصل الخامس : القصص والقصص في الصدر الأول - اختلاف السلف في مدح القصص وذمهم - القصص المذموم ، القصص المحمود . الاسرائيليات ثلاثة أنواع - أمثلة من النوع الثالث	٦٤
الفصل السادس : الوعظ في القرن السادس وتقدير الأمراء له .	٨٣
الفصل السابع : آداب الداعي - أول واجب على الداعي - العمل بعلمه - الحلم وسعة الصدر - الشجاعة في الجهر بالحق - العفة - الفناعة	٨٧ - ١٠٣

الطلب	صفحة
قوة البيان — العلم بحال من توجه إليهم الدعوة — علم التاريخ العام — علم النفس — علم تقويم البلدان — علم الأخلاق — معرفة الملل والنحل — العلم بلغات الأمم التي يراد دعوتها — علم الاجتماع . . .	٩٩ — ١٠٢
قوة الثقة بالله تعالى — التواضع ومجانبة العجب — ألا يبخل بتعليم ما يحسن الوقار والرزانة — كبر الهمة وعلو النفس — الصبر في مقام الدعوة — التقوى والأمانة	١٠٣ — ١٠٦
آدابه الكمالية — الورع — محبة الإصلاح — التخلق بالحلال الحميدة — الإخلاص لله في العمل — دوام المراقبة	١١١ — ١١٦
آداب الداعي مع السامعين — التعريض في الخطاب — التلطف في القول ذكر المدعو بالخير — فراسة الداعي في السامعين	١١٧ — ١٢١
الفصل الثامن : ما يلزم المرشد اجتنابه . الخوض في دقائق علم الكلام ، التحدث مع العوام بما لا تعقل معناه — صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها	١٢٢ — ١٣١
الفصل التاسع : السجع والأشعار في الوعظ — السجع القبيح والحسن — الأشعار والجائز منها في الوعظ وما لا يجوز .	١٣٢ — ١٤٠
الفصل العاشر : مراجع الوعظ وهي قسمان أولية وثانوية .	١٤٠
الفصل الحادي عشر : أنواعه والسير فيها على منهج القرآن الحكيم .	١٤٣
الفصل الثاني عشر : إعداد الموعظة وتحضير الموضوع قبل إلقائه .	١٤٦
أمثلة مختارة من الحكم الثرية البالغة — قصيدة أبي الفتح البستي	١٤٧ — ١٦٧
أمثلة من الملح التاريخية — أمثلة من الفكاهات الأدبية السامية	١٦٨ — ١٧٧
الفصل الثالث عشر : ضرب الأمثال في العظة — مثل الجليس الصالح والجلس السوء . إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها . إنما مثلي ومثل ما بعثنى الله به — ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً — العمل الصالح هو الصاحب	١٧٧ — ١٧٨

المطلب	صفحة
النافع — أهل الدنيا في تعلقهم بها — كيفية توزيع الجزاء على الحسنات والسيئات	
الفصل الرابع عشر : رعاية المرشد لمقتضى الحال — ما خاطب به المشركين — الرد على منكر البعث	١٨٨ — ١٩١
الفصل الخامس عشر : الطرق التي ينبغي للمرشد أن يسلكها في إرشاد الناس — الترغيب في جنس الطاعات — الترغيب في أنواع الطاعات والفضائل النفسية	١٩٢ — ٢٠٠
الترهيب ، وإنه أربعة أضرب (الأول) ذكر الآيات والأحاديث المخوفة للمذنبين — معاصي الآباء وشؤمها على الذرية	٢٠١ — ٢٠٦
(الثاني) حكايات الأنبياء والصالحين وما جرى عليهم من البلاء	٢٠٧
(الثالث) كل ما يصيب العبد من المصائب والبلاء بسبب جنائياته	٢١٠
(الرابع) ذكر ما ورد في الكتاب والسنة من العقوبات على آحاد الذنوب	٢١٥
الفصل السادس عشر : التحذير من المعاصي بالخوف من الله — ما ورد في فضله — ما يورث الخوف — خوف العلماء — خوف عموم الخلق — القرآن كله مخوف لمن تدبر .	٢١٩ — ٢٢٨
الفصل السابع عشر : بيان معنى سوء الحاتمة وأنه نوعان	٢٢٩
الفصل الثامن عشر : أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف	٢٣٤
أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالح في الخوف	٢٣٥
الفصل التاسع عشر : الحث على المسارعة إلى صالح العمل	٢٤١
الفصل العشرون : سنة الله تعالى في الهداية والإضلال	٢٤٥
نماذج في مواعظ القرآن الحكيم — الموعظة الأولى الكلمات النفسية — حكمة تعيين الجهة في الصلاة — سر التوجه إلى بيت المقدس أولاً والرجوع عنه إلى الكعبة	٢٥٣ — ٢٦٣
الموعظة الثانية : صفات المؤمنين وعلامات حسن الخلق	٢٦٣
الموعظة الثالثة : النهي عن الانهماك في طلب الدنيا	٢٦٨

صحيفة

المطلب

- ٢٧٣ الموعدة الرابعة : هداية القرآن الحكيم إلى السعادة .
- ٢٧٩ نماذج في مواعظ السنة النبوية - الموعدة الأولى الحث على الكسب
من طريقة الحلال - مضار البطالة
- ٢٨٤ الموعدة الثانية : علامات النفاق وأنه نوعان : اعتقادي وعملي .
- ٢٨٧ الموعدة الثالثة : الزواج وعادات الناس - على ولي البنت أن يحسن
اختيار الخاطب - رعاية حقوق الزوجية - وصية
أب حكيم لابنته عند زفافها - وصية أم حكيم
لابنتها كذلك
- ٢٩٥ نماذج من محاضرات علمية دينية اجتماعية خلقية .
- المحاضرة الأولى : سر مشروعية القتال في الإسلام - ما جاء في
مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم
- ٣٠٩ المحاضرة الثانية : الرق في الآسالم - حرية النفس . حرية العقل
المساواة في نظر الدين
- ٣١٦ المحاضرة الثالثة : سر تعدد الزوجات
- ٣١٩ المحاضرة الرابعة : سر تعدد زوجات المصطفى - زواجه بزينب بنت
جحش وما فيه من المصالح الاجتماعية
- ٣٢٩ المحاضرة الخامسة : الحث على الوفاء والتنفير من الاخلاف
- ٣٣٥ السادسة : إعداد النشء ليكونوا رجالا
- ٣٤١ السابعة : الاستقامة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع
- ٣٤٦ الثامنة : الانسان في الشدة والرخاء
- ٣٥١ التاسعة : الاقتصاد وأثره في الفرد والجماعة
- ٣٥٥ العاشرة : الحسد وآثاره السيئة في المجتمع
- ٣٦٢ الحادية عشرة : الغضب وسوء عاقبته
- ٣٦٩ الثانية عشرة : الانسان هو المقصود من العالم
- ٣٧٤ الثالثة عشرة : من الإنسان؟ ضرورة الشرع لسعادة البشر .
- ٣٧٩ المحاضرة الرابعة عشرة : عبرة خلقية من سيرة النبي صلوات
الله وسلامه عليه
- ٣٨٧ نماذج من أشهر مواعظ السلف الصالح

المطلب	صفحة	المطلب	صفحة
خطبة التحذير من إيذاء المسلمين ٤٦٤		وعظ العلماء للأمرء وتقديرهم	
« الدين أو أسرار التشريع ٤٦٧		له - حلم أمير وثبات امرأة . ٣٩٤	
« حقوق الأبناء على الآباء ٤٦٩		ما يجب أن يراعى في وضع	
« حقوق الآباء على الأبناء . ٤٧٢		خطب المنابر . . . ٤١٠	
« إرشاد الصائم . . . ٤٧٤		نماذج من الخطب التبرية بروح	
« سر مشروعية الصوم . ٤٧٧		عصرية في أهم الحوادث . ٤١٥	
« سر مشروعية الصلاة . ٤٧٩		خطبة في وراثة الأرض	
« وداع رمضان . . . ٤٨١		بالعمل الصالح . . . ٤١٥	
« عيد الفطر . . . ٤٨٤		خطبة في بيان الحكم الصالح ، ٤١٨	
« التحذير من العودة إلى ٤٨٥		« أثر الدين في تهذيب النفس ٤٢٢	
المعاصي بعد رمضان .		« أهملنا ديننا فسأت حالنا ٤٣٥	
« الاتحاد والتحذير من التفريق ٤٨٧		« خروج النساء إلى المقابر	
« الاتحاد وأثره في نجاح السلف ٤٨٩		في المواسم والأعياد . ٤٢٧	
« الغش في المعاملات وسوء ٤٩١		« سبب الشقاء مخالفة الدين . ٤٣٠	
عاقبته		« التحذير من الربا . . . ٤٣٢	
« مضار الزنا - مسجوعة ٤٩٣		« المحافظة على الصلوات . ٤٣٤	
« الزنا وعواقبه - مرسله ٤٩٥		« تأليف الجمعيات التعاونية ٤٣٦	
« عيد النحر . . . ٤٩٦		« مواساة البؤساء . . . ٤٣٨	
« الاقتصاد والتحذير من		« أثر الصلاة في الفرد والمجتمع ٤٤١	
الاسراف والتبذير . ٤٩٩		« الاعتبار بالموت . . . ٤٤٤	
« الدين ضروري للحياة . ٥٠١		« التحذير من تبرج المرأة . ٤٤٧	
« وجوب الاعتصام بالدين ٥٠٣		« التحذير من تقليد الأجانب ٤٥٠	
« الإنسان مآله ومصيره . ٥٠٤		« أثر الدين في السعادة . ٤٥٣	
« فضل بناء المساجد . . ٥٠٧		« تناول السكرات والخدرات ٤٥٥	
« عظات متنوعة يذكرها ٥٠٩		« خروج النساء خلف الجنائز ٤٥٧	
المرشد في المناسبات .		« ذم السكر والتبذير منه . ٤٦٠	
« شهادات الأجانب للإسلام ٥٣٣		« مضار شهادة الزور . ٤٦٢	

مراجع الكتاب

التي منها اقتبست ليرجع إليها من أراد الزيادة من العلم

- ١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعلامة أبي السعود
- ٢ — تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا .
- ٣ — إحياء علوم الدين للامام الغزالي .
- ٤ — زاد المعاد للامام ابن القيم .
- ٥ — سيرة ابن هشام .
- ٦ — الشفاء للقاضي عياض .
- ٧ — تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ محمد بك الحنوري .

كتب المؤلف

١ — هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة .

٢ — الإبداع في مضار الابتداع .

٣ — الخطابة .

وتطلب من نجل المؤلف الأستاذ محمد جمال الدين علي محفوظ بالمنزل رقم ١٠
شارع الأمير بشير بالحلمية الجديدة بالقاهرة ومن المكاتب الشهيرة .